كلمة الوزارة

عصام خليل

وزير الثقافة

تعزيز البنية المعرفية والثقافية والأخلاقية للمواطن السوري

تماما كما يخرج الموج من وجع الماء. كما ينهض العشب من لوعة الندى، يجب أن نخرج من التاريخ لكي ندخل الجغرافية!!

لا نخرج من التاريخ انقلاباً، ولا جحوداً، فالسنديان لا يمرّر أنفاسه في الهواء، وإنَّما في رئة الأرض، وشرايينها.

لكنّ فارقاً كبيراً بين حياة في الذاكرة وذاكرةٍ في الحياة!!

نحن لا ندعو إلى قطيعةٍ معرفيةٍ مع الماضي، فهذا خطأ لا يرتكبه عاقل، لكننا ندعو إلى قراءة نقدية فاحصة، تنصبّ على كلّ ما شكّل قناعات محسومةً، توارثنا تداولها بلا أي تمحيص أو تفكيك، حتى اكتسبت قشرةً من القداسة، تزداد قساوةً كلما تراكم الزمن.

* نص الكلمة الافتتاحية التي ألقاها السيد الوزير في المنتدى الحواري الذي أقيم في مكتبة الأسد الوطنية في دمشق يوم (١١و١٢ تشرين الثاني ٢٠١٥م).

إنّ أقدس المقدسات هي حياة الإنسان. منذ بدأ الوعيُ البشري مترافقاً بأسئلة الوجود، وقلق المصير، كانت حياة الإنسان وجوداً وخلوداً هدف السعي الفكري الباحث عن إجابات حول الكينونة، والسيرورة، والصيرورة.

ولأن الحياة مقدّسة فلا يجب أن تكون وقتاً من ندم!! وهي - لا شك- ستكون كذلك إن كانت مجرد زمنٍ يهدره من لا يجيد إغناء الحياة، وصناعة المستقبل.

فهل أسسنا ثرواتنا البشرية، على توجهات ومفاهيم تخدم مبدأ قدسية حياة الإنسان،وتعمل على الاستفادة القصوى من طاقاته؟؟

إنّ المحنة السورية التي نعيشها، لا تساعد على القناعة بنجاعة الأساليب والوسائل، وإن اتفقنا على صحة الأهداف ونبلها.

متى كانت الهوية مسألةً ملتبسةً في أذهان السوريين، حتى تمكن الخطاب التحريضي البغيض، من استدراج الغرائز، وصولاً إلى إقدام سوريين، على طلب التدخل العسكري الأجنبي ضد بلادهم وشعبهم؟

متى كان الموقف من السلطة السياسية دافعاً للاصطفاف ضد الوطن، وللعمل على تمزيقه، بذريعة مناهضة السلطة؟

متى كان المثقفون دعاةً علنيين لموقفٍ انتهازيٍّ، يلقي جانباً كلّ ما كانوا ينظّرون به على غيرهم من مبادئ وقيم، من أجل حفنة مالٍ مقبوضٍ من شرايين شركائهم في الولادة، والحياة، والمصير؟

هذه الأسئلة على . فجائعيتها . لا تحتمل أكثر من جواب صادمٍ حاسم: حدث ذلك لأننا لم نؤسس بنية الإنسان المعرفية والثقافية والأخلاقية، على نحو يمكنه من الاستجابة لتحديات الحياة، ويساعده على فهم أعمق لإيقاعاتها المتبدلة، وعلى التفاعل الإيجابي مع مستجدات العصر، بلا تعصّب يقود إلى الجمود والانغلاق، ولا انفتاحٍ ساذج يدفع إلى الذوبان والتلاشي!!

لا ترث الأجيال مفاهيم الحياة، وإنّما تتعلمها . ولم نكن معلمين صادقين مع تاريخنا، وناجحين مع مستقبلنا، فيما حاولنا تعليمه لأبنائنا . هكذا يقول الحاضر محذّراً من خسارة المستقبل!!

هل يقرأ طلابنا مناهجهم ليتعلّموا أم لينجحوا!؟

هـل تمثّل شهاداتنـا تعبيراً مرموقاً عن مستوى علمـي متميّز، أكثر مما تمثّل قناعةً بالحق المكتسب، في الحصول على فرصة العمل!؟

التزامنـا بالقانـون مؤسـس علـى الخـوف، أكثر مما هـو ناجم عـن الاحترام والقناعة، والقانون. في أعلى مراحل الالتزام به. يتحوّل إلى أخلاق، لكنه يحتاج إلى البيئـة التي تعزز ردعه الذاتـي، وإلا كيف نفسّر التزام السوري. خارج بلاده. بكل قوانين البلاد التي يعيش فيها، وسعيه لتجاوز القانون في سورية؟

خطابنـا. بكل مكوّناتـه السياسيـة، والتعليميـة، والثقافيـة. يعتمـد التلقـين ولا يفكّـر. مجـرّد تفكير. في أنه قـد لا يكون مستساغـاً أو متفقاً عليه!!ولذلك فهو يفتقر إلى المصداقية والجاذبية اللتين تحرّضان العقل على الاستجابة له، والتجاوب معه.

كلّنا مسؤولون عمّا فيه وعليه حالنا، وكلّنا مدعوون لابتكار ما يساعدنا علـى الخـروج من هـذه المحنة، وعلـى التأسيـس لمرحلةٍ يكـون فيها الفرد رافداً للمجتمع، لا عبئاً عليه.

لقد كان. وسيبقى. الاستثمار في الإنسان، أعلى وأرقى أشكال الاستثمار، ومؤسساتنا وأدواتنا بالغة التأثير، عندما نستثمرها على النحو الذي يكفل تحقيق أعلى ريعية وطنية ممكنة.

إنّ الإرهاب هو اللغة المسلّحة لأزمتنا الثقافية والأخلاقية، ونحن ندرك أن مواجهتنـا في هـذه الحـرب الكونية الظالمـة على سورية، هـي مواجهة ثقافيـة، ضـد عقـل ظلامـيّ إلغائـي، يستهـدف الإنسـان وجـوداً، وهويةً، وحاضراً، ومستقبلاً.

ولأنّ وقت السوريين من موتٍ وغربة، يجب أن تحتشد العقول، وتتفاعل الأفـكار، بحثـاً عن سماواتٍ تتسع لطموحـات الياسمين، وبمقدار ما نفهم حاضرنا وحاجاته، بمقدار ما نتحكم بمستقبلنا ونستجيب لمقتضياته!

وإذا كان هـذا المنتـدى يسعـى لرصد إشـارات أولية للطريـق إلى المستقبل، فقد يكون من الملائم أن يضع في الاعتبار أنّ أجيالاً ثلاثةً ستكون تحت مجهر البحث.

فهنــاك جيل متقدّم في التجربــة، مستقرٌ القناعات، وليس بوسعنا إعادة إنشائه من جديد، ولربما ينبغي علينا أن نتجنّب تأثيره السلبي ما أمكن.

وهنــاك جيــل ما نزال نمتلــك القــدرة في التأثير عليه نسبيــاً، وفي تصويب بعض مفاهيمــه، ولا ينبغــي أن يحبطنا تعدد المحــاولات، وصعوباتها، لأن في هذا الجيل طاقات خلاّقة لا يجوز إهدارها، مهما كان تصويب مسارها شاقّاً.

وهناك جيلٌ هو الأمل، والأمل لا يتحقق بمجرد الرغبة.

هــذا الجيل ينبغي أن ينشأ متحــرراً من كوابح العقل، يرافق الضوء في مسارب الكشف عن يقينه، ويعبر الزمن بوعيه لا بسنينه.

جيل الأطفال جيل الصباح، بمقدار ما تتراكم عليه الشموس، بمقدار ما تتسع السماء. فليكن جهدنا خالصاً لوجه الطفولة، حتى يكون المستقبل خالصاً لنا، فلا معنى لإعادة إعمار الحجر قبل إعادة بناء البشر!

وإن كنّا نتوجه بحزم وتصميم إلى إعادة إعمار سورية، ينبغي أن نؤسس هــذا التوجــه على قاعــدة صلبةٍ، هي إعــداد المرأة، فهي التــي تهب الحياة لأجيالنا، ومن أجدر من الحياة بحماية أبنائها؟

نحــن أمــةٌ لا تفتقر إلى القامــات الشامخة، وإنّمــا إلى الإيمان بقدرتنا على ابتكار هذه القامات.

أمةُ الوليد، والرشيد، وزهير بن أبي سلمى، والمتنبي، وأبي تمام، وابن حيّان، هي ذاتهــا أمة حافظ الأسد، وبشار الأسد، وحسن نصرالله، وفارس الخوري، ويوسف العظمــة، ومــاري عجمي ،وبدوي الجبل، ونزار قباني، ونــازك العابد، وعمر أبي ريشة، ومحمد سعيد رمضان البوطي، ومحمد الماغوط، وغيرهم، وغيرهم..

أمّــةٌ تنبــع من أحشائهــا كل هذه الجبال، جديرة بــأن ترافق البحار إلى تخوم المدى، وأن يتكئ الفجر على أكتافها واعداً بالصباح.

كلمة العدد

د. علي القيّم
رئيس التحرير

الرّها، مدينة المياه المتدفّقة

تعدّ مدينة الرّها (أورفا) القديمة، من أمهات مدن شمال سورية، وهي مكان مولد الأدب السرياني، ومركز انطلاق الحركة التجارية والعلميّة والأدبية على مدى قرون عديدة، وقد عرفت بماضيها التليد ورجالاتها العظام، أمثال: مار أفرام، ومار يعقوب، ومار رابولا، وقد ذكر العلماء أن اسمها مشتق من شكل مشوّه لكلمة يونانية وتعني «المدينة» ذات المياه المتدفّقة الجميلة، أو هي مشتقة من جذر سامي **urh** (ماء)، وفي العربية «وريحة» أي ذات المياه الطيّبة أو المرويّة جيداً، وعلينا أن نأخذ هذه النظريات بعين الحيطة والحذر، لأنها تفترض أن المدينة اكتسبت اسمها بعد العصر السلوقي فقط، وهناك إشارات كثيرة إليها منذ العصر الكلداني.

إنَّ تقاطع تياري الحضارتين الشرقية والغربية في الرّها، أوجدا جواً نشطاً وحيوياً في هذه المدينة الراقية، فقد كان بلاطها الملكي في فترة زمنية طويلة ملتقى المفكرين والأدباء والفلاسفة والعلماء والحرفيين والفنانين، وكان للرهاويين ميل حيوي للموسيقى في الأزمان القديمة والمتأخرة، لذلك ليس غريباً أن يكون «أورفيوس» وقيثارته السحرية، من المواضيع المحببة والرئيسة للوحات فسيفسائية كثيرة اكتشفت في الرها ومنطقتها.. وعلينا عند الحديث عن هذه المدينة ألا نتردد في أن نعزو إليها نشاطات أدبيّة مليئة بالحيوية والتجدد وفي أدب «برديصان» أفضل الأمثلة، فهو الذي يقول: «إذا رغبت في العلم، فمن المفيد أن تأخذ العلم من الكبار، ولكن إذا رغبت في أن تعلِّم، فليس من الضروري أن تسأل الناس شيئاً بل أغرهم كي يسألوك هم ما تريد.. إنه لشيء حسن أن تعرف كيف تسأل الأسئلة».

وهو القائل: «إنَّه لمن الأسهل أن تفعل خيراً، من أن تمتنع عن الشر، لأن الخير هو جزء من الإنسان، ولذلك يبتهج عند فعله، ولكن الشر هو نشاط للعدو، ويفعل الإنسان هذه الأشياء القبيحة عندما يكون مضطرباً ومريضاً في طبيعته..».

لقد أوجد «برديصان» تراتيم رائعة، وأرفقها بالموسيقى، وبقيت جواهر نادرة حتى يومنا هذا، وقد وجد فيها علماء الموسيقى ذلك الخليط السحري الذي يشفي العليل، ويقدم غذاء الروح..

وتظهر المرأة في لوحات الفسيفساء والنقوش البارزة على الحجر في الأضرحة الكهفيّة في المكتشفات الأثرية التي اكتشفت في الرّها، في أوضاع مهندمة ومحترمة، وفي صورة العائلة نجد الابنة تقف مع أشقائها إلى يمين والدها، مما يدل على علو مكانتها في السلّم الاجتماعي.. وتبرز في الرّها شخصية القديس أفرام، الذي يعد أشهر الآباء والأدباء في القرن

الرابع الميلادي، فقد ألّف ألف ترنيمة «فيما يخص الفردوس» و «ضد الهرطقات» وقد عاش مار أفرام سنواته العشر الأخيرة في الرها، وبموجب الأسطورة عمل خادماً في حمام عند أول مجيئه إليها، غير كان واعظاً نشيطاً، ومرشداً ناصحاً للقادة.. يقول أحد كتّاب سيرة حياته: أنه كانت ثقة إخوانه الرهاويين به عظيمة، حتى إنَّهم طلبوا إليه أن يُشرف على أعمال إغاثة الفقراء، أثناء المجاعة التي حصلت أواخر أيام حياته، وقبل أن يوافيه الأجل في سنة (٣٧٣م) طلب أن يدفن بين قبور الفقراء المعدمين، ولكن بعد فترة من الزمن نقلت رفاته إلى مكان دفن أساقفة الرها، وظّل هذا الرجل القديس يبجّل تحت اسم «خضر الياس» في أورفا حتى الفترة الأخيرة من المسلمين أيضاً..

كان مار أفرام يتجنّب الحياة الاجتماعية في المدينة، ويقال إنه عاش في أحد الكهوف، التي لا حصر لها في التلال خارج مدينة الرها، وربما كان هذا السبب الذي أكسبه الشهرة كناسك، ولا ريب في أنه كان يعطف على حياة التقشّف والرهبنة، وفي رسالته للنسّاك الذين كانوا يملؤون التلال المجاورة، يحثّهم على حياة العزلة والإيمان والصلاة، كما فعل يسوع (عليه السلام) في البّرية من دون خوف من الحيوانات المفترسة أو الجوع، وعليهم ألا «يتلطخوا بوحل الخطيئة في المدينة لأنهم ألقوا عن كواهلهم، نير العالم، وطغيان الممتلكات» و «ألا يرهبوا صوت أولئك الذين بيدهم السلطة، كما يفعل مالكو العقارات والثروات» ولكن مار أفرام كان رجل فعل أيضاً، ولديه اعتبار عظيم لعلم الآخرين حتى لو كانوا أعداءه، وكان كاتباً غزير الإنتاج بصورة غير عادية.. لقد تدفق بسيل من المواعظ الشعرية الموزونة والترانيم والتعليقات والخطب التفسيرية، التي كانت تترجم بسرعة إلى اليونانية والأرمنية والقبطية والعربية والحبشيّة واللاتينيّة، وامتد أثرها

ليس في جميع أنحاء بلاد ما بين النهرين وسورية فقط، بل في جميع العالم المسيحي، وكان مار أفرام مطّلعاً على أعمال الفلاسفة الإغريق، وكان بلا شك سيّد الأسلوب السرياني..

يقول في مدح الرها: «أيتها الرها المليئة بالعفة والحكمة والذكاء المُسربلة بالفطنة والحكم السليم، المحلاّة بنطاق الإيمان، والمُسلّحة بخوذة الحق الذي لا يتبدّل».

❀ ❀ ❀

عند الحديث عن الفكر والأدب في مدينة الرها، لا بد من الإشارة إلى «رابولا» الشهير الذي ولد في مدينة قنسرين قرب حلب، ترك ممتلكاته، ليصبح ناسكاً معتزلاً، واجتاز فترة من التقشف ثم عين مطراناً للرها نحو (٤١١م). كان بسيطاً في لباسه وطعامه وآنية مائدته.. ولم يبنِ «رابولا» كنائس جديدة كأسلافه، بل بنى عوضاً عنها ملاجئ للعجزة والمرضى المحتاجين رجالاً ونساءً، وقد تصرّف تجاه الهراطقة والمنشقين بحيوية مميزة، وكان كاتباً، ولكن لم يبق إلا القليل من كتاباته الأدبية..

كانت الرها، وفق ما أورده «ج.ب.سيغال» في كتابه «الرّها، المدينة المباركة» موطن السريانية الكلاسيكية، ومن المعتقد أن سكانها كانوا يتكلمونها ويكتبونها في أحسن وأكمل حالاتها، حول ذلك يقول «ديونيسيوس التلمحري» إن جذر أو أساس اللغة السريانية، أي الآرامية، هي الرّها. ويقول يعقوب الرّهاوي في هذا الموضوع: «لقد توافد الطلاب على الرّها ليتعلموا الخط وعلم النسخ الصحيح. ومنذ تاريخ قديم، شغلت عملية الترجمة إلى اللغة السريانية طليعة علماء الرها، وكانت مدارس الرّها المسؤولة عن ترجمة أعمال «ديودورس الطرسوسي» و «بولس السميساطي» و «سويرس الأنطاكي».. كما تمّت في الرّها عمليات الترجمة العكسيّة، من

السريانية إلى اللغات الأخرى، وقد تكون قصة أهل الكهف الشهيرة، أول أعمال الترجمة من السريانية إلى اليونانية، وأعمال «مار أفرام» التي ترجمت في الرّها إلى عدة لغات بعد وفاته بوقت قصير..

شاعر سرياني، أمضى سنوات حياته الباكرة، وتتلمذ على يدي أحد تلامذة «مار أفرام» في الرّها، يدعى «إسحق الأنطاكي» وبعد ذلك ذهب إلى أنطاكية وتوفي فيها عام (٤٦٠م).. كانت كتاباته غزيرة، يقرّع في كثير منها النسّاك المنافقين، الذين يطيلون شعورهم خلافاً لنظام تعليمهم، ويتجولون في المدن ليجمعوا الصدقات.. ويتشوقون لراحة بطونهم، وينتقلون من دير إلى دير ينشدون دوماً ولائم جديدة، كالغرباء..

وهناك قطعة من الشعر لإسحق الأنطاكي، عنوانها «من قوة الشيطان في إغواء الإنسان» وقد كتبها في الرها، ويوردها «سيغال» في كتابه «الرها المدينة المباركة» وفيها يزجر النساء المؤمنات بالخزعبلات في المدينة فيقول: «إيمانهن ليس عظيماً، وأخطائهن جسيمة.. إنهن يلتجئن إلى النساك ليمسحوهن بالزيت، ليس لأن النساك رجال أتقياء، ولكنهن يقلن: إنهم سيشفوننا أكان بالسحر أو بالعزائم، ومع أن الناسك أحمق متعجرف تهرع إليه نساء حمقاوات، يركضن إلى بابه متنكرات، عديمات الحب، ويقلن في أنفسهن: مهما يكن فإنه يستنبط شيئاً.. سيطرد الشياطين من أبنائنا».

أمّا يعقوب السروجي، فقد كان الأقرب إلى الرها، ولد عام (٤٥١م) في سروج التي تبعد أربعين كيلو متراً جنوب غربي الرها، عاش حياته في بلدته، وكان يُدرّس في الرها، وترك مجموعة من رسائله، التي تعد ذات فائدة كبيرة، وقصائد كثيرة، أكسبته لقب «مزمار الروح القدس، وقيثارة الكنيسة المؤمنة».. ويحكى أنه في عام (٥٢١م) استدعاه المطران بولس في

الرها، ولبى النداء.. ووصل إلى دير الفرس، الذي يبعد ستة أميال عن الرها، فرأى هناك رؤية، أوحت إليه أنه سيموت خلال يومين، فرجع إلى بلدته ورتب أمور كنيسته، وتوفي في الوقت الذي أنبأه فيه حلمه..

وهناك رسالة كتبها يعقوب السروجي، موجهة إلى رهبان «مار باسوس» قرب آفاميا يقول فيها: «المودة كالذهب، ولكن الإيمان كاللؤلؤة، فمن أين أتيت أيتها اللؤلؤة؟.. إنك تفوقين أسرار الضياء، ومسربلة بالجمال والبهاء.. التجار يشتهونك ولا يشبعون أبداً من النظر إليك..»

وتجيب اللؤلؤة: «أنا ابنة النور، وبداخلي تتشكل صورته.. تركت العُلا، ونزلت إلى أعماق الهاوية ولمستها.. أنا نداوة القبة الزرقاء، ولدت في الرحم العظيم.. ركض البرق أمامي، والرعد زميلي، وحفرتني السحب في مسالكها، وحملتني الرياح وأتت بي، وأنا مكسوة بضباب النور، نزلت من بيت أبي، وتشوّق البحر للقياي، واستقبلني.. رحم الظلمة حملني ولكن لآلائي لا ينطمس».

وينذر يعقوب السروجي بأن حب الذهب وحده سيمكّن الشيطان من إرجاع حكم عبادة الأصنام..

❁ ❁ ❁

كان قادة الرها، كما تشير الدراسات التي كتبت عنها، من المواطنين والوجهاء الملّاكين، ومنهم ينتخب أعضاء لمجلس المدينة، ولكن المهنة التي كانت الثروة تستمد منها أكثر ما يكون من السرعة هي التجارة، وكانت السلطات الرومانية حريصة على السيطرة وتشجيع سير القوافل بين بلاد فارس والإمبراطورية التي كانت في زمنها المتأخر تجبي ضريبة جمارك بنسبة (١٢,٥٪) على الواردات والصادرات، وكان هناك في زمن «ديوقليسيان» طريق تجارة رئيسي إلى فارس يمرّ عبر نصيبين على حدود الأراضي الرومانية.. أما نقطة الجمارك البيزنطية فقد كانت في «كالينيكوس»

(الرقة) في بداية القرن الخامس الميلادي، وكان موقع الرها على الطريق الرئيسي إلى نصيبين، مصدر فائدة لا يستهان به لمواطنيها..

إنَّ السلعة الرئيسة في التجارة كانت الحرير، وكان يصل إلى أسعار عالية فاحشة في روما.. صحيح أن بعض الرومان كانوا يعتبرون استعماله عملاً مُخنّثاً، بحيث أن الإمبراطور «أورليان» لم يلبس الحرير، ولم يسمح لزوجته بلبسه أيضاً.. ومهما يكن، فعندما غدت القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الشرقية، كان الطلب على الحرير نهماً ولا يقف عند حد، ويبدو أن تجار هذه الفترة كانوا يتمتعون بسلوك غير شريف، فكتب أحد أدباء الرها عن أخوين كانا تاجرين رحالين، يحملان تجارتهما ما بين القسطنطينية وبلاد فارس، ثم يعلّق بمغزى قائلاً: «إنهما امتنعا عن الممارسات الشريرة التي يميل إلى اتباعها تجار العالم، من المساومة وحلفان اليمين بجميع أشكالها والكذب والابتزاز».

لقد اهتم سكان الرها بالطب والشفاء، وكانت حالة ومنزلة الأطباء فيها راقية، وبموجب القانون كان الأطباء كالمعلمين في المدن والقرى، معفيين من دفع رسوم المهنة، وينص القانون على أن «الأطباء يشفون الأجساد، والمعلمين الأرواح» ونقرأ في كتابات «بروكوبيوس» الرهاوي عن طبيب يدعى «اسطيفان» من أهالي الرها، فيقول: «هو طبيب ذو علم فريد، بين معاصريه على الأقل، أشفى ملك الفرس كاواد، عندما مرض وأصبح يملك ثروة عظيمة بوساطته، وكان اسطيفان قد أرسله البيزنطيون ليقنع خسرو بالانسحاب من محاصرة الرها في سنة (٥٤٤م) وادعى الطبيب أنه ربّى خسرو منذ طفولته، وأنه نصح والده أن يعينه خليفته على العرش».

وكان لأصحاب الحرف والصناعات التقليدية في الرها هيئة اجتماعية معترف بها، وجمعيات نقابية، والإشراف عليها كان صارماً، وصنع الخبز كان عادة من

مهام النساء، وللزراعة دورها في مجتمع الرها، فهي مصدر الرزق، ويصف مؤرخ السهل الواقع أمام سفوح تلال الرها إلى الجنوب والشرق بأنه:«أرض خصبة، وكان يروي رياً حسناً فينتج محاصيل وفيرة من الحبوب والخضار والفواكه، وكان يتضمن مزارع وقرى عديدة» وكان القروي إما مزارعاً مستقلاً، أو عاملاً زراعياً (فلاحاً) وكثيراً ما كانت معيشة المزارعين متزعزعة وغير مستقرة..

كانت البيوت تبنى في الرها حول فناء مركزي، والطابق العلوي يوصل إليه بوساطة درج خارجي، وكانت الأسطحة منبسطة، والبيوت قريبة من بعضها، حتى كان بالإمكان القفز من سطح إلى آخر، كما فعل القائد البيزنطي عندما فرّ من جنوده الثائرين في سنة (٥٠٥م)..

أمَّا العمارات الأكثر أهميّة ومتانة فقد كانت من القرميد أو الحجر المجصص بالجير، وأكواخ الفقراء كانت تصنع من الصلصال، ويبدو أن استعمال الخشب في البناء كان باهظاً، ومع ذلك فقد عاش أثرياء الرها في حالات من البذخ، وكان للمؤرخين السريان صبر قليل عليهم، فلم يكثروا من انتقادهم، ولكنهم ذكروا أن الفقراء في الرها عاشوا على شفا الجوع بصورة دائمة تقريباً.. ففي عام (٤٩٩م) التهم الجراد جميع المحاصيل، وحلّت المجاعة في السنة التالية، وتدفق أهل الأرياف إلى المدينة، وهجر العاجزون والمرضى والنساء والأطفال القرى يحاولون الحصول على لقمة العيش بالتسوّل في شوارع الرها، يقول أحد كتّاب الرها في وصف حالهم: «أولئك الذين تركوا في القرى كان بعضهم يأكل الكرسنّة وآخرون يفلون حبّات العنب الساقطة الذاوية.. والذين في المدينة كانوا يتجولون في الشوارع يلتقطون أوراق وسيقان الخضراوات القذرة بالوحل ويأكلونها، وينامون في الأروقة والشوارع، وينوحون أثناء الليل والنهار من غصّات الجوع.. كانت المدينة بأكملها تعجّ بهم، وبعدئذ راحوا يموتون في الأروقة والطرقات».. لعن الله الفقر ومسبباته، ونتائجه..

الترانيم والحكايات الشعبية في أدب الأطفال

ترجمة وإعداد: د. ملكة أبيض ❀



الترانيم والحكايات الشعبية جزء من الفولكلور. فبدءاً من الطفولة المبكرة يستمتع الأطفال بالترانيم، ومع النمو يبدؤون بفهم الحكايات الشعبية مثل حكايات الحيوان، والجن، والحمقى، والأبطال، والخرافات، والحكايات الطويلة...

وهذه الخلفية الأدبية تشكّل أفكارهم حول كيفية عمل القصص.

أولاً: الترانيم Nursery Rhymes

تشكل ترانيم «الأم الإوزة» وغيرها أساس التراث الأدبي لدى العديد من الأطفال.

❀ أديبة وناقدة وأستاذة التربية في جامعات عربية.

العمل الفني: الفنان علي الكفري

ومما يثير العجب أن الإيقاع والقافية في الترانيم، وبنيتها المكثفة، إضافة إلى أشخاصها الشديدي الجاذبية.. كل ذلك يشكل نماذج سخيَّة للأطفال الصغار الذين يتعلمون اللغة. فمن خلالها يحصل الأطفال على معلومات حول الأشخاص، والثيمات، والبنى، وتلك العناصر تصبح أساساً لتربيتهم الأدبية اللاحقة.

وفي الوقت الذي يترنم الأطفال بالعبارات، ويقلّدون الكلمات غير ذات المعنى، ويرددون إلى ما لا نهاية القوافي المتجانسة المكررة، يطوِّر الأطفال أيضاً وعياً لفظياً - أي قدرة على تقطيع الأصوات في الكلمات المنطوقة، وهو ما يعدّ متطلباً أساسياً لتعلم الأصوات، ويشكل قاعدة للمهارة في القراءة. فالتعرض للترانيم يحسِّن مهارات الأطفال الصوتية وبالتالي قدراتهم في القراءة. وما هو أكثر أهمية أن الأطفال يستمتعون بألعاب الكلام.

إنَّ الترانيم لا تعرف حدوداً إقليمية، أو عرقية، أو ثقافية، أو لغوية. والناس من مختلف أرجاء العالم دندنوا أبياتاً متشابهة لأطفالهم. وسحر «الأم الإوزة Mother Goose» ما زال ينتقل من جيل إلى آخر شفوياً، على الرغم من أن عدَّة مجموعات من الترانيم أصبحت متوافرة في الأسواق.

خصائصها: الكلمات الإيقاعية للترانيم تقوّي حسّ الطفل اللغوي، وإيقاع اللغة: الضربة، والنبرة، والصوت، واللحن، يعكس الأصل الشفوي ويسحر أذن السامع.

والخاصة الثانية للترانيم هي الاستخدام المتخيل للكلمات والأفكار؛ والثالثة، هي البنية المكثفة التي تنشئ المشهد بسرعة، وتكشف على الفور عن الحبكة. وهكذا فإن توكيد الفعل، والاقتصاد في الكلمات ينتجان عن الترنيمة التي تنشد بصوت مرتفع على شفاه عدَّة أجيال قبل أن تصل إلى الطباعة. وخلال انتقال الأشعار من منشد إلى آخر يجري شحذها وصقلها إلى أن تبلغ بساطتها الأخيرة.

كما أن فطنة أشخاص الأم الإوزة وغرابتهم تفسران شعبية هذه الترانيم واستمرارها. فالأطفال يثمِّنون اللامعنى المضحك في ترنيمة كهذه:

Peter, Peter, Pumpkin eater
Had a wife and couldn't keep her,
He put her in a pumpkin shell,
And there he kept her very well.

بيتر، بيتر، آكل اليقطين،
عنده زوجة، لم يستطع الحفاظ عليها،
وضعها في قشرة يقطينة،
وهناك حافظ عليها جيداً.

ليس للترنيمة معنى حقيقي بالطبع، ولكنها تمتع الطفل، وتحقق ما ذكرنا من أهداف لغوية وأدبية وفنية.

ثانياً: الحكايات الشعبية Folktales

استمتع الصغار والكبار بالحكايات الشعبية على مدى أجيال لا تحصى. هذه الحكايات التي تضم حكايات الحيوان الناطق، والحكايات الضاحكة، وحكايات الجن، والحكايات الطويلة، هي سرديات ينتصر فيها الأبطال (والبطلات) على الشدائد بفضل خصال حميدة كالذكاء، أو الشجاعة، أو مساوئ محببة كالسذاجة المطلقة. وثيماتها، الواضحة على الرغم من أنها لا تذكر دائماً بصراحة، تعبِّر عن قيم الناس الذين أوجدوها. وقد رَوَت المؤلفتان «أليس ماكجيل وفيرجينيا هاملتون Alice McGill & Virginia Hamilton» الحكاية الأمريكية الأفريقية التي يطير فيها العبيد نحو الحرية، بلغة تأسر روح شعب يتوق للحرية. وهذه الحكاية مدرجة في مجموعتهما القصصية بعنوان «استطاع الشعب الطيران: حكايات شعبية أمريكية أفريقية» وتصوير «ليوو ديان ديلون Leo & Diane Dillon». وهذه المجموعة تمثِّل تعبيراً قوياً عن التعزّي بالحرية المتخيلة.

خصائصها: للحكايات الشعبية شكل فني لكنه بسيط مشتق من التقليد الشفوي. والحبكة فيها واضحة مباشرة. والبداية المختصرة تنشئ الأشخاص، والإطار، والمشكلة. ويقوم النص بعرض المشكلة، ثم يتحرك نحو الذروة، وتأتي النهاية لتحل المشكلة دونما تعقيد. فالحكايات الشعبية، في الواقع، تمثيليات مصغرة.

إنَّ حبكة الحكاية الشعبية تنفرج دونما غموض: فالأشخاص الطيبون، طيبون بشكل مطلق، والسيئون سيئون إلى أبعد الحدود، والعدالة تسود من دون تسوية أو حلول وسطى. والمشكلة أو الخلاف يجري تحديده باكراً، ولا يبقى في النقل الشفوي إلا الأحداث التي تبنى عليها المشكلة، أو التي تضيف إليها بعض التعقيد. إن حل المشكلات يتم بصورة نهائية ومختصرة ويقود إلى النهايات الكلاسيكية السعيدة.

ولما كانت الحكايات الشعبية تهتم بالحدث، أكثر مما تعنى بالشخصية، فإن الأشخاص يوصفون باقتصاد، بتجسيد ملمح بارز واحد في العادة. وهؤلاء الأشخاص أحاديو الأبعاد، يتبلورون في أشكال: الأحمق، أو الحكيم، أو الشرير، أو الخيِّر. ويتصرفون جميعاً بطرق يمكن التنبؤ بها، ونادراً ما يتغيرون خلال مجرى الحكاية.

واللغة في الحكاية عامية، مباشرة، حية تعكس الإرث الشفوي للحكاية. وهي خفيفة على اللسان نظراً لكونها شُحذت وصُقلت خلال قرون.

وعلى الرغم من أن الحكايات الشعبية تستخدم لغة دقيقة، فإن الإطار اللغوي يبقى غائماً، والقصص تحدث في أزمان غير محددة، وفي أماكن تذكر مع أقل قدر من التفاصيل، وبذلك تتيح للفنانين أن يتركوا مخيلتهم تحلّق كما تشاء. فالحكايات الشعبية لا تعرف حدوداً جغرافية أو زمنية. إنها تأتي إلى الحياة أينما كان، ولكل جيل جديد من الأطفال.

وفيما يلي تلخيص لخصائص الحكايات الشعبية:

- الأشخاص يمثّلون ملامح مثل الذكاء، أو الشجاعة، أو السذاجة المفرطة.
- الأشخاص يوصفون باقتصاد.
- خطوط الحبكة مباشرة، ولا تظهر فيها قضايا جانبية (وهذا يختلف بحسب الثقافات).
- يشوب الحكايات القليل من الغموض.
- يتم تحديد الخلاف فيها باكراً.
- الحل فيها نهائي وقاطع.
- الثيمات تعبّر عن قيم الجماعة التي أوجدتها.
- اللغة عامية، مباشرة، ملتصقة بالحياة.
- الإطار المكاني والزماني غائم، وهو يختلف عما تمثله الرسوم في الكتب.

أنواعها:

١- حكايات الحيوانات الناطقة، والمحتالين:

في هذا النوع من الحكايات تتحدث الحيوانات مع الكائنات البشرية أو مع بعضها بعضاً. والحيوانات الناطقة، شأنها شأن الأشخاص من البشر، قد تكون طيبة أو شريرة، حكيمة أو سخيفة. أما الطيبة والحكيمة منها فهي تلقى المكافأة.

إنَّ الأطفال الصغار، بشكل خاص، يحبّون حكايات الحيوانات الناطقة. وهي تأتي من كل مكان. فجيسيكا سهامي «Jessica Suhami» تعيد سرد حكاية تقليدية من الهند بعنوان: «لا عشاء! قصة العجوز واليقطينة! No Dinner! The story of the old woman and the Pumpkin» فالمرأة العجوز استطاعت، بمساعدة حفيدتها التفوق على دبٍ، وذئبٍ، ونمرٍ كانوا يريدون افتراسها عشاءً لهم. كما أن «ليزبيت زويرجر «Lizbeth Zwerger» وضعت رسوماً لحكاية الأخوين غريم الكلاسيكية «موسيقيو مدينة بريمن The Bremen town musicians» التي ترجمتها «أنتيا بيل Anthea Bell إلى الإنجليزية، وفيها يتفوق كلب، وقطة، وديك، وحمار على لصوص، ويعثرون على بيت يأويهم...

إنَّ الأطفال يثمّنون الحالات الفكاهية واللغة الإيقاعية في الكثير من حكايات الحيوان الشعبية، وهي شائعة في قصص من ثقافات عديدة. لقد كتب «جوليوس ليستر Julius Lester» (٢٠٠٤): إنَّ الخاصة الأساسية في حكايات الاحتيال هو غياب النزعة الأخلاقية. ويقول «العم ريموس Uncle Remus» «إنَّ المخلوقات لا تعرف ما هو خير وما هو شر. وهي لا تميز بين الصواب والخطأ. إنها ترى ما تريد، وتحصل عليه إذا استطاعت ذلك بالسنارة أو الخطّاف» وربما كان المحتالون وقصصهم يملكون جاذبية لدى الأطفال لهذا السبب وحده: وهو أن المحتالين سيعملون أي شيء للحصول على ما يريدون.

٢- حكايات الحمقى Noodle head Tales:

تركز قصص الحمقى الهزلية على الأشخاص السذَّج الذين ينقصهم الحكم السليم. وفي مجموعة «قصص الحمقى من أرجاء العالم Noodle head stories from around the world» لِـ«موريتز أ. جيكندورف Moritz A. Jagendorf»، يصف المؤلف الأحمق بأنه إنسان مضطرب لا يستخدم الحس السليم، ولا يتعلم من الخبرة. مثال ذلك حكاية «نقانق Sausages» لِـ«جيسيكا سوهامي Jessica Suhami». وهي حكاية مسلية، تعيد فيها الكاتبة سرد الحكاية الكلاسيكية المعروفة حول «الرغبات الثلاث». وخلاصتها أن صياداً اصطاد سمكة، وحين مضى بها إلى البيت انقلبت إلى جنية، ووعدته - على الفور هو وزوجته - بتحقيق ثلاث رغبات لهما إن أعاداها إلى البحر. وسرعان ما أبدى الصياد رغبته في كمية من النقانق، فحضرت النقانق. ولكن الزوجة غضبت وصرخت في وجه زوجها؛ ليتها تلصق بأنفك، وسرعان ما التصق حبل النقانق بأنف الزوج. عند ذلك تدخلت الجنية قائلة: بقي لكما أمنية ثالثة فأحسنا اختيارها. وبناء على رجاء الصياد، وافقت الزوجة على أن تكون رغبتهما الأخيرة، انتزاع حبل النقانق من أنف الصياد. هذا ولكل جماعة ثقافية حكاياتها الخاصة عن الحمقى.

٣- حكايات الجن Fairy Tales:

تتضمن حكايات الجن سحراً، وعلى الرغم من أن بنية حكايات الجن لا تختلف عن غيرها من الحكايات الشعبية، فإن طابعها السحري العميق يضعها في فئة خاصة. فالأقزام، والجنيات العرّابات، والكائنات السحرية الأخرى تتدخل في حصول الأشياء. وإذا وضعنا السحر جانباً، فإن تلك الحكايات ترسم رؤية مثالية للحياة مبنية

على الأمل بأن يتم الاعتراف بالفضيلة، وأن تجري مكافأة الجهد والعمل القاسي، في حين يعاقب الشر والطمع؛ ذلك أن حكايات الجن ترينا أن الشجاعة، والأمانة، والبراعة تحظى بالتقدير. والعديد من حكايات الجن متوافرة للصغار.

والواقع أن أصول هذه الحكايات غائم فيما قبل التاريخ. والعديد منها يأتي من ثقافات عديدة. والكتّاب والفنانون يضخون حياة جديدة في الروايات العديدة للحكايات الشعبية القديمة. وللعديد من قصص الفولكلور مئات من الروايات تأتي من مختلف أرجاء العالم. ومقارنة الأفكار الرئيسة، والأشخاص، والثيمات، لهذه الروايات المختلفة يمكن أن تشكل نشاطاً مفيداً للقراء.

وسنناقش هنا أحد الأمثلة البارزة لحكايات الجن، وهو الروايات المختلفة لِسندريلّا، وقد أشار إلى ذلك «م. ر. كوكس M. R. Cox»، وهو رائد في بحوث الفولكلور، خلال تسعينيات القرن التاسع عشر، في كتابه للكبار بعنوان: «سندريلّا ٣٤٥ رواية مختلفة (١٨٩٣م) Cinderella: Three Hundred and Forty – Five Variants».

وفي مقدمته لمجموعة كوكس يقول «آندرو لانج Andrew Lang» «إن حكايات الجن مِشكال (Kaleidoscope)، وأحداثها قطع الزجاج الملّون في المشكال. فما إن تهزه حتى تسقط تلك القطع في تنوع من الأشكال الجذّابة. وبعض الأشكال أكثر ملاءمة من الأخرى، لذلك تستمر بقوة، وتنتشر على مدى أوسع. ونحن نعرف اليوم أن هناك أكثر من ١٥٠٠ رواية مختلفة لهذه الحكاية الخالدة. وقد جمع «بول فليشمان Paul Fleichman» ستاً وثلاثين رواية مختلفة لهذه الحكاية من سبع عشرة ثقافة عبر العالم في كتابه الذكي «الخف الزجاجي والحذاء الذهبي: سندريلّا عبر العالم Glass Slipper، Gold Sandal: A world wide Cinderella» الذي وضعت رسومه المعاصرة «جولي باشكيس Julie Poschkis». وفي هذه الرسوم جرى تنظيم بعض أجزاء الحكاية معاً، كما لو كانت قصة متصلة تعكس عدّة روايات، ذلك أن الرسوم دمجت تفاصيل ثقافية (مع لصيقة صغيرة) تعكس أصل النص الخاص؛ وكل ذلك وضع على خلفية جرى تلوين كل قسم منها بلون مختلف من ثقافة إلى أخرى، وشكّل مشكالاً من القصص يعكس في الوقت نفسه الجوانب المتنوعة والمشتركة في هذه القصة المحبوبة.

كما أن قصة سندريلا المبنية على رواية شارل بيرو جرى تصويرها (بأجزائها وغناها) بريشة العديد من كبار الفنانين، ومنهم «باربارا ماك كلينتوك Barbara Mc Clintock» التي ضمنت رسومها تفاصيل غنية للقصر الفرنسي، ولهرة رمادية صغيرة وفية جرت مكافأتها في نهاية القصة.

أمَّا الرواية الألمانية للحكاية التي عرضها الأخوان غريم، وهي أقل انتشاراً، فقد وضعت رسومها نوني هوغروجيان Nonny Hogrogian، تلك الرسوم التي اتخذت طابعاً رهيباً. ففي سبيل جعل الخف الزجاجي الصغير يدخل في قدميهما، اتخذت شقيقتا سندريلا إجراءات قاسية: فقد قطعت إحداهما إصبع قدمها، وقطعت الثانية كعبها؛ وفي النهاية أعمتهما الحمائم المنتقمة.

وتضم الروايات الأخرى، النسخ الأبالاشية، والصينية، واليهودية البولونية، والمصرية، والإنجليزية، والإندونوسية، والإيرلندية، والكورية، والفارسية، والإسبانية، والأمريكية، والفيتنامية، واليونانية، وغيرها.

٤- الخرافات Fables:

حكايات قصيرة تعرض حكمة خلقية واضحة صريحة. والخرافات تقدِّم تعليقات تربوية حول الطبيعة البشرية باستخدام عمل تمثيلي يزيد في تأثيرها. وهي تختلف عن غيرها من أشكال الأدب التقليدي بأن الحكمة وراء القصة تعلن فيها صراحة.

والعديد من الأمثال السائرة تأتي من الخرافات، ومنها «الفاصوليا واللحم في سلام خير من الكعك والعسل مع الخوف» وهو يأتي من خرافة «فأر المدينة وفأر الحقل»؛ و«البطيء الثابت ينتصر في السباق» وهو من خرافة: «السلحفاة والأرنب»؛ وإحدى هذه الخرافات أُعيدت روايتها وتم تصويرها بريشة «جيري بينكني Jerry Pinkney» في «خرافات إيسوب Aesope's Fables» وفيها هذا المثل «المعرفة الجزئية قد تصنع حكاية جميلة، لكن الحكمة تأتي من الرؤية الكلية»، والخرافة مصورة في «سبع فأرات عمياء Seven Blind Mice» لـ إِد يونغ «Ed. Young». «لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد»، وهو أحد الأمثال التي جاءت في كتاب: «الحكمة غير المقصودة: مجموعة خرافات إيسوب» لِـ«هيلين وارد Helen Ward». إن تضمينات كهذه، مصوغة بصراحة بصفتها حكماً، يجري تعليمها بالمجاز، أو بالترميز السردي. والحيوانات والأشياء الجامدة تتخذ ملامح بشرية في هذه القصص التي تُظهر بوضوح حكمة الدروس البسيطة.

ففي قصة من ذات الحدث الواحد، كما هو الحال في الخرافات يجري نصحنا

بالابتعاد عن الزهو، والجشع، والكذب، وفي قصة «الأصدقاء الحقيقيون: حكاية من تانزانيا True friends: a tale from Tanzan'a» يروي «جون كيلاغا John Kilaga» قصة الصداقة بين فيل وجرذ، التي تآكلت حين قاد الجوع الفيل إلى سرقة حبوب الأرنب. هذه الرواية تعكس أسلوب سرد القصص التانزانية التقليدية، من حيث كونه متعرجاً، ملتوياً وليس مرتباً على شاكلة معظم القصص الغربية.

وتعزى أصول الخرافات إلى كلٍّ من اليونان والهند. والمشهور أن عبداً يونانياً اسمه «إيسوب Aesope» استخدم الخرافات لأغراض سياسية. وعلى الرغم من أن بعض الباحثين يشككون في وجوده، فإن اسمه ارتبط بالخرافات منذ الأزمنة القديمة.

وفي القرن السابع عشر جاء شاعر فرنسي اسمه «لافونتين La Fontaine» فحوّل بعض خرافات إيسوب إلى الشكل الشعري.

ونظراً لأن الخرافات قصيرة، وجرت روايتها بلغة بسيطة، أعطى بعض الراشدين الخرافات للأطفال الصغار جداً، ولكنهم أخطؤوا في ذلك. فقد رأى الباحثون أن أطفال السابعة لا يدركون مغزى معظم الخرافات المعروفة. ذلك أن الخرافات بنيت من منظور النقد، والمجاز، والرمز، لذلك قد يغيب قصدها عن الأطفال الصغار الذين قد يتوقفون عند المعنى الحرفي. على أن المجموعات المصورة يمكن أن تعوِّض ذلك بالرسوم التي يمكن للصغار أن يفسروها بطريقتهم الخاصة.

٥- قصص الأبطال – الملاحم والأساطير:

تركز قصص الأبطال على الأفعال الجريئة للأفراد المتميزين في صراعهم ضد بعضهم البعض، وضد القوى الخارجية. والأبطال يجسدون المشاعر البشرية العالمية ويمثلون النزاع الأبدي بين الخير والشر. وتسهم قصص الأبطال في تقويم للتاريخ والأدب العالميين، وفهم المُثُل الوطنية للسلوك، وتثمين الشجاعة والنبل.

إنَّ الملاحم تكتب عادة شعراً وتتمثل في سلسلة من الحكايات التي تدور حول بطل أسطوري.ولعل أكثر الملاحم شهرة في العالم الغربي الإلياذة Illiad والأوديسة Odyssey لهوميروس اللتان تحدثتا عن حرب طروادة.

ويهمنا في هذا المجال أن نذكِّر بملحمة البطل «جلجامش» الذي دار العالم، يرافقه صديقه أنكيدو، وهو يحارب المسوخ والأشرار. إنها أقدم ملحمة مسجلة في التاريخ. وفي المقدمة التي كتبتها جيرالدين ماك كوجرين Geraldine

Mc Caughrean لكتابها «جلجامش البطل Gilgamesh the hero»، بينت أن القصة كانت محفورة على اثني عشر رقيماً تفتتت إلى آلاف من القطع على مدى آلاف السنين. وهي تروي حكاية هذا الملك السومري في ما بين النهرين (العراق حالياً). وقد جرى ترميم القطع بصعوبة على يد الباحثين وربما تكون ناقصة حالياً. وعلى الرغم من أن جلجامش كان بطلاً قوياً، إلا أنه تعذب كثيراً. «لقد جثا جلجامش على ركبتيه على شاطئ النهر وهو يتقيأ تعاسته بنشيج متواصل. وضرب معصميه الممزقين على الأرض وصرخ مثل حيوان متوحش» كما تقول الملحمة. وعلى غرار ثيمات العديد مما تلاها، تنتهي قصته كما تقول الملحمة أيضاً «مشى عبر الظلام، وهكذا رأى وميض الضياء».

في إعادة السرد التي أجرتها «كاتي هندرسن Kathy Henderson» بعنوان «لوغال باندا: الصبي الذي أمسك به في حرب Lugal Banda: The Boy who got caught up in a war» وصوّرتها «جين راي Jane Ray» يكون البطل والد جلجامش. وهذه الملحمة السومرية المسجلة على رُقُم قبل خمسة وأربعين قرناً، هي واحدة من أقدم القصص في العالم. وإعادة السرد هذه تستند إلى أجزاء صغيرة من قصص تعود إلى العراق القديم، وتتضمن حواشي ومقدمة.

٦- الحكايات الطويلة Tall tales:

هذه الحكايات شكل أمريكي للحكايات الشعبية، وهي مزيج من التاريخ، والخرافة، والواقع.

لقد أعطت الحكايات الطويلة للمهاجرين الأمريكيين الأوائل رموزاً للقوة، ووازنت ببعض الفكاهة الوقائع القاسية للأرض غير المذلَّلة. فالقوة المبالغ فيها، والأكاذيب الصارخة في الحكايات الطويلة أضفت طعماً إلى حياة الجهد القاسي، وخففت من صعوباتها. وبينما كان المستوطنون الأوائل يبنون بلداً جديداً، فإنهم أوجدوا أبطالاً أقوى، وأقدر، وأجرأ ما يمكن تصوره بين قاطعي الأخشاب، ورجال سكك الحديد، وعمال مناجم الفحم، وجدّافي القوارب النهرية، وعمال الصلب والفولاذ...

إنَّ العديد من أبطال الحكايات الطويلة أشخاص واقعيون، ولكن قصصهم المستحيلة جعلتهم أوسع من الحياة. فـ«ديفي كروكيت Davy Crocket» و«دانييل بوون Daniel Boone»، و«جوني أبلسيد Johnny Appleseed».. أدّوا أعمالاً خارقة لا يجرؤ آدمي عليها؛ وهم يمثلون القوة العضلية التي طوّرت أمريكا.

إنَّ الأطفـــال يحبون المبالغات التي تميز الحكايـــات الطويلـــة. وهـــم يضحكون حين يرون عربات حمـــل الأخشاب الكبيرة تجلب شرائـــح اللحم حتى أمـــام أقدامهم، وتتزلج عبر صينية الكعك المحلى لتطليه بالزبدة... وهـــم يستطيعون تصور الرضيع «بيكوس بيل Pecoce Bill» يسقـــط خارج عربة القطار المغطـــاة، ويزحف نحـــو الذئبـــة الأم التي راحت تربيه مع قطيع الذئاب. فالأبطال في الحكايات الطويلة أقوياء، بحيث يعرف القراء أنهم سينجحون في مواجهة التحديات. على أن ما يثير القلق هو كيف سيفعلون ذلك.

الخلاصة:

هدفت هـــذه الدراســـة إلـــى التعريف بأنواع الفولكلور في أدب الأطفال، ولا سيما بالترانيم والحكايات الشعبية وفيها: حكايات الحيوانات الناطقـــة والمحتالين، وحكايات الحمقـــى، وحكايـــات الجـــن، والخرافات، وحكايات الأبطال، والحكايات الطويلة.

لكل نوع مـــن هذه الأنـــواع خصائصه، فالترانيم تسحـــر الصغار جداً، والحكايات تتناول ثيمات وأفكاراً رئيسة عالمية، وتظهر بهيئات مختلفة حول العالم.

علـــى أن الخرافـــات تتضمـــن حكمـــاً أخلاقيـــة معلنة بغية توجيـــه السلوك؛ كما أن حكايـــات الأبطـــال تكشـــف عـــن القيم والمعتقدات الثقافية.

ويعتـــرف المعلمـــون فـــي الصفـــوف الابتدائيـــة بـــأن الفولكلـــور، إضافة لكونه مصـــدراً رائداً للمتعة لـــدى التلاميذ، فإنه مصـــدر ثمين أيضـــاً لتنمية اللغـــة، وتفهم الأدب، وتعلم الكثير حول الثقافات الأخرى. وهو يؤدي الوظائـــف نفسها التي نهضَ بها في الماضي، ألا وهي الإمتاع والتربية.

إنَّ هـــذه الحكايـــات هي قبـــل كل شيء حكايـــات مثيـــرة أمتعـــت السامعين خلال عقود طويلة لأنها مـــلأى بمغامرات مريعة وأشخاص مخيفين وفي الوقت ذاته، بأبطال خرافييـــن ينتصـــرون في النهايـــة. وحين يشارك المعلمون تلاميذهم بهذه القصص الخالدة، فإنهم يصلونهم بالأقوام الماضية من جميع أرجاء العالم.

المرجع

- Lee Galda, Lawrence R. Sipe, Lauren A. Liane, Bernice E. Cullinan, Literature and the Child, 8th edition, wadsworth, cengage learning, U.S.

الحُطَيئة في مرايا التلقّي

د. فايز الداية ❁



نال الحطيئة موقعاً في الرصيد الثقافي العربي المعاصر، وهو بمقياس الشهرة يتقدّم كثيراً من شعراء تراثنا، ولكنْ هل الصورة التي شُكّلت في المحافل الأدبيّة وفي أوساط الجامعات والكتب التعليميّة تُرضي هذا الشاعر؟ أو بعبارة موضوعيّة: هل هي عادلة أنصفته؟ وإلى أيّ مدى تصدق الملامح التي رُسِمت له ولكلماته؟ فكان فيها يقوده الجشع والأموال، ويبدو بهيئة تقتحمها العين يستغلّ القصائد والأشعار ويسلّطها هجاءً على بعضٍ من

❁ باحث وناقد وأستاذ الأدب العربي في جامعة حلب.

الناس، فيبذلون ما يكفّ أذاه، ويسارع آخرون ليستبِقوا ذاك الشرّ قبل أن يحلّ بهم، ولعلّ بعضاً من أبناء زمننا يتخيّلونه واحداً يشبه شخصيات أشرار السينما!!

مرايا عبر العصور:

لو تفحّصنا مرآة التلقّي المعاصرة وزواياها لوجدنا أنّها في عدد من الحالات تختلط بِسِمتين يضطرب معهما النظر، وهما سمة الاختزال المتسرّع وسمة التنميط القسري، فقد اختير الحطيئة «جَرْوَل بن أوس» معبّراً عن سطوة جائرة للهجاء في شعر الجاهليّة وصدر الإسلام، ولم ينصرف الاهتمام إلى الأغراض الأخرى كالمديح وإلى خصائص شعره وقدراته التعبيريّة، بل غلب التقاطُ العلامات الشكليّة السلبيّة والسلوك الناشز المنسوب إلى هذا الشاعر ليتحدّد الشُّواظ الهجائي الهدّام!!، وكأنّما هو يرصد الخطوات في الزوايا لينقضّ مثيراً الفزع! وإذا تتبعنا هذه المرآة المعاصرة فسنجد أنّها اقتفت أثر أقوالٍ لنقّاد الأدب العربي ومؤرّخيه القدماء، إضافة إلى بعض الغبش الذي اعتراها بقصديّة سلبية لدى بعضهم! وقد يكون موضّحاً الأمر الرجوع إلى ثلاثة من النصوص التاريخيّة والنقديّة: تاريخ الأدب العربي «الأدب القديم، عند عمر فرّوخ و العصر الإسلامي عند شوقي ضيف وسلسلة الروائع لفؤاد إفرام البستاني «عدد الحطيئة[1]».

نعود إلى مرآة التلقّي عند المؤرّخين والنقّاد العرب القدامى في القرنين الثالث والرابع الهجريين، وفي بؤرة هي أبرز الكتب التي تناولت الحطيئة: «طبقات فحول الشعراء» لمحمّد بن سلاّم الجمحي و«الشعر والشعراء» لعبد الله بن قتيبة و«الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني، وقد قدّم كلٌّ منهم رأيه، وتضمّنت صفحاتُهم آراءَ مَن سبقهم أو عاصرهم في هذا الشاعر.

اشتملت هذه الكتب على مجموعة من أخبار الحطيئة ومتخيَّرٍ من أبياته المقترنة بها، وربطت بها آراء قيميّة عامّة حول آفاقه وأساليبه في إطار التراث. سنقرأ ما قالوه في شخصيّته أوّلاً، وسنلحظ التباين الضارب إلى عمق هوّة قاطعة! عندما يديرون الكلام على شاعريّته.

يقول ابن سلاّم (٢٣٢هـ) على طريقته في الإيجاز: «وكان جشعاً سؤولاً[2]»، ويجمل ابن قتيبة (٢٧٦ هـ): «وكيف ما كان، فإنّه كان رقيق الإسلام لئيم الطبع[3]»، ويقول أبو الفرج (٣٥٦ هـ): «وكان ذا شرٍّ وسفهٍ»، ويذكر عبارة لأبي عبيدة- المتربّص بالحطيئة!- (٢١٠ هـ): «بخلاء العرب أربعة

حُميد الأرقط وأبو الأسود الدؤلي وخالد بن صفوان والحطيئة، ثم ينقل قوله وهو يصّور الشاعر وكأنّ الشرّ-هجاءً بعضٌ من تكوينه لا يستطيع العيش إلاّ بإطلاقه»!!:

«كان الحطيئة بذيئاً هجّاءً، فالتمس ذات يوم إنساناً ليهجوه فلم يجده، وضاق عليه ذلك، فأنشأ يقول:

أبتْ شفتاي اليومَ إلاّ تكلّما
بشرٍّ فما أدري لمَن أنا قائلُهْ

وجعل يُدَهّوِرُ هذا البيت في أشداقه، ولا يرى إنساناً، إذ اطّلع في رَكيٍّ أو حوض، فرأى وجهه، فقال:

أرى ليَ وجهاً شَوّه اللهُ خَلقَه
فقُبِّحَ من وجه وقُبّحَ حاملُهْ[٤]»

وعندما يورد أبو الفرج رأياً سلبياً في الحطيئة ينسبه إلى ابن سلاّم وأبي عبيدة، فنعود إلى «طبقات فحول الشعراء[٥]» فلا نجد التناول السلبي، وإنّما هو رأي أبي عبيدة- الذي عرفنا تحامله على الحطيئة في الخبرين السابقين- يَقلِب دلالة رؤية أدبية نقديّة خطرت للحطيئة، ووافقه عليها كعب بن زهير، فأنشأ أبياتاً يذكر الخصائص الإبداعيّة لكلّ منهما، وقد اجتمعا على درب الشعر:

«فبلغ من دناءة نفسه أنّه أتى كعب بن زهير، وكان الحطيئة راوية زهير وآل زهير، فقال له: قد علمتَ روايتي لكم أهلَ البيت، وانقطاعي إليكم، وقد ذهب الفحولُ غيري وغيرك، فلو قلتَ شعراً تذكر فيه نفسك وتضعني موضعاً بعدك... فإنّ الناس لأشعاركم أروى وإليها أسرع، فقال كعب «ضمن قصيدة له»:

فمَن للقوافي شانَها مَن يَحوكُها
إذا ما ثوى كعبٌ وفَوّز جرولُ
كفيتُكَ لا تَلقى مِن النّاس واحداً
تنخّلَ منها مثلَ ما نتنخّلُ
نقولُ فلا نَعيا بشيءٍ نقولُه
ومِن قائليها مَنْ يُسيء ويُجملُ
نثقّفها حتّى تلينَ متونُها
فيقصُرُ عنها كلُّ ما يُتمثّلُ[٦]

ويذكر رأي الأصمعي (٢١٦ هـ)»: «كان جشعاً سؤولاً ملحفاً، دنيء النفس، كثير الشرّ، قليل الخير، بخيلاً، قبيح المنظر، رثّ الهيئة، مغموز النسب، فاسد الدين»

ولعلّ موقف أبي العلاء المعرّي (٤٤٩هـ) من الحطيئة أكّد الصورة السلبيّة، ففي «**رسالة الغفران**» تكون مرتبة الحطيئة في الجنّة، ولكنّ القيمة الشعريّة العالية التي لم يستطع المعرّي تجاهلها لم تمنعه من النيل من صاحبها، ونقرأ:

«فيذهبُ «ابن القارح» فإذا هو ببيت في أقصى الجنّة، كأنّه حِفشُ أمَةٍ راعية، وفيه رجلٌ ليس عليه نور سكّان الجنّة، وعنده

شجرة قميئة ثمرها ليس بزاكٍ...» وعندما يسألـه يجيب: «والله ما وصلت إليه إلاّ بعد هياطٍ ومياط وعَرق من شقاء، وشفاعة من قريش وددت أنّها لم تكن. فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا الحطيئة العبسي(٧)».

أمّا الشقّ الثاني من آراء هؤلاء فيذهب إلى مكانة الحطيئة الإبداعيّة، ونجد أنّ ابن سلاّم صنّف الحطيئة في الطبقة الثانية من فحول الجاهليّة مع أوس بن حجر وبشر بن أبي خازم وكعب بن زهير، ولم يسبقهم إلاّ شعراء الطبقة الأولى: امرؤ القيس والنابغة وزهير والأعشى، ويفتتح أبو الفرج القول عنه: «وهو من فحول الشعراء ومتقدّميهم وفصحائهم، متصرّف في جميع فنون الشعر من المديح والهجاء والفخر والنسيب، مجيدٌ في ذلك أجمع(٨)»، وجاءت عبارة الأصمعي نادرة في حكم إيجابي يرفع الحطيئة فوق معظم الشعراء، فمن الصعب أن تجد مأخذاً عليه في شعره: «وما تشاء أن تقول في شعر شاعر من عيب إلاّ وجدته، وقلّما تجد ذلك في شعره(٩)».

لا بدّ لنا من التساؤل عن هذا التضاد أو الانفصام بين مكانة شعريّة رفيعة للحطيئة يستظلّ بها هؤلاء! وحالة بائسة لصاحبها تنزل به إلى القاع مع الرّكام؟؟ وتتضح القضية عندما نذكر أن هذا الشاعر تفتّحت موهبته وهو قريب من زهير بن أبي سُلمى يروي أشعاره، ويعايش الجذور في قصائد أوس بن حجر وبشامة بن الغدير ويصحبه كعب بن زهير، ولن يغالط أيّ من هؤلاء في قيمة شعره وهو متداول بين الأيدي، ولكنّهم اتخذوا مواقف من شخصيّته وسيرته، وتركوا لنا في كتبهم أخباره والوقائع التي عايشها، وهذه ميزة تمكّننا من أن تكون لنا قراءتنا وتأويلنا، من غير أن نقع في ذاك التناقض، أو في تلك الازدواجية في المعايير التي وقعوا فيها عندما وقفوا عند شاعر يقارب الحطيئة في هيئته ومسالك حياته وهو أبو دلامة الذي كان ابن عبد أُعتِق، وعاش في كنف ثلاثة من الخلفاء العباسيين هم أبو العبّاس السفّاح وأبو جعفر المنصور والمهدي، على الرغم من أنّه كان يمضي أيّاماً في الحانات، وكما قال أبو الفرج كان «مضيّعاً للفروض، مجاهراً بذلك» فهم «يقدّمونه ويَصِلونه ويستطيبون مجالسته ونوادره(١٠)» وتُذكَر أبياته في هجاء نفسه وأمّه وزوجته وابنته، وتروى وقائع يبتزّ فيها قضاة ورجالاً في القصر على أنّها من الطرائف تصحبها ابتسامة(١١)، ويذكره الآمدي (٣٧٠هـ) في «المؤتلف والمختلف»: «زند بن الجون هو أبو دلامة الأشجعي مولىً لهم، كوفيّ مليح الشعر كثير النادرة(١٢)».

تلقّي الحطيئة في مرآة اليوم:

إنّنا سنجمع أخبار الحطيئة التي وردت في كتب المؤرّخين والنقّاد، ونكمل بعض الخطوط فيها من خلال طبيعة البنية الاجتماعيّة والأدبيّة وتفاعل النفس البشريّة معها، ويظلّ تفسيرنا لجوانب منها مرتبطاً بمرحلتها التاريخيّة، وبهذا يتمكّن القارئ من إطلاق أحكامه إيجاباً أو سلباً.

(١)

تزوّج أوس بن مالك بن جُؤيّة العبسي بنتَ رياح بن عمرو من شيبان بن ذُهَل، وكانت لها جارية اسمها «الضرّاء»، فحملت الجارية من أوس وولدت غلاماً، هو جرول الذي سيلزمه لقبٌ يطغى على اسمه: «الحُطيئة»، فتسأل السيدة وتجيب الضرّاء – درءاً لغضبها- إنّه من الأفقم أخيك، فتنظر في ملامح وجهه، وتقول لها صدقتِ، والمعروف أنّ الجارية في الجاهلية ليس لها من أمرها ما يمنع سطوة السادة ورغباتهم، وبعد موت أوس تعتق بنتُ رياح الجاريةَ التي تنسب عندئذٍ الغلام إليه، وتتزوّج رجلاً عبسيّاً، ويبقى جرول في هذا البيت واحداً من أهله وقد نال حرّيته بعد أن كان عبداً ابن أَمَةٍ، ولعلّ تباعد الأعراق بين الأب أوس بن مالك والأمّ الضرّاء نتج عنه تميّز الحطيئة بطاقة إبداعيّة غنيّةٍ في التخيّل وبارعةٍ في تداول اللغة وقادرةٍ على اختزان الذاكرة لرصيد واسع، إضافة إلى ذكاء ومكر سيكون الإحساس الدرامي بعضاً منهما، وهذا كلّه يعوّض الشكل الخارجي- للجسم والوجه- الذي يخاصم الجمالَ والملاحة!! وكانت هذه طفرة وراثية حملت إليه ظاهراً غير متوازن، فإنّنا سنرى أنّ ابنته مُلَيكة حملت هيئة بارعة الجمال جعلت زوجة الزبرقان تصدّق ما أشاعه بنو قريع من أنّ زوجها سيقترن بابنة الحطيئة، وهو مَنْ هو مكانةً وحسنَ مُحَيّا[١٣].

(٢)

اتصل الحطيئة بزهير بن أبي سلمى وهو ذروة إبداعية كثّفت خبرات أسلوبيّة وتمرساً في آفاق الأغراض والمواقف، وقد اكتسبها من الجيل الذي تداول الشعر فنّاً ناضجاً «بشامة بن الغدير خاله وأوس بن حجر زوج أمّه» عَمِلَ على الارتقاء به أكثرُ من جيل من الشعراء قبله في زمن الجاهلية البعيد، وقد ارتضى زهير أن يكون الحطيئةُ راويةً يحفظ قصائده، وقرّبه يبصّره بدروب الإبداع وأساليبه عندما لمس تمثّله للغة وأدائها، وبدت له ومضات تخترق الغيوم تنبئ بمواسم الإبداع.

تُحَدِّد المكانةُ الرفيعة التي كان عليها زهير في المجتمع الجاهلي مستوىً وهيئةً

لمن يجاوره ويعايشه، وقد اكتسب الحطيئة في هذه البيئة دراية بالسلوك والعلاقات الاجتماعية تساير الخبرة الأدبيّة العالية وخطابها، ونتأكّد من استمرار هذا السمت عندما يقرن كعب بن زهير اسمه- بعد أمد- بالحطيئة في شعره ليبقى عبر العصور.

عرفت المحافل والمنتديات الشابّ الحطيئة يلقي شعر زهير على نحو مميّز، ويقدّمه أستاذه لتسمع النخبة بعضاً من إبداع شاعر جديد، وبهذا كان يمهّد له ليغدو من حملة الكلمة في المجتمع الجاهلي، وهي التي تحفظ التاريخ والقيم وتتخلّل العلاقات، وتتلاقى عندها الروح والفكر، وهكذا تتواصل جولات الحطيئة بعد رحيل راعيه بين بيوت القبائل ووجوهها، وقد أمضى شطراً من هذه المرحلة في ضروب ممّا يكون للشباب من نشاط وتسلية أو لهو كما نجد في حكاية ترد في ديوانه، ويلفت الانتباه أنه يصحب أبناء الطبقة العليا في المجتمع: «وخرج زيد الخيل (وهو زيد بن مهلهل الطائي) يتطرّف ذات يوم فلقي الحطيئة وكعب بن زهير ورجلاً من بني بدر- وهم يتصيّدون- فأخذهم. فأمّا الحطيئة فقال: والله ما عندي من مال فأعطيك، وما هو إلاّ لساني، فأطلَقَه فمدحه، وأمّا كعب فأعطاه فرساً، وأمّا البدري فأعطاه مئة ناقة...[١٤]».

(٣)

نتابع الحطيئة في اكتمال الشباب فالكهولة ثمّ الشيخوخة، وكانت استقامت له مسارات، ورفعتها إلى الواقع تصوّرات ورؤية للدنيا، لقد انتظم مع زوجته وأولاده في إطار أسرة تعيش على دفقات تتوالى من الأموال دراهم أو نوقاً، ورأى أن الكلمات هي جواده الرابح في مسالك المجتمع الجاهلي وشعابه ومنعرجات له، فتماهى مع الشعر يصقل أدواته، ويرجّع النظر فيما لديه من أعمال تراثه المحفوظ في ذاكرة حيوية، وفي الأشعار التي تتشكّل في المواقف التي يضع نفسه في غمراتها، وهنا نرى مركّبات فنّية شكّلت العروق اللامعة في جديلة أدائه الذي لا يغيب عن الذاكرة، ويظلّ المتلقون تتردّد الصور في مخيّلتهم طويلاً بعد سماع قصائده، ذلك أنّ مسحة من السخرية داخلت خطابه خاصّة في الهجاء، ومعها لمحات دراميّة جعلت زوايا عديدة غنيّةً بالحركة المركّبة أو بالمفارقة الدراميّة.

كان العلاج الذي ارتأى الحطيئة لقلق نفسي يعاوده هو هذا التحدّي يخوضه مع الناس في كلّ مواقعهم، فيحقّق الغلبة! ونسأل هل لاقى عنتاً أو إرهاقاً في أيّامه؟ فلا نجد إشارة إلى مثل هذا فهو يغشى بيوتات العرب، ويتصدّر مجالسهم

ويُطلب ودّه، ولم يــرو أصحاب الأخبار عن مضايقات في الأسواق والملتقيات، ونعاود التساؤل فمن أيــن ذاك القلق؟ يبرز أمامنا جانبان هما مسألة اضطراب نسبه إلى أوس العبسي أو إلى الأفقم الذُهلي شقيق زوجته، ولم يحظ بفرصة جــلاء الحقيقة لأنّ أوساً مات وكذلك الأفقم، وأمّه الضراء لا تشفي غليله، فقد كانت أشدّ ذكاء ومكراً، فلا تريد أن يدخل معركة خاسرة بعد تشتّت خيوطها، فتعابث كلماتها وتتركه ليفكّر مليّاً، والجانب الآخر هو وجهه الذي حمل ملامح بعيدة عن الجميل وهيئته القصيرة الناحلة. لقد عرف أن مشكلتــه قائمة مع الدنيــا ومصادفاتها إنّهــا مشكلــة وجوديّة، والضــرّاء إنّما هي أمَةٌ لا تملــك مصيرها وليس من العدل أن يحاسبها عمّا جرى، ومهما يكن فلا جدوى تُرجى، وهكذا وصل إلى أنّ انتصاره المديد لن يتأتــى بتأكيد النســب ولا بأردية تغطّي وتجمّل، بل باستمرار ارتفاع كلماته فوق تلك الفيافي والمضارب والأســواق يلتقي فيها الشعــراء والناس، وتدوّن فيهــا الإنجازات في الصدور وطيّــات الليالي وأيّام تتسلسل في الأزمنة، فتقدّم إلى الناس بما هو عليه، وبلسانه الذي لا تغيب حــدّةُ ألوانه، وتلبَّسَ شخصيّــة فنــان تمنحه قــدرة على إطلاق كلماته لا تهاب أحداً.

(٤)

لقد نصّــ النقّاد القدمــاء على براعة الحطيئــة في أغراضــ متعــدّدة: المديح والهجــاء والنسيب والفخــر والرثاء، وهذا ما نجده في القصائــد والمقطوعات التي اشتمل عليهــا ديوانه الذي وصل إلينا وثمّة شعر له لم يصلنا، ولم يُرجع أيّ منهم مكانته إلى غرض واحد، ولعلّ العودة إلى ابن سلاّم تُجزئ، فهو اشترط لتفــوّق الشاعر وسبقِه للآخرين كثرةَ النتاج وتعدّدَ الأغراض وجودةَ الأداء الأسلوبي، ولــو كان الحطيئة مقرون البراعة في الهجــاء فحسب لما وضعه في المرتبة الثانية بين الفحول، ويأتي التراتب في الديــوان بتصــدّر المديح ثــم الهجاء الذي يتداخــل معه في عدد من النصوص، وهناك الفخر والرثاء والنسيب الذي يشكّل جــزءاً من قصائد الديوان إضافة إلى زوايا متفرّقة.

فــي مديحه ارتاد بيوتــاً عريقة تتصدر القبائل كما في بيت بني بدر في فزارة «عيينة بن حصن الفزاري، وأخوه خارجة»، واتصل بشخصيّات تجمــع المكانة والثروة: علقمة ابن عُلاثــة وعبد الله بن جُدعان وشبَث بن حــوط اليربوعي الفزاري، وكان يطلب على نحو مألوف مــن بعض منهم، وكان بعضهم يبادره ويدعوه إلى ديــاره. نقرأ في ديوانه:

«لقي الحطيئةُ طريفَ بن دفّاع الحنفي، فقال له طريف: إلى أين تريد يا أبا مُلَيكة؟ قال: أريد اللبن والتمر. قال: اصحبني فلك ذلك عندي، فسار به إلى اليمامة، فأقام عنده حيناً، فأعطاه وأكرمه(١٥)»، وكذلك كان بدء اتصاله بالزبرقان بن بدر، وما تلا من إغراء بني قريع واستضافته لديهم.

إنّ تلك الشخصيّات كانت تبذل عطاء للحطيئة لأمرين أولهما ظاهر ويبدو واحداً في النظرة العجلى، وهو اكتساب المديح الذي ينتشر في المحافل ويورث أصحابه الفخر وأداة غلبة على آخرين منافسين أو منافرين، وثانيهما هو رعاية للشعر وهو الفن الأساسي والحامل للروح ومعالم هذه الثقافة-الحضارة تجمع القبائل، فعلى الرغم من الخصومات وأيّام عاصفة بينهم نراهم يجتمعون في الأسواق والمواسم الكبرى، ويتفقون على الأشهر الحرم، ويتناوب شعراء من جهات وفروع شتّى على منابر أو منصّات ينشدون أشعارهم، فتردّد أصداءها الفلوات والحواضر بلغة مشتركة تعلو على ما يشوب لهجات لهم من صيغ صوتية جانبية أو اختيارات دلالية.

لم يكن الحطيئة وبحسب طبيعته النفسيّة ممّن يثمّرون الأموال، فتتعاظم وتغنيه عن السعي في الآفاق بمدائحه، ولهذا نجد عبارة أبي سعيد السكّري في مفتتح شرحه لديوانه: «كان الحطيئة رجلاً مملاقاً، ولم يكن يقتني المال، ولا يحسن إمساكه، وكان لا يسأل إلحاحاً، يأتي الرجل فيسلّم عليه ..(١٦)».

ترسّخت مكانة الحطيئة من خلال قصائد المديح، وذلك بلُغتها والملامح التي ترسمها، وزوايا ينظر من أطرافها إلى المواقف والقيم الفاعلة في حركة المجتمع، وقد حفظ تقاليد أسلافه زهير وأوس والنابغة الذين كانوا يرجّعون النظر فيما يبدعون حتّى يكتسب رواء تتوهّج معه تلك الدفقات التي تتابعت من الواقع والمخيّلة. إنّ سيرورة القصيدة أوالمقطوعة أو أبيات منها هي كلمة السرّ التي كان يتداولها وجوه القوم والنخبة من العارفين بالشعر، وقد اتسعت شهرة الحطيئة عندما أسهم في ظاهرة اجتماعيّة وثقافيّة تداخل فيها المديح والتعريض والهجاء في العصر الجاهلي، وهي المنافرات، وفيها نرى شخصيّتين تستعرض كلٌّ منهما- إثر خلاف أو منافسة أو خصومة - مزايا ووقائع تفخر بها وتراها رافعة لها فوق الطرف الآخر، وقد يقوم طرف ثالث بالحكم وتغليب واحد منهما، ويصحب ذلك استعانة أصحابها بالشعراء لتتداح في مدى واسع بأن يقترن

التعبير الموسيقي الشعـري بالأداء النثري الذي بدأت به المنافرة.

وقـف الحطيئـة مع علقمة بـن عُلاثة عندمـا نافـر عامر بن طُفيـل الذي وقف بجـواره الأعشى ولبيد(١٧)، ووقف مع عيينة بـن حصن الفزاري في منافرتـه لزبّان بن سيّـار، وكذلـك وقف في صـفّ بني قريع الذين كانوا ينافسون الزبرقان بن بدر على السيادة، فهم أعرق وهو أكبر بحضور أفعاله ومرتبته التي مكّنها في أرض الواقع.

وثمّـة قصائـد ومقطوعـات في هجاء أفراد من عبس كالحصين بن لقمان وقدامة وبني بجاد،أو غيرهـا من القبائل كالحارث والعاص ابني هشام بن المغيرة، وبني سهم، و هناك مديح على حافّة الهجاء كما فعل مع عتيبة بن النهّاس العجلي من بكر بن وائل.

ويبقى جانب ممّا عُدّ في الهجاء وهو في حقيقته مداعبة أو تنفيس عن حنق، ولايمثل هجوماً أو تجريداً لمن توجه الأبيات نحوه، وهو ما قاله الحطيئة في أمّه أو أبيه وبعضٍ مـن أقاربه وعن نفسه هو في بضعة أبيات. ونذكـر هنا طرائف أخـرى من مثل هجائه لضيف أو بخيل.

(٥)

نصل إلى أهـمّ نقطة في مناقشة إبداع الحطيئـة وخاصّة فيمـا أُدرج تحت عنوان الهجاء وهي ضـرورة الفصل بين شخصيّة الفنّان الذي يرسم صوره، ويمسك بالخطوط التي تشـكّل المنحنيـات وتتسلسل الألوان فيها أو تتكسّر الأشعة، وما يكون من سلوك في الحياة الواقعية.

مارس الحطيئة أساليب متنوّعة، واتخذ زوايـا طريفة في أركان المواقف في أجواء نصوصـه، وهو فيها لاعـب يتحرّك وحوله مشاهـد تتقلّب تضـاف إليهـا امتدادات وتحذف أطراف بمـا تتطلّبه أهواء الحالة، وهـو فـي كلّ ذلك يتمثّـل الأطـر العامة لقيـم المجتمع ومعاييره، كمـا في خطابه للزبرقان:

دعِ المكارمَ لا ترحلْ لبغيتها
واقعدْ فإنّك أنت الطاعمُ الكاسي
مَن يفعل الخيرَ لا يَعدم جوازيَهُ
لا يذهبُ العرفُ بينَ اللّه والنّاسِ

وعندما بدأت حياة جديدة بعد الإسلام تكيّـف الحطيئة معها، وظلّت هوامش قليلة لديه تَتَبّعها خصومه.

أمّا في بيته فهو الأب يعرف واجبات تحلّ لديه في المقام الأوّل، فيعزم مرّة على السفر لكـنّ امرأته كانت في حالة من القلق جعلتها تلتمس بقاءه ريث تنجلي غمّة فقالت له:

اذْكُـرْ تحنّننا إليك وشوقنا
واذكـر بناتك إنّهـنّ صغارُ

فقال: حُطّوا، لا رحلتُ لسفرٍ أبداً[١٨].

وتظلّ أبياته التي استعطف بها الخليفة عمر بن الخطّاب تحمل الحنوّ والخوف على أولاده بمقدار استنفاره قدراته التعبيريّة للخلاص من السجن والعقوبة:

ماذا تقول لأفراخٍ بذي مرَخ
زُغبِ الحواصلِ لا ماءٌ ولا شجرُ
ألقيتَ كاسبَهم في قعر مظلمةٍ
فاغفرْ عليك سلامُ اللّه ياعمرُ
فامنُن على صبيةٍ بالرمل مسكنُه
بين الأباطح تَغشاهم بها القِررُ
أهلي فداؤك كم بيني وبينهمُ
من عَرْضِ داويّةٍ تعمى بها الخُبُرُ[١٩]

ونلحظ حرصه على بناته عندما نزل ببني مُقَلَّد بن يربوع في زمن جدب، فرحّبوا به « وقالوا له: يا أبا مُلَيكة، إنّك اخترتنا على سائر العرب، ووجب حقُّك علينا، فمُرنا بما تحبّ أن نفعله وبما تحبّ أن ننتهي عنه، فقال: لا تُكثروا زيارتي فتُملّوني، ولا تقطعوها فتوحشوني، ولا تجعلوا فناء بيتي مجلساً لكم، ولا تُسمعوا بناتي غناء شبابكم، فإنّ الغناء رُقيَةُ الزنا... فلم يزل مقيماً فيما يرضى حتّى انجلت عنه السّنة[٢٠]».

يترفّع الحطيئة عن الربح المادّي مهما عظم في عدد من المواقف، وذلك وفاءً وحفظاً للجميل واليد التي امتدّت إليه بالخير، فأبى أن يهجو أوس بن حارثة الذي نفس عليه أقوام مكانتَه عند النعمان، فائتمروا وطلبوا من الحطيئة أن يهجوه، وأغروه بثلاث مئة ناقة فأبى، وكذلك في موقف آخر فقد طلبت فزارةُ وأفناء قيس إلى شعراء العرب أن يهجوا بني لأم وزيداً «زيد الخيل»، فتحامتهم شعراء العرب، وامتنعت من هجائهم، فصاروا إلى الحطيئة، فأبى عليهم، وقال: اطلبوا غيري، فقد حقن دمي وأطلقني بغير فداء، فلست بكافر نعمته أبداً، قالوا نعطيك مئة ناقةٍ، قال: واللّه لو جعلتموها ألفاً ما فعلت ذلك، وقال:

كيف الهجاءُ وما تنفكّ صالحةٌ
من آل لأم بظهر الغيب تأتينا
المنعمين أقام العزُّ وسطهمُ
بيضِ الوجوه وفي الهيجا مطاعينا[٢١]

ونراه في خبره مع الزبرقان بن بدر، وقد تباطأت زوجة بدر في رعايته، يأبى أن ينقلب إلى بني قريع ويقول: «إنّ من شأن النساء التقصير والغفلة ولستُ بالذي أحمل على صاحبها ذنبها» وعندما اشتدّ عليه الأمر وغدا عندهم «جعل يمدحهم من غير أن يهجو الزبرقان، وهم يحضّونه على ذلك ويحرّضونه، فيأبى ويقول: لا ذنب للرجل عندي»، وعندما يدفع الزبرقان بالشاعر دِثار بن شيبان

فيهجو بغيض بن عامر بن شمّاس و يذكر الحطيئة:

وما أضحى لشمّاسِ بن لأيٍ
قديمٌ في الفَعالِ ولا رَباءُ
سوى أنّ الحطيئة قال قولاً
فهذا من مقالته جزاءُ

يبدأ بهجاء الزبرقان.[٢٢]

أمسك عمر بن الخطّاب بالخيط الفاصل بين الأداء الفنّي في الشعر الذي أثار مشكلة الزبرقان، وما كان عليه الحطيئة في الحياة الاجتماعيّة، فهو غضّ الطرف أوّلاً عن أبياته لإعجابه الضمني ببراعة التناول وهو العليم بأسرار الشعر، ثم أمر بعقوبة رمزيّة، ونهى الشاعر عن المخايرة بين الناس، وأعانه بمبلغ يبعده عن الهجاء، ولكنّ ما رُوي في خبرٍ يستوقفنا، فعمر يزكّي الحطيئة في رسالة يحملها إلى واحد من أصحاب المكانة والثراء، فلولا أنّ الشاعر لا شائبة على سلوكه خارج اللعب بالفن الشعري لما تمّ الأمر، فقد قال الحطيئة لعمر: «اكتب لي كتاباً إلى علقمة بن عُلاثة لأقصده، فقد منعتني التكسّب بشعري «هجاءً»، فقال: لا أفعل! فقيل له: يا أمير المؤمنين، وما عليك من ذلك؟ إنّ علقمة ليس بعاملك، فتخشى أن تأثم، وإنّما هو رجل من المسلمين لتشفع له إليه! فكتب له بما أراد[٢٣]».

ولا بدّ أن نشير إلى جانب ضخّمه أولئك الحانقون على الحطيئة، فهم نعتوه بالبخل، وفي كلامهم مضمر أنّه كانت تصله مرّاتٍ أعطيات تبلغ مئة من النوق، وعندما نرجع إلى الحوادث والحوارات التي نسبت إليه مع ضيف أو سائل، نجد فيها ملمح الفكاهة والسخرية، ولعلّنا نتذكّر طبيعة الحطيئة التي لا تُحسن حفظ المال، وقد تمرّ شهور من غير رفد يصله، ولن يكون متيحاً لكلّ طارق ما يبغيه، وهذا إنّما تميّز به الأغنياء وسادة القبائل، وليس كلّ خباء مفتوحاً للواردين جميعاً تفرش لهم الموائد!!

المفارقة والسخرية والدراما:

نشير أوّلاً إلى المفارقة التي كان الحطيئة يُحسن التقاطها، ومن ثمّ يستثمرها بطاقةٍ تخييلية مركّبة، فيدير علاقة ثنائيّة سلبيّة، ويعيد صياغة ثنائيّة جديدة وبقيم مختلفة تنقلب عن الأولى. فهو أجال البصر والذاكرة في لَقَبٍ يعرفه العرب علامة سلبيّة يتوارى منها بنو قريع: «بنو أنف الناقة»، ويبدو لهم ارتفاع مراتب كثير من قبائل العرب لأنّهم سلموا من لقب يقرنهم بالخسيس أو البشع من الأشياء، ونلحظ أن إعادة تداول هذا الرمز رفعته وأصحابه، فقد حوّل الحطيئة النظر إلى وحدة دلالية في الدال-الرمز:

«أنــف الناقة» وهي الارتفاع موقعاً، ومن ثمّ العلوّ مكانة بتحميل المــادّي قيماً مجرّدة: ذهنيّة أو نفسيّــة، وأطلقها في كلام ميسور التصــوّر وفــي دوالّ قريبة، فغــدت قيمة إيجابيّة يفخر بها أصحابها، ويستعلون على الآخرين:

سيري أُمامَ فإنّ الأكثرين حصاً
والأكرمين إذا ما ينسبون أبا
قومٌ همُ الأنفُ والأذنابُ غيرُهمُ
ومَنْ يُسوّي بأنف الناقة الذنبا (٢٤)

وهذا مــا أعطى الشاعر قــدرة تكوين مفارقــات في قصائد المديــح التي تضفر الخيوط بالهجاء، فيعرضــ طرفين بينهما تفــاوت أو تناقض في تمثّل القيم العليا في المجتمع، بــل إنّ الأدنى والضعيف يتصدّى لمن يقيم دعائم الرفعة:

أتــتْ آل شمّاس بن لأيٍ وإنّما
أتاهم بها الأحلامُ والحسبُ العِدُّ
يسوسون أحلاماً بعيداً أناتُها
وإن غضبوا جاء الحفيظة والجِدُّ
أقلّوا عليهم لا أبا لأبيكمُ
من اللوم أوسدّوا المكان الذي سدّوا
أولئك قومٌ إن بنوا أحسنوا البُنى
وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدّوا (٢٥)

وتأتي «أو» في البيــت الثالث للسخرية والتحــدّي، فهــؤلاء الذيــن يخاصمــون لايستطيعون القيام بأعباء المروءة والسيادة، التي يأخذ حملها الممدوح وقبيله، وتُستعرَض في البيت التالي وما وراءه، ويبقى في البال أنّ هؤلاءِ عبثٌ جهدُهم السلبي والقاصر.

تتوالى مفارقات وهي تحيط بالزبرقان عندما يصــوّره الحطيئة، وستكــون الثالثة أشدّهــا إيلامــاً، فنحــن نراه فــي الأولى وقد غــرق في مياه النهــر، بينما تعوم فيه الضفــادع وهي المخلوقات الضعيفة، ولعلّ إيمــاءة ضمنية تطلّ عبــر تشابه وحيد بين هذا الغــارق وهذه الكائنات هــو الصوت: «النقيق»، وتبرز المفارقــة الثانية بمحاولة بائسة لأنّها جاءت فــي الوقت الضائع بعد فــوات الأوان، ثمّ يجّبّــه الحطيئةُ الزبرقانَ بالقاصمــة عندما يجعل خصمــه الماجد رفيع المكانــة يتشفّع له، ويمنع الشاعر من إشهار معايبه:

وغرقتَ في زبدٍ تعوم خلال لُجّته القراقرْ
أنشأتَ تطلبُ ما تغيّر بعد ما نشِب الأظافرْ
إنّي نهاني أن أعيبك ماجدُ الجدّين فاخِرْ (٢٦)

يعرض الحطيئة في موضع آخر مشهداً دراميّــاً بإيقــاع ساخــر، إنّه يهجــو قدامة العبسي أمامنا، فكأنّمــا يفتح ستارة ويشير بكلمات أولى نرى مــن خلالها قدامة ومن خلفه قومه يستظهر بهم في معركته، ثمّ يأتي أسلوب الالتفــات عندما يخاطبُه ومَنْ معه، وتتوالى بعدها جولات حواريّة، وهنا تتجلّى

براعة الشاعر الـذي انفرد بالفعل الغالب، وتظلّ ردود أفعال الخصم أضعف والشخوص أضأل من أن ترتفع إلى المواجهة الحقيقيّة التي أسماها «منافرة، التنافر»، فلا نسمعها وإنّما نشعـر بها من كلمات الحطيئة، وهذا ما يؤكّـده الشاعر بأنّه نسـي هؤلاء الذين كانـوا أو مـرّوا خلسة، وهـم عارضون في وجودهم، حملتهـم رياح الموسم مع البقول ومـا عليها من كائنـات عالقة بهـا، ولكنّ الموسـم انقضى!!، ويا للمفارقة يريد الدَّبا أن يقيم في جفاف يقطع سبل وجوده:

قدامةُ أمسى يعركُ الجهلُ أنفَه
بجدّاء لم يُعرك بها أنفُ فاخرِ
فخرتُم ولم نعلم بحادثِ مجدِكم
فهاتِ هلمّ بعدَها للتنافرِ
ومَن أنتم؟ إنّا نسينا مَنَ انتمُ
وريحُكم مِن أيّ ريحِ الأعاصرِ
فهذي التي تأتي على كلِّ مَنهجٍ
تبوعُ أم القعواءُ خلفَ الدوابرِ
متى جئتُم؟ إنّا رأينا شخوصكم
ضئالاً فما إن بيننا مِن تفاكرِ
وأنتم أُولي جئتُم مع البَقْل والدَّبا
فطارَ وهذا شخصُكم غيرُ طائرِ[٢٧]

وثمّـة لوحة دراميّة ساخـرة صوّر فيها لقـاءه برجل بخيل، ويمكـن أن نطلق عليها صورة كوميديّة، فهي حملت التتابع والتوتّر بيـن الطرفيـن، وبلغت ذروة ثـم انفرجت في قفلة ضاحكة مـن ذلك البخيل، وكانت الافتتاحيّة تكثيفـاً تصويرياً كمَن فيه سعيُ الشاعر وعناؤه للوصول إلى ما يعينه، ولكنّ الوجهـة انجلت عن صخـرة لا منفذ فيها لماء يتخلل، ولا يُقدر على تحريكها، وهكذا تمّ التمهيـد المجمِل للموقـف، ثمّ تتابعت الحركة الدراميّة تشدّنا إليها:

كدحتُ بأظفاري وأعملتُ معولي
فصادفتُ جُلموداً من الصّخرِ أملسا
تشاغلَ لمّا جئتُ في وجه حاجتي
وأطرقَ حتّى قلتُ قد مات أو عسى
وأجمعتُ أن أنعاهُ حين رأيتُه
يفوقُ فُواقَ الموت حتّى تنفّسا
فقلتُ له لا بأس لستُ بعائدٍ
فأفرخَ تعلوه السّمادير مَلْبَسا[٢٨]

لم يكتـف الحطيئة بهذا الأداء الدرامي فـي مواضع من شعره، فـكان يغتنم فرصاً ليستعرضـ قدراتـه الدراميّة، إنّنـا نراه، خاصّـة بعد تقدّمه في السـنّ وذيوع صيته ومكانته في الأرجاء، يحضر مجالس بهيئة بسيطة،لا يعلن عن نفسه، وفي لحظة يكشف عـن شخصيّته، ويفاجـئ الجميع بمعرفته الأدبيّة والنقديّة يروي الأشعار ويعلّق عليها ويفاضل بين أصحابها، وهنا يجدّد انتصاره أو تحدّيـه ليكون في الـذروة من الاهتمام والتقدير. ولا تغيب هنا استفادة بديع الزمان

الهمذانــي فيما بعدُ فــي مقاماته من هذا بابتــكار شخصيّة أبي الفتــح الإسكندراني الذي يتخفّــى في المواقــف المختلفة، ثم تُكشــف هويّته في اللحظات الأخيرة، وعبر قفلة دراميّة.

كان الموقــف الأوّل مــع سعيــد بــن العاصــ بالمدينة وكان واليــاً عليها، فأراد رجالــه إبعاد رجل تقــدّم وجلس بين وجوه القــوم في المأدبة التــي يقيمها، فطلب أن يتركــوه، وعندما أخذوا في تــداول الشعر تدخّل الحطيئــة، واستعرض ما يراه أفضل الشعر وأحسن الشعراء، وقدّم نفسه واحداً منهم: «لحسبك بي عنــد رغبةٍ أو رهبة إذا رفعتُ إحدى رجليّ علــى الأخرى، وعويت عُواء الفصيل الصادي، فقال: «سعيد» ومَن أنت؟قــال: الحطيئة، قال: فرحّب به سعيد، ثمّ قال: أسأتَ بكتماننــا نفسك منذ الليلة، ووصله وكساه[٢٩]».

أمّــا الموقف الآخــر فهو أكثــر إثارة وإدهاشــاً، وفيه دلالات متعــدّدة تؤكّد ما ذكرنــاه قبلُ عن أنفــة الحطيئة، فقد رأى جماعة أمام دار عتيبة بن النهّاس العجلي وهــو من وجوه بكر بــن وائل، فدخل عليه فــي عباءة فلــم يعرفه عتيبة، ولــم يسلّم عليه، فقال له: اعطني، فقال له عتيبة: ما أنــا على عمل فأعطيك من عَدده، وما في مالــي فضلٌ عن قومي، فقال له الحطيئة: لا عليــك وانصرف «وهنا نبّه عتيبةَ واحدٌ مــن الحضور عــرف الحطيئــة، وقال له ستعرّضنا للشرّ» فقال: ردّوه، فردّوه، فقال له عتيبة: إنّك لم تسلّم تسليم أهل الإسلام، ولا استأنســتَ استئناس الجار، ولا رحّبتَ ترحيب ابن العــمّ، وكتمتنــا نفسك كأنّك كنت تطلب العلل علينا، اجلس فلك عندنا ما تحبُّ، وسألــه: من أشعر العرب، فقال: الذي يقول:

ومَن يجعل المعروفَ مِن دون عرضه
يفِره ومن لا يتّقي الشتمَ يُشتمِ

يقصــد زهير بــن أبي سلمى ثــمّ قال عتيبــة لوكيلــه: اذهب به إلــى السوق فلا يشيرن إلى شيء إلاّ اشتريتَه له، فكان يعرض على الحطيئة اليُمنــة والخزّ وبياض مصر والمرويّ فلــم يُرد ذلك، وأشار إلى الأكسية والكرابيس الغلاظ والعبــاء، فاشترى منها بمئتي درهم، واشترى له قطفاً وحمّل راحلة تمــراً وأخرى بُرّاً، فقال لــه: حسبك، فقال لــه الوكيل: لقد أمرنــي أن أبسط يدي لك بالنفقــة، فقال لــه: لا حاجة لقومي في أن تكون لهذا عليهم يدٌ أعظم من هذه.

وودّع الحطيئــة عتيبــة ببيتين يحملان حقيقــة الموقــف واقعةً جــرت، ويسبران أغوار النفس!:

سُئلتَ فلم تبخلْ ولم تعطِ طائلاً
فسيّانَ لا ذمٌّ عليك ولا حمدُ
وأنت امروٌ لا الجودُ منك سجيّة
فتعطي وقد يُعدي على النائل الوجدُ[30]

لقد أردتُ أن نرى الحطيئة من زوايا متعدّدة، وأن نقف مليّاً عند شخصيّة الفنّان التي أتاحت له أن يعيد التوازن لحظوظه كما يريدها، لا كما جاءته مشوبة بما يكدّرها في بعض جوانبها، ونحن في هذا نخفّف من غلواء من صوّروه بسلبيّة ليست عادلة في قراءة أحواله وأخباره، وبطبيعة الحال هذه قراءة تتطلّع إلى أن تفتح الحوار، وتحرّك السكون الذي يعتري صفحات كثيرة في أدبنا.

الهوامش

١- فرّوخ عمر، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت (١٩٨٤م)، ط٥، ج١ ص (٣٣٣-٣٣٨)، وضيف شوقي، تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، (١٩٧٦، ط٧، ص٩٥-١٠٠)، والبستاني فؤاد إفرام، الروائع، عدد الحطيئة، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت (١٩٣١م).
٢- الجمحي محمّد بن سلاّم، طبقات فحول الشعراء، تحق محمود شاكر، دار المدني، جُدّة، (١٩٧٤،ج١، ص٣٧٨).
٣- ابن قتيبة عبد الله، الشعر والشعراء، تحق. أحمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، (١٩٨٨م)،ج١، ص(٣٢٢-٣٢٨).
٤- الأصفهاني أبو الفرج «علي بن الحسين»، الأغاني، دار الثقافة، بيروت، (١٩٥٥م). ج٢، ص١٣٦.
٥- ابن سلاّم، طبقات،١، ص٣٧٢.
٦- الأصفهاني الأغاني، ٢، ص١٣٨.
٧- المعرّي أبو العلاء «أحمد بن عبد الله بن سليمان»، رسالة الغفران، تحق. عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، القاهرة، (١٩٥٠م) ص٢١٧-٢١٨.
٨- الأصفهاني، الأغاني، ٢، ص١٣٠.
٩- الأصفهاني الأغاني، ، ص١٣٦.
١٠- الأصفهاني، الأغاني،١، ص٢٤٨-٢٧٦.
١١- الأصفهاني، الأغاني١، ص٢٧٦-٢٧٨.
١٢- الآمدي، «أبو القاسم الحسن بن بشر»، المؤتلف والمختلف، تحق. عبد الستّار فرّاج، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، (١٩٦١م)، ص١٩٢.
١٣- الأصفهاني، الأغاني، ٢، ص١٥٢.
١٤- الحطيئة، «جرول بن أوس»، الديوان، تحق. نعمان أمين طه، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، (١٩٥٨م)، ص٨٢.
١٥- الحطيئة، الديوان، ص٧٠.

١٦- الحطيئة، شرح الديوان، أبو سعيد السكّري، دار التقدّم، القاهرة، (١٩٠٥م)، ص٢.
١٧- الأعشى، الديوان، تحق. د محمّد محمّد حسين، مكتبة الآداب، القاهرة (١٩٥٠م)، ص(١٣٩، ١٤٩، ٢٠٤)،
ولبيد، الديوان، تحق.د. إحسان عبّاس، وزارة الإعلام، الكويت، (١٩٨٤م)، ص(٣٣١، ٣٤٣).
١٨- الأغاني٢، ص ١٤٨.
١٩- الأغاني٢، ص١٥٦-١٥٧.
٢٠- الأغاني٢، ص١٤٩-١٥٠.
٢١- الأغاني١٧، ص١٩١-١٩٢، والديوان، ص. ٨٥-٨٦.
٢٢- الأغاني٢، ص ١٥٠-١٥٤.
٢٣- الحطيئة، الديوان، ص ١٨.
٢٤- الحطيئة، الديوان ص١٢٨.
٢٥- الحطيئة، الديوان، ص١٤٠.
٢٦- الحطيئة، الديوان، ص١٦٩.
٢٧- الحطيئة، الديوان، ص٣١٠.
٢٨- الحطيئة، الديوان، ص٢٨٢.
٢٩- الأغاني٢، ص١٣٩.
٣٠- الأغاني٢، ص١٤٠، الشعر والشعراء ج١، ص٣٢٤، الديوان، ص٣٢٦.

التلعفري الشيباني: شاعر من العصر الأيوبي

ماجدة رحيباني ❀

محمد بن يوسف بن مسعود الشيباني، شهاب الدين أبو عبد الله (٥٩٣- ٦٧٥ هـ) وكلمة شهاب الدين تفتح نظرنا إلى ظاهرة الألقاب في هذه الفترة (العصر الأيوبي) نسبته إلى «تل أعفر» بين سنجار والموصل (أي شمال العراق) ولد وقرأ بالموصل، نبغ في الشعر مبكراً، وتوصل من خلاله إلى قلوب الملوك والأمراء.

قال في مدح السلطان:

قل للملوك تنحّوا عن ممالككم

فقد أتى آخذ الدنيا ومعطيها

سافر إلى دمشق فكان من شعراء صاحبها (الملك الأشرف موسى الأيوبي)، وابتلي بالقمار (وهي زاوية مهمة جداً في حياته) نقم عليه الأشرف لتهتُّكِهِ واستهتاره وميله للقمار والخمر فطرده إلى حلب في أيام الملك العزيز غازي بن صلاح الدين (٦١٣-٦٣٤هـ) فأكرمه صاحبها وقرر له رسوماً فجعل يضيعها في القمار فنودي في حلب مَنْ قامر مع شهاب الدين قطعت يده، وضاقت عليه الأرض فعاد إلى دمشق، ثم ذهب

❀ باحثة سورية.

إلى مصر ولكنّ انطباعه عنها في سفره يحمل التبرم وخيبة الأمل:

مالي ولمصر لا سقاها ربي
غيثاً غدقاً من ساريات السُحبِ
بالروح دخلتها وبالقلب فلا
بالروح خرجتُ ولا بالقلب

وبقي يحن إلى دمشق حنيناً يملأ أحلامه وذكرياته، ثم أقام في «حماة» في ظل الملك المنصور الثاني محمد (٦٤٢- ٦٨٣هـ).

ومن حنينه إلى دمشق:

فلله أيام تولت بجانبي
«يزيد» فقد كانت ببهجتها العُمرا
وما كان مقصودي يزيد وبرده
ولكن قصدي كان أن أنظر الزهرا

وفي البيتين توريات لطيفة حسنة.

توفي التلعفري في حماة وقد نظم في ساعة وفاته (٦٧٥هـ).

«أحماةُ» إن عهود أهلِك أُحكمتْ
أسبابها عندي فليست تُنْقَضُ
أرض أروح بأرضها متروّحا
أتُرى تَرى عيني بمن تتعوّضُ؟

إذا عرَّجنا الآن على إحدى قصائد التلعفري لدراسة خصائص شعره خاصة وخصائص الشعر الأيوبي عامة نرى أن الشاعر يقسمها وفاق الأقسام التالية:

أ- مقدمة نفسية يتحدث فيها الشاعر عن هواه الذي أحال نهاره قلقاً وليله أرقاً:

١- نهاري كله قلقٌ وفكرُ
وليلي كله أرقٌ وذكرُ
٢- يقسّمني الهوى كمداً وحزناً
فأمرهما لحتفي مستمرُ

فإذا جاوز ذلك انتقل إلى الحديث عن الخمرة فوصفها في أربعة أبيات:

٣- فقمْ نخطبْ عروساً بنتَ كرمٍ
لها الأموالُ والألبابُ مهرُ
٤- عجوزٌ قد أسنّتْ وهي بكرٌ
ومن عجبٍ عجوزٌ وهي بكرُ
٥- مُفرِّحةٌ يفرُ الهمُّ منها
فليس يضمُّها والهمُّ صدرُ
٦- إذا برزتْ وجنح الليل داجٍ
تبلّج من سناها فيه فجرُ

ويقوده وصف الخمرة إلى الحديث عن الساقي ووصفه في هذه الأبيات:

٨- يطوف بها علينا بدرُ تمّ
منيرُ عمرُه خمسٌ وعشرُ
١٢- إذا وافى بها يهتزُ عِطفاً
فغصنُ نقاً وشمسُ ضحىً وبدرُ
١٤- متى ما رمتُ من عطفيه ضماً
نهاني عنه من جفنيه كسرُ
١٧- وينهرُ سائلاً من دمع عيني
ويجري منه في خديّ نهرُ
١٨- كَلِفتُ به أغنّ الطرفِ أحوى
له قدُّ كغصنِ البان نَضْرُ

هذه معانٍ ليست جديدة بل مطروقة ونحن لا ننكر على الشعراء أن يتناولوا المعاني المعروفة ولكننا نطمح إلى أن يكون تناولهم للمعنى تناولاً جديداً، أن يضيفوا للمعنى القديم بعض الإضافات وأن يذيلوا عليه بعض التذييلات الجديدة التي تجعله وكأنه أخرج مخرجاً جديداً... وهكذا فإننا لا نريد من الشاعر المعنى الجديد دائماً وإنما نرتضي منه الأسلوب الجديد أو الصورة الجديدة أو الإضافة الجديدة والتلعفري ما أشد ما أساء إلى المعاني القديمة حين عرضها بمثل هذا الإيجاز الممل والتركيز المسيء ولنتمثل البيت:

فقم نخطب عروساً....

هنا قصة كاملة: وجود عروس وخاطب ومهر وقد استثمر أبو نواس هذا المعنى استثماراً ضخماً جداً فأنشأ عدداً من المقطوعات التي قامت على أساس هذا التخيل (الخاطب والعروس والمهر) ولكنه لم يضغط ذلك ولم يقتله بهذا الأسلوب التقريري النثري ولم يمت فيه الأجزاء والتفاصيل وإنما نثره في ألوان من الحوار وجزئيات من المعاني أحيت القطعة وأشاعت فيها الألق والحيوية وحرارة الحديث والحوار واستطاعت أن تترك أثرها الكبير في النفس.

قال أبو نواس:

يا خاطبَ القهوةِ الصهباء يمهرُها
بالرطلِ يأخذُ منها ملأه ذهبا
قَصُرتَ[1] بالراحِ فاحذرْ أن تُسمِعها
فيحلف الكرمُ أن لا يحملَ العِنبا
إني بذلتُ لها لما بَصُرت بها
صاعاً من الدرِّ والياقوتِ ما ثُقبا
فاستوحشتْ وبكتْ في الدَّن قائلةً
يا أمُّ ويحَك أخشى النارَ واللهبا
فقلت «لا تحذريه عندنا أبداً»
قالت ولا الشمس قلت «الحرُّ قد ذهبا»
قالت فمن خاطبي هذا فقلت «أنا»
قالت «فبعلي» قلت «الماءُ إن عَذُبا»

ولنأخذ مثلاً آخر من وصف الخمرة للتلعفري:

إذا برزت وجنح الليل داج
تبلج من سناها فيه فجر

فالشاعر في هذا البيت يتحدث عن إشراقة الخمرة وأضوائها ولكنه اكتفى من ذلك بهذا الحديث الجامد الذي قرر فيه المعنى تقريراً جافاً بقوله: أنوار بمثابة الفجر حين يشق جنح الليل. فالشاعر هنا عرض لونين فقط متتاليين، ولكن عند شاعر آخر كأبي نواس في همزيته الأولى نلمح كيف يستطيع الشاعر المبدع أن يتحدث عن إشراق الخمرة وعن أضوائها وألوانها وتلألئها، ومن تتابع هذه الألوان وتفاعلها والتقائها بما حولها في كثير من

الصـــور الآسرة القوية التي تحاول أن تنظر إلى المعنى من زاويـــة واحدة، وبعين بعيدة قادرة علـــى أن تميز الألـــوان وتفاعلها في استيعاب معجب.

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها
لـو مسّـها حـجـر مسـتـه سـرّاءُ
قـامتْ بإبريقها والليلُ معتكرٌ
فلاحَ من وجهِها في البيت لألاءُ[٢]
فأرسلتْ من فمِ الإبريق صافية
كأنـمـا أخـذُهـا بالعين إغـفـاءُ[٣]
فلو مزجتَ بها نـوراً لمازَجها
حـتـى تـولَّـد أنـــوارٌ وأضـــواءُ

واضـــح إذن أن المعانـــي عند التلعفري تتصـــف بأنها ليست بجديـــدة لا في أصلها ولا في عرضها ولا في أسلوبها.

اتخذت طريقة التقرير فخلت من عنصر المفاجأة والمبادهة والاستفهام والنداء وهي الفارق بين الأسلوب النثري والشعري

جاءت مكدسة بعضها فوق بعض وليس العمـــل الشعري قائماً علـــى غزارة المعاني وعلـــى تكديسهـــا وإنما يقوم علـــى اختيار جانـــب من جوانب المعاني أو جزئية ما من معنى ثم إخراجه مخرجاً شعرياً.

سيطـــرت على المعاني روح من المنطق الـــذي قتل لحظـــات الإعجـــاب والانفعال فالبيت الذي يقول:

عـجـوزٌ قـد أسـنّـتْ وهـي بكرٌ
ومـن عـجـبٍ عـجـوزٌ وهـي بِكرُ!

معنى البيت فـــي الأصل يقوم على هذه المفارقة الضخمـــة والتناقض الكبير يبين سن العجوز وسن الفتوة، وأن الخمرة قادرة علـــى أن تجمع بينهما معاً فهي عجوز وهي بكر، ومع أن هذا التناقض أو هذه المفارقة كانت مجـــالاً لعمل فني كبير فـــإن الشاعر هنـــا بتأثير الـــروح المنطقيـــة قتل العجب الذي يولِّد هذا التناقض بتعبير: ومن عجب عجوز وهـــي بكر لأنـــه نقلنا إلـــى جو من البساطة والبدائية والعجب السطحي الذي لا عمق له ولا جذور.

فـــإذا انتقلنا إلى الأسلـــوب في مختلف مظاهـــره وجدنا مايلـــي: إن العنصر الذي يتحكم في هذا النص ويعطيه لونه الشاحب هو الصناعة، فالخضوع للصناعة البديعية هو الذي ضيق علـــى الشاعر مجاله وحوَّلَ إبداعـــه عـــن الطريـــق الأصلـــي إلى هذه الزخرفات اللفظية التي لا قيمة لها وحدها إذا غاب عنصر الإبداع الأصيل.

ظهرت هذه الصنعة في البيت الأول حين جمـــع الشاعر بين الخطبة والعروس والمهر والأموال وهو مـــا يسمونه (مراعاة النظير) وفي البيت الثاني طابق بين عجوز وبين بكر وأعـــاد الألفاظ نفسها فـــي الشطر الثاني،

وكذلك حكمته الصنعة في البيت الرابع حين جمع بين الليل والفجر والتبلج والنهار وأما في البيت الأخير فقد جمع بين الفضة والذهب بالمقابلة بين الكأس والخمرة.

نحن لا ننكر البديع ولكننا ننكر أن يكون وحده هو الذي يسوق الشاعر ويحكمه ويحول بينه وبين الانطلاق.

أمَّا التراكيب التي نلمحها في هذه الأبيات فنحن لا نتردد في أن نقول إنها بعيدة عن مستوى القوة، إنها ليست جزلة كتراكيب الجاهليين، وليست سهلة كتراكيب العباسيين، وليست لينة كتراكيب شعراء ما قبل عصور الانحطاط، ولكنها انحدرت إلى منطقة الضعف الذي بدا في ألفاظها وفي تناسق هذه الألفاظ وإلا نكيف نصف تركيب: فأمرهما لحتفي مستمر، غنيتُ بكأسها وبها ولم لا، ثم كيف نفسر هذا التركيب الذي اضطر فيه الشاعر إلى تقسيم عمر الساقي إلى العددين: عشرة وخمسة فقال: عمره خمسٌ وعشر.

ومع ذلك فنحن نلمح بعض التراكيب التي لا تبلغ مرتبة الضعف وإنما تحمل شيئاً من عناصر القوة، وذلك يعود إلى الثقافة الشعرية للشاعر وإلى تأثره ببعض التراكيب المعروفة والشائعة كقوله: فليس يضمها والهم صدر.

لننتقل الآن إلى دراسة بقية عناصر العمل الشعري: عنصر الخيال مثلاً، هل يبدو أن للخيال مكانة في هذا العمل الشعري؟

لا نتردد في القول إن الشاعر لا يحمل هذه القدرة المتخيلة القوية التي يملكها الشعراء الموفقون. وذلك أن عنصر الخيال هو الذي يساعد الشعراء عادةً على أن يصوغوا معانيهم في قوالب جديدة ليس لغيرهم بها سابق عهد، وخيال الشاعر هو الذي يستطيع أن يدفعه ليجمع بين أشياء تبدو متباعدة ولكن الشاعر يستطيع أن يلمح بينها نقاط الالتقاء ليشكل هذه الصورة الجديدة المبتكرة فالفرات مثلاً لايتصل بالنعمان وليس بينهما مشابه، ولكن الشاعر هو الذي استطاع أن يقع على مناحٍ من التشابه بين الفرات والنعمان (الفرات في الغزارة والتدفق والنعمان بالكرم والجود) فألَّف الصورة الرائعة التي نعرفها.

قال النابغة الذبياني في مدح النعمان:

وما الفراتُ إذا جاشتْ غواربه
ترمي أواذيّهُ العبرينِ بالزبدِ
يوماً بأجودَ منه سيبَ نائلةٍ
ولا يحولُ عطاءُ اليومِ دون غدِ

فإذا نظرنا هنا في أبيات التلعفري وجدنا خياله قاصراً قصوراً واضحاً، وكأنه

ملكة معطلة ليست لها أي قدرة على الحركة والانطلاق، ذلك أنه يمد يده إلى التراث الشعري ولكنه لا يحاول أبداً أن يغير في الأشياء التي يقتبسها، ولا يحاول أن يضيف إليها أو أن يغيّر في تلاوينها.

نلاحظ بعد ذلك أن الشاعر حاول أن يعوِّض عن قصور الخيال بعملية جمع يلم فيها مجموعة من التشابيه بعضها وراء بعض من دون أن يجاوز ذلك إلى أن يضرب الصور بعضها ببعض لتوليد صورة جديدة.

والنقطة الثالثة التي نستطيع أن نقولها هنا: إنَّ الخيال لا يتجاوز مرحلة التشبيه بحال من الأحوال فأقصى ما يصل إليه خيال الشعراء أن يختاروا واحداً من هذه التشابيه المعروفة في الأدب العربي ونحن نعلم أن الخيال يبدأ بالتشبيه ولكنه يتابع تقدمه بعد ذلك ليرسم الصورة أولاً ثم يمضي بعيداً ليكوّن المشهد الكامل، وذلك هو نصيب الشعراء المجوِّدين.

هنالك ما هو أدعى إلى التنبيه عند هؤلاء الشعراء ذلك هو: محاولة الإصرار على أنواع معينة من التشابيه فالقوام دائماً يشبه الغصن وكأنما ليس هنالك أية قدرة على الانتقال إلى تشبيه آخر، وقد اضطر التلعفري في هذه الأبيات أن يذكر الغصن مرتين. مرةً (فغصن نقا) ومرة (كغصن البان).

أمَّا عن العاطفة في هذه الأبيات فنحن لا نستطيع أنْ نجزم هل كان الشاعر يحمل هذه العاطفة في نفسه أي هل كان هناك واقع معين صادق دفعه إلى هذا النوع من الحديث.

إنَّنا لا نملك أن نثبت ذلك ولا أن ننفي، ولكن الحديث الشعري نفسه يطلعنا على أن العمل الفني الذي قام به هذا الشاعر وأمثاله في مثل هذه المواقف إنما كان عملاً تقليدياً صِرفاً، إنه لم يكن ناتجاً عن معاناة وعن ممارسة لمجالس الشراب أو لمواقف الحب أو لغير هذه وتلك من المواقف إنما كان عملاً تقليدياً صرفاً.

إنَّ وجود العاطفة يقتضي وجود تجربة بذاتها تولِّد عند الشاعر نوعاً خاصاً من العواطف، ثم يكون من هذه العواطف وتفاعلها ما يساعد الشاعر على أن يصوغ تجربته بشكل فني موفق.

أمَّا عن أثر العاطفة في العمل الفني فنلاحظ أن التلعفري لم يكن قادراً على أن يعوض النقص العاطفي بالقدرة على تمثل هذه المواقف والاندماج فيها، ولم يكن عنده من القدرة على التعبير ما يساعده على

هذا النقص، ولقد جاء شعره وكأنه مجرد تجريداً كاملاً من هذا العنصر الأساسي في العمل الشعري.

وكذلك نلاحظ -في محاولة منا تكوين فكرة عامة عن مثل هذه القصائد- أن نواحي الضعف فيها لم تكن بسبب واحد فقط: قصور الخيال وحده ولا فقر المعاني وحده، ولا ضعف العاطفة وحده وإنما كان يضاف إلى ذلك عامل آخر معوق هو: ضغط الصناعة وإلحاحها وحرص الشاعر عليها.

من مظاهر الصناعة

أولاً: الجمع بين ألوان من البديع في بيت واحد، فهو في البيت الأول يطابق بين النهار والليل، ويجانس جناساً ناقصاً بين قلق وأرق، وبين فكر وذِكر.

ثانياً: بعض آثار الثقافة القرآنية مغلفة بالصناعة كقوله: وينهر سائلاً من دمع عيني... تورية في لفظ سائل من سال أو سأل، وهناك إشارة إلى الآية القرآنية وأما السائل فلا تنهر...».

ثالثاً: مصطلحات النحو والاستمداد منها وإخضاعها لمعاني الغزل كما في البيت:

متى ما رمتُ من عِطفيه ضماً
نهاني عنه من جفنيه كسرُ

خصائص شعر التلعفري: مما يؤيد فقر هؤلاء الشعراء أننا نجد عندهم ظاهرة التكرار الممل للمعاني نفسها والصور ذاتها التي تعرض بها هذه المعاني. وعلى سبيل المثال إشارته في ديوانه إلى المعنى نفسه ثلاث مرات في صفحتين:

متى ما رمتُ من عِطفيه ضماً
نهاني عنه من جفنيه كسرُ
لك جفنٌ عجبتُ إذ فاز بالنّصـ
ـرِ على ضعفِه وفيه انكسارُ
لم ينتصر وهو المحارب دهره
إلا بذابل جفنه المكسور

كانت العملية الشعرية تتم من المعنى -الصورة- التزيين فأصبحت في عصور الانحطاط من: التزيين -صورة مستقرة في الذهن- المعنى.

من الواضح أن العمل الشعري السليم يبدأ في نفس الشاعر أثراً لتجربة معينة أو تمثلاً لتجربة معينة.

وهو يبدأ بالمعنى ويسوق المعنى إلى محاولة من الشاعر في إبراز هذا المعنى من المنطقة النفسية الخاصة، إلى المنطقة المشتركة بين الناس وهي منطقة التعبير، وبذلك يتخذ المعنى تعبيراً معيناً في صورة معينة.

ثم يأتي بعد ذلك عامل الزينة التي يلجأ إليها الشاعر في لونٍ من الترف الفني، وهذا هو الطريق الطبيعي أما في عصور الانحطاط فالملاحظ أن الشاعر عجز أن يولد المعنى أو أن يرسم الصورة وبدأ بداية معاكسة تماماً للخط الطبيعي فبدأ من الزينة نفسها أي من الصناعة، وجعل يستوحي معانيه من هذه الصناعة نفسها.

ونحن لا نهتم من أين جاءت المعاني ونتقبلها، غير أن الواقع: الصناعة لاتساعد على توليد معانٍ واسعة (إذا كانت هي المنطَلق) إنها تولد جزئياتٍ صغيرة لا يمكن بحال أن تنهض فتكوِّن صورةً أو مشهداً أو تشبيهاً طويلاً. إن مداها بطبيعته قصير، ولهذا فإن شعراء عصر الانحطاط كانوا يقفزون قفزات سريعة وقصيرة من صورة إلى صورة أو من معنى إلى معنى دون إشباع لواحدة من الصور أو إيضاح لواحد من المعاني، وعليه فإن الابتداء بالزينة هو الذي قطع الطريق على الشعراء، ومثال ذلك الأبيات الثلاثة السابقة فالملاحظ فيها أن الشاعر بدأ فيها من لفظة الكسر أو التكسر أو الانكسار في الجفن فلم يبحث عن أثر ذلك في نفسه، ولم يحاول أن يبين عما كان من انفعاله بهذه الجفون الذابلة المريضة أي أنه أهمل تماماً الزاوية النفسية فلم ينطلق منها، وإنما بدأ باللفظة نفسها.

فبتأثير من الطباق الذي خضع للثقافة النحوية (وهي ثقافة تركت طوابعها على شعر هؤلاء الشعراء) تذكر الشاعر كلمة ضم، والضم نفسه ساقه إلى اتجاهين: الضم بالمعنى النحوي، والضم بالاتجاه الغزلي كما أن الكسر له دلالته النحوية، وله بالوقت نفسه إشارته الغزلية، ومن مجموع ذلك كوّن الشاعر بيته.

وبتأثير من الطباق اللغوي الصرف انتصب في ذهن الشاعر كلمتان –نصر وانكسار– ومنهما معاً قامت هذه العملية (الحربية) التي جعلت الموصوف ينتصر وعلى الرغم من انكسار جفنه وهكذا تكون البيت في شكله الجديد.

وعليه أرجو أن أكون قد قدمت صورة واضحة عن خصائص الشعر في هذه الفترة عامة.

وخصائص شعر التلعفري خاصة، كما ألقيت الضوء على العوامل الكثيرة التي تدخل في تشكيل العملية الشعرية عند هؤلاء الشعراء مما جعلهم يتخلفون عمن سبقوهم من الشعراء المجيدين الموفقين، وبذلك أطلق عليهم شعراء عصر الانحطاط.

الهوامش

١- قصّرت بالراح: لم تعطِ الخمرة حقها.

٢- لألاء: بريق.

٣- لشدة نورها مضطر أن يكسر طرفه ويضم أجفانه مخافة الوهج وكأنه في حالة إغفاء.

المصادر

١- ابن شاكر الكتبي (محمد): فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت (١٩٧٣م).

٢- ابن أيبك الصفدي: الوافي بالوفيات.

٣- ابن كثير (عمر):البداية والنهاية، بيروت «ط٣»، (١٩٧٩م).

٤- التلعفري الشيباني (محمد): ديوان التلعفري تحقيق رضا رجب.

٥- المقري التلمساني (أحمد)، «ت ١٠٤١ هـ»، نفح الطيب.

٦- أبو شامة: عبد الرحمن «عيون الروضتين في أخبار الدولتين»، تحقيق أحمد البيومي، وزارة الثقافة، دمشق (١٩٩٢م).

بواكير الإبداع في الشعر

عبد اللطيف الأرناؤوط ❋



تدخل مشكلة تشجيع المواهب الأدبية في إطار علم الأدب، وهو علم له أثر هام في قيادة التطور الثقافي للمجتمع، ومن أولى واجباته المشاركة في تربية أجيال جديدة من فناني الكلمة على تجربة أسلافهم وقد وعوها علمياً ولكن.. كيف يتيسر للأجيال أن تتمثل تجارب السلف الأدبية، إذا لم يقم علم الأدب نفسه على أسس علمية؟؟.. وما دور الناشئة في تطوير الأدب نفسه ودفعه إلى آفاق من الحداثة؟

❋ أديب وناقد ومترجم سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

لاشك فـي أن مشكلة تنمية المواهب الأدبية الناشئة وتشجيعها ذات أبعاد متعددة لها صلة وثيقة بعلم النفس وعلم الجمال ومبادئ الفن والقوانين الاجتماعية المختلفة، إنها ذات طبيعة معقدة ومتداخلة شأن كل مشكلات الإبداع الفني.

سنتوقف عند بعض الأمور الجوهرية التي تمسّها في محاولة لتجلية أبعادها المتشعبة..

- دوافع الإبداع الأدبي:

ثمّة طفل موهوب يتجلى اهتمامه بالشعر والأدب منذ الصغر، إنه يكتب لنفسه أولاً، وقد يملك الجرأة فيقرأ لزميله ما كتب وقد يدفعه شيطان الشعر قبل أن يبدع إنتاجاً ذاتياً إلى قراءة دواوين الشعراء الكبار..

إنَّ موهبته تتحفز وتتغذّى، وتحاكي، وهي بركان ثائر يلتمس له طريقاً للتدفق، وحممه الحبيسة تتحسس قشرة الأرض لتجد لها منفذاً إلى الخارج، حتى إذا وجدت نقطة ضعف في هذه القشرة حطمتها وتدفقت تحمل معها الجميل والقبيح، وعلى مرّ الزمن تصفو شعلة ناره المقدسة وتتخلص من كل الأدران العالقة بها.

وهكذا، يتخبط الناشئ أولاً في محاولات الإبداع التي تحمل مع صفائها كثيراً من الأدران والبدائية غير أنها على مرّ الزمن تزداد صفاءً وأصالةً وتعبيراً عن الذات.

غير أن افتراضنا أن الناشئ لابدَّ من أن يمرّ بمرحلة من التجربة، وأن نتاجه يزداد صفاءً مع الزمن لا يخلو من مغالطة، مع أن الوقائع الجازمة تثبت أن نتاج الموهوب الأول لا يخلو من العيوب.. وأن شاعريته تتحسن على الدوام، يؤيد ذلك ما يقيِّمه النقاد من مقارنات بين شعر البدايات عند الشعراء، وشعر النضج، وبينهما نرى الفارق الملحوظ من حيث الأصالة والكمال الفني، غير أن المسألة تأخذ بعداً آخر، ذلك أن إحساس الأديب المبتدئ يمتاز بالتدفق والحرارة، وتعبيره يحفل بالحيوية وصفاء الانفعال، إذ إنه لم يكن قد أصبح بعد أسيراً للصنعة الفنية، وتقنيات العمل الأدبي التي يمتلكها الناشئ عبر التجربة، ومعنى ذلك أن بعض شعر البدايات قد يكون من حيث حرارته وصدقه أقرب إلى نفوسنا من ذلك الشعر المصقول وفق مواصفات فنية اكتسبها الشاعر بالدربة الطويلة، وإن كان ذلك الشعر لا يحمل من المواصفات الفنية ما يحمله شعر مرحلة النضج.

يُـــروى أن «حســـان بن ثابـــت» نظم أول مانظم شعراً في وصف قبّرة رآها فقال:

يالك من قبرة بمعبر خلالك الجـو فبيضي واصفري
ونقري ما شئت أن تنقري

وهـو شعر إن كانت تنقصه عناصر الفن الشعري، ويفتقر إلى الرصانة والجلالة، إلاَّ أنَّه يمتاز بالصدق والحيوية والالتصاق بالحياة، ويعكس عفوية الشاعر وبراءة التعبير عنده..

ونسبت إلـــى المتنبي في بدايات نظمه أبيات منها:

مـا مـقـامـي بـأرض نـخـلـة إلاَّ
كـمـقـام المسيح بـيـن الـيـهـود

ومـــع مافي هذا الشعر مـــن مبالغة كان من الممكـــن أن تحدّ منهـــا تجربة الشاعر الحياتيـــة الطويلة، إلاَّ أن ذلك لم يقع، فقد ظـــلَّ المتنبي تغذيه قوة نفسه محافظاً على اعتـــداده بذاتـــه والمبالغـــة بإظهار عظمة شخصيته وتفرده.

فشعر البدايات ليس بالضرورة محاولات فجّة لناشئ لم يتمرســـ بعد تجربة الشعر، بل نجد عند بعض الناشئين محاولات تلفت النظر وهي العلّام الذي ينذر الناس بظهور شاعر جديد...

إنَّ بعضـــ الناشئين يُطلون علينا وكأنهم يملكون نضجاً فنياً كاملاً، بل إن خصائص شعرهم الفنية تتجدد من محاولاتهم الأولى، ونـــادراً ما تتطور مع الزمن، وكأنها بصمات تنبئ عن الذات الفنية وسماتها المميزة.

وهؤلاء هم البـــذرات التي تنبئ بالخير، وتبعث على الأمل، أما أولئك الذين لا تتجلى موهبتهم، ولا يكشف إبداعهم عن نفسه منذ البواكير، فمن المشكوك فيه أنهم سيتحسنون بالمعاودة والدأب الطويل.

إنَّ مواهبهـــم كاذبـــة، وهـــم كمن ينطح فـــي صخر، ولعل من الخير لهم أن يتحولوا عـــن محاولات النظم المخفقة إلى اكتشاف هواياتهم الحقيقية.

ولا يتعارضـــ هذا مع مـــا زعمه النقاد من أن ثلاثـــة أرباع الإبداع الفني يقوم على الجهـــد والمثابرة وربعه يعزى إلى الموهبة، ذلـــك أنَّ الجهد المبذول مـــن الناشئ إنما يهدف إلـــى صقل الموهبـــة وتوجيهها في مسارها السوي، فإن لم يكن ثمة موهبة فلا فائدة مـــن الجهد ولا مردَّ لـــه، وحين قدم «جورج ديهاميل» حُكْمَه على الإبداع الأدبي، وأشار إلى أنه جهد ومثابرة فإنما أراد جهد الموهوبين لكـــي تتجدد مواهبهم إلى إبداع موجّـــه سليم، ولم يَـــدُرْ في خلده أن الجهد وحده من دون موهبة يمكن أن يخلق الشاعر أو الأديب أو الفنان.

إذن الإشكاليـــة فـي أنَّ كثيراً من الناشئة تقبل على نظم الشعر من دون أن تتثبت من

مواهبها ومدى صدقها، فيسقط مَنْ يسقط على الدرب، ويتشبث من يتشبث وراء سراب خادع فلا يجني إلاَّ الخيبة، ولكن بعد أن يزعج الناس ويفسد الأذواق بنتاجه الزائف، مما يدفعنا إلى بيان الأسباب التي تغري بعض الشبان بالمثابرة على نظم الشعر من دون أن تجد من ينصحهم بالعدول عن ذلك، غير أن النصح أحياناً لا يجدي القناعة الراسخة لأن الناشئ يعتقد أنه يملك موهبة كبيرة في الإبداع.. فما سر هذا الإصرار وما الدافع إليه..؟؟

❁❁❁

الدوافع الفردية:

إنَّ ذلك يقودنا إلى بيان دوافع نظم الشعر أو كتابة الأدب لدى الناشئة، فإذا استبعدنا الرغبة في الظهور الأدبي الذي لايتحقق لكل ناشئ، فإن علم الأدب يقدم لنا تفسيرات شتى للإقبال على ممارسة الأدب، فالنقد الغربي يردّ عملية الإبداع الأدبي إلى شعور بالنقص في شخصية المبدع أو اغتراب عن المجتمع يدفع صاحبه إلى التعويض عنه بالكتابة، فالفن عندهم تعويض عن الواقع الذي يعاني منه الناشئ..

وقد عالج الدكتور «مصطفى سويف» هذه النظرية في كتابه «الأسس النفسية للإبداع الفني» وبرهن على ذلك بتحليل شخصيات بعض الأدباء، كذلك ظلَّ علماء الجمال ومنظِّرو الأدب ومؤرخوه البرجوازيون في الغرب يلحُّون على استقلالية عملية إنشاء القيم الأدبية واستحالة تفسيرها بشيء إلاَّ بدور قوى اللاشعور المبدعة، وفردية الفنان الحرة الطليقة.

❁❁❁

الدوافع الاجتماعية:

أمَّا الاتجاه الثاني فيذهب إلى أن الأدب ينشأ من الإنسان، ولأجل الإنسان، فهو إفراز اجتماعي يتشكل ويتطور تاريخياً في إطار المجتمع، وليست حاجات الناس وأذواقهم هي التي تتغير وحدها في مجرى التطور التاريخي: «بل طبيعة الإنسان نفسها تتغير»، ولا يمكن للناشئ أن يبدع عازلاً نفسه عزلاً تاماً عن المجتمع، حتى فرديته ذاتها هي نتيجة التطور الاجتماعي، فالناشئ حين يبدع وينظم ويكتب إنما يعبِّر عن حاجة اجتماعية هي الحاجة إلى البوح والمشاركة والتعبير عن الذات في إطار الجماعة والتعامل مع الفن الذي هو ضرورة اجتماعية.

فالدوافع التي تدفع الناشئ للكتابة هي دوافع فردية واجتماعية معاً، ويدخل

في إطار الدوافع الاجتماعية ميل الإنسان إلى الجمال، وتمسكه بقيم الحق والخير والجمال، ومن هنا فإن دوافع كثيرة تحفِّز الشاب للتعبير عن ذاته تعبيراً جمالياً، ومنها الحب والوطنية والدفاع عن القيم والإفصاح عن العقد النفسية التي يعاني منها المراهق، وضروب الإحباط التي يتعرض لها، كالخيبة في الصداقة أو الروابط الأسرية.

ولاشك أن الدوافع الفردية تظل هي المحرك الأول للإبداع الفني، ولذلك يطغى شعر الحب على نتاج الناشئة، لأنه يعكس معاناتهم، فإذا تجاوزنا النظر إلى الإبداع الفني على أنه تعبير عن وضع (سيكوباتي) واعتبرنا أن الناشئ يلجأ إلى الإبداع الفني مدفوعاً بقيم جمالية بحتة، فإن هذا الرأي لا يعدو الصواب أيضاً، ذلك أن الطفل تنفتح عيناه على ضروب من الجمال الفني منذ أن تهدهده أمه في المهد، ثم يتشبع ميله الأدبي بالأغاني التي يسمعها في وسطه العائلي، فإذا ارتقى إلى عالم المدرسة والتعلم كان الأدب المدرسي زاده الذي يغذي ميوله الأدبية، ويكون له مثلاً إلاَّ أن إبداع بعض الناشئين الموهوبين يتجاوز أحياناً المحاكاة حتى ليتعذر إخضاعه لنمذجة معينة، مما يستدعي الشك في القدرة على تحليل كامل لطبيعة العناصر الفنية وبنيتها التي يقوم عليها نتاج الناشئ، وكل ما يمكن أن يقدمه النقد الفني في هذا المجال هو دراسة المسودات والرسائل والمفكرات والمذكرات التي تركها الناشئ والمقابلات الصحفية لمعرفة الدوافع الاجتماعية والنفسية والفنية التي حفزته على الكتابة، والاستعانة بها لتفسير إبداعه الفني وخصائصه.

ومهما يكن من أمر فإن إبداع الناشئ مرتبط إلى حد بعيد ببيئته من مؤثرات تلك البيئة الاجتماعية والفنية شريطة أن يملك الموهبة، فالشاب الذي يملك الموهبة، ويعيش في جو ثقافي وأدبي معين هو أكثر فرصاً للإبداع من شاب آخر موهوب، لكنه يعيش في بيئة ثقافية فقيرة، وكلاهما لا يدرج في عالم الفن مالم تتوافر لهما الدوافع النفسية التي تحفِّز على الكتابة والإبداع.

❁❁❁

الثقافة الفنية للناشئ:

وعلى الرغم من ذلك كلّه، فإنَّ للشعر غاياته، ولا يمكن للناشئ أن ينتج أدباً مقبولاً معتمداً على حدسه العفوي فحسب، وهنا تدخل مسألة إشكالية الثقافة الفنية للناشئ، إذ عليه أن يتمرس بالشروط الفنية للإبداع، وغالباً مايتم له ذلك عن طريق

قراءة التـراث الأدبي، وعليـه بالمقابل أن يدرك الغايات الاجتماعية والجمالية للأدب والفـن، وأن تكون له نظرتـه الخاصة نحو الفن، ولا يمكن إنكار دور الفنون التشكيلية الأخرى في الأدب عامـة، والشعر خاصة، كالموسيقـا التـي ترتبط بالشعـر ارتباطاً وثيقاً، فالناشئ الذي يكتب الشعر الحديث إنمـا يعتمد تقنيات تختلف كلياً عن تقنيات الناشئ الذي يؤثر الشعر التقليدي، وكلاهما يجب أن يتمتع برهافـة الحس الموسيقي، وبالمقابـل فإن فن التصوير الأدبي يستفيد من فن الرسم عموماً بسبب تشابه الخصائص بيـن الرسم والتصوير الأدبـي. فالمكونات الموضوعيـة للتصويـر تقـرّب الرسم من الأدب، مثلمـا يُقرّب مـن الموسيقا الإيقاع الموسيقـي فـي الشعر الـذي يستند إلى ذاتية المعبِّر، وبصـورة عامة فإن احتكاك الناشئ بالفنون الأخرى يهيئ له ثقافة فنية تنعكس على نتاجه الأدبي، ولا غنى للناشئ لكـي يبدع شعراً عن الثقافة اللغوية، فاللغة على حد تعبير غوركي: «هي العنصر الأول في الأدب»، على أنهـا ليست كل شيء في النتاج الأدبي، وإلاَّ فإننا نذكر موارب الأدب الأخرى وأدواته.

إنَّ مواجهـة الناشـئ للتعبيـر الأدبـي وأساليبه تستلزم أن يدرك كثيراً من خصائص هذا التعبير، فـإذا أراد أن يجاري الشعراء المحدثين، فإنَّ عليه أن يعرف كيف يتعامل مع اللغة الشعرية، فيختار اللفظة والجملة، وقـد يجد نفسه مضطـراً أن يحطم شبكة اللغـة الوظيفية عن طريـق المجاز ليعيد تركيب اللغة في إطارها الشعري المنشود، وليس هذا بالأمر اليسير على الناشئ الذي لـم يتزود بعدً، ولم تسمح له تجربته اللغوية بامتـلاك أسرار اللغة الجماليـة وغاياتها، ولذا فإن أكثر ما يتعثر به الشعراء الناشئون هو الجانب اللغوي في التعبير الأدبي.

إنَّ محاكاتهم للكبـار تظل فجّة ومغلوطة وبعيـدة عن غايـات الفـن مالم يتهيـأ لهم إمكانـات لغويـة متميـزة، وإن العفوية في التعبيـر لا تشفع لهم في بلـوغ آفاقٍ من فن الكلمـة يتمتع بها الشعراء الكبار، وكثير منهم يعمد إلى الإغارة على تراكيب الشعراء الكبار وأساليبهـم في التعبير، وهـم يحسبون أنهم بامتلاكها يقبضون على أسرار الناس المقدسة، فالتقليد لا يجدي مالم يملك الناشئ الموهبة في التعبير التي تسمح له بالإفصاح عن ذاته بأسلوبه الشخصي المتميز..

وسواء أَبَدَأ نتاجه بتقليد الشعر التقليدي أم الحديث، فإنه يضطر في نهاية المطاف أن يتجـاوز دائرة التقليد ليكـون له أسلوبه الذاتي المتميز. وللمدرسة دورها البارز في

تنمية ذاتية الناشئ وتعويده التعبير عن ذاته بصدق وأمانة دون الاتكاء على المحفوظ، ولدروس التعبير دور بارز في كشف المواهب وتنمية الذات، ويتوقف الأمر على المُعَلِّم الذي يتولى مهمة تشجيع التعبير الذاتي والكشف عن المواهب ورعايتها.

ولاشك أن تعليم الموهوب أدبياً له أساليب تختلف عن أساليب تعليم الأدب واللغة للأطفال العاديين، فللموهوبين يتجه تدريس التعبير والأدب نحو تعزيز خطاهم على طريق الإبداع الأدبي، في حين يتجه تدريس التعبير والأدب للطلاب العاديين أول ما يتجه نحو فهم الأدب وتذوقه والاستمتاع بالتعبير الجميل ومحاكاته.

وإلى جانب اللغة على الناشئ أن يتقن عملية النمذجة الأدبية، فالنموذج الأدبي هو المعادل للطبيعة إلاَّ أن بنيته وعمله شفافان تماماً بالنسبة إلى فكر الإنسان، ويخضعان إلى تأثيره المباشر لأن النموذج الأدبي من إبداعه، والتأليف كأي تركيب آخر يمكن نمذجته على شكل صيغ، ويبدو أن الناشئ حين يكتب يقوم شأن أي أديب بعملية تركيب إبداعية معاكسة لعمل الناقد الذي يحلّل النص ويفككه مع فارق أن الناقد ينطلق من وعي وإدراك لعمله في حين أنَّ الناشئ يبدع بصورة عفوية، لكن هذه العفوية على ما فيها من حرارة وصدق لا تخلق أدباً وقيماً، فلابدَّ من أن يتمرس الناشئ بأسرار تأليف العمل الأدبي، عليه أن يقف على أربعة عناصر على الأقل من بناء الصورة، وهي:

١ - الرمز:

وهو أداة الفن التقليدية التي يستخدمها الأديب متحدثاً عن أمر وهو يقصد أمراً آخر، والرمز طريقة في عرض المضامين تبعث على الإمتاع.

٢ - المجاز:

وقد يصل المجاز إلى حد الرمز الذي يحفِّز القارئ إلى المشاركة في التفكير.

٣ - التكثيف:

والأديب الناشئ عليه أن يتقن فن التكثيف، حين يحتمل الرمز أكثر من معنى، ولاسيما في الأعمال الأدبية المفتوحة التي تحتمل أكثر من تفسير، حتى ليذهب بعض النقاد إلى أن في تعددية المعنى خاصيته المؤدية للشعرية...

٤ - التوضيح:

إنَّ الاستعارة المحققة هي رمز بصري ملموس، فعلى القارئ الكشف عن الفكرة الكامنة وراء كل رمز، ودون ذلك لا يمكن أن يكون للعمل الفني معنى..

❁❁❁

إنَّ تلك الأساليب الفنية هي المصادر الأولية للإبداع الفني، وهي تلقى في عصرنا حياة جديدة، وتكتسب مضموناً فكرياً وأخلاقياً جديداً، والشاعر الناشئ لايمكن أن يشق دربه دون تعرّفها وممارستها، ولا يمكن أن يصل إليها دون ثقافة فنية راسخة، بل إن كثيراً من الأدباء حتى بعد أن يتخطوا مرحلة البدايات يظلون يفتقرون إلى الثقافة الفنية الراسخة التي هي أساس العمل الفني ومنطلق كل تحديث.

فالحداثة لا تقوم على المحاكاة فحسب، وإنَّما هي نظرة معاصرة للفن والحياة يثبت بهما الأديب براعته ويطوّر نتاجه، ولا يتيسر له ذلك إلاَّ بالثقافة الفنية، ولكن يقع في كثير من الأحيان أن يشق الأديب الناشئ لنفسه طريقاً أدبية تقوده إليها مواهبه وتجاربه الخاصة، فيحقق كثيراً من هذه الشروط دون أن يمتلك ثقافة نقدية عميقة، وهي حالة نادرة تقود فيها الموهبةُ الناشئَ للإبداع الفني، فتغدو طريقته مذهباً أدبياً، وهكذا تجاوز الشاعر أبو تمام تقنيات الإبداع في عصره، لكن هل يمكن الجزم بأنه اختط مذهبه دون أن يتعرف أساليب الشعراء قبله..؟؟؟

إنَّ مطالعاته الأدبية وتأليفه كتاب «الحماسة» تثبت اطلاعه الواسع على التراث، وما كان يمكن له أن يتخطى أسلافه لولا إلمامه الواسع بطرائقهم الفنية.

ومن هنا ندرك أهمية الإجراء الذي لجأ إليه أجدادنا حين كانوا يرسلون الناشئ إلى البادية ليتمرس بأدبها، ويقف على أساليب الفصاحة في لسان أهلها، فكانت البادية مدرسة الإبداع التي ينطلق منها الشاعر الناشئ إلى دروب التجديد بعد أن يتمثل تجارب السلف، بل كان بعضهم يحفظ آلاف القطع الأدبية قبل أن يُقدم على نظم الشعر.

وشبابنا الأدباء الناشئون اليوم، يميلون إلى التسرع في الإنتاج الأدبي، على حد تعبير «طه حسين»، قبل أن تكتمل لهم وسائله وأدواته، فيشيع في نتاجهم الغلط اللغوي والضحالة، يشجعهم على ذلك أن وسائل النشر والإعلام تفتح أبوابها لهم دون أن تقوّم تجاربهم وترشد خطاهم فيركبهم لون من الغرور الذي يَحُوْلُ بينهم وبين الثقافة الفنية واللغوية، ولاشك أن عمر الشاعر الزمني في ممارسة الشعر ليس مقياساً لإبداعه، فالشاعر الناشئ الذي يجهد في تثقيف نفسه قد يتخطّى شعراء أقدم منه في حرفة الشعر لكنهم لا يجهدون في تحسين وسائلهم وأساليبهم.

❀❀❀

نصائح للشبان الشعراء الناشئين:

١ - الموهبة بذرة خيّرة لا تنبت في الأرض الموات، فلابدَّ أن تُطرح في أرض مسمّدة لتخصب، فليحسن شعراؤنا الشبان في بواكير نتاجهم تطوير أنفسهم بالمطالبة الفنية واللغوية المتواصلة، وليكفّوا عن الاعتداد بمواهبهم فحسب.

٢ - من واجب النقد أن يسدد خطوات الناشئين وينير لهم دروب العمل الفني لتحسين عطائهم وتطويره.

٣ - على المدرسة أن تُعنى بالموهوبين فتضع لهم برامج خاصة في الأدب واللغة تتجه نحو صقل مواهبهم، وتعريفهم بتقنيات الإبداع الأدبي وأصوله.

٤ - من الملائم أن يُشارك في تقويم الأقلام الناشئة عدد من المختصين في الدراسات النقدية والنفسية والاجتماعية.

٥ - للبيت والأسرة دور كبير في رعاية المواهب الأدبية، ونحن نعلم أن أكثر الأدباء نجحوا في أُسَر يمارس أغلب أفرادها الكتابة والإبداع، وهكذا يغدو البيت المدرسة الثانية للأديب الناشئ.

٦ - يجب أن تكون للأقلام الناشئة مجلاتها الخاصة لتشجيعها على الإبداع، على ألاَّ تفتح المجلات الكبيرة صدرها لنتاجهم، لئلا تصيبهم عقدة الغرور إلاَّ بعد أن يجتاز الناشئ مراحل من الإنتاج يثبت فيها تمرسه وجدارته الأدبية.

٧ - السنوات الأولى من العمر هامة جداً، وفيها تتكون شخصية الأديب، فلابدَّ من تزويده بثقافة فنية ملائمة تسمح له بالانطلاق على أسس متينة، ومن النادر أن نجد شاعراً أو أديباً تحوّل إلى الإنتاج الأدبي بعد سن الشباب، وإن وقع ذلك، فإنَّ مثل هذا الأديب يكون قد قضى سنوات شبابه في حالة كمون أدبي، واستعداد لإنتاج أفضل، لكنه في الوقت ذاته أضاع أثمن فترات حياته الإبداعية، لأن قشرة إحساسه تكون قد تبلّدت، وفقد على مرّ الزمن عفويته.

وكثيراً ما يطور الأديب أدبه في مرحلة النضج، أي بعد أن يكون قد قطع شوطاً في ممارسة الكتابة، والنقاد يتمثلون بالكاتب الروسي «زوشينكو» الذي تحوّل في آخر عمره إلى إنتاج لون من الأدب العلمي والفني في وقت واحد مستعيناً برسائل وجهها إليه القراء، فاندفع إلى دراسة العلوم، ووضع قصة (عودة الشباب) التي انصهر فيها الأدب والطب في بوتقة واحدة، وبلغة ملائمة للقراء، وتعرض فيها إلى مسائل معقدة تجاوزت الأدب المألوف، ومع ذلك فإنها احتفظت بمتعة جمالية ونفسية

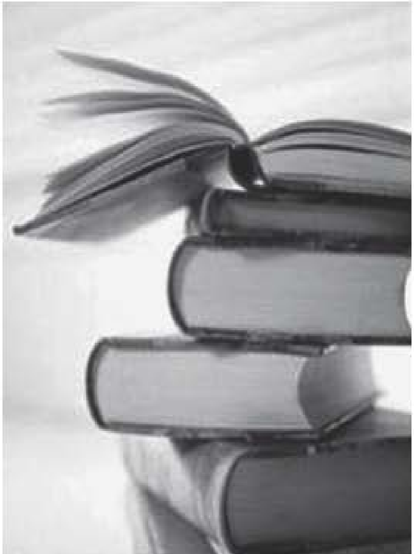
منهلة، على أن حالة «زوشيتكو» تظل نادرة لأن باستطاعة الناشئ أن يسرع في امتلاك وسائل التحديث قبل أن يفوته قطار العمر.

٨- إنَّ غياب النقد الأدبي الواعي على الساحة الثقافية يضع مشكلة أدب الناشئة في حلقة فارغة، حتى ليتعذر تصنيف الأدب الذي يعدّ من أدب الناشئة من سواه، فالمسألة ليست مسألة عمر زمني، إنها أبعد من ذلك، لأن كثيراً من الأدباء يجمدون عند أساليبهم الذاتية، ولا يساعدهم النقد على تطوير أنفسهم، وبغياب النقد الواعي تختل الموازين وتضيع القيم الأدبية ويختلط الحسن بالقبيح، ويغنّي كل شاعر على ليلاه، دون أن يعرف قيمته ومستواه في الإنتاج الأدبي.

فمن الواجب دفع حركة النقد الأدبي إلى الأمام وبناؤها على أسس سليمة من الثقافة الفنية، لكي يتميز الطيب من الفاسد، ولينطلق الأدب إلى آفاق أصيلة، ودروب متنوعة من الحداثة النابعة من الذات الإنسانية ومن التراث العربي، لا من تقليد الأنماط المستوردة التي يأتي بها أدب الناشئة تقليداً، فتستهلك المواهب وتجمد في حدود ما رسم لها من أطر جمدت بانتظار إطار جيد مستورد، وكأن أدبنا أصبح سلعة تحكي ما أنتجه الغرب من سلع استهلاكية دون أن يكون للمواهب دور في توجيهه للتعبير عن ذاتية الإنسان العربي وخصائصه المتميزة.

مائدة الأدب العامرة

❁
عبد الباقي يوسف



دوماً إن مائدة الأدب هي عامرة بألوان وأشكال أطايب الإبداعات كافة، ولذائذ الأفكار، ودوماً ينهل الإنسان من ثراء هذه المائدة دون أن تنفد، بل إنها تبقى متجدِّدة وغنية بما يضيف إليها أهل الأدب والفكر والنبوغ البشري من ثمار جديدة.

منذ أن تتفتح مدركات الإنسان على الحياة ، تتفتح مدركاته الغريزية لتلقي أشكال وألوان العلوم والمعارف، فترى الطفل الصغير كثير السؤال، ويريد أن يعرف كل شيء عن طريق السؤال، وكلما كبر، تعززت

❁ أديب وقاص وناقد سوري.

مكانــة غريزة المعرفة فــي نفسه، فيعتمد علــى نفسه مــن أجل معرفة مــالا يعرف، وحتى من أجل معرفة مالا يعرفه غيره.

يرتقي الإنسان على قدر ما يقرأ، ويلبث مراوحاً في موضعه على قدر حالة اللاقراءة التي يدور في تيهها.

يوسع القــارئ الماهر والمدبر لما يقرأ مــدركات القــراءة لديه حتى تغــدو سلوكاً يومياً، وتغدو تقليداً في عرفه، إنه ينهل علوم الحياة، وعلوم الإنسان من صيده الثمين في بواطن الكتب، ويشعــر أنه يرتقي على قدر مــا يقرأ. إن كل وجلــه يكمن في أن تخفت شعلة الاندفاع نحو القراءة في نفسه، ولذلك يعزز في نفسه هذه القيمة، ويبلغ مرحلة لا يكتفي فيها بتلقي العلوم والمعارف والآداب من ثنايا السطور، بل يستمتع بحالة القراءة، وهي درجة متقدمة من درجات تعزيز سلوك القراءة في النفس.

الأدب هــو رسالــة محبــة خالصة من الإنســان إلــى أخيه الإنســان، سعى الأدب خــلال تاريخه إلــى إظهار نقــاء الإنسان، إظهار صفحتــه البريئة، إظهــار اللمسات الجمالية والحسية التي يتمتع بها.

مقابــل ذلك أظهر الأدب حجم عدوانية وشراســة الإنســان إذا تخلــى عــن قيمه ومبادئــه الإنسانية. لذلك كان تركيز الأدب على القيم والأخــلاق والمبادئ التي تنظم للإنسان قاعدة حياته في سيرورة اجتماعية حميمية دافئة.

دعــا الأدب عبر تاريخه إلى الصدق مع الــذات ومع الآخرين، وألاّ يتنــازل الإنسان عن عــزة نفسه وكرامته الإنسانية لأنه بهما يمضي شامخاً مشرقاً، ودونهما يلبث مظلماً منكسر النفس.

كان الأدب عبر كل تلك الأحقاب الزمنية دعوة للإنسان كي يحافظ على نزاهته، على الاستمتاع بممارسة حريته الشخصية، على تعميم مشاعر المحبة والأخــوة الإنسانية، وعقد علاقات إنسانية ثمينة.

الأدب هو حب من الإنسان إلى الإنسان، حرص من الإنسان على الإنسان، خوف من الإنسان على الإنسان.

أمسى الأدب رشيداً للإنسان، ينير أمامه الدروب الداجية، ويقدم لــه العظة والخبرة من خلال سجل حافل من التجارب الإنسانية، وانتشــرت الأفكار الأدبيــة بوسائل شتى كي تصل إلى غالبية الناس ومن مختلف مواقعهم ومستوياتهــم الاجتماعيــة والمعرفية، ومن ذلك الحِكَــم والأمثال والأقوال المأثورة التي تلخص بعض التجارب البشرية، فغدا الناس من جميــع مقاماتهم يــرددون حِكَماً وأقوالاً مأثورة شفاهية للتحذير من مغبة القيام بفعل

مـــا، أو للتشجيع على القيـــام بعمل ما، وهي حِكَم وأمثلة تدخل في حقل الأدب لأنها على الأغلب تُستخرج من بطون كتب الأدب.

للنظر هنا إلى جملة من هذه المأثورات الشعبية الشفاهية التي تشبه برقيات أدبية مكثفـــة، أو تشبه رسائـــل الهواتف الخليوية القصيـــرة التـــي تتداولها الشعـــوب كحالة يومية لاغنى عنها:

«لا تسقط التفاحة بعيداً عن شجرتها»، مثل روماني.

«من هـــزَّ بيت جاره، سقـــط بيته»، مثل سويسري.

«المفلس يجتـــاز السوق سريعـــاً»، مثل إنجليزي.

«إذا شبع المرء.. لم يجد للخبز طعماً»، مثل أسكتلندي.

«ما من نبتة تحمل الأرز مطبوخاً»، مثل ياباني.

«ما أعظم النصر الـــذي يتم دون إراقة دماء»، مثل إسباني.

«مـــن نظر إلى الناس بعين العلم مقتهم، ومن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم»، مثل إيطالي.

«ليســـ للأكذوبة أرجل، لكـــن للفضيلة أجنحة»، مثل صيني.

«لا يقول عن الحـــظ أعمى إلا الذي لا يراه»، مثل فرنسي.

«الغضـــب ريـــح قويـــة تطفـــي مصباح العقل»، مثل أمريكي.

«على الذين يعطـــون أن لا يتحدثوا عن عطائهم، أما الذين يأخذون فليذكروا ذلك»، مثل برتغالي.

«الشجرة الضخمة تعطي ظلاً أكثر مما تعطي ثمراً»، مثل إيطالي.

«التخمـــة أشـــد فتكاً من الجـــوع»، مثل ألماني.

«ازرع كل يـــوم تـــأكل كل يـــوم»، مثـــل مصري.

«أيهـــا الإنسان لا تنس المـــوت فإنه لن ينساك»، مثل تركي.

«لذة الانتقام لا تـــدوم سوى لحظة، أما الرضا الذي يوفره العفو فيدوم إلى الأبد»، مثل إسباني.

«الحـــب والعطـــر لا يختبئـــان»، مثـــل صيني.

«من ليس في محفظته نقوداً.. ينبغي أن يكون في لسانه حريراً»، مثل ماليزي.

«قطرات الماء القليلة قد تصنع جدولاً»، مثل ياباني.

«يهب الله الطيور غذاءها، لكن لا بد أن تطير حتى تصل إليه»، مثل هولندي.

«يمكنك أن تبعـــث النصائح والمواعظ،

ولكنــك لا تستطيع بعث مــكارم الأخلاق»، مثل تركي.

«يبقى الحب ما بقي المال»، مثل فرنسي.

«هناك أشخاص يرغبون في مساعدتك علــى وضع سلتك على رأسك لأنهم يرغبون في معرفة ما بداخل السلة»، مثل زنجي.

«من يتزوج امرأة جميلة يحتاج إلى أكثر من عينين»، مثل إنجليزي.

«من دواعي الرثــاء أن تنفق الذهب في الطلاء»، مثل فارسي.

«من ارتضى لنفســه أن يكون شاة أكلته الذئاب»، مثل فرنسي.

«حتــى الفئران تعضــ القطط الميتة»، مثل ألماني.

«لا يفتــح المرء فمه واسعاً عندما يدلي بأكذوبــة كما يفعل عندمــا يقول الصدق»، مثل إسباني.

«امــدح الحقــل الكبيــر.. وازرع حقلاً صغيراً»، مثل ياباني.

«إذا كنت لا تستطيع الابتسامة فلا تفتح دكاناً»، مثل صيني.

«الوجه الحسن هو أقوى خطاب توصية يحمله صاحبه»، مثل إنجليزي.

«من أضر بشخصــ واحد أصبح خطراً على مئة»، مثل إيطالي.

«فعل الخير مع ناكر الجميل.. مثل إلقاء ماء الورد في البحر»، مثل بولندي.

«إذا أردت أن تعرف رقي أمة فانظر إلى نسائها»، مثل فرنسي.

«كثيراً ما نرى الأشياء على غير حقيقتها لأننا نكتفي بقراءة العنوان»، مثل أمريكي.

«أخطاء الآخريــن دائماً أكثر لمعاناً من أخطائنا»، مثل روسي.

«قناعتك نصف سعادتك»، مثل إيطالي.

«مــن الــذي يسبقــك إذا كنــت تجري وحدك»، مثل أثيوبي.

«سلِّح عقلــك بالعلم خير مــن أن تزيِّن جسدك بالجواهر»، مثل صيني.

«الإعجاب بالنفس وليد الجهل»، مثل إسباني.

ومما تقوله العرب:

يلقــى المثل الشعبي قبــولاً واستحساناً لدى غالبية شرائح الناس.

وقد قسمت بعض المؤلفات هذه الأمثال إلى أقسام ومنها:

- **الأمثــال القديمــة**: وتضــم الأمثــال الجاهليــة والإسلامية التــي جمعها علماء اللغة في القرنين الثاني والثالث الهجريين.

-الأمثال الجديدة أو المولدة: وهي التي جُمعت منذ القرن الرابع الهجري وقد أفرد لهــا الميداني مكاناً خاصاً بها في نهاية كل فصل من فصول «مجمع الأمثال».

- **الأمثال الحديثة:** وهي التي جمعها الأوروبيون بل غيرهم في القرنين التاسع عشر والعشرين من بلاد العرب.

- **الأمثال العامية أو الشعبية:** وهي التي تقال باللهجات المحلية.

- **الأمثال الناجمة عن حادث:** وهي التي تقال بعد انتهاء حادث ما كقولهم «وافق شن طبقة» وتعود قصته إلى رجل اسمه (شن) وجد ضالته بفتاة اسمها (طبقة) فتزوجها.

- **الأمثال الناجمة عن تشبيه:** وهي التي تستقي مادتها من اتخاذ شخص ما أو شيء ما، أو حدث معين، مثالاً يحتذى به كقولهم: «أجود من حاتم».

- **الأمثال الناشئة عن قصة:** والمقصود بالقصة هنا، تلك المروية أو المتداولة على ألسنة الناس كقصة إحياء السيد المسيح عليه السلام الموتى التي أنتجت المثل (لمسة نبي).

- **الأمثال الناشئة عن حكمة:** كقول زهير بن أبي سلمى:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب

تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم

- **المثل السائر:** وهي كلمة موجزة قيلت في مناسبة ما ثم تناقلتها ألسن الناس جيلا إثر جيل.

- **المثل القياسي:** وهو نوع من التشبيه يسميه البلاغيون بالتمثيل المركب كقولنا: كانت القرى مطمئنة فدهمها السيل فأصبحت كالسفن الهائجة في البحر المضطرب.

- **المثل الخرافي:** وهي حكاية ذات مغزى تقال على لسان غير الإنسان وتهدف لغرض تعليمي أو فكاهي.

ومن جواهر أدب المثل عند العرب:

- إنَّ من البيان لسحراً.
- إنَّ الجواد قد يعثر.
- إنَّ البلاء موكل بالمنطق.
- إنَّ أخا الهيجاء من يسعى معك ومن يضر نفسه لينفعك.
- أنف في السماء وإست في الماء.
- إنَّ الذليل الذي ليست له عضد.
- أي الرجال المهذب إنما هو كبرق خَلِبٍ.
- إذا أدبر الدهر عن قوم كفى عدوهم أمرهم.
- إياك أعني فاسمعي يا جارة.
- إنَّ لم يكن وفاق ففراق.
- إذا حان القضاء ضاق الفضاء.
- إنَّ المناكح خيرها الأبكار.
- إذا كنت مناطحاً فناطح بفوات القرون.
- آوي إلى ركن بلا قواعد.

- إياك أن تضرب بلسان عنقك.
- أكل وحمد خير من أكل وذم.
- آفة المروءة خلف الوعد.
- إذا قلت له زن طأطأ رأسه وحزن.
- إذا أتاك أحد الخصمين وقد فقئت عينه فلا تقض له حتى يأتيك خصمه فلعله فقئت عيناه.

أمام حقيقة هذه المنزلة الرفيعة للأدب، وأهمية الدور الذي يقوم به في الارتقاء بأذواق وسلوكيات ومعارف الناس ولدت فكرة صناعة أدب موجه إلى الطفل بشكل خاص، حتى تنمو مدركات الطفل في محراب القراءة ويصبح الأدب جزءاً من حياته اليومية عندما يكبر، لأن الذي يكبر على تذوّق عسل القراءة، يصعب عليه أن يهجرها، عندئذ يرتقي به السلوك القرائي لتصبح القراءة جزءاً أساسياً من حياته، يمارس معها هواه، وهوايته المحببة، وفسحته، ولا يكتفي بالاستمتاع بها من خلال اغتنام أوقات الفراغ، بل يخصص لها جزءاً ثميناً من وقته كسائر مقومات حياته اليومية.

لم يكن الأمر ميسراً في البداية، بيد أن المحاولات تتالت حتى تكللت بالنجاح، وأصبح أدب الأطفال فتحاً جديداً مبيناً من الفتوحات الأدبية.

استطاع أدب الأطفال أن يبني لخصائصه مؤسسة صناعية أدبية طفلية على أرضية ثابتة خصبة بأسماء حرفية ذهبية، وهي مؤسسة صناعية تخرّج كل عقد ثُلّة من الصناعيين الجدد الذين يتألقون ويبدعون، ويجددون لمؤسستهم الصناعية أمر دعائمها.

مائدة أدب الطفل:

يقول أرديزون: «إذا لم نلمّح إلى العالم القاسي في كتب الأطفال، فإننا لن نكون صادقين على ما أعتقد».

ويقول جان جاك روسو: «دموع الأطفال هي توسلات، فإن كانت لاتُجاب صارت أوامر».

ويرى هارولد هولبرت: «الأطفال بحاجة إلى الحب ولاسيما إذا كانوا غير جديرين به».

وفي رأي له يقول أندريه مورو: «أطفالنا بحاجة إلى وجودنا أكثر من حاجتهم إلى عطايانا».

أمَّا برناردشو فإنه يقول: «الأطفال أناس صغار لا يسمح لهم بأن يفعلوا ما كان آباؤهم يفعلونه وهم صغار».

يلقى الطفل زاده على هذه المائدة، هذا الزاد الذي يجعله ينمو معرفياً، وينضبط

في مراحل نموه.

لقد اغتنت مائدة أدب الطفل بعيون الكتابات الطفلية من مختلف أجناس وألوان الآداب والفنون في بقاع الأرض كلها، ولدى جميع شعوب العالم. وهي كتابات تقف على درجة متقدمة من الأهمية، وقد ترعرعت وتربت عليها أجيال الإنسانية، ولبثت تراثاً أدبياً تتزود منه الأجيال.

قدمت المكتبة الطفلية الكثير من المعارف والمواعظ للطفل، ووجهته بطرق أدبية غير مباشرة إلى سبل الصلاح، والتفوق، والقيم، والأخلاق، والعمل، والمساواة، والمحبة.

واليوم فإن طفلاً يقرأ هو متقدم على طفل لايقرأ، وأب يقرأ هو أب متقدم على أب لا يقرأ، وأم تقرأ هي أم متقدمة على أم لا تقرأ، ومجتمع يقرأ هو مجتمع متقدم على مجتمع لا يقرأ.

يقول هارون بن علي بن يحيى المنجم:

أرى ابني تشابه من علي
ومن يحيى وذاك به خليق
وإن يشبهها خُلُقاً وخَلقاً
فقد تسرى إلى الشبه العروق

ويقول الحسن بن زيد العلوي:

قالوا عقيم ولم يولد له ولدٌ
والمرء يخلفه من بعده الولد
فقلت من علقت بالحرب همته
عاف النساء ولم يكثر له عدد

في قصيدته «الجدة» يقول أحمد شوقي على لسان الطفل:

لي جدة ترأف بي
أحنى عليَّ من أبي
وكل شيء سرني
تذهب فيه مذهبي
إن غضب الأهل علي
كلهم لم تغضب
مشى أبي يوماً إليّ
مشية المؤدب
غضبان قد هدد بالضرب
وإن لم يضرب
فلم أجد لي منه
غير جدتي من مهرب
فجعلتني خلفها أنجو بها وأختبي
وهي تقول لأبي
بلهجة المؤنّب
ويحٌ له ويح لهذا
الولد المُعذّب!
ألم تكن تصنع ما
يصنع إذ أنت صبي؟!

يصوّر غراهام غرين كيف أن الطفل يحمل إلينا معه رائحة وطيف

المستقبــل في قوله: «لحظة سعيدة في الطفولــة، عندما يفتــح الباب، ويدخل منه المستقبل».

تلبـث أنوار مشـكاة الفطرة ساطعة في روح الإنسان حتــى اليوم الأخير من عمره، هذه الأنوار التي تجعله يمتلئ بهالة إشراقة الحيويــة كلما ألقى نظرة إلى بهاء الطبيعة، كلمــا وقع منه بصر على جميــل، كلما قرأ كتاباً نفيساً، كلما مضى في شارع جديد.

هذه الأنوار التي تبثه بنضارة التجدد، وتشحن حواسه بطاقــة الاندفاع شطر رحابة زهو الحياة، والإبداع، والاستمتاع بمباهــج قيــم الأخــلاق، والعفــاف، والنقاء.

لــولا سطوع نور الطفولة في فطرته لأخفــق الإنسان كثيراً فــي مسعاه كي يستمتع بضحك عميق، لأخفق في مسعاه كي يقدم عمــلاً جاداً، لأخفق كثيراً كي ينعم بسكينة الليل وهو يستلقي في دفء الفراش.

عندما يهب الإنســان بسخاء، فإن ذلك يعني بأنه انطلق من مساحة مبدأ الطفولة.

عندما يعفو الإنسان عن كثير، فإن ذلك يعني بأنه انطلق من معالم قيم الطفولة.

عندمــا يحــب الإنســان بوفــاء، فإن ذلــك يعني بأنــه انطلق مــن رحابة صفاء الطفولة.

ثمــة أنـاســ استطاعــوا أن يجردوا أنفسهــم من غرسة الطفولــة المباركة، استطاعــوا أن يقلعوا هــذه الغرسة من فطرتهــم، فغــدوا يعيشــون دون مرجع الطفولة، يعيشون دون أن تسطع وجوههم بنورانية الطفولة.

ترى وجوههم قاتمة، مطفأة الأنوار، ترى قاماتهم تتحرك كأنما هي أشباح.

هؤلاء يمكنهم ببساطــة شديدة ارتكاب قول الــزور، وموارة الحقيقــة، يمكنهم أن يكونوا قساة وطغاة لأبعد حد.

قست قلوبهم فمارسوا الطغيان، دون أن يهتزوا خفقة قلب.

إنَّ ما نعرفه بـ (الضمير)، إنما هو قبس من أنوار الطفولة.

الذي لا ينعم بطفولة حية، يصعب عليه أن ينعم بضمير حي.

الضمير هــو مرآة فطــرة الإنسان، لأن الإنســان بحكم فطرتــه يجنح شطر مواطن التسامــح، أكثر ممــا يجنح شطــر مواطن العقاب، يجنح شطر المحبة، أكثر مما يجنح شطــر البغضاء، ولا يستوطــن الغل إلا في قلوب خلت بطانتها من بركات الطفولة.

على هذه الدروب الوعرة التي اتخذوها تتعزز في نفوسهــم ردات فعل غير طبيعية

تدفع بهم إلى شذوذ السلوك كشيء مما يمكن تسميته بسعي للنيل من صفحة طفولة الإنسان الناصعة، كونهم سقطوا فعلياً في خشونة اللاطفولة التي تساوي خشونة اللابراءة، خشونة اللاصفح، خشونة اللا توادد.

إنَّهم في هذه المرحلة المتدنية من منارات السلوك الإنساني يسعون للاعتداء على الأطفال كحالة من الطفولة العامة، يعتدون بكل ما يملكون من أشكال مخزية تثبت مجدداً انحدار نفوسهم إلى الدرك الأسفل من التلوث الروحي.

إنَّهم يسعون إلى اغتصاب غصن الطفولة، إلى انتهاك حرمة الطفولة، إلى الإساءة إلى فطيرة الإنسان.

لذلك ينطفئ نور الإنسان من وجوههم، تنطفئ لمسة نضارة الكائن البشري من سحناتهم.

من الضفة الأخرى، يمكنني أن أرى عقاب الطفولة لهؤلاء، عقاب الطفولة البريء الذي يكمن في هجرانها لهؤلاء، وتركهم يتخبطون كالعمي في ظلمة الروح.

لا يضحكون ضحكاً طبيعياً،

لا ينامون نوماً طبيعياً.

لا يجلسون جلوساً طبيعياً.

لا ينظرون نظراً طبيعياً.

لا يسمعون سمعاً طبيعياً.

لا يتحدثون حديثاً طبيعياً.

لا يصادقون صداقة طبيعية.

لا يحبون حباً طبيعياً.

ذلك أنهم يعيشون على هامش من فطرة الطفولة.

ليس بوسع الإنسان أن يعتدي على أخيه الإنسان، قبل أن يعتدي على الطفل الكامن في داخله أولاً.

إنَّ فطرة الطفولة لسوف تنهاه عن ذلك ولو عند حافة اللحظة الأخيرة.

إنَّ من علامات عافية الطفل لدى الكبير، عطف الكبير على الصغير، حنين الكبير إلى الحارة التي نَمَتْ فيها طفولته، مؤازرة الآخرين، العطاء بسخاء، عقد صداقات حميمة، المواظبة على القراءة، ممارسة الهوايات، العفاف في الحب، إتقان الحرفة.

يقول أيمرسون: «عندما تغتبط بسعادة الأطفال وجمالهم، تشعر بأن قلبك أكبر من جسدك».

يحتاج الإنسان إلى سماع صوت الطفل الذي كأنه، يحتاج إلى العودة إليه، التحاور معه، وكلما كان الكبير قريباً من عالم طفولته، أحسن تربية أطفاله، وكان لهم خير رفيق.

نفحات

إنَّ مـا خسرناه هو مروع، ولكن ما بقي لدينا هو غاية في الأهمية كي نحافظ عليه لأنه هو المستقبل، ما بقي لدينا هو الشمس التـي ستشرق صباح الغـد، وذاك المولود الذي سيفتح عينيه على حياة جديدة، وعلينا أن نفعل ما باستطاعتنـا كي يتشكل سمعه علـى هديل الحمام، وزقزقة العصافير، أن نقدم له غذاءً جيداً كي يستطيع أن يحملنا عندما لم نعد قادرين على المشي.

إنَّ العناد في هذا السبيل لن يكون بوسعه سوى أن يفاقم في شروخ الهوة التي صنعناها ووضعنا أنفسنا في عمـق تيهها، وفي النهاية لـن يكون بوسعنا إلاّ أن نكتشـف أنه ليس لنا سـوى أنفسنا وليـس لنا من أقربـاء وأحباء، ونحن يتامى ضعفـاء لا أحد لنا سوى بعضنا البعض.

ليس بالضرورة أن تعيش في مكان تلقى فيه الاحتفـاء اللائق بـك، الأهم من ذلك أن تعيشـ في مكان تشعر فيه بقوة الانتماء إلى ذاك المكان. كثيرون يعيشون في أمكنة يلقون فيها احتفـاءً أكثر مما يليق بهم، بيد أنهم يشعـرون حالة عزلـة روحية مروعة لأنهم يحترقون بنـار اللاانتماء إلى المكان الذي يعيشون فيه.

❁ ❁ ❁

يبقى الأمل هو حبل الصرة بين الإنسان والحيـاة، إن كل ما تركه أهل الأدب والفكر والبلاغة والفن، هي محاولات مستمرة من أجل تعزيز طاقة الأمل لدى الإنسان.

يأتي الإنسان حاملاً حزنه ومعاناته على أكتافـه إنه حمال الأحزان.. كل ذرة تراب.. كل ورقه شجـرة.. كل منخفض.. كل فصل لهو شاهد على معاناته.

عندما يولد، يقال له أول ما يقال: تذكر أيها الإنسان بأنك فان، لكنه يصر على الحياة ويقبل العيش فيها، لأن الحياة أفضل من العدم.

ليسـ هناك من يتذوق لذة الطرب أكثر من ذاك الصوت المعـذب الذي يشدو من شدة الألـم، يبلغ بروحه الشـدو باباً يفقد فيـه أي إحساس بحجـم ذاك الألم، وفي ذات اللحظة تهب على روحه نسمات نشوة غامـرة لم تهب على مخلوق مـن قبله. إنَّ أولئـك الذين لا تحترق حواسهم في جحيم المعانـاة، لا تبلغ أنامل أرواحهم البتة أوتار النشوة الكبرى لتعـزف عليها، تلك النشوة التي تدفق بـكل قوتها موازية لقوة النيران التي يحترقون بها.

❁ ❁ ❁

إنَّ أنقى اللحظـات الروحية التي يمكن للمـرء أن يعيشهـا، تكمـن فـي ثنايا تلك اللحظات المجيدة التي يكون فيها عاشقاً.

❁ ❁ ❁

إنَّ أعظم حـالات الحب إشراقاً، يمكن لها أن تنبثق من أعماق أعظم مراحل العمر ألماً.

❁ ❁ ❁

إذا كانت الأم تنجـب ابنها وتصطبر عليه وهنـاً على وهن حتى تجعله رجلاً، فإن الزوجة تتزوّجه وتصطبر عليه وهناً علـى وهن حتى تجعلـه أباً وتغـدو أمّاً لأولاده، لذا فـإن الأم لا تشعر بطمأنينة على ابنها مهما كبـر، ومهما علا شأنه، إلاّ عندمـا يتـزوّج، لأنها عند ذاك فقط تشعر بأنها أودعته إلى المرأة التي سوف تستكمل معه مسيرة العناية بابنها.

❁ ❁ ❁

الرجل مـن دون المرأة، هو كائن يمشي على قدم واحدة، ويرى بعين واحدة، ويسمع بأذن واحدة، ويشم بفتحة أنف واحدة.

والمـرأة مـع الرجل، تمشـي على قدم واحدة، وتـرى بعين واحـدة، وتسمع بأذن واحدة، وتشم بفتحة أنف واحدة.

❁ ❁ ❁

وفق جل المقاييـس الإنسانية، لا يحق لإنسـان أن يهتـف: الله أكبـر، وهو يقتل إنساناً، أو يهدم بيتـاً على ساكنيه. يحق له أن يهتف: الله أكبر، عندما يحيي إنساناً، أو يشيِّد بيتاً لإنسان بلا مسكن. إن ذاك الذي يعلّم إنسانـاً كيف يعزف على آلة موسيقية، هو خير مـن ذاك الذي يعلّـم إنساناً كيف يقتل إنساناً بآلة قتلية.

المصادر والمراجع:

١- الـدرة الفاخـرة في الأمثال السائرة، حمزة بـن الحسن الأصفهاني، تحقيق عبـد المجيد. قطامش، دار المعارف، القاهرة.
٢- التمثيـل والمحاضرة، أبـو منصور الثعالبي، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلـو، دار إحياء الكتاب العربية، القاهرة (١٩٦١م).
٣- المنجـد فـي الأمثال والحكم والفرائد اللغويـة، جوزف نعوم حجار عربي، فرنسـي، فرنسي-عربي، دار المشرق- بيروت، (١٩٨٣م).
٤- الأمثال في القرآن الكريم، ابن قيم الجوزية، تحقيق سعيد محمد نمر الخطيب، دار المعرفة، بيروت، (١٩٨١م).
٥- مـن المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين أبي الفتح محمد بن أحمد الأبشيهي، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق (٢٠٠٤م).
٦- لسان العرب:٢٢/١٣، مادة مثل.
٧- القاموس المحيط:٤٩/٤، مادة مثل.
٨- كتاب التيجان، وهب بن منبه، وفيه يذكر بأنه: قرأت في حكمة لقمان أكثر من عشرة آلاف باب.
٩- كتـاب عيون الأخبار، لأبي محمد عبد الله بن مسلـم ابن قتيبة الدينوري، تحقيق د. محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت.
١٠- معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله، منشورات دار الفكر، بيروت.

الفكر الإنساني عند ندره اليازجي

موسى ديب الخوري ❁



نال المفكر ندره اليازجي جائزة الدولة التقديرية لعام ٢٠١٥م في مجال النقد والدراسات والترجمة، وقد جاءت هذه الجائزة تقديراً وعرفاناً لما حققه خلال مسيرته الفكرية الطويلة والغنيّة من كتابات ودراسات وترجمات تركت بصمة مميزة في الثقافة العربية المعاصرة.

ندره اليازجي من مواليد مرمريتا في محافظة حمص السورية عام (١٩٣٢م)، نال شهادة الماجستير بالعلوم الاقتصادية والسياسية من لبنان، وتفرغ للكتابة والبحث

❁ باحث ومترجم ونائب رئيس الجمعية الكونية السورية.

الفكـري والتدريـس، واهتـم بشكل خاص بالفلسفة الأخلاقية خـلال مرحلة دراسته الجامعيـة. وقد قادتـه دراستـه للفلسفة الأخلاقيـة إلى دراسـة الفلسفة على نحو عـام، وقاده ذلـك إلى نطاق علـم النفس. ويقول إنه تجاوز في هذه المرحلة علم نفس الإدراك «إلـى علم نفـس الأعماق أي علم النفس التكاملي وأدت بي هذه الدراسة إلى ولوج الأديان والأساطير وأنواع الحكمة(١)».. ويوجز ندره اليازجـي الأسباب التي قادته إلى التعمق في هذه الدراسات بما يلي:

«**أولاً**: لأننـي كنت، منـذ صغري، أسعى جاهـداً لتحقيـق عقلانية حـرّة ومنفتحة وروحانية سامية.

ثانيـاً: لأننـي أردت أن أتعـرّف إلـى الجوانـب الإنسانيـة والروحيـة في هذه الأديان، بحيث تساعدني على مقاربتها في أعماقي، ومحبّة جميع المبادئ والاعتراف بجميع التنوّعات الإنسانية.

ثالثـاً: لأنني أردت أن أستغرق في عمق التجربة الروحية التي أحقق فيها المقدّس في داخلي وخارجي(٢)».

قادتـه دراسة الأديان، فـي مضامينها، إلى التعمّق في البحوث والدراسات الجارية حـول الأسطورة. هـذا، لأن القصص التي تتحدّث، على سبيل المثال، عن الطوفان أو نظريّة الخلق والتكويـن وغيرها، «جعلتني أبحـث عن مثيـلات لهـا أو موازيـات أو مقاربات لها فـي الأساطير». وفيما يلي ما يقوله اليازجي عـن رحلته العقلية هذه في بحثه عن الحقيقة:

«إذ كنـت أسعـى دائمـاً إلـى معرفـة الحقيقـة، وأبحث عن سرّ الوجـود والسرّ الأزلي في الكون والطبيعة والإنسان، علمت أن دراستي، وبحثي وشمولية عقلي لا تكتمل إلا بدراسـة الفلسفـة العلميـة، والفيزياء والبيولوجيا منهـا على نحو خاص، وكل ما يمتّ بصلة إلى علم التطوّر وعلم الفلك.

لـم تكـن رحلتـي العقليـة والنفسية، والعلمية والروحية الطويلـة إلا تعبيراً عن حادثة أساسية في حياتـي. ففي الخامسة عشـرة من عمـري، بدأت مرحلـة جديدة في حياتي تمثّلت بمرحلـة الشكّ المعرفي والبحـث عـن حقيقة إلـه المحبّـة. كنت قبلاً قد عاهـدت الله، أي الإله الشخصي الذي عبدته واعتقـدت بأنه يستجيب لمن يحبه من عابديه المؤمنيـن، أن يبقي على حياة أختـي مقابل تكريس حياتي له. ولقد ساعدتني تجربة الشكّ المعرفي على معرفة الألوهة الحقيقية والثبات في الإيمان القوي والعميق الذي لا يعتريه الشكّ بمعنى الرفض أو الإنكار.

تعمّقت في دراسة الفلسفات باحثاً عن الحقيقة. ووجدت نفسي تائهاً في صحراء تعدّد المدارس الفلسفية، الأمر الذي دعاني للعودة إلى الاستغراق في كياني. تعمّقت في دراسة علم النفس ساعياً إلى فهم حقيقة نفسي، وهادفاً إلى بلوغ التوازن والتكامل في داخلي. تعمّقت في دراسة الأديان لأجد الحكمة المنطوية فيها، وأعني سرّ الحقيقة السامية والمطلقة. وفي هذه الدراسة، تجاوزت حدود الشريعة الوضعيّة المكتوبة بالحرف لأبلغ مستوى الناموس الإلهي الذي نُحت في قلبي وعقلي وروحي. تعمّقت في دراسة الأساطير لأفهم حقيقة العقل السابق للعقل الفلسفي، ولأعلم إن كانت الأساطير تنطوي في لاوعي جمعيّ يحدثنا عن الأنماط الأولية البدئية للوجود الإنساني، وتهيّئ السبيل لمغامرة العقل. ولقد علمت أنها تطرح على بساط البحث المقولات العقلية والروحية، على نحو رمزي أو غير مباشر وعلى صعيد مختلف. تعمّقت في دراسة العلوم العامة والفيزياء خاصة لأفهم حقيقة القوانين الطبيعية منها والكونية، وأدرك حقيقة السرّ الكامن في جوهر الوجود. شئت أن أوحّد هذه القوانين، تماماً كما يحدّثنا بعض العلماء، في قانون واحد يشمل كلّية القوانين وينبثّ في كلّ كيان حيّ. أردت بدراستي لفلسفة العلوم أن أصعد مراتب سلسلة الوجود الكبرى، وأسمو بحياتي المادّية إلى حياتي الروحية.

أردت أن أعرف السرّ الكوني الإلهي في الوجود. أردت أن أعرف كيف يتحقّق هذا السرّ في الإنسان في تجربة داخلية عميقة. أردت أن أشاهد ببصيرتي وأعاين بعقلي الفوقي وروحي التائقة إلى مصدرها، الحقيقة السامية الإلهيّة في الإنسان، والطبيعة والوجود في وحدة كلّية شاملة تتكامل في جوهرها، وتتآلّق في تنوّعات الحقائق، والقوانين، والمعادلات والتعارضات الثنائية. في هذا الوسط الشمولي، الكلّي والواحد، اتّسعت معرفتي على نحو أفقي في الطبيعة والكون وعلى نحو عمودي في كياني. هكذا، ثبت إيماني في الألوهة التي أدعوها الحقيقة السامية(٣).

يشير هذا السرد لسيرة ذاتية وفكرية إلى العمق الذي انطلق منه ندره اليازجي في فلسفته وبناء منظوره الفكري والحياتي. لقد بدأ بنشر المقالات والدراسات منذ فترة مبكرة من شبابه، وكانت بعض كتاباته الأولى تعكس بوضوح التوق الكبير الذي يعتمل فيه للمعرفة. يقول في الفصل الخامس من كتابه «بحوث فلسفية»: «كثيراً ما حاولت أن أمزّق الصفحات التي أكتبها، لأنني أجدها

غامضة ينقصها الوضوح، وكثيراً ما حاولت أن أتوقّف عن الكلام لأنني غير قادر على التعبير الصحيح؛... وفي المرحلة المبكّرة من شبابي استسلمت للألم مراراً لأن اللغة قيّدت طاقتي، وحدّدتها في إطار الفصاحة البيانية التي هي مجرّد سفسطائية[٤]» لكن فكره سرعان ما تطوّر ونضج، وبات أقدر على نشر دراساته وأبحاثه وطباعة مؤلفاته بروح المعرفة التي اكتسَبها وبالقدرة على حثّ القارئ على متابعة بحثه عن الحقيقة.

والحقّ إن المعاناة التي واجهها اليازجي مع اللغة هي معاناة كلّ باحث عن الحقيقة، وكل مبدع أراد سكب الجمال الذي يشعر به ويراه في كلمات أو أنغام أو خطوط وألوان أو نظريات ورموز. وشيئاً فشيئاً، استطاع تجاوز إشكالية اللغة وقصرها عن اللحاق بالمعنى كما يشير في أكثر من مناسبة، ليبني من اللغة نفسها عبر التدقيق في مصطلحاتها وتمييز السويات اللغوية للمعاني ومطابقاتها، بناء تتناسق فيه الخبرة الروحية والفكرية والنفسية والاجتماعية، وتتّضح عبر طبقاته وتقسيماته المراحل التي يمرّ بها الإنسان في بحثه عن المعرفة، وفي تحقيقه لمبادئه الإنسانية، وفي تجاوزه لإشراطات هذا العالم إلى حرّية الوعي وإشراق الفضيلة.

وهكذا، مثل كلّ مفكّر تَطرحُ المواضيع التي يكتب حولها تساؤلات عميقة، فتثير خلافاً أو قبولاً أو نقاشاً، كذلك يمثّل فكر اليازجي إطاراً غنياً للنقاش. من هنا، فإن قراءة فكر ندره اليازجي تحرّض لدى القارئ، أكان على وفاق مع أفكاره أم لا، الدافعَ للاستزادة من المعرفة والبحث، الأمر الذي يبعث على طرح الأسئلة باستمرار ويدفع لمحاولة الإجابة عليها. ولا بد من القول هنا إن التوافق مع فكر اليازجي أو عدمه لم يكن هو المهمّ في مسيرة كثيرين ممن عرفوه، لأن اللقاء به كان يعني دائماً الوقوف أمام شخص كرّس نفسه للبحث عن الحقيقة، ومعرفة الذات، وتطبيق المبادئ السامية. ويعترف اليازجي نفسه بأنه عمل دائماً على تطوير أفكاره، فهي مسائل تظلّ خاضعة للحوار في النهاية، في حين أن المبادئ الإنسانية السامية لم تتغيّر عنده، ولم يتغيّر تطبيقه لها، فصارت إرثاً ومدرسة ومثالاً جديراً بأن يُتّبع.

يقول ندره اليازجي في مقالة نشرت له على موقع «معابر» الإلكتروني[٥]:

«يتلخص موقفي الفكري – وهو مجرد مشروع نظريٍّ يتمثّل في وجهة نظر فلسفية وعلمية وأخلاقية، سعيتُ، ومازلت أسعى، إلى تحقيقها في المبادئ التالية:

١- محبة الإنسانية جمعاء، بغضّ النظر عن الجنس واللون والعنصر والمعتقد.

٢- توحيد نطاقات الفكر الإنساني ووجهات النظر العديدة في دراسة مقارنة ترمي إلى القيام بوحدة تأليفية بين الدين بمفهومه الروحي، والفلسفة بمفهومها الإنساني والمثالي، والعلم بمفهومه النظري والطبيعي والكوني.

٣- تعمقٌ وتوسعٌ في دراسة القوانين الطبيعية والإنسانية-الاجتماعية بهدف الولوج إلى القوانين الكونية التي تشملها.

٤- الشعور الكامل بالوجود، أي المعرفة التي تشير إلى وجود وعي كوني يشمل جميع المبادئ والقوانين.

٥- التجربة النفسية أو الروحية المختبَرة التي تنتهي إلى عرفان يتجلّى في تحقيق الشعور الأسمى بتكامل الوجود الإنساني والطبيعي والكوني.

٦- واقع الحضارات والثقافات والإنجازات الرائعة مقولة تؤكد وجود تنوع ظاهري وحقيقة باطنية جوهرية واحدة وعقل إنساني جمعي شامل.

٧- تمثُّل العالم والكون في نسيج واحد متداخل خيوط الحياكة.

٨- العقل المنفتح والقلب المنفتح سبيل إلى لقاء الحضارات والثقافات وتفاعلها وإلى تآلف العقل الخاص مع العقل العام في قاعدة واحدة مشتركة بين العقول الفردية.

٩- تأسيس بنية عقلية منفتحة ومكوِّنة تصلح لإجراء حوار بين بنات وأبناء الإنسان لقبول الآخر والاعتراف به وتتجاوز الأُطُر المحدودة والمناهج أحادية البعد.

١٠- الإعلان العالمي لـ«وثيقة واجبات الإنسان» التي تشتمل على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وتدعو إلى تربية إنسانية تجعل من الواجب أمراً أخلاقيّاً وروحيّاً ملزِماً.

١١- المثالية بوصفها تطويراً للواقع كما يجب أن يكون، أي التحول من الوجود إلى الوجوب.

١٢- السعي المثابر والهادف إلى تحقيق العدالة الاجتماعية الملازمة لكرامة الإنسان وحريته الماثلتين في الوعي.

١٣- توطيد التفكير المنطقي الرامي إلى بلوغ محاكمة سليمة تحرر العقل من قيود الإشراطات العديدة التي تحول دون تطويره».

يرتكز فكر ندره اليازجي بالتالي على أساس إنساني. فهو يعمل على بلورة معنى وجود الإنسان من خلال فهم ومعرفة موقع الإنسان في الوجود وذلك عبر العمل على طاقاته الكامنة وتفتّح الوعي والإبداع لديه.

وهذا التحقيق الروحي للمبادئ في عالم المادّة يتطلّب العمل على مستويات عدّة، اجتماعية ونفسية وعقلية. لقد توصّل اليازجي عبر تعليمه وخبرته إلى وضع منهجية راسخة لتأسيس تربية غير انفعالية، تربية تقوم على احترام الذات والآخر، وعلى العمل على الذات بالدرجة الأولى، وعلى بذل كل الجهود الطيّبة والواعية من أجل الارتقاء بالوعي الإنساني.

«إنَّ الإنسان الذي يضحي، الإنسان الذي يعمل لأجل هدف نبيل وعظيم، الإنسان الذي يخدم الآخرين، والذي يحيا لنفسه ولغيره، الإنسان الذي يحقّق الإنسانية الكائنة فيه، الإنسان الذي يعلَم أنه غاية الوجود، ويعمل لأجل الحقّ والحرّية، ويتعلّم لأجل العلم والمعرفة[٦]» هو المثال الذي يعمل المربي ندره اليازجي على زرعه ورعايته في المجتمع عبر كتاباته ومحاضراته ولقاءاته وأحاديثه. وكيف يمكن أن يتحقق هذا المثال بغير تفتّح طاقة الوعي. إنَّ مثالية اليازجي هي في الواقع مثالية تطبيقيّة، وليست مثالية حالمة، وإن كان قد أكّد في كتاباته كافة على الرؤية العرفانية للعالم، وعلى ضرورة محبّة العالم وفهم أسراره العميقة، لكنه شدَّد دائماً أن هذه المحبّة وهذا الفهم لا يأخذان كامل المعنى الخاص بهما إلا من خلال تطبيقهما مباشرة في حياتنا اليومية. «تلك هي البصيرة التي تسعى الحكمة صوفيا إلى إلهامنا على نحو دائم»، كما جاء في خاتمة كتابه «هندسة الروح أو أشكال صوفيا».

ترتكز منهجية ندره اليازجي التربوية إن صحَّ التعبير على وضع الخبرة المعرفية موضع التطبيق. وبعبارة أخرى، فهو يسعى دائماً إلى جعل المبادئ قوّة فاعلة من خلال تطبيقها في الحياة اليومية. ولا يكون ذلك إلا بتهذيب القوى النفسية والعقلية، وتوجيه الإنسان إلى ما هو سام. فهكذا يتحقّق الخلق والإبداع الحقيقيان. وما لم يبدع الإنسان فإنه مائت[٧].

ينطلق ندره اليازجي من الواقع، ليعالج الأسباب العميقة التي تجعل الإنسان سلعة في عصر الاستهلاك، وتشوش عليه قيمه النبيلة. وهو يخلص إلى أن الصفات التي تتّسم بها مدنيّتنا الحالية هي نتيجة ابتعاد الإنسان عن المُثل وعن تطبيق المبادئ الكونية والقانون الطبيعي. فظاهرة العنف مثلاً هي انحراف الإنسان عن الغاية السامية التي وُجد من أجلها. يقول: «إن حضارتنا تحمل طابع العنف، لذلك هي مهدّدة بالانفجار. إنها تتفجّر كلّ دقيقة لأنها لم تستطع أن تحقّق الغاية السامية

التي وجد من أجلها الإنسان[٨]». وهو يُرجع السبب العميق للعنف إلى مرض متفشٍّ في حضارتنا هو «العقائدية» التي «تقضي على الحرّية لأنها تعمل على تقويض المبادئ الأخرى، وتقضي على العدالة لأنها تحاكم الغير[٩]». ولهذا فإنه يتبنى مع كثير من الحكماء مبدأ اللاعنف وينادي مع غاندي قائلاً: «أريد أن تهبّ على نافذتي رياح العالَم كلّها. لكنني لا أريد أن تحطّم نافذتي واحدة منها[١٠]».

«إنَّ التأمّل والمعرفة والحرّية هي عالم الحقّ والمثال[١١]». بهذه الكلمات البسيطة والموجزة يدعو اليازجي إلى تحقيق معنى وجودنا. فالمعرفة حرّية، وبالتالي هي فضيلة كما قال سقراط. «كلّما ازددنا معرفة ازددنا فضيلة، ولا يمكن أن توجد معرفة حقّة إن لم تؤدّ إلى فضيلة». والمعرفة تتحقّق بالتأمّل والبحث والتمييز.

لهذا سعى اليازجي دائماً إلى تكامل الفكر الإنساني وتلاقي ثقافاته لا إلى تجزئته وتباعده. يقول: «أدركتُ أن ثقافات العالم وحضاراته تلتقي، التقاءً مباشراً أو غير مباشر، لتشكل مركزاً تتكامل فيه الوقائعُ الظاهرية والحقيقةَ[١٢]»، وهو يوضح هذه الفكرة بقوله: «يمكن لي أن أشبِّه العقل الواحد والتنوع الثقافي بدائرة تصدر عنها وتعود إليها إشعاعاتٌ عديدة هي التنوعات العديدة للروح الإنسانية. فإذا كانت الحياة، في ظاهراتها، واحدة، والعقل، في جوهره، واحداً، والحكمة، في تجلِّياتها، واحدة، والعلم، في منظوراته، واحداً، والروح، في كيانها، واحدة، فإنها تنبث وتتشتت عبر إشعاعاتها المتنوعة، لتعود إلى التآلف في دائرة الحقيقة الواحدة. وبالمثل، أستطيع أن أشبِّه العقل الواحد والتنوع الثقافي والفكري بالضوء الذي يتشتت إلى قوس قزح: فالحق إن ألوان قوس قزح تمثل الضوء الذي تبدَّد أو تشعَّب إلى تنوعاته. فإذا استطعتُ أن أعيد هذه الألوان من خلال الموشور، الذي يتشتت الضوءُ عبره إلى تنوعات ألوانه، أجدها تعود إلى ما كانت عليه من اتحاد: إنها تعود إلى الضوء الذي جمع أنواع ألوانه في وحدة لا تنفصم هي حقيقة واحدة لا تناقُض فيها. في هذا النطاق التوحيدي، أستطيع أن أشبِّه العقل المنفتح بحديقة واسعة تُزرَع فيها زهورُ العالم وورودُه كلها[١٣]».

يؤكّد اليازجي على المعرفة، لأنها مفتاح رقيّ الإنسان. «فهذه الحضارة البائسة لا يمكن أن نملأ فراغها إلا بالمعرفة». لا يمكن التغلّب على الفراغ، ومرض حضارتنا إلا بالتعقّل

والفهم والإدراك. «فليهذّب الشباب إحساسهم وشعورهم وليهذّبوا أنفسهم بالتأمّل الشخصي. وليهذّبوا عقلهم بالمران... بممارسة التفكير الجدّي... فيبصرون[١٤]». تلكم هي دعوة اليازجي إلى شباب عالمنا لينبذوا تقوقعهم في صيغ ناجزة وليتحرّروا من القيود المتراكمة في مفاهيمنا وعاداتنا وأعرافنا وعقائدنا، لينطلقوا في سماء معرفة غير مشروطة وغير محدودة إلا بالمحبّة.

لا يستطيع اليازجي السكوت أمام ما يراه من تراجع للقيمة الإنسانية ولجوهر حياة الإنسان على كوكب الأرض. فتراجع القيمة الحضارية بسبب الطمع والأنانية والجهل لا يمكن أن يُعدَّل إلا بالخدمة والتضحية: «من أراد أن يكون رئيساً فليكن خادماً»، أي بالعمل على الذات وتربية الذات. «إنَّ الحضارة تكمن في قلب الإنسان الشجاع الذي تتمثّل فيه الحكمة وتبرز فيه الفضائل. إنها تكمن في الإنسان الذي يخدم مجتمعه بوسيلة حقّة: الخدمة التي لا مقابل لها[١٥]». ولهذا، فإن التربية تنطلق في نظره من مبدأ الإخلاص للحقّ. «لا يمكن لمن يرى أن يصمت. ومن يصمت عن الحقيقة يقترف الشرّ، لأن النور لا يخفي الأشياء بل يظهرها[١٦]»

وبهذه القوّة الذاتية المؤسسة على المحبّة والمعرفة إنما ينادي الفيلسوف المربي اليازجي قائلاً:

«يجب أن يكون الشباب هادفاً، صاحب غاية رفيعة. يجب أن يترفع الشباب عن كل المظاهر الخادعة. يجب أن يعمل الناس لأجل خلودهم في عالم الحقيقة. يجب أن يتعلم الإنسان أن هناك عالماً أفضل في هذا العالم الذي نحيا فيه ونعيش، عالم القيم والمثل، عالم تحقيق الكيان، عالم تحقيق المبادئ الطبيعية والأبدية. يجب أن يستيقظ الإنسان من سباته العميق[١٧]».

إنَّه طريق بناء الحضارة وارتقائها، وبناء الأوطان، والمشاركة الإنسانية. يقول ندره اليازجي: «في هذه الرؤيا، تحافظ الأمةُ أو الأممُ على مشعلها الحضاري - على إبداعها الثقافي والعلمي وعلى عمق خصوصيتها وقدرتها على الامتداد إلى الآخر[١٨]».

إنّ هذا الفكر الذي يبدو نظريّاً أكثر منه تطبيقيّاً هو الذي يريد ندره اليازجي أن يحقّقه ويطبقه في المجتمع. فلا معنى للمثاليات بلا تطبيق. «إنَّ الفضيلة والمعرفة والوعي والمحبّة والغاية النبيلة والحرّية والفاعليّة هي بذور نزرعها في الحقل الاجتماعي. هذا لأن المجتمع هو النطاق الذي يحقّق فيه الإنسان إنسانيته

وكونيته في آن واحد[١٩]». وعلى هذا الأساس يدعو ندره اليازجي كل إنسان إلى تطبيق مضامين المبادئ والقواعد الحياتية في الحياة الاجتماعية، لكي تكون خدمة الإنسان ومحبّة الآخر والقبول به الغاية القصوى التي يتجلّى فيها معنى وقيمة وجودنا. إنها دعوة صريحة إلى ممارسة إنسانيتنا في المجتمع وفي الواقع. وهي في الصميم دعوة إلى التعمّق أكثر فأكثر في معرفة النفس. وهي نوع من الصوفيّة (الحكمة) إن صحّ القول، صوفية عقليّة كما يسمّيها اليازجي، وليس صوفية انعزالية تُبعِد الباحث عن المجتمع بل وعن نفسه، «فالصوفية العقليّة تجعل مني طاقة طبيعية وكونية فاعلة في المجتمع[٢٠]» كما يقول. ونفهم ذلك بوضوح أكبر في ربطه لمعنى المعرفة الصوفية أو العقلية بالمحبة، ووحدة الإنسانية في قوله: «لذا كانت المحبة تعني أن شمولها العالمي، الإنساني والجامع، إنما ينطوي في مبدئها الأعظم بأن جميع الناس، على اختلاف أعراقهم وألوانهم وأممهم، يؤلّفون جسماً واحداً:

إنَّ مبدأ عالمية الإنسان مبدأ يحثنا على احترامه وإعلاء شأنه: فلا يحق للإنسان أن يعتدي على إنسانيته أو إنسانية غيره، ولا يحق له أن يستغله أو يحقد عليه أو يكرهه أو يرذله[٢١]».

ولا شك أن تطبيق المثال في الواقع أمر في غاية الصعوبة. وهنا تبرز دقة مفاهيم اليازجي في فهم المصطلحات التي تعكس طريقة فهمنا لحياتنا ووجودنا. فالصعوبة هي الحقل الذي يتطوّر العقل البشري من خلاله، لكن الصعوبة ليست مصيبة. فندره اليازجي يرفض وجود مصائب في الحياة. فالمصيبة هي حصيلة عدم تغلّبنا على الصعوبة. ولهذا فإنه يدعونا إلى اختبار تجاوز الصعوبة. والاختبار هنا يعني إعمال العقل والبصيرة وليس التجربة الآلية التكرارية. والاختبار هو الذي يكسبنا القدرة على طرح التساؤل والأفكار والنقد والبحث مما يؤدّي إلى الإبداع والقيمة والمعنى والوعي والغبطة[٢٢]..

أمّا كيف نتغلّب على الصعوبة، فإن المشوار يبدأ بخطوات صغيرة لكنها فعّالة وقوية.

وأهم هذه الخطوات يتمثل في مفهوم الصداقة. فاليازجي يجد في الصداقة، أي التواصل مع الآخر، فلسفة حياتية كاملة تعكس فهمنا وتواصلنا مع أنفسنا. و«ترتكز الصداقة الحقيقية على مبادئ أساسية هي: قول الحقّ، والتحمل والتسامح والتجاوز

والاحترام، والمحبّة والتضحية، وصداقة جميع الناس، وصداقة النفس[٢٣]».

إنَّ تحقيق الصداقة الحقيقية هو مسيرة طويلة من المجاهدة. تبدأ الصداقة في تمييز مفاهيم أساسية في حياتنا مما يؤدّي إلى قدرتنا على استخلاص الجانب الإيجابي دائماً من الصعوبات التي نمرّ بها. فالألم مثلاً هو ألم سلبي وألم إيجابي. الألم السلبي ينتج عن اللذة العابرة وعن الانفعال وانحراف الدافع أو العاطفة. أما الألم الإيجابي فهو ناتج عن الشعور بالواجب والتضحية والعطاء والإبداع والخدمة. هكذا يكون علينا أن نعمل للتخلّص من فرديتنا المرتبطة بلذّاتنا العابرة إلى بناء شخصيّة قوية ثابتة في المحبّة والسعادة. إنَّ هذه المسيرة تقودنا إلى التخلص من عقدة النقص، والعمل على تعويض إيجابي يعدّل باستمرار حياتنا الداخلية كما والاجتماعية، ويدخلنا في كلّ يوم وكلّ لحظة في صداقة متجدّدة مع الذات ومع الآخرين، وهذا «التجدّد هو امتلاء شخصيتنا[٢٤]».

تقود هذه الصيرورة في الواقع إلى بناء الشخصية الإنسانية المتكاملة. ويميّز ندره اليازجي الشخصية عن الفرديّة. فالشخصية منفتحة ومحبّة وتتجاوز الأنا إلى الآخرين، في حين أن الفرديّة مغلقة وكارهة وتقبع في ظلام الأنا. وفي حين تبني الشخصية محاكمة عادلة ومتّزنة لأمور الحياة كافة، فإن الفرديّة تنفعل وتطيح بمبادئ المحاكمة لأنها لا ترى غير نفسها وترفض وجودها الأرضي وتنكر الغاية النبيلة له. وبناء الشخصية هو الذي يعطي الواقع ألَقاً حقيقياً. وهكذا يدعونا ندره اليازجي إلى «رفع مفهوم العيش إلى مفهوم الحياة، ومفهوم الواقع إلى مفهوم المثال، ومفهوم الفرديّة إلى مفهوم الشخصية، ومفهوم الرغبة إلى مفهوم الدافع[٢٥]».

لقد تناول اليازجي في كتاباته وأحاديثه المواضيع التي تتعلق بالإنسان وحياته. فأعطى هذه المواضيع باستمرار أفقاً أوسع من خلال محاكمته التي بناها دائماً على نظرة شمولية وتكاملية. هكذا فهم علاقة الإنسان بالإنسان من خلال الصداقة، وفهم علاقة الزواج، وفهم المساواة بين الرجل والمرأة، بما هما يمثلان كائناً واحداً في الجوهر.

في فلسفة اليازجي ليس ثمة مكان لليأس. ففي تأمّل الإنسان للكون يدرك انسجامه ووحدته معه، ولا يولد اليأس إلا عندما نرفض هذا التناغم مع الكون.

«إنَّ انفعـال الإنسان يُردّ إلـى إحساسه بالانفصال عن كلّية الوجود. أما إذا أدرك الإنسان أنه والوجود حقيقة واحدة، فإنه يعمـل على تحقيق الانسجـام في كيانه أولاً، وتحقيـق الانسجام مع الكون ثانياً، وتحقيق الاتصالية ثالثـاً، وتحقيق الكلّ المركَّز في الجزء رابعاً. وعندئذ تتضاءل أو تختفـي مفاهيم العبـث واللّاجدوى والتفاهة والسـأم والعدم إلـخ. وينتهي اليأس[٢٦]».

لا يطـرح اليازجي قضايـا الإنسان علـى نحو شريعـة أو ناموسـ أو حتى نصيحة. بل هو يسعى إلى جعل الإنسان يعيد التفكيـر والنظـر والتأمّل ليكون سيّـد مصيره. فإذا استغـرق في تأمّله فإنه يبلـغ نهاية المطاف، وغاية البحث ليبلغ شريعته الداخليـة الفاعلة المعبَّر عنهـا بالحرّيـة[٢٧]. إن هــذه الشريعة غيــر المكتوبة هي القانــون الكلّي، أي الوعي الكونــي، أي الحقيقــة السامية نفسها المكتوبة في كيان الإنسان والتي تشير إلى الحرّيـة الكامنة في أعماقه. ومن هنا فإن المعنــى التأمّلي في حياة الإنســان يصبح أوسع وأغنـى وأعمق. فـ «الصــلاة التأمّلية تحـلّ محلّ صلاة الترداد، وتصبح صلاة الإنسان الباحث عن معرفة نفسه هي صلاة تحقّق ووعي، علـى عكس صلاة الإنســان الغارق في جهله وتمسّكه بأنانيته المحدودة والذي لا تتعدّى صلاته الطلب والخوف. وهكذا يصبح الدخـول إلى هيـكل الذات هو التجربة الروحية التي لا يمكن تحقيقها في الهياكل الحجرية[٢٨]».

يسعى اليازجي في حياته كما وفي فكره إلى تحقيق ملء كيان الإنسان. إنه يريد أن يرى المحبّة المتفتّحة فيه وقد بلغت قمماً من النور الخالص. وهو لا يأبه لكون فلسفته فلسفة مثالية كما يتّهمه بعضهم أو صوفية. إنما هو يعمل على تأسيس فكر فلسفي يبني ويحرّر ويصل بالإنســان إلى معنى الخلود والغبطـة. وهو في فكره هـذا إنما يصرّح باستمرار أن المعرفة هي العمل.

لا أستطيع أخيراً إلا أن أشير إلى وجود محـاور أخرى هامـة جداً فـي فكر ندره اليازجي، تتمثّل في دراسته للعلوم الحديثة وإدراكه لأهمية العلم في العودة إلى أصالة الحكمـة القديمة. كما وفـي فهمه العميق للأسرار الروحيـة وللتجارب الروحية التي تمثّلت فـي خبرات الشعـوب والحضارات القديمة، وبشكل خاصـ دراسته للمسيحية العرفانية وفصلـه للمسيحية عن اليهودية. إنها مواضيع تستحق دراسات مستقلّة.

الهوامش

١- المحبة والوعي، حوار مع ندره اليازجي، حاوره موسى الخوري، دار تساؤلات، دمشق (٢٠١٠م).
٢- المحبة والوعي، حوار مع ندره اليازجي، حاوره موسى الخوري، دار تساؤلات، دمشق (٢٠١٠م)، ص٣٩-٤٠.
٣- المحبة والوعي، حوار مع ندره اليازجي، حاوره موسى الخوري، دار تساؤلات، دمشق (٢٠١٠م)، ص٤٠-٤٢.
٤- ندره اليازجي، بحوث فلسفية، المجلد الرابع من الأعمال الكاملة، ص١٣٠، دار الغربال، دمشق (٢٠٠٠م).
5- http://www.maaber.org/issue_december08/perenial_ethics1.htm
٦- ندره اليازجي، الأعمال الكاملة، المجلد الأول، الرسائل الإنسانية، رسائل في حضارة البؤس، الرسالة الثانية، المحبّة والنزعة الفرديّة، ص١٥، دار الغربال، دمشق (١٩٩٨م).
٧- المرجع السابق، ص١٥.
٨- المرجع السابق، الرسالة الحادية عشرة، ظاهرة العنف، ص٦٢.
٩- المرجع السابق، الرسالة الثانية عشرة، فلسفة اللاعنف، ص٦٥.
١٠- المرجع السابق، ص٦٦.
١١- المرجع السابق، الرسالة السادسة عشرة، فلسفة الحرّية، ص٨٩.
12- http://www.maaber.org/issue_december08/perenial_ethics1.htm.
13- http://www.maaber.org/issue_december08/perenial_ethics1.htm.
١٤- ندره اليازجي، الأعمال الكاملة، المجلد الأول، الرسائل الإنسانية، رسائل في حضارة البؤس، الرسالة الخامسة عشرة، ضياع الشباب، ص٨٤، دار الغربال، دمشق (١٩٩٨م).
١٥- المرجع السابق، الرسالة العاشرة، الخدمة والتضحية، ص٥٦.
١٦- المرجع السابق، الرسالة الرابعة، مفهوم التربية، ص٢١.
١٧- المرجع السابق، الرسالة السادسة، المظاهر الاجتماعية، ص٣٥.
18- http://www.maaber.org/issue_december08/perenial_ethics1.htm
١٩- رسائل في مبادئ الحياة، الرسالة الأولى، المبادئ قيمة إنسانية وكونية، ص٩٧.
٢٠- ندره اليازجي، الأعمال الكاملة، المجلد الرابع، دراسات حضارية، أخلاقية، معرفية، الفصل الرابع، التصوف العقلي، ص.١١٧، دار الغربال، دمشق (٢٠٠٠م).
21- http://www.maaber.org/issue_december08/perenial_ethics1.htm
٢٢- ندره اليازجي، الأعمال الكاملة، المجلد الأول، رسائل في مبادئ الحياة، الرسالة الثانية، فلسفة الصعوبة، ص١٠٥، دار الغربال، دمشق (١٩٩٨م).
٢٣- المرجع السابق، رسائل في مبادئ الحياة، الرسالة الرابعة، فلسفة الصداقة، ص ١١١.
٢٤- المرجع السابق، رسائل في مبادئ الحياة، الرسالة الخامسة، السعادة واللذة، ص١١٩.
٢٥- المرجع السابق، رسائل في مبادئ الحياة، الرسالة السابعة، المحاكمة والشخصية، ص١٥٥.
٢٦- المرجع السابق، رسائل في مبادئ الحياة، الرسالة العاشرة، اليأس، ص١٧١.
٢٧- المرجع السابق، رسائل في مبادئ الحياة، الرسالة الثانية عشرة، الحرّية والوعي، ص١٨٥.
٢٨- المرجع السابق، رسائل في مبادئ الحياة، الرسالة الثالثة عشرة، فلسفة التأمل والهيكل، ص٢١٤.

المراجع /مؤلفات ندره اليازجي

١- ندره اليازجي، رسائل في حضارة البؤس (١٩٦١م).

٢- ندره اليازجي، الاشتراكية ومفهوم العدالة (١٩٦٣م).

٣- ندره اليازجي، النقد الفلسفي للماركسية (١٩٦٥م).

٤- ندره اليازجي، بحوث فلسفية (١٩٦٧م).

٥- ندره اليازجي، رد على التوراة (١٩٦٩م).

٦- ندره اليازجي، رد على اليهودية واليهودية-المسيحية (١٩٧١م).

٧- ندره اليازجي، مقالة في العقل والنفس والروح (١٩٧٣م).

٨- ندره اليازجي، دراسات في فلسفة المادة والروح (١٩٨٠م).

٩- ندره اليازجي، دراسات في المثالية الإنسانية (١٩٨١م).

١٠- ندره اليازجي، تنوع الحضارات ووحدة الفكر الإنساني، (١٩٨٥م).

١١- ندره اليازجي، تأملات في الحياة النفسية والاجتماعية، (١٩٨٨م).

١٢- ندره اليازجي، فلسفة الإنسان الثائر (١٩٨٨م).

١٣- ندره اليازجي، رسائل في مبادئ الحياة (١٩٩١م).

١٤- ندره اليازجي، المبدأ الكلي: لقاء الحكمة القديمة والعلم الحديث، (١٩٩٥م).

١٥- ندره اليازجي، الطريق إلى الحوار (٢٠٠٣م).

١٦- ندره اليازجي، هندسة الروح: أشكال صوفيا (٢٠٠٥م).

«محاولات التشكيك بجابر بن حيان»

*
إبراهيم محمود الصغير



دأب معظم المستشرقين الغربيين، منذ ظهور الاستشراق، وظهور النزعة الاستعمارية للدول الغربية، دأبوا على تشويه صورة الحضارة العربية الإسلامية الرائعة، والنيل من العلماء العرب المسلمين الأفذاذ بكل الطرق المستهجنة واللاأخلاقية بشكل سافر.

فهم حيناً، يقولون إن الحضارة العربية الإسلامية قامت على أيدي علماء أكثرهم من غير العرب، والقليل جداً منهم من العرب، متناسين دور اللغة والبيئة والثقافة والحضارة والدين التي هي عربية صرفة كلها.

* أديب وناقد من فلسطين.

وفــي ذلك يقول الدكتــور أحمد شوكت الشطــي فــي كتابــه (الحضــارة العربية الإسلاميــة والمجتمع العربي): «الواقع إنها حضارة عربية أسهم بها جماعات من أجناس مختلفــة، وشعــوب عديدة ولكنهــم جميعاً تثقفوا بثقافــة عربية، ووضعــوا مؤلفاتهم باللغة العربية، لغة دينهم، فعزَّت عليهم أكثر من لغة الأم الأصلية، أو الأمة التي ينتسبون إليهــا. وليس من المبالغ فيــه الادعاء بأنه لم يُؤّلف منهم بغيــر اللغة العربية إلا النزر اليسير». ومــن المؤســف أن بعض العرب قديماً، ذهبــوا، بدوافع شعوبية إلى مثل ما ذهب إليه هــؤلاء المستشرقون. وعند ابن تيمية تثبت العروبة باللغة والنسب والوطن، فمن تكلم العربية فهــو عربي، ومن انتسب لأب عربــي فهــو عربي، ومن سكــن أرض العرب فهو عربي. ويدعم هذا القول ما ردَّ به النبي، (صلى الله عليه وسلم)، على رجل أنكر على سلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي، بأن يكونوا عرباً، حيث قال في المسجد: «يا أيها الناس، إن الرب واحد، والأب واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان. فمن تكلم العربية فهو عربــي». طبعاً العربية هنا ليست اللغة حصراً وإنما يدخل فيها عوامل مجتمعه أو غير مجتمعه وهــي الدين، والبيئة والثقافة والحضــارة والتاريخ. ويدعــم هذا الكلام، شاهد من أهلهم، وهــو المستشرق (برنارد لويس)، الذي يقول: «لقد أصبح لكلمة العرب اليــوم معنىً جديــداً، هو اعتبــار الشعوب المتكلمة باللغــة العربية شعبــاً واحداً، أو مجموعة من الشعوب يوحّدها اشتراكها في الموطن واللغة والثقافة والحضارة».

ويزعم هــؤلاء المستشرقون، حيناً آخر، أن الحضــارة العربية الإسلامية قامت على ترجمــات علــوم وآداب الأقــوام الآخرين كاليونــان والهنود والفرســ وغيرهم، وأنهم أي العرب، كانوا نقلة لهــذه العلوم والآداب لا أكثــر، وأنهم لم يضيفوا عليها جديداً ولم يبدعوا من عندهم إلا في مجال اللغة والأدب، بل حتى المترجميــن كانوا من غير العرب. وقــد يعجب المرء، إذا كان كلامهم صحيحاً فلمــاذا يتسابقون، إذن، فــي الحصول على المخطوطــات والكتب والبحوث، التي ألَّفها علماء عرب مسلمون في شتى ميادين العلوم والآداب والفنــون بل ويلجؤون، في كثير من الأحيان إلى سرقتها والاستيلاء عليها بشتى الطــرق المشروعة وغيــر المشروعة، حتى لقد امتلأت مكتباتهم ومتاحفهم بها؟ ولماذا، أيضاً، ظلــت جامعاتهــم ومعاهدهم العليا تدِّرس كتباً ألَّفها علماء عرب في الرياضيات والكيمياء والعلوم وغيرها حتى القرن الثامن

عشر؟ بل لماذا ينسبون كثيراً من مكتشفات وأبحاث ونظريات بعض العلماء العرب إلى علمائهم هم، كما نسبوا، مثلاً اكتشاف الدورة الدموية الصغرى لابن النفيس إلى هارفي؟ ولماذا تجد في لغاتهم وقواميسهم الكثير من المصطلحات والألفاظ العربية العلمية والمتداولة لديهم حتى الآن؟

والأغرب من ذلك كله أن بعضهم ينكر وجود بعض العلماء العرب الأفذاذ ويجردهم من مؤلفاتهم ومكتشفاتهم كما فعلوا، مثلاً، بجابر بن حيان، العالم العربي الفذ الذي كانت له الريادة والسبق في مجال اكتشاف منهج البحث العلمي، والذي سيكون موضوع دراستنا في هذه المقالة. فكما تعرضت كبار الشخصيات العالمية للشك في وجودها، حيث اعتُبِرَ (هوميروس) قديماً أنه أسطورة من صنع الخيال، واعتُبِرَ (شكسبير) شخصية غير حقيقية من صنع الفكر الأوروبي في طور الفتوة والتنوير الحديث، كذلك اعتبر بعض المستشرقين الأوروبيين جابر بن حيان أسطورة لا حقيقة لها في التاريخ. مستكثرين على الفكر العربي الإسلامي أن يأتي في هذا الزمن المبكر بمثل هذه العبقرية الفريدة والفذة في مجالها العلمي التجريبي. ويؤيد هذا الكلام، كما ذكرنا سابقاً، بعض الشعوبيين، حيث يذكر (ابن النديم) في كتابه (الفهرست) وذلك بقوله: «تقول عنه جماعة من أهل العلم وأكابر الوراقين أنه لا أصل له ولا حقيقة. وقال بعضهم إنَّه حتى إن كانت له حقيقة تاريخية، فهو لم يصنف هذه الكتب الكثيرة التي قيل إنَّه مصنفها، واستثنوا كتاباً واحداً من كتبه نسبوه إليه هو (كتاب الرحمة). وأما بقية مصنفاته فقد صنفها غيره، ثم نحلوه إياها». ولا يتردد (ابن النديم) في رفض هذه الدعوى، معترفاً بوجوده قائلاً: «إنَّ أمره أظهر وأشهر من أن يخفى، وتصنيفاته أعظم وأكثر من أن ينكر وجود صاحبها». كما نجد أحد العلماء الغربيين الأمناء وهو (كارادي فو) يوافق (ابن النديم) فيما ذهب إليه، ويرفض الرواية التي تزعم أنه أسطورة ويقول: «إنها رواية نرفضها بغير تردد».

وصدف أن وجدت بعض كتب جابر بن حيان مترجمة إلى اللاتينية، والتي قيل أنها أحسن ما صنعت يد الإنسان في الآداب الكيماوية القديمة. ومن هذه الكتب: (الجامع الأعظم، كتاب الاستتمام، كتاب التنانير) ولم تكتشف بعد هذه الكتب في اللغة العربية. ولذا سارع بعض المستشرقين يشكون في نسبتها إلى جابر، ويقولون إنها من تأليف علماء غربيين من عندهم، لم يضعوا أسماءهم عليها لأسباب مجهولة،

ولكنهم نحلوها باسم جابر بن حيان. إلا أن بعض العلماء الغربيين الشرفاء يقولون إنهم متأكـدون إنها لجابر علـى الرغم عمّا غيَّر فيها المترجمون والمؤلفون، وهذا ما ذكره (شريف النشاشيبي) في إحدى مقالاته.

وكان كثيـر من علماء الغـرب يذهبون إلـى أن علم جابـر، أي الكيميـاء القديمة أو السيميـاء، من الأباطيـل التي دانت لها علماء العرب والغرب في القرون الوسطى. غيـر أن كثيراً من العلمـاء في هذا العصر دحضـوا آراء القائليـن ببطـلان الكيمياء القديمة، وأثبتوا بأن علم الكيمياء الحديث والاكتشافـات التي اكتشفـت فيه، لم تهدم أسـس الكيميـاء القديمة، وخاصـة التي أرساها جابر بن حيان.

والعجيـب أن عالِمَاً مثـل (الدوميالي) والـذي توفر على دراسة جابر ينكر بوقاحة أعمال جابر كلها بقوله: «لقد عنينا بالكتب التـي تنسبها الروايـة المتناقلـة إلى من يُدعى جابر بن حيـان، وليست هذه الكتب في نظرنـا إلا عملاً مجهول النسب لأشياع مـن طائفة الإسماعيليـة، يرجع تاريخه إلى القرن الثامن».

ومثله، أيضاً، العالِم (برتللو) الذي يراوده الشـك في بعضـ رسائل جابـر الكيماوية وينكرهـا. إلا أن عبارات (ابن النديم) ترده إلى الصواب، حيث يقـول ابن النديم: «إن رجلاً فاضـلاً يجلس ويتعب، فيصنف كتاباً يتعـب قريحته وفكـره بإخراجـه، ويتعب يـده وجسمه بنسخه، ثم ينحلـه لغيره، إما موجوداً أو معدومـاً ضرب من الجهل، وإن ذلـك لا يدخل تحته من تحلَّى ساعة واحدة بالعلـم، وأي فائدة من هذا أو أي عائدة؟». لذلـك نجد (برتللو) ينتهي إلى تأكيد مكانة جابر من علم الكيمياء، حيث يقول عن اسم جابر: «إنه ينزل فـي تاريخ الكيمياء منزلة اسم (أرسطو) في تاريخ المنطق». حيث إن جابـر أول من وضع لعلـم الكيمياء قواعد علمية تقترن باسمه، كمـا كان أرسطو أول من وضع لعلم المنطق قواعده وأصوله.

ويتبين لنا مما قدمناه، أن دراسة بعض علماء الغرب لجابر بـن حيان قد وجهتهم إلـى الادعاء بأن جابر بـن حيان شخصية موهومة منتحلة لا وجود لها. على أن تأريخ حيـاة جابر بن حيان من قبل عدد كبير من مؤرخي العـرب المعاصرين له، يحتِّم علينا القول إنَّ جابر بـن حيان شخصية حقيقية قد وجدت وتحلت بعبقرية فذة، وإن نُسجت حولها بعض الأقوال المتباينة. وقد وضعت بعض المؤلفات ونسبت إليه، مع أنها ليست من تأليفه، كما وقع لابن سيرين وكثير غيره من علماء العرب والإسلام.

وبقـــدر مـــا تجنّى على جابـــر بن حيان كثير من المستشرقيـــن والعلماء الغربيين، فقـــد قيض الله له، أيضـــاً، من يدافع عنه ويشهد له بمكانته العلميـــة البارزة وريادته لعلـــم الكيميـــاء، ووضعـــه لمنهـــج البحث العلمي. منهم علمـــاء غربيون ومنهم علماء عـــرب. فهذا (برتراند راســـل) الذي ترجم بعضـــ أعمالـــه إلى الإنكليزيـــة يقول عنه: «أشهـــر علماء العـــرب وفلاسفتهم». ويقول عنه (القفطـــي): «كان متقدمـــاً في العلوم الطبيعيـــة، بارعاً منها في صناعة الكيمياء، وله فيها تآليف كثيرة، ومصنفاته مشهورة». ويشيـــر إليه (الرازي) فـــي كتبه الكيمياوية بقوله: «قـــال أستاذنا أبـــو موسى جابر بن حيان». وذكـــره (حاجي خليفـــة) في كتابه (كشف الظنون) بأنـــه أول من يستحق لقب (الكيموي) من المسلمين. وقال عنه (برتللو) مرغماً، كما ذكرنا سابقاً: «إن لجابر بن حيان فـــي الكيمياء ما لأرسطو في المنطق، حيث أضاف إلـــى الفكر الإنساني عنصراً جديداً افتقـــر إليه اليونان ذلك هـــو اعتماده على التجربة والبرهـــان الحسي، وعدم الاكتفاء بالفروضـــ والتحليلات الفكريـــة الغامضة التي كانت محور المعرفة عند اليونان». كما يقول عنه (بول كراوس) في (دائرة المعارف الإسلامية): «درس جابر تراث أرسطو وعلوم غيره من الإغريق. كما قرأ فرفريوس، ودرس أفلاطون وجالينوس وإقليدس وبطليموس. ودرســـ نظريات أرخميدس. وليس في كتب الحضـــارة الإسلامية عن الكيمياء كتب مثل كتب جابـــر، تكشف عن المعرفـــة الواسعة بتصانيـــف القدماء، تمتاز بهـــذه الإحاطة الموسوعيـــة». وتقـــول (زيغريـــد هونكة): «وكان العـــرب أول من أوجد طرق المراقبة المنظمـــة.. فخلقـــوا بذلك علـــم الكيمياء التجريبي في مفهومه العلمي، وأوصلوه إلى قمـــة رفيعة، أصبحت بموجبهـــا اكتشافات علمي الكيميـــاء العضويـــة والكيمياء غير العضويـــة الحديثين من الضرورات الماسة لإرجـــاع الكيمياء التجريبيـــة إلى المستوى الـــذي أوصلها إليه العـــرب». وهذا ما دعا المؤرخ الإنكليزي (كاستـــم) إلى القول بأنه قد وفـــق العرب إلـــى اكتشافـــات حقيقية علميـــة في علم الكيميـــاء، وكشف تركيبات كيماوية جديدة بدل محاولتهم معرفة حجر الفلاسفة الذي يحوِّل المعادن إلى ذهب.

أمَّا (باكون) الفيلســـوف الإنكليزي فقد سمـــاه، أي جابر، (معلـــم المعلمين). وكان (بيرهـــاف) الطبيـــب الكيمـــاوي الفلمنكي يقـــرن اسم جابر بالإجلال والإكرام على ما اكتشـــف من المكتشفـــات الضرورية للطب والكيميـــاء. وقد لقبه العلمـــاء (واضع علم

الكيمياء). ويقـول عنه (ج. لوبون): «تتألف من كتـب جابر موسوعة علمية تحتوي على خلاصة مـا وصل إليه علـم الكيمياء عند العرب في عصـره. وقد اشتملت كتبه على بيان مركبات كيماويـة كانت مجهولة قبله. وهو أول من وصف أعمال التقطير والتبلور والتذويب والتحويل... إلخ».

ويتضح لنا من هـذه الشهادات العلمية كلها لبعض العلمـاء المشهورين في الشرق والغـرب أن جابـراً يُعتَبر عبقريـة عربية إسلامية أصيلـة، ليس بفضل كثرة مؤلفاته العلميـة في مختلـف المعـارف الإنسانية فحسب، بـل لريادتـه وإسهامـه الجذري في تكوين منهـج البحث العلمـي بالمعنى الحديث. فلقد ساهم هو وعبقريات عربية أخرى كالـرازي وابن الهيثم والبيروني، في تكوين المنهج العلمي ووضع مبادئه وتأسيس أصوله. وإذا كان الغربيون يفتخرون بتحقيق مثل هذه الانتصـارات العلمية استناداً إلى انتهاجهم لمناهـج البحث العلمي الحديثة، والتي يـرون أن أسلافهم مـن العلماء مثل (جون ستيوارت مل، وروجر بيكون وفرنسيس بيكـون) قد توصلوا إلى مبادئهـا وأسسها، فحـق لنـا كعـرب وكمسلميـن أن نفخـر بأسلافنا من العلمـاء كجابر بن حيان وابن الهيثم والرازي والبيروني وكثيرين غيرهم، بوصفهـم قد حققـوا الريـادة والسبق في هذا المضمار. ولنا في مؤلفاتهم ورسائلهم الدليل والبرهان على صحة دعوانا. ولا أحد يستطيع أن ينكر ريادة جابر للعلم التجريبي، وذلك حين يقول في المقالة الأولى من كتابه (الخواصـ الكبير): «يجب أن تعلم أنَّا نذكر في هذه الكتب خواص ما رأيناه فقط، دون ما سمعناه أو قيل لنا وقرأناه بعد أن امتحناه وجربنـاه، فمـا صـح عندنا أوردنـاه، وما بطل رفضناه، ومـا استخرجناه نحن أيضاً وقايسناه على أقـوال هؤلاء القوم». ومعنى هذا أن الملاحظـة الحسية وحدها وسيلة كسب الحقائق العلمية، ومصدرها المعرفة الصحيحـة، وأن شهادة غيرهـم مرفوضة مالم تؤيدها مشاهدات الباحث وملاحظاته الدقيقـة. وهذا هو المحـك الصحيح في المعرفة عند العلماء المسلمين عامة وعند جابر بن حيان خاصة.

وليـس هـذا فحسب، بـل إن جابراً هو صاحـب نظرية (الاتحـاد الكيماوي) والتي تشبـه النظريـة الذرية، التي تحـدَّث عنها العالـم الأوروبي (والتن) بعـد جابر بعشرة قرون، والتي تقول أن الاتحاد الكيماوي يكون باتصـال ذرات العناصـر المتفاعلة بعضها ببعض، وكان جابر قـد أجرى تجربته على الزئبق والكبريت ووصـف عملية تحويلهما

إلى (كبريتور الزئبق). وكان (أرسطو) يقول: «إنَّ الفلــزات نشأت في باطــن الأرض من تفاعل الدخان والقوام المائي». ولكن جابر اعترضــ علــى رأي (أرسطو) بعــد دراسة وتجربــة وقــال إنَّ الفلــزات لا تتكون بهذه الصــورة، وإنَّ عنصرين جديديــن يتكونان في باطــن الأرض هما الزئبــق والكبريت، وباتحادهما تتكــون الفلزات. وبقيت نظرية جابــر هذه سائدة في دراســة علم الكيمياء فــي أوروبــا كلها، بعــد ترجمــة المؤلفات العربيــة، حتى القرن الثامــن عشر، وكانت هذه النظرية نواة لنظرية جديدة أخرى، هي نظرية (الفلوجستين) القائلة: إنَّ كل المواد القابلة للاحتراق، والفلزات القابلة للتأكسد تتكون من أصول زئبقية وكبريتية وملحية.

إضافــة إلى ذلــك، سيتوصــل جابر بعد ذلك إلــى الأوزان النوعية للمــواد الكيماوية وللمعادن، متوصلاً إلى ذلك بما أطلق عليه اسم (الميزان). ولذلك أدرك الغربيون مكانة جابر ومنزلته العلمية. وكان من اكتشافاته التقطير والتصعيــد، وقال جابر: «إذا حمي (الزنجفر) يتصعــد ويتطاير، ومتى جمــع هذا المتصعد وبرد يتحول إلى زئبق. ومن اكتشافاته، أيضاً، الحوامض القوية وترشيح السوائل وتصفيتها. وهو مكتشف حجر جهنم والسليماني، وطريقة تحميض الذهــب والفضة، وطــرق التقطير الثــلاث، التصعيــد، والتكثيــف، والترشيح، وإعادة اكتشاف ماء الفضة وأملاح النشادر».

ويعتبــر جابــر، كذلــك، أول مــن صنف المعــادن الذائعــة وصفاً مدققــاً. وتكلم عن مــاء الفضة والماء الملكــي وكيفية تأثير ماء الفضة على المعــادن، وتأثير المــاء الملكي علــى الذهب والفضــة والكبريت. وفي كتاب جابر كلام جيد في وصف كثير من المركبات الكيميائيــة المستعملة في المعامل الصناعية وفي الصيدليــات مثل كلامه عن حجر جهنم المستعمل في الجراحة وهو المعروف بنترات الفضــة. وتكلم أيضاً عن زهر الكبريت، وملح الطرطر، والزاج، وروح النشادر، وحجر الشب، والشاب اليماني. كما يصف جابر طرقاً لصبغ الأقمشة والجلــود وصبغ الشعر. وهو أول من استخرج حامض الكبريتيك وسماه زيت الزاج. وكذلــك أول من اكتشــف الصــودا الكاوية، وأول مــن استحضــر مــاء الذهــب. وينسب إليه استحضار مركبــات أخرى مثل كربونات البوتاسيوم، وكربونــات الصوديوم. وقد درس خصائصــ مركبــات الزئبــق واستحضرها. كمــا استعمل ثانــي أوكسيــد المغنسيوم في صنع الزجاج. وكان لأبحاثه في السموم ودفع مضارها أهمية كبرى، لما بين الطب والكيمياء من صلــة وثيقة. ولجابــر مكتشفات وأبحاث كثيــرة لا نستطيع إيرادهــا كلها في مثل هذه

المقالة القصيرة. ولكــي نزداد معرفة بجابر بن حيان سوف نستعرض سيرة حياته بما توفر لنا من معلومات ممكنة عنه.

هو أبو عبد الله جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي، وكان يعرف بالصوفي. وتذكر مصادر أخرى أنه أبو موسى جابر بن حيان. ويرجح أحد الباحثين بأنه قد يكون مصدر الخلاف أن له ولدين بهذين الاسمين.

ويلقب جابر بالكوفي على ما يذكر (ابن النديم) لطول إقامته فيهــا، حيث فرَّ هارباً إليها من خطر أحدق به بسبب البرامكة في عهــد هارون الرشيد، بعــد أن طاردهم هذا الخليفــة وقتلهــم شر قتلة. وقــد كان جابر على صلــة حميمة بهــؤلاء البرامكة، الذين اعتقــد هــارون الرشيد أنهــم بسبيلهم إلى نقــل الخلافة إلى العلويين. فهرب جابر إلى الكوفة خوفاً علــى حياته، حيث ظل مختبئاً حتــى أيام المأمــون فظهر بعــد احتجابه. وتذكر بعض المصــادر أن جابراً ينتمي إلى قبيلة (الأزْد) العربية، التي نزحت من اليمن واستوطنت العراق. وكان أبوه حيان قد اتخذ لــه دكاناً في مدينة الكوفــة يبيع فيها أنواع الطيــوب والعطــور. ويبدو أنــه كان معادياً للأمويين، ويدعو للتخلص منهم. وكان ينتقل بين البلاد داعياً للثــورة على الأمويين، إلى أن وصــل به المطاف إلى مدينة (طوس) في بلاد خراسان، وهي مسقط رأس (الفردوسي) صاحــب ملحمــة (الشاهنامــة) المعروفة. وهناك ولد جابر. لذلــك يعتقد بعضهم أنه فارســي الأصل. وهناك روايــة تقول إنَّه من (طرسوس) وأخرى تجعله صابئاً من (حران) في العــراق. ولا يعرف لجابر ميلاد معروف على وجه اليقين. إلا أن بعضهم يرجح أنه ولد في عام (١٢٠هــ) الموافق (٧٣٧م). ويجمع الكل أن حياته امتــدت خلال الشطر الأكبر من القرن الثامن الميلادي. وقد قتل أبوه بيد الأمويين أخيراً. فعاش جابر يتيم الأب. وتعلم جابــر القراءة والكتابــة، واطلع على جوانب الثقافة العربية الإسلاميــة السائدة آنذاك. ويقــال إنَّه اتصل برجل مــن الأسرة الأموية هــو (خالد بن يزيد بــن معاوية) والذي كان مهتماً بالعلم ولاسيما الكيمياء. وهكذا تعرَّف جابــر على علم الكيمياء بملازمته لخالد بن يزيد وقراءته لما صنفه خالد، وقد جاء عنه في كتــاب (البرهان في أسرار علم الميزان: «الأستــاذ الكبير جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي مولداً، السديُّ قبيلة، الطوسي منشأ، الصوفي مذهباً. أخذ عن (جرميّ الحميريّ اليمني) الــذي كان من المعمرين. توفي وله من العمر نيف وتسعين سنة».

وعندما انتقلت الخلافة إلى العباسيين عــام (١٣٢ هـ) رجــع إلى الكوفــة والتقى

بالإمــام (جعفــر الصادق) الــذي كان إلى جانب كونــه عالم دين، مولعــاً بعلم الفلك والكيمياء، فلزمه جابــر، وأخذ عنه أصول هذا العلم. وهنا يختلف بعض الرواة، فمنهم من يقول إنَّه كان تلميــذ (جعفر الصادق)، ومنهم من قال إنّه لم يكن تلميذاً له. ولذلك نسبت أبوة الكتــب الكيماوية له ولم تنسب (لجعفــر). ولو كان في رأيهم تلميذاً لجعفر لنسبت إليه أبوة الكيمياء. ويؤيد هذا الكلام (خير الدين الزركلي) في كتابه (الأعلام).

واتصل جابر كذلك بالبرامكة في بغداد، ويذكر ذلك (الجلدكــي) أن جابراً كان على اتصال مع البرامكة ويذكر في كتابه الخاص أنه شفى بنتاً أسيرة تخص (يحيى بن برمك). ويدل ذلك على أنه لم يكن كيماوياً فحسب، بــل كان طبيبــاً وفيلسوفــاً وطبيعياً، وهذا أكسبــه مكانة رفيعة عنــد البرامكة. ويتبع جابر في فلسفته العامة خطوات الفيلسوف الكبير (أرسطو)، إلا أنه تقدم عليه وبزه في علم الكيمياء. وفي كتابه الكبير نجد مئات من التجارب التي أجراها بنفسه.

وعندمــا نــكَّل الرشيــد بالبرامكة، كما ذكرنا، هرب جابر، وأخذ ينتقل بين البلدان. وكان أكثر مكوثه في الكوفة. وعندما استلم الخليفــة المأمون الحكم، ظهــر جابر بعد احتجابه، وعكف علــى تجاربه وكتاباته في علم الكيمياء. ويقول (ابــن النديم) إنّه كان له مختبر كبير في الكوفة أجرى فيه أبحاثه وتجاربــه الكثيرة. ويقال أنه في هذه الفترة كتــب ثمانين كتابــاً من الكتــب الكيميائية القيمــة. وأصبــح علم الكيميــاء على يدي جابر بن حيان علماً مكتمل العناصر، واضح الحدود، والتحصيل النظــري فيه يجب أن يسبق التجربــة والتطبيق. وقــد بيَّن جابر الصفات الخلقية التــي يجب أن يتحلى بها الباحث العلمي في نظره كالصبر والمثابرة والتكتم والسرية على أسرار العلم إلا لأهله.

ولجابر بن حيان تصانيف كثيرة قيل إنَّ عددها (٢٣٢) كتابــاً وقيل أيضاً إنها بلغت (٥٠٠) كتــابٍ ضاع أكثرهــا. وترجم بعض مــا تبقى منها إلى اللاتينيــة. ومعظم كتبه المتبقية متوزعة فــي المكتبات والمتاحف الغربية والشرقية. وبعضها ما زال مجهولاً حتى الآن، وقد تظهر في يوم ما.

وفي الحقيقة أن غموضــ حياة جابر في أوائــل القرن الرابــع للهجرة، هــو الذي أتاح المجال لاختلاف الروايات حول بعض الجوانب مــن حياته كما ذكرنا. ولكننــا في النهاية نقرُّ ونعترف بعبقرية جابر بــن حيان وبتفرده في إيجاد المنهج البحثي العلمي في الكيمياء. هذا وقد توفي جابر بن حيــان في مدينة (طوس) عام (٢٠٠هـ) الموافق (٨١٥ م).

المصادر والمراجع

١- جابر بن حيان، زكي نجيب محمود، مؤسسة البلاغ، بيروت، (١٩٨٧م).
٢- رائد الكيمياء العربية، حكمت نجيب، دار المتنبي للطباعة والنشر، أبو ظبي، (١٩٩٠م).
٣- تاريخ العلوم الطبيعية في الحضارة العربية الإسلامية، أحمد شوكت الشطي، مطبعة جامعة دمشق، (١٩٦٤م).
٤- الحضارة العربية الإسلامية والمجتمع العربي، أحمد شوكت الشطي، مطبعة جامعة دمشق، (١٩٦٣م).
٥- الأعلام، ج٢، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، (١٩٩٢م).
٦- جابر بن حيان: رائد منهج البحث العلمي، بركات محمود مراد، مجلة عالم الفكر الكويتية، المجلد السابع عشر، العدد الرابع، (١٩٨٧م).
٧- جابر بن حيان، محمد كمال، دار الربيع، حلب، (١٩٩٣م).
٨- جابر بن حيان، زهير الكتبي، دار طلاس، دمشق، (١٩٩٦م).

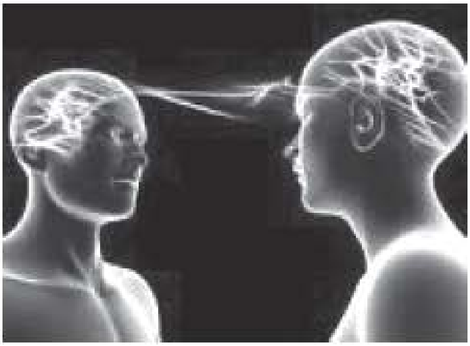
«البارابسيكولوجيا» والعلم التجريبي

❀
ترجمة وإعداد: وئام الجراد

«البارابسيكولوجيا» هي فرع حديث بدأ في عام (١٨٨٢م)، عندما تم إنشاء مؤسسة الأبحاث النفسية الكندية ودخل في مختبر أبحاث المؤسسة في عام (١٩٣٠م).

تغطي «البارابسيكولوجيا» مجموعة من الأحاجي العلمية بعودتها إلى الظواهر النادرة والمدهشة، حيث تشكل الظواهر الماورائية فرعاً منها.

وحتى الآن لم يتم الإجماع المطلق على الخصوصية التي تتمتع بها «البارابسيكولوجيا» ولكن يمكننا تقديم التعريف العام التالي:



أولاً: ماهي «البارابسيكولوجيا»؟

«البارابسيكولوجيا هي الدراسة العلمية والمتعمقة ومتعددة التخصصات للوقائع التي ليس لها حالياً أي تفسير منطقي، كما

❀ كاتبة ومترجمة سورية.

أنها تدرس الوقائع النفسية وتفاعلاتها مع البيئة المحيطة».

وفي البداية، اقترح تشارلز ريشه تسمية «ميتافيزيقيا» للدلالة على دراسة الظواهر الآلية والنفسية الناتجة عن قوى تبدو بظاهرها خفية في العقل البشري.

ثانياً: الظواهر التي تدرسها «البارابسيكولوجيا»

مع أنه تم اقتراح عدة أنماط، بشكل تاريخي، إلا أنه يمكننا القول حالياً أن الظواهر التي تقوم «البارابسيكولوجيا» بدراستها تنقسم لنمطين اثنين: الملاحظات الحسية غير الاعتيادية والملاحظات العقلية.

- **الملاحظات الحسية غير الاعتيادية:** وتعني هذه العبارة المعارف التي يمكن اكتسابها خارج نطاق الاحتكاكات الحسية المعتادة.

- **التخاطر:** هو التواصل المباشر من روح إلى روح أخرى أو «تبادل الخواطر والأفكار».

- **الاستبصار:** هو المعرفة المسبقة والمباشرة بحدث ما، أو شيء ما، خارج نطاق الاحتكاكات المعتادة.

وهناك **ظواهر** مختلفة يمكننا ربطها مع علم الاستبصار:

- **القياس النفسي:** وهي طريقة للاستبصار تتم من خلال غرض معين.

- **الاستبصار الذاتي:** وهو عرض استبصاري يتم من داخل جسد الشخص.

- **الاستبصار عن بعد:** حيث يتمكن فيه الشخص من وصف أحد الأمكنة كما لو كان يتنقل ضمنه.

- **القدرة على التكلم (أو فهم) لغة معينة**، من دون أن يكون هناك أي سابقة تعلم لها.

إضافة لطرق تكهن أخرى، أي القيام بالاستبصار بمساعدة وسائل مختلفة (كرة كريستالية، بطاقات تاروت... إلخ).

- **التحريك العقلي:** وهو تأثير العقل المباشر على المادة، من دون أي احتكاك مباشر أو وجود أي وسائل مادية مساعدة.

- **الوجود:** وهو الظهور المستمر لأشخاص، وحيوانات وكائنات وأشياء في مكان معين، في حين أن حضورهم بهذا المكان مستحيل من الناحية المنطقية، (مثل ظهور السيدة مريم العذراء، وأشخاص متوفين (أشباح)، ودوائر مضيئة...).

- **الوساوس:** هي ظواهر ترتبط بمكان معين (غالباً قصور أو منازل قديمة) تظهر فيها أشياء وماورائيات بشكل متكرر.

- **استحضار الأرواح:** ويتم ذلك من خلال وسيط روحي، يتجلى بـ(رفع الأشياء، ضربات قوية، اكتساب معلومات ما ورائية...).

-TCI (Transcommunication Instrumental):

وهو تسجيل سمع-بصري لصور ووسائل وأصوات ماورائية لأرواح المتوفين.

- **تحريك الأغراض:** يتم من خلاله رفع أغراض ثقيلة أو حتى أجساد بشرية (عند الصوفيين غالباً).

- **الخوارق النفسية:** كالسير على النار، وظهور ندبات غير طبيعية على الجسد، أو حالات البقاء على قيد الحياة من دون تناول الطعام إطلاقاً، والتحنيط، أي حفظ الجسد بعد الموت.

- **تجربة الانفصال عن الجسد (Out Of Body Experience):** في هذه الحالة يتمكن الشخص من اكتساب معلومات ماورائية من خلال شعوره بانفصال وعيه عن جسده المادي الذي يتمكن من مشاهدته عن بعد.

- **تجربة الاقتراب من الموت (Near Death Experiment):** وهي تحدث بشكل أساسي في حالة الموت الوشيك، ويعيش الشخص من خلالها تجربة «الانفصال عن الجسد» التي تحدثنا عنها أعلاه، ثم يمر بتجارب أخرى عديدة (مثل المرور ضمن نفق، واتباع نور معين..).

تترك هذه التجربة تغيرات نفسية عميقة ودائمة لدى الشخص المعنيّ.

- **التنويم المغناطيسي (Hypnose):** هي حالة ذات إيحاءات عالية جداً، تنتج عنها ظواهر عديدة (كالاستبصار، التخدير..).

- **التزامن:** وهو التوافق الزمني بين حدثين أو أكثر، ماديين أو نفسيين، من دون أن يكونا مرتبطين ببعضهما من الناحية السببية.

- **قراءة الحظ، الحدس:** ويتم ذلك من خلال الكواكب، أو الأحجار التي تقوم على أساس التزامن، ويمكننا ملاحظة أن كل سياق تاريخي، ونفسي واجتماعي يجلب ظواهره الخاصة به، حيث يكون العامل المشترك هو العلاقة غير العادية بين الفكر والمادة.

ثالثاً: التجارب غير العادية لأقارب المتوفين:

كتب لويس لاغرانج:

«يعيش جميع الناس تجربة أحداث غير عادية تغير من مجرى حياتهم، وقد يتم إعطاء هذه التجارب عدَّة أسماء: مصادفات، لقاءات سعيدة، غرائب، أحداث رهيبة، تدخلات إلهية، أو فرصة بسيطة ونقية. وتحدث هذه الظواهر غالباً عندما

يتوجب علينا مواجهة التغيرات التي يفرضها موت شخص عزيز أو حالة طلاق أو فقدان من نوع معين. فلكل حالة وقعها الكبير على سير الأمور، وهذه أحد التجارب:

– عزلت نفسي منذ وفاة والدي، وقد عشت عدة تجارب غير اعتيادية ساعدتني على تجاوز أزمة فقداني له، مثلاً: في العام الماضي. وفي الذكرى الأولى لوفاته، وضعنا أنا وأمي زهوراً ذات أغصان طويلة على قبره. بعد عدة أيام، اشتقت لوالدي كثيراً، فطلبت منه أن يقوم بإعطائي إشارة إذا كان كل شيء يسير على مايرام بالنسبة له، وإن كان كل شيء سيكون كذلك بالنسبة لي أيضاً، وتحديداً، طلبت منه أن تبقى الورود ندية عندما أعود لزيارة قبره في المرة القادمة، لذا، تعمدت عدم القيام بهذه الزيارة فقد كنت أعتقد أن هذه الزيارة قد تحمل لي خيبة أمل.

لحسن حظي، فإن أمي قد قامت بزيارة المقبرة بعد ١٨ يوماً. اتصلت بي في عملي لتخبرني أن الزهور ما تزال ندية، بهذه اللحظة فقط أخبرتها أنني طلبت من والدي الراحل القيام بهذه الإشارة... هل لكم أن تتخيلوا أن الأزهار ذات الأغصان الطويلة ماتزال تحافظ على شكلها في شهر تشرين الثاني؟!؟!

نعم، لا يمكنكم تخيل درجة اشتياقي له، ولكنني أعتقد حقاً أنه يعيش معنا، وتحديداً، من أجل مساعدتي على دعم أمي. أنا أعتقد أن مثل هذه التجارب هي بمثابة هدية إلهية طويلة الأمد، ومن دون أدنى شك، هي الهدية الأغلى ثمناً في حياتنا».

يتابع لاغرانج: «إنَّ ظواهر التجارب الخارقة، والتي تدعى أحياناً بـ(تواصل مابعد الموت)، قد ظهرت منذ فجر الإنسانية، وهي أحداث شخصية جداً ولكنها تحمل في طياتها الراحة والسكينة، والأهم من ذلك، فإنها تضفي قيمة على حياة أقارب الموتى، وقد تمتد هذه الأحداث إلى أشهر أو حتى أعوام بعد وفاة القريب».

«مع أن العلماء يصنفون هذه الملاحظات عموماً تحت مسميات عديدة كالأوهام، أو الهلوسات، أو المصادفات، فإن المعنيين الأساسيين بهذا الموضوع لهم وجهة نظر مختلفة تماماً. فهم مقتنعون بشكل شبه كليّ أنهم تلقّوا التأكيد من قبل الشخص المتوفى أو من قبل «كائن أعظم»، على أن الأموات يعيشون حياة أخرى، سعداء ويرغبون بمساعدة أقاربهم على التأقلم مع المتغيرات التي فرضتها عليهم ظروف الفقدان...».

«هناك سمتان مشتركتان للتجارب الخارقة أولاهما العفوية، وأما الثانية

فإنها تبــدو قادمة من مصـــدر خارجي، وخصوصاً أنه لا يتم استدعاء الموتى (على الرغم من أن بعض المعالجين يدّعون أنه بإمكانهم جمع الشــروط اللازمة لتدخل الظواهــر الخارجية من خـــلال استغلال فكرة الحزن المرتبط بالموت)، وهذا ليس لــه أي علاقة باستدعاء الأرواح. ومازالت هـــذه الظاهرة متواجــدة بأشكال مختلفة وفي جميع أنحاء العالم».

«خـــلال الخمســ والعشريــن سنـــة الماضية، وعنــد لقاءاتــي المتكررة مع أقارب الموتـــى وأحاديثي مع المعالجين، قمــت بوضـــع تصنيـــف للتجـــارب التي تحدث في أثنـــاء فترة الحداد، وتبين لي أن بعضهمـــا مرئـــي وظاهـــر بشكل غير اعتيادي، فـــي حيـــن أن بعضهما الآخر خفي على نحو غير اعتيادي».

أهميــة استخدام التجـارب غيـر الاعتيادية:

إنَّ غالبية أقارب وأهل الميت هم بحاجة ماســة لشخص يمكنهم الوثـــوق به والتكلم معه عـــن الضيـــق العميق والخـــوف الذي يواجهونـــه... وبالتالي يتمكن هذا الشخص مـــن مساعدتهـــم لتجاوز هـــذه المحنة من خلال مشاركتهم تلك التجارب.

الرحـلات التنويميـة في القـرن التاسع عشـر... الحالـة الغريبـة لـ«ألكسـي ديديه» (١٨٢٦- ١٨٨٦م):

أعتقد أنه يجب علينا بدايةً التأكيد على فكرة أن «الرحلات العقلية» التي سنتحدث عنهـــا لا يمكـــن تسجيلهـــا فـــي سجل علم الأمراضـــ (Pathology)، أو على الأقل، ليســ بطريقة واضحة جـــداً، فالموضوع لا يتعلق بأشخاص لديهـــم سجل طبي واضح، وإنمـــا تجارب لأبحاث إراديـــة ذات غايات استكشافيـــة علمية.. أليكســـي ديديه الذي سنتحـــدث عنه لا يعاني من أي مرض معين في الوقت الذي كان يمارس فيه «موهبته».

لم يكن مصطلح «التنويم المغناطيسي»، أو حتـــى عبـــارة «الوعـــي المغناطيســـي» معروفيـــن عندئذ. ولكن فـــي القرن التاسع عشر، كانت هذه التعابيـــر تشكل جزءاً من لغـــة الحياة اليومية، كما أنهـــا أثارت جدلاً واسعاً بيـــن الأوساط الثقافيـــة، وأدت إلى انقسام الآراء.

في عام (١٨٤٠م)، كان الشخص المنوّم مغناطيسيّاً هو الشخص الذي يدخل ضمن حالـــة من الوعـــي الخاصـــ، وتتميز حالته بتغيـــر وامتداد للإدراك، في حين أن عبارة «الوعي المغناطيسي» كانت تعني مجموعة مـــن قدرات الإدراك التـــي تتم خارج نطاق

الحواس والتي تتفتح لدى هؤلاء الأشخاص الخاضعين لعملية التنويم المغناطيسي.

ومن بين الأشخاص الذين مارسوا «التنويم المغناطيسي»، كان ألكسي ديديه الأشهر والأكثر إدهاشاً لمن حوله، عاش ألكسي في القرن التاسع عشر، وترعرع ضمن عائلة عمَّال متواضعة، اكتسب شهرة عابرة للحدود وأذهل ببراهينه الملوك والأمراء في أنحاء أوروبا كافة، كرَّسَ حياته لهذا المجال، فقد كان يرى أنه يمتلك مهمة خاصة، هي البرهنة على وجود الروح، عن طريق الوسائل التجريبية المتواضعة في عصر يتسم بالمادية. لقد أعطى الكثير لهذه المهمة التي استنزفت بنيته الضعيفة وأنهكت قواه الجسدية، فتوفي في عام (١٨٨٦م).

كان ألكسي بحاجة لتطوير «وعيه الذاتي»، للدخول بحالة وعي مختلفة، وعندما كان يدخل بحالة الوعي هذه، تحدث معه ارتعاشات عضلية وتوتر عصبي خفيف اهتزاز بالذراع ويقوم بتحريك عينيه بشكل دائري، ومع ذلك كان يحاول البقاء حاضراً ومستعداً لإظهار القدرة على التحاور مع الأشخاص الآخرين وحتى المزاح معهم، كما لو كان رجلاً مستيقظاً تماماً، وما إن يتمكن من امتلاك وسائله الخاصة، حتى يبدأ بقراءة أفكار مستشيريه أو بكتاب مغلق، كأن يتمكن من الذهاب إلى مكان غير معروف والقيام بإحضار معلومات دقيقة جداً وتوقع أحداث مستقبلية والنظر من خلال عصابة العين.

تمكن ألكسي من إعطاء أسماء الأشياء وعناوينها واختراق متاهة الأقدار الفردية بدقة تقطع أنفاس مستشيريه.

- تم توثيق تجارب ألكسي المغناطيسية بمئات القصص التي يحكيها المجتمع الراقي وخصوصاً الطبقة الأرستقراطية، فالوعي الذي كان ألكسي يدّعي الوصول إليه مدهش لدرجة أن العقل يشعر بالاهتزاز لمجرد قراءة التقارير، والتفسير الوحيد الذي كان سائداً عندئذ هو أنهم كانوا يتعاملون مع ساحر استثنائي. ولمواجهة هذه الفرضية، كان من المفترض مناشدة الساحر الأول في القرن الماضي، روبرت هودين، الأكثر إدهاشاً في كل العصور.

- التقى روبرت هودين بألكسي مرتين، وشهد أن الظواهر التي يختبرها ألكسي بعيدة كل البعد عن كونها مجرد شعوذة.

وبالتوازي، فإن السؤال الوحيد الذي يطرح نفسه في هذا المجال، هل «البارابسيكولوجيا» هي علم «طبيعي»؟!.

قد يكون علماء «البارابسيكولوجيا» إلى وقتنا هذا «مهمشين»، في حين أن المتشككين بهذا العلم هم من يدّعون أنهم

«العلمـــاء الحقيقيــون»، ولكن مـــاذا لو تم إثبات العكس؟

في محاضرته التي ألقيت في ٢٨ كانون الثاني (٢٠٠٥م)، قال بيير لاجرانغ:

«بالنسبـــة - للمتشككيـــن - بعلـــم «البارابسيكولوجيا»، فقد تم منعه من أن يكون علمـــاً حقيقياً وطبيعياً بسبب الحواجز التي وضعوها له، فعندما يدلي النقاد بتصريحات سلبيـــة تجاه هذا العلـــم، فهم لا يعطون في الوقـــت ذاته أي دلائل منطقيـــة لادعاءاتهم تلك، عندها فقط يمكنهـــم أن يطلقوا على أنفسهـــم تسمية «المتشككيـــن الحقيقيين»، إذ إنهم يشددون على (الاحتمالية) أكثر من (البرهـــان التجريبي)، وهـــذا لا يسمح لهم بدحض الفرضية بشكل نهائي، فإذا ما أكد أحد النقاد على أن النتيجة نابعة من حادث معيـــن، هنا، يلقي على عاتقـــه بالوقت ذاته مهمة البرهنة على صحة مايقول.

مثلاً، دافع لومبروسو عن فكرة استحضار الأرواح والتي تحـــدث عنها بالادينو، وذلك عندما قدم مثـــالاً على ذلك، فوجود الشعر المستعار لا يبطل وجود الشعر الحقيقي.

هنـــا، علينا أن نتذكـــر جميعاً أن العلم بإمكانـــه إخبارنا بما هـــو (غير محتمل) تجريبيـــاً، ولكـــن ليس ماهـــو (مستحيل) تجريبيـــاً. فالبرهـــان العلمي هـــو مسألة نسبيـــة ولم، ولن تكـــون أبـــداً، نابعة عن الاستنتاجات المطلقة.

وأخيـــراً، فإن النقاد كمـــا هم الأنصار، بحاجة لتعلـــم أن يجعلوا من الحكم العلمي شيئاً مماثـــلاً لما يتم تقديمـــه في قاعات العدالـــة.. فالحقيقـــة المطلقـــة، هي مثل العدالـــة المطلقة، من النادر الوصول إليها، ولكـــن لا يمكننا إلا أن نبذل قصارى جهدنا للاقتراب منها.

رابعـاً: تطبيقات «البارابسيكولوجيا» في العصر الحديث:

نشطت التطبيقات الحديثة والمعاصرة «للبارابسيكولوجيـــا» عبر تطـــور عدد من التصورات والمذاهب، منها مثلاً:

- **مذهب الإيزوتيريزم (مذهب التعاليم الباطنية):**

يعـــود هذا التيار إلى الجماعات السرية التي يفترض فيها المحافظة على المعارف التقليدية، والتي تهتم على وجه الخصوص بالمعارف الغامضـــة، وباستخدام الأعمال الخيميائية والأحجار والطلاسم..إلخ.

كانـــت انطلاقة هذا التيـــار الاجتماعي تندرج تحت هـــدف أساسي هو البحث عن السلطـــة والنخبويـــة، ومن أجـــل الاهتمام بالأشياء المخفية.

وبقيت الخطوة العلمية (بالمعنى الحالي للعبارة) غائبة عن هذه الممارسات التقليدية، فهي بالأحرى ترتبط بالخطوة الفردية للبحث الاستهلالي (البدائي) الذي يقوم على المعارف الموروثة من جيل إلى آخر.

- **مذهب الروحانية (Spiritism):**

انطلقت هذه الحركة عام (١٨٤٨م)، من قبل الأخوين فوكس، وتقوم على «استدعاء أرواح الأموات» من أجل الحصول على ظواهر بانورامية عن طريق (الضجيج الخاص، انتقال الأغراض من مكان لآخر، رفع الطاولة..) والرسائل (من خلال وسيط روحاني، ضربات قاضية..).

لم يلبث هذا التيار أن أصبح نوعاً من الدين الجديد، يقوم بتعريف الناس أن الروح تبقى على قيد الحياة بعد موت الجسد المادي، ومن جهة أخرى، يسمح بالأموات بالاحتكاك مع الأحياء.

يشرح أيضاً هذا التيار ظواهر «الوساوس»، وما يعطي هذا المذهب مظهراً مثيراً للدهشة هو أن الرسائل تبدو وكأنها «البراهين» القاطعة والمنطقية الدافعة للإيمان، وخصوصاً، عندما تتضمن هذه الرسائل معلومات لا يمكن أن تكون معروفة إلا من خلال الشخص المتوفى نفسه، (بالطريقة نفسها التي تقدم فيها «المعجزة» البرهان للمؤمنين على أن ديانتهم لا يمكن إلا أن تكون صحيحة).

إذا كانت الروحانية، وبجزء كبير منها، السبب الرئيس أن العلماء بدؤوا بالعمل على الميتافيزيقيا، فإن هذه الأخيرة تميزت بشكل تدريجي عن المقاربة الروحانية، رافضة الاعتراف بأن فرضية الحياة بعد الموت هي فرضية علمية قابلة للتجربة، كما أنها فضلت محورة أبحاثها على القدرات الكبيرة التي يمتاز بها علم النفس الإنساني.

فضل بعض الباحثين، مثل رين (Rhin)، وضع فرضية الروحانية جانباً، معتقداً أنها ستعود حتماً إلى الواجهة عندما يتقدم الباحث ببحثه. وبالمقابل، فإن الروحانيين ليس لديهم ذلك الاهتمام الكبير بالبحث العلمي، فهم قبل كل شيء ملتزمين بعقيدة دينية معينة، بكل ما تنطوي عليه من مناسك وفاعلية نفسية قادرة على إضفاء الراحة على أقارب المتوفين.

ومع ذلك، فإنه، وللأسف، تجري الجلسات الروحانية في ظروف يصعب السيطرة عليها، ولأن المعالجين الروحانيين مستعجلين وحريصين جداً على إظهار المقاربة الروحانية بالمظهر المميز، فإنهم بذلك قد أفرغوا هذا السياق من مضمونه كلياً.

وإذا كانت الروحانية تمثل نشاطاً مثيراً للاهتمام، ونوعاً من «لعبــة» جديدة مثيرة بالنسبــة للشبــاب، فإنهــا بالمقابل تسمح بإضفــاء الراحة علــى الأشخاصــ الذين يعيشون حالات الحداد على موتاهم.

ومع ذلــك، فــإن كل مظاهــر العقيدة الروحانيــة لا يمكنها أن تعد كعلم مطلق، إذ إنها في النهاية تقوم علــى مسلّمة أساسية غير مدعومة من الناحية العلمية.

«البارابسيكولوجيا» ووسائل الإعلام، والسينما والخيال العلمي:

تستوحي السينما وأفــلام الخيال العلمي والمسلســلات التلفزيونيــة موضوعاتهــا من الظواهر العلمية، مشوهةً بذلك صورتها الكلية إذ إنها تنطلق دائماً من منطلق العدائية والعنف، فأصبحــت بذلــك القــدرات النفسيــة قابلة للسيطرة واعتيادية ودائماً حاضرة ومهيأة في كل مكان وزمان. حيث تختلط «السيناريوهات» (النصوصــ السينمائيــة) بقصصــ لحالات «بارابسيكولوجيــة» ذات كيانــات شيطانيــة ووحوش ومصاصي دماء ومخلوقات فضائية.. إلخ. فتبقــى الظواهر النفسيــة هي المصدر شبــه الأوحد لاستيحاء قصص الخيال العلمي والأدبي والفني والسينمائي.

ففي فرنسا، تنوس وسائل الإعلام دائماً بين مستــوى التصديق أو عــدم التصديق بوجــود هذه الظواهر، والتساؤل الدائم عن حقيقتها..فالتصديقات الموضوعية نادرة أو حتــى تائهــة بمقابلات مــع شخصيات غير موثوقة، حيث إن وسائل الإعلام غالباً مــا تستخــدم نتائــج «البارابسيكولوجيا» العلمية من أجل بنــاء موضوعات «حسية». ولهــذا السبب فــإن الأشخاصــ الراغبين بالحصــول علــى رأي منطقــي موضوعي حــول «البارابسيكولوجيــا» لا يمكنهم أبداً اللجــوء للبرامــج التلفزيونيــة أو الصحف ذات الانتشار الواســع بين الناس لبناء رأي موضوعي مستقل.

فمــن أجــل الحصــول علــى المعرفة الصحيحــة، ما عليهــم إلا قــراءة أعمال ومقــالات الباحثيــن أنفسهــم، إضافة إلى ماينسب إلى «المتشككين».

مجال الطب والعلاج:

مازال كثير من الناس في عصرنا هذا، يعانون من الأمراضــ الجسدية من دون أن يلقوا إجابات واضحة لــدى الطب. عندما يصل هؤلاء المرضى إلى مرحلة اليأس، قد يلجؤون في نهاية المطاف إلى الطب البديل لإيجاد الحلول لأمراضهم (كالعلاج بالوخز بالإبر، والمعالجــات بالمغناطيس وغيرها من أنماط العلاج الأخرى).

يستخــدم الممارسون عادةً في الواجهة «تقنيــات واضحـــة»، ولكن فـــي الواقع يتم الشفاء بطريقة مـــا ورائية أي غير مفهومة وغير مشروحة من الناحية العلمية.

وعلـــى وجه العمـــوم، يريـــد المعالجون التوصل لتفعيل ممارساتهم عن طريق العلم، إلا أنه من الضروري بالنسبة للشخص المعالج أن يكون محافظاً علـــى إيمانه بالماورائيات لكـــي يحصل علـــى فاعلية علاجيـــة، وعلى الرغم من وجود «المكتب الصحي في لورد» فـــي فرنسا، إلا أن القليلين يتحفزون لدراسة عقلانية لهذا النمط من العلاج «الإعجازي». وبالمقابـــل، فإنـــه فـــي الولايـــات المتحدة الأمريكية، مايزال الطب البديل يتطور بشكل مستمر وقائم على أسس علنية ومهمة جدّاً.

نظرية العصر الجديد (New- Age):

إنَّ أيديولوجيـــا العصـــر الجديـــد، والمتفائلة بشكل واضح، تترك مجالاً كبيراً أمام القـــدرات «البارابسيكولوجية»، كونها تعلن عـــن تبدل جـــذري بالكائـــن البشري الذي يشهد حالياً زيادة في الوعي وسيطرة بالروحانية. وتتدرج الموضوعات الأساسية لهـــذه الحركة الاجتماعيـــة الثقافية ضمن إطار «الألفيـــة الجديدة». كمـــا أنها تشهد حالياً اعترافاً للعلم بمكانة الفكر والروح.

لقـــد تطورت نظريـــة «العصر الجديد» بشـــكل كبير في كل مـــن الولايات المتحدة الأمريكية وفرنســـا، إلا أن موقف المؤمنين بأيديولوجيا العصـــر الجديد بالنسبة للعلم يتســـم بالتناقض، فمن جهـــة، هناك رفض شديد لهـــذه الأيديولوجيا، حيـــث تتساوى المادية وتتعادل مـــع المجتمع الاستهلاكي، ومـــن جهة أخرى، هناك افتتان شبه صوفي بـ«النظريات الجديـــدة» والتي تترك الباب موارباً أمام تدخل الوعي في العالم المادي، إذ إن معتنقـــي حركـــة العصـــر الجديـــد، لايمتلكون بغالبيتهـــم العظمى، قوة علمية، فهم بالأحرى مؤمنون براغماتيون، يلجؤون لاستخدام نتائـــج البحث بعلـــم النفس من أجل دعم نظرياتهم بشأن تحول الإنسان أو التواصل العالمي بين الكائنات.

طالمـــا أن الإشبـــاع مهـــم بالنسبة لعلم الاجتماع، فـــإن هذه الحركـــة الثقافية تعد رد فعل طبيعي على ضياع القيم الأخلاقية، وعلى المادية السائدة في عصرنا الحالي..

المصدر

-عن موقع: www.paranormal.org.

الطيبة: مدنٌ خلَّدها التاريخ

د.خليل المقداد ❋



طيبة / الطيبة:

نتطرق في هذا البحث إلى مجموعة من المواقع الأثرية سواء في سورية أم في مصر أم في بلاد اليونان نظراً لأهميتها وارتباطها الحميم مع الآثار السورية وتأثرها بهـا، ومن ثم التأثر والتأثير المتبادل بين كلا الطرفين، وقد ذكرت في أبحاث سابقة

❋ باحث في الآثار.

أنه من المستوجب على الباحث حتى يفهم التاريخ والحضارة في العالم فعليه فهم الحضارة في بلاد الشام لما لأهل الشام من دورٍ فاعل في تأسيس وتطوير الحضارة ومنها الحضارة في منطقة حوض النيل وبلاد اليونان .

ولدينا في هذا الخصوص ثلاثة مواقع تأخذ التسمية نفسها ولها ترابط تاريخي حميم أحدها في سورية والآخر في مصر والثالث في بلاد اليونان، والسبب في ذلك تسهيل عملية فهم التوءمة والتكامل المعرفي والتاريخي والأثري والتخصصي.

مدينة طيبة في مصر Thébes:

أطلق الإغريق قديماً تسمية طيبة على المدينة التي توجد في منطقة مصر العليا والتي استمرت نحو ألف عام تقريباً؛ أي في الفترة الواقعة بين (٢٠٨٠-١٠٨٠ق.م). وكانت المدينة في تلك الفترة عاصمة مصر وفي قمة حضارتها التاريخية خاصةً عندما هيمنت على كامل مناطق حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقية، يضاف لذلك أنها حافظت لأكثر من ألف عام على نفوذها ومجدها البراق واللامع قديماً.

إلا أن معرفتنا بمدينة طيبة القديمة قليلةٌ جداً، ولذلك فإن الاسم الذي أطلقه المصريون على المدينة باسمOuaset الأقصر فذلك يعني أنها المدينة ذات السلطة الملكية والسيادة والتفوق Ouas والتي كانت تشمل كامل المناطق التابعة لها لاحقاً كما أن هذه المدينة العاصمة كانت في بداية أمرها عبارة عن ضيعة صغيرة، أما المدينة الكبرى فقد امتدت لاحقاً على حساب مناطق أخرى بعد أن تمت عملية اندماج موحد للعديد من القرى الصغيرة والضواحي القريب بعضها من بعض ومنها الكرنك Oper-Souet والأقصر Ouaset في الوجه القبلي على الضفة اليمنى من النيل.

ومن المؤكد أن المدينة بلغت أوسع امتداد جغرافي لها Medamoud في تلك الفترة في الجهة الشمالية من مدينة طيبة حيث شيد هناك معبد يعرف باسم معبد مونتو Montou في زمن الإمبراطورية الوسطى وفي عهد الفرعون سيزوتريس الثاني Sésotris II في الموقع الذي تم الكشف فيه عن بقايا أثرية عثر عليها ضمن تأسيسات المعبد الذي يعود إلى العهد البطلمي. وكذلك إيرمانت Ermant في الجنوب وعلى الحافة اليسرى من النيل حيث كان يوجد أيضاً معبد كرِّس لكل من الآلهة مونتو Montou وتود Tod.

وفوق الشاطئ المقابل وفي المواجهة أيضاً مازالت آثار وبقايا معبد يعود إلى عهد الإمبراطورية الوسطى باقيةً حيث شهد توسعاً وتجميلاً في زمن ملوك البطالمة، وكان هذا الموقع يشكل ضيعة ومن ثم ضاحية للعاصمة. وقد تشكل من جميع هذه الضواحي إضافةً إلى مدينة طيبة مركزٌ كبيرٌ اتخذ ليكون عاصمة مصر القديمة .

أمَّا التسميات المصرية الأخرى والتي أطلقت على مدينة طيبة مثل Het – Amon حيث آمون أي مدينة الإله آمون وهو الاسم القديم الذي ذكر في كتاب العهد القديم فمصدره يعود بلا شك إلى اللغة العربية ذات اللهجة الآرامية والعبرية لمدينة طيبة والذي تكرر ذكره في العديد من المواقع السورية مثل موقع الطيبة في حوران في منتصف الطريق بين مدينتي درعا وبصرى، وكذلك قرية الطيبة وموقع الطيبة جنوب دمشق بحوالى (١٠كم) وإلى الجنوب الغربي من مدينة الكسوة بنحو(٣كم)، وكذلك موقع طيبة الإمام إلى الغرب من مدينة حماة. ثم هناك موقع الطيبة في بلاد اليونان بالقرب من مدينة أثينا والتي تأسست من قبل الفينيقيين السوريين.

وجميع هذه المواقع تذكّر بالإله الأعظم للمدينة والإمبراطورية العربية المصرية أو السورية. أما الموقع المقابل من الجهة الأخرى من نهر النيل فخصص ليكون مقبرة لمدينة طيبة مع دير البحري ودير المدينة، ومدينة حابو Habouأو مدينة الملوك من الأسرة الرمسيسية Ramesseum، إضافةً إلى وادي الملوك والملكات الذي كان يعرف باسم الواسط Ouaset أو الوسط الغربي حيث نجد هناك الدليل الأقدم عن أهمية مدينة طيبة كموقع رئيسي ومركز ولاية .

وفي هذه المقبرة أي في موقع ذراع أبو النجا Drah – Aboul – Negga بالقرب من Assassif الأساسيف تم العثور على بعض القبور لهؤلاء الأجداد Nomarques الذين يعودون إلى الألف الثالث قبل الميلاد والذين يعرفون باسم الأنتيف Antif الذين سجلوا مجد طيبة. بعد ذلك تم توحيد مصر من قبل الفرعون أمنحوتب Mentouhoteb نحو عام (٢٠٨٠ق.م) حيث أصبحت مدينة طيبة عاصمة الدولة الجديدة في زمن الإمبراطورية الوسطى. وبفضل هؤلاء الملوك الذين ينتمون إلى العائلات اللاحقة بعد القرن الثاني عشر أصبح آمون الإله الرئيسي لمدينة طيبة ومن ثم أصبح الإله الرئيسي للدولة.

وفي الزمن الذي كانت فيه طيبة عاصمة الولاية كان الملوك الهكسوس هم

أمــراء وأسيــاد طيبة وهم الذيــن أسسوا الوحــدة المصريــة وبناء مجــد وعظمة المدينة التي تطورت وتوسعت على امتداد فترة عهد السلالة الثامنة والعشرين وذلك لأسبــاب إستراتيجيــة. ثم جــاءت أسرة الملوك الذين ينتمــون لأسرة رمسيس من السلالة التاسعة والعشرين، وهذه السلالة هي التي أسست أماكن إقامتها في منطقة الدلتا ووحدت البلاد.

أمّا مدينة الكرنك Karnak :

فتقع على الضفــة اليمنى من نهر النيل وإلــى الشمال من مدينــة الأقصر، وتسمى حاليــاً باســم الكرنك. وكانت فــي التاريخ المصــري القديم عبارة عن قصبة أو ضيعة صغيرة على شكل بلدة متواضعة تطلق عليها تسمية قبــط الجنوبية Opet – Isout ثم اندمجــت لاحقاً مع مجموعــة من البلدات وشكلت مدينــة طيبة الكبرى. وجاءت شهرة هذا الموقع الذي يتبــع مصر العليا بفضل وجــود المعبــد المركزي للإله آمــون الإله الرئيسي للعائلة المالكــة في طيبة والأكثر شهــرةً. ويظهــر المعبد حتى اليــوم كمكانٍ للعبادة الأكثر شهرةً واتساعاً وضخامةً، كما يعتبر في الوقت الحاضر حقلاً فسيحاً للآثار المصريــة التي لم يبقَ منهــا إلا القليل من الأشياء التــي كانت تتبع المعبد الذي يرجع في بنائه إلى زمن الإمبراطورية الوسطى.

وتم لاحقــاً توظيف معظــم المتبقيات التابعــة للأبنية القديمة ومزجها مع الأبنية اللاحقــة، إلا أنهــا لا تُظهــر أي شيء عن شــكل وهندسة مبنى المعبد الذي يعود إلى الفتــرة الزمنية الأولى التــي كانت تتوسط مرحلتيــن تاريخيتيــن تم التعــرف عليهما وفهمهما من خــلال نص كتابي فقط. ومع ظهور الإمبراطورية الحديثة برزت الشواهد والمعطيات التي كانت تتبع للأبنية الحقيقية التي استمرت صامــدة وقاومت العديد من العوامــل الطبيعية وغيرهــا، والسبب في ذلك أنها كانت تعتبــر كملحقات وإضافات استمرت حتى العهد الروماني.

وزود المعبــد بســت بوابــات تجميلية ضخمة ومتتالية أُتبعــت جميعها إلى معبد الإله آمون، كما استخدمت جميعها كمداخل تتبع لفسحــات وصالات معمَّــدة؛ فالبوابة الأولى مــن هذه المداخل تقــع حالياً فوق الأرضيــة التي تعود إلــى المعبد الذي يتبع بــدوره للعهد البطلمي حيث بلغ عرض هذا المعبد (١١٣م) وارتفاعه (٤٣،٥٠م) وسماكة الجــدران (١٥م). أمــا الصالــة الكبــرى والشهيرة في المعبــد فقد بنيت على شكل قاعــة معمَّدة يتم الدخــول إليها من خلال

البهو الكبير والبوابة التزيينية الثانية Pylône. وبلغت مقاييسها (١٠٣×٥٢م)، ويرتكز سقفها فوق (١٣٤) عموداً نصبت على شكل ستة عشر صفاً منتظماً. ويلاحظ أن أعمدة الجناح المركزي فيها بلغ ارتفاع كل واحد منها (٢٤م)، أما أعمدة الأجنحة الجانبية فيبلغ ارتفاع كل واحد (١٤م).

ويعود تاريخ البناء الأقدم لهذا المعبد إلى الفرعون تحوتمس الأول Touhotmosis I أي نحو عام (١٥٣٠ ق.م). ثم أكملت عملية البناء زمن الملكة حتشبسوت Hatshepsout، وبعد ذلك أخذ كل فرعون من الفراعنة العظام اللاحقين في السلالة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة في إدخال التزيين والتوسيع والتجميل في البناء بدءاً من الفرعون تحوتمس الثالث، وبشكلٍ خاص أيضاً الفرعون ستي الأول Séthi I ومن ثم الفرعون رمسيس الثاني. وقد حول جميع هؤلاء الفراعنة الصالة الكبرى ذات الأعمدة لبناءٍ مبهر وعظيم حافظ على عظمته وبهائه حتى الوقت الحاضر، ولهذا يُكِنّ الجميع لهذا البناء ولمن قام ببنائه كل تقدير.

أمّا السور الخارجي المضلع والفسيح فجاء بناؤه محيطاً بالمعبد بشكلٍ كامل وعلى شكل شبهِ منحرفٍ ليحتضن في داخله بحيرة مقدسة كبيرة، إضافةً إلى العديد من الأبنية ذات المقاييس والأحجام المختلفة ومنها معبد رمسيس الثالث الملتصق بالتجاور مع الساحة الكبرى، إضافةً لذلك هناك معبد خصِّص للإله خونسو Khonsou الذي كان يمثل القمر الذي كانت تقام له شعائر التقديس في هذا المعبد بعيداً عن معبد الكرنك في فترةٍ زمنيةٍ قديمةٍ جداً، ومن ثم اندمج مع معبد الإله آمون والإلهة موت من أجل تكوين آلهة ثلاثية مقدسة. وضمن هذه الثلاثية كان الإله خونسو فهو يعتبر ابن الإله آمون والإلهة موت. وقد تم العمل والبحث الأثري في معبد خوسو من قبل الآثاريين التابعين إلى معهد الآثار الشرقي في مدينة شيكاغو.

ويعدّ المعبد في الوقت الحاضر الأحسن محافظة على بنائه من بين معابد الكرنك، كما تم التأكد بأن بناء المعبد جاء في زمن الفرعون رمسيس الثالث أي في بداية القرن الثاني عشر (ق.م)، ثم تتابع العمل خلال عهد الفراعنة اللاحقين من أسرة رمسيس وبعض أحفادهم مثل الفراعنة حيريحور Hérihor وبنيجيم الأول Pinedjem I وبنجيم الثاني ونختنبو الثاني Néctanébo II وبطليموس الثاني.

أمّا معبد الإلهة موت التي ظهرت على شكل النسر المجنح فتم بناؤه في موقع

أشيـــرونAchéron بالقـــرب من الكرنك، وقد عرفت الإلهة موت في التقليد اللاهوتي المصري وفـــي مدينة طيبة على أنها زوجة الإلـــه آمون، كما جـــاء ذلك فـــي المفهوم التيولوجي Théologie، ولهذا فقد احتل معبدها القسم الجنوبي من مجموع المعابد في الكرنـــك، كمـــا أن ســـور المعبد يضم في داخله أيضـــاً معابد الفراعنة أمنوفيس الثالـــث Aménophis III ورمسيســـ الثالث، وبذلك ارتبطت مع المعبد المكرس للإله آمون من خلال الرواق الذي بني على شـــكل سرادق محاط بركائـــز يعود تاريخها إلـــى الفرعـــون Horemheb حور محب الملك الأخير من الأسرة الثامنة عشرة نحو (١٣٣٠ق.م).

وأمَّـــا المعبـــد الأخير الـــذي يتبع هذه المجموعة فهو معبد مونتـــو؛ وهو إله يتبع مجموعـــة الآلهـــة الفلكية التـــي تعود في جذورهـــا إلى آلهة الدلتا. ويظهر على شكل رجـــل ذي بأســـٍ شديد برأســـ صقر. وقد اتخذه ملوك طيبة التابعين للأسرة الحادية عشرة كإله يتبـــع الآلهة الحامية والحافظة في المدينـــة، ولذلك يظهر هذا المعبد في بنائه بهالة من الفخامة والازدهار في مدينة طيبة ومنطقتها أيضاً. وعلى الرغم من تربع الإلـــه آمون في المرتبـــة الأولى في النصر والرفعة، فقد نفذ الفرعون أمنوفيس الثالث فـــي هذا المعبد عملاً جيداً ثم اكتمل بناؤه تدريجياً في مراحل لاحقة وخاصةً في زمن الفرعون نختنبو الأول Nectanébo I .

موقع الأقصر مع المعبد El Aqsur / Louxor:

وكذلك الأمر بالنسبة إلى موقع الأقصر فكان فـــي بدايـــة الأمر عبارة عـــن ضيعة عربية مصرية تقع على الشاطئ الأيمن من نهر النيل، وتعني في اللغة العربية مجموعة مـــن القصور، وتشكل فـــي مجموعها حالياً واحدة مـــن المجموعـــات الأثريـــة الهامة والأكثـــر محافظة والتـــي مازالت باقية في منطقـــة طيبة القديمة. كما يطلق على هذا الموقـــع في التقليد المصـــري القديم اسم قبـــط Opet أو قبط ريزت Opet reset أي قبط المنضدة «الحرم الجنوبي» وحسب المعبد الـــذي مازالت الآثـــار المتبقية فيه قائمـــة؛ فيعتبر هذا المـــكان على أنه حرم آمون، ولذلك كان يقـــام في المعبد في كل عام وقبل موسم فيضـــان النيل أجمل عيد قبطـــي. وخلال هـــذا الحفل يخـــرج الإله آمـــون من معبده في الكرنـــك للقيام بزيارة إلى الأقصر وإلى المكان الذي تنتصب فيه معمدانية التعميـــد وتعرف باسم عين آمون Amon – Min.

وكان الملك يشارك بدوره في هذه المناسبة ويحضر شخصياً. وبعد العديد من الاحتفالات المتنوعة والمتعددة في معبد الكرنك تتم قيادة سفن ومراكب تحمل فوقها كهنة الإله آمون وهم يحملون على الأكتاف تماثيل الآلهة آمون وزوجته موت Mout وابنهم خونسو Khonso. ويسير الموكب إلى النهر، وفي المكان الذي ترسو فيه المراكب الكبرى وخلال هذا المشهد تنشد الأناشيد وينطلق دخان البخور، كما ترتفع أصوات المنشدين والمغنين بالغناء والإنشاد والموشحات على وقع قرع الطبول والدفوف وعزف الموسيقى والمزامير، وتنثر الأزاهير والأوراد. وخلال هذا المشهد يتجمع الحجاج برفقة الآلهة الذين يرعون الاحتفالات ويتابعون المسير والصعود فوق النيل متجهين إلى الأقصر.

وبعد ذلك يخرج الموكب المقدس من النهر للذهاب إلى المعبد حيث يقدم الجميع الأضاحي والتقدمات والهدايا والهبات، ثم تنحر الأضاحي وتعرض الهبات والهدايا في أجنحة المعبد المقدس والمصفوفة على امتداد الأروقة والحرم المقدس.

وبعد هذه الاحتفالات المركزية كانت تقام احتفالات مشابهة في معبد الأقصر تستمر لمدة (٢٧) يوماً، وكانت أشهر هذه الاحتفالات تلك التي تمت في زمن سلالة رمسيس. أمَّا عودة الآلهة إلى الكرنك فتتم تقريباً بالمنهج والتنظيم والظروف نفسها التي تمت فيها في حالة الذهاب. وفي هذه المناسبة تقدم الأضاحي بحيث تذبح الثيران ذات القرون الجميلة والمزينة بالزهور والأوراد.

وقد تم بناء المعبد في زمن الفرعون أمنوفيس الثالث في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن الرابع عشر قبل الميلاد. إلا أنه لم يبقَ من البناء لاحقاً سوى القليل من التحولات وعدد من الأبنية التي تمت في عهد رمسيس الثاني الذي أضافها على مقدمة المعبد على شكل بوابة تزيينية ضخمة Pylône، كما أضاف الفرعون أمنوفيس الثالث ساحة داخلية كبرى محاطة بمنهج تعميد وبوابة تزيينية أخرى مزينة بمسلتين من الغرانيت تتقدمان البوابة. وكانت واحدة منهما قد تم نقلها في عام (١٨٣٦م) إلى مدينة باريس وتمّ نصبها في ساحة الكونكورد بالقرب من القصر الرئاسي في مقدمة شارع الشانزليزيه.

وقد أظهر الفنانون فوق هذه المسلة إبداعاتهم النحتية حيث عرض الفرعون رمسيس مشاهد المعركة التي انتصر فيها في معركة قادش في سورية. وفي العهد

البطلمي تم إجراء بعض الإصلاحات والتحسينات الداخلية الصغيرة. ويظهر المعبد بمجموعه كوحدة معمارية مترابطة ومكونة من كتلتين معماريتين مقسومتين بحيث تظهر المجموعة الأقدم منهما مكونة من معبدين كبيرين يختلف كل منهما عن الآخر؛ ففي جهة الجنوب نجد معبد الإله آمون بالمعنى الحقيقي، وبالطبع كان هذا المكان محجوباً عن عامة الناس ويمنع الدخول إليه إلا للخاصة .

ويتكون هذا المعبد من قدس الأقداس وصالة معمَّدة Hypostyle ومحاطة بصالتين صغيرتين وصالة معمَّدة أخرى بشكلٍ عرضاني، وعلى هذه الصالة تنفتح الصالات الثلاث الأوَل، ونحو الشمال أيضاً نجد أربع صالات معمَّدة ومحاطة بشكلٍ مزدوج ومحيطة بمذبح المعبد الشعبي الكبير المخصص للمركب والصالة المعمَّدة التي تتقدمه.

ويتم الدخول إلى هذه الصالة الأخيرة من خلال صالة ذات ثمانية أعمدة تتقدمها صالة كبرى معمَّدة ومزودة بـ (٣٢) عموداً ذات منهج معد للكتابة كما هي حال أوراق البردي. وهذه الصالة تفتح على الساحة الكبرى والمعروفة باسم ساحة أمنوفيس الثالث. وهناك تعرض مراكب الآلهة موت وآمون وابنهما الإله خونسو. وقد عرضت هذه المراكب من جهةٍ وأخرى داخل الصالة المعمدة ذات الأعمدة الثمانية. كما أظهرت الحفريات الأثرية الحديثة في الموقع وجود كنيسة بيزنطية داخل صالة المعبد، إضافةً إلى العديد من الوثائق، كما تم الكشف عن كنيسة بيزنطية أخرى بنيت أمام بوابة المعبد.

مدينة طيبة في اليونان Thébes

كان لهذه المدينة مكانٌ هام في التاريخ والحضارة اليونانية، وكانت تتبع منطقة Béatie الإغريقية الواقعة على سفح منعزل يشرف من خلال الأكروبول على المنطقة في القرن الخامس قبل الميلاد، كما كانت في فترةٍ زمنية تشكل جزءاً من عدة مدن شكلت حلفاً ضد مدينة أثينا. كما تقع المدينة على بعد (٥٥ كم) تقريباً كخط نظر إلى الشمال الغربي من مدينة أثينا في بلاد اليونان. وكان تأسيسها في فترةٍ زمنية تعود لما قبل الميلاد ولكن غير معروفة بدقة، إلا أن الشيء المؤكد أن التأسيس الأول جاء من قبل قدموس الفينيقي السوري المؤسس القديم لهذه المدينة ومدن أخرى في بلاد اليونان، والمعروف تاريخياً باسم Kadmea/ cadmée – Kadmos .

وقد فرضت المدينة مع مدينة إيبانيوس سيطرتها على بلاد اليونان في الفترة الواقعة بين (٣٧١ - ٣٦٢ ق.م). وقد أظهرت الحفريات الأثرية الحديثة أن المدينة كانت محتلة في الألف الثالث ق.م، وقد تم الكشف سابقاً عن قصرين يعودان للعهد الميسيني (١٤٥٠-١٣٥٠ق.م) أي الفترة الهيلينية الثانية (Helladique)، كما تم العثور على أختام إسطوانية بابلية تعود إلى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد .

ويبدو أن البناء الأكثر جمالية والأكثر قدماً في المدينة هو منزل قدموس الذي تم تدميره لاحقاً. وقد أصبحت مدينة طيبة مركزاً لتحالف المدن في القرن السابع ق.م، ومن ثم أعلنت المدينة منذ القرن السادس ق.م العداء على مدينة أثينا بتحالفها مع الفرس في عام (٤٨٠ ق.م)، إلا أنها هُزمت من قبل الأثينيين في عام (٤٥٧ق.م). وعندما عززت موقعها وقوتها تحالفت مع مدينة أثينا ضد مدينة إسبارطة Sparte، إلا أنها تغلبت على مدينة كورنيه Cronée ثانيةً في عام (٣٩٤ق.م).

كما أن مدينة نيابولس حليفتها السابقة نجحت في التغلب على مدينة إسبارطة Sparte ودحر الإسبارطيون في معركة لوكتريه Leuctres في عام (٣٧١ق.م)، إلا أن نهاية المدينة جاءت على أثر معركة مانتينيه Manttinéeفي عام (٣٦٢ق.م)، ولذلك أخذت المدينة في التقهقر والتراجع التدريجي. ثم قام الإسكندر الأكبر بسحق المدينة وطمسها كلياً في عام (٣٣٥ ق.م)، ثم أعيد بناؤها في عام (٣١٦ق.م). ثم بقيت حتى الاحتلال الروماني وعند ذلك ثارت المدينة. إلا أنها دمرت من جديد من قبل القائد موميوس Mummius في عام (١٤٦ق.م) ثم سلبت ونهبت من قبل القائد سولا Sulla. إلا أنه لم يبقَ من آثار المدينة وأبنيتها التي كانت تعبر عن عظمتها وازدهارها الماضي إلا القليل، أما المدينة الحديثة والتي تعرف باسم ثيفاي فقد بنيت على حساب الموقع القديم، ولذلك تصبح الحفريات الأثرية صعبة في المدينة.

وتم الكشف حديثاً عن بعض الأسوار والأبواب التي تعود إلى القرن الرابع ق.م. وفوق مدينة كادميا/قدموس تم لاحقاً بناء المعبد الأخير على النمط الدوري المعمَّد بأبعاد (٦×١٢م) وبمقاييس (٤٦,٢٥× ٢٢,٨٠م)، كما تمتلك مدينة قدموس مقدس بروناوس Pronao، أما الساحة العامة الأقورة فتقع إلى الشرق من مدينة كادميا/ قدموس وملاصقة لمعبد أرتميس وأوكليا

Euklia ، وفي الجهة الشمالية الشرقية يوجد المسرح الأثري الذي بني من قبل سولا ،وأما ما تبقى من الأروقة فتتبع جميعها مباني الجيمناز Gymnase (الستاد).

وفي الجنوب من مدينة كادميا/قدموس يوجد معبد هيراقلس ومبنى جيمناز أيضاً، وفي الشمال وفوق هضبة كاستيللي Kastelli تم الكشف حديثاً عن قبر يعود للعهد الميسيني مع ملحقين من النمط الهندسي دروم Dromoi بينما كانت الجدران جميعها بما فيها السقف مزينة من الداخل برسومات تزيينية مختلفة.

أمَّا القبر الذي يسمى أمفيون وزيتوس Amphion et Zethos فقد بني على نموذج التومولوس Tumulus، ويوجد في داخله ناووس حجري صغير منحوت بشكلٍ دقيق وضع في قبر التومولوس المبني من حجر البريك/ القرميد الجيد الذي يبلغ قطره (٢٠ م)، وفي فترةٍ سابقة تم الكشف عن مبنى هرمي من النموذج نفسه، وتم الكشف عن مجوهرات ذهبية، كما يوجد في محيط وضواحي المدينة العديد من المعابد الكبرى، والمعبد الفريد الذي بقي من بينها هو المعبد الكبير Kabirion على بعد (٨ كم) إلى الغرب من الموقع الذي تمت فيه الحفريات.

موقع الطيبة في سورية:

وهو موقع أثري ذو تقليد نطوفي في حوران جنوب سورية بالقرب من مدينة درعا، ويقع إلى الغرب من مدينة بصرى نحو (٢٠كم)، وعلى الحافة اليسرى من وادي الزيدي حيث تنهض العديد من التلال البازلتية المتراكبة والكتل الحجرية التي تتكوم فوق صفين من الأبنية على شكل أسوار طولانية تحصر في داخلها حيزاً مكانياً حراً بعرض نحو عشرة أمتار.

وفوق هذا النطاق المركزي تم الكشف في عام (١٩٦٢م) عن موقع يعود إلى فترات زمنية ترجع إلى ما قبل التاريخ. كما تم العثور في هذا الموقع على العديد من اللقى الأثرية ومنها أدوات تعود لعصور ما قبل التاريخ مثل البلطات والفؤوس والمناقير وأدوات صوانية ومكاشط ومحكات وغيرها، كما تم العثور على أدوات تعود لفترة مطلع التاريخ.

كما تم الكشف عن مصاطب واضحة بينت حالة المرتفعات والأبنية الأحدث التي جاءت فوقها، ومنها كتل حجرية وظلت على بعد عدة أمتار لتكون قبوراً من النموذج البرجي (التومولي) وهذه الدلائل الحجرية تعطي مدلولاً جغرافياً للموقع الذي يعود لفترة ما قبل التاريخ.

وعلى عمق (٤٥سم) تحت الأبنية البازلتية القائمة فوق الأرض تم الكشف عن سرير بازلتي أكثر انتظاماً ومبنياً من حجارة بازلتية أكثر دقةً ومنهجية، ويحدد هذا السرير أيضاً طبقة رمادية مائلة للسمرة بسماكة (٤٠ إلى ٥٥ سم). و كانت هذه الطبقة غنية جداً باللقى الأثرية لكونها طبقة أثرية بحد ذاتها أيضاً. وتموضعت هذه الطبقة بدورها فوق طبقة ترابية من الصلصال الأحمر الذي شهد نوعاً من التصنيع في قسمة العلوي.

وقد أظهرت هذه المكتشفات النهضة الصناعية التي شهدها الموقع وخاصةً في السبر المركزي والرئيسي، ومن هذه المكتشفات أجران ومطاحن على شكل رحى بازلتية، إضافةً إلى عددٍ كبير من الأدوات الصوانية ذات اللون الأسمر القاتم والـمُسَمَرّ كلون الشوكولاة.

كما تم العثور على مئة قطعة أثرية معظمها من الصخور البركانية (ميكروتيك) مع القليل من المكاشط والمحكات من نماذج المناكيش والأزاميل، إضافةً إلى الحجارة ذات المنشأ البركاني بنماذج هندسية منها نماذج ثلاثية الزوايا والعديد منها يكون مروَّساً أو برؤوس مصفحة وصفائح ذات وجوه محدبة أو مقعرة أو مستطيلة وصفائح مبتورة وصفائح مهذبة ذات مقبض. أما الأدوات الميكروليتية فتكون على شكل صفائح مروَّسة أو بصفائح ذات مسطحات دائماً مروَّسة وممتدة كثيراً وصفائح ذات تحزيزات وتهذيبات.

وتميز الموقع بكثرة الأدوات على أشكال إزميلية أو مناكيش حجرية ومحكات وأدوات ذات مقابض متعددة النماذج بأشكال مروَّسة بتحدبات أو مروَّسة بمسطحات ذات تهذيبات دقيقة، وقطع أخرى ذات مثاقب وأدوات ذات فرضات ومسننات تعطي كلية وشمولية في الاستعمالات.

كما تم العثور على مناجل ذات شفرات صفيحية ملمَّعة وبعض الأجزاء ذات تهذيب مسطح بمسطحات متباينة ومنها شوكات ثلاثية السطوح وثلاثية الزوايا أو مسننات متنوعة. إضافة إلى مناقير ذات مثقب مذيل ومناجل ثلاثية الوجوه مسننة بانحراف. كما تم العثور على أجزاء من أدوات مهذبة بشكل مسطح، ومعكوسة أو مكسوة أو محضونة تنتمي بدورها على الأرجح إلى نوع من أنواع النشاب.

كما وجدت قطع ذات تهذيب كاسح بترويس مشطوب مع فرضة مثقب وترويس ذي قاعدة مكورة وتهذيب بمسطح معكوس وقطع ذات أجزاء من أدوات النشابات المهذبة بحمالة.

وكذلــك النشابات الكاملة التــي تنتمي إلى نموذج نشابات بيبلوس المروَّسة.

وبالنتيجة يبدو أن موقع الطيبة المهيمن على السهل المحاذي للوادي قدم دليلاً من خلال ازدواجية الأسوار الحجرية المحيطة علــى وجود مجتمع زراعي وصناعي متطور في فتــرةٍ زمنية قديمة أو الأقدم من مواقع التاريخ فــي منطقة الشرق الأوسط تعمقت فــي قدمها في التوصل إلى مرتبة المجتمع الرعوي ومن ثم المجتمع الرعوي الزراعي ومن ثــم المجتمع الزراعــي الصناعي ذي النماذج المبكرة.

وما هــذا الكم الهائل مــن المكتشفات الأثريــة إلا دليــلٌ أكيد على ذلــك، كما تم تدعيــم ذلك من خــلال الدراسة التي تمت من قبل الباحث ب. دوكوس الذي كشف عن مجتمع مارســ الصيد بشكل واسع وخاصة صيد الغزلان والثيران والحيوانات المجترة الصغيرة والخيول. ونحن بدورنا هنا لم نقدم ســوى أفكار عامة قام بهــا بعض الباحثين ومنهم ماري كلير كوفان عن الطبائع العامة للصناعة على أمل انتظار الدراسة الشاملة والمفصلة في المستقبل.

وقد أكدت دراســة التوضعات الطبقية العليــا والسفلــى عن وجــود طبائع تظهر خصوصيــات قوية وأنماط معيشة ووسائل حيــاة ومهــن مورســت بــأدوات متطورة ومصنعة ومهذبة بشكل حساس ولامع. ويدل الكــم الهائل لهذه اللقى على وجود مجتمع يشكل جــزءاً من المجتمــع ذي الحضارة النطوفيــة والــذي استعمــل أدوات كانت نــادرة الوجود في الحضــارات المعاصرة لها ومنها المحكات والمسننات والمناجل. ولهذا يكون من المؤكد تثبيت هذه القرينة المؤكدة بوجود المناجــل المسننة وبعض النشابات المحمولة.

ومن جهة أخرى نجد أن بعض الأدوات الملتقطــة من السطح مثــل المروَّسات من نموذج بيبلوس ومن مناجل مسننة ومبتورة، دليــل أكيد على مــا تقدَّم ذكــره. وبالطبع فهــذه الأدوات دليل أكيــد أيضاً على هذا التطــور الأكثر تقدمــاً والــذي سبق فترة استعمال الفخار في الألف السابع ق.م وأن هــذا المجتمع كان من الجماعات التي كان لها بعــد حضاري والتــي أسست الحضارة النطوفيــة منذ وقت مبكر. كمــا لا بد من لفت النظر إلــى أن الأدوات الزراعية ذات النمــاذج المتحولة والتي تــم الكشف عنها ومنهــا المناجــل وغيرها لم تُعــرف عند المجتمعات الأخرى سوى في الألف التاسع ق.م وفي نهاية العصر النطوفي وخاصة في منطقة المريبط وفي الخيام.

وكنا نلاحظ أحيانــاً أجزاء من أدوات زراعيــة مهذبــة تعــود إلى نهايــة الألف التاسع كانت متشابهة مع الأدوات الأخرى جاءت من السويــة الثالثة في الحفريات. وهذا يعني الغنى الكبير والأهمية اللافتة للنظــر للمستــوى السطحي الــذي تمت الإشارة إليه. وكذلك الأعداد الهائلة وغير المنتهية بالمقارنة بالأدوات المصنعة في المستويــات والسويــات المختلفــة والتي تظهر لنا أنها لم تتبدل مطلقاً والتي تعطي النموذج المثالي للحضــارة النطوفية في حوران وكما هــي موضحة وتظهر هنا في هذا العرض.

وأخيــراً تقــدم مدينة الطيبــة هنا إلى جانب مواقع يبرود وقرنــة فارا والمريبط شواهد حية وأكيدة على الحضارة النطوفية التي انتشرت علــى كامل الأراضي السورية والتــي تعمقت في فلسطيــن وتتم دراستها بعمــق في الوقــت الحاضر وذلــك بفضل هؤلاء النطوفيين في حوران.

المصادر والمراجع

- ماري كلير كوفان. الحوليات الأثرية السورية رقم (٢٣) عام (١٩٧٣م).
- j.von Beckerath Tais, und Theben. Glückstdt (1951).
- P. Berguet le temple D. Amon-Rê à Karnak Le Caire (1962).
- F, Bisson de la Roque Tôd Le Caire, (1937), AOTS, (2135-).
- H. T. Bossert Zur Geschichte von Karkamis RSO I (1952) pp – 67.
- p. Cloche Thébes de Béotie Paris (1952).
- A Dieter J Assmann et alii Grabung im Asasif 1963 -1970. (6 vol).
- E. Drioton et alii, Rapport sur fouilles de Médamoud (2vol) Le Caire (1927- 1929).
- A.Gayet le Temple de Louxor, Paris 1894.
- H. G. Güterbock «Carchemish» JNES (13), (1954) pp (102- 114).
- J. D. Hawkins, «Buillding Inscription of C» AS (22). (1972) pp (87- 114).
- D. G. Hogarth. C. L Woolley et R. D. Barnett, Carchemish, I, Introductory. Londres 1914; II, The Town Defense, 1921 ; III, The Excavation in the Inner Town, 1952.
- J. Kamil, Luxor, A Guide to Ancient Thebes m, Londres, 1973.
- P. Lacau, MAI, 43,2. Vandier, Manuel, II,2843 sq. 3.
- E. Lefébure et alii, Les Hypogées royaux de Thébes (3) vol. Paris 1882 -1883.
- G. Le grain, Les temples de K, Bruxelles, 1929.

- M. E. L. Mallowan, « Carchemish, Reflection on the chronology of the sculpture» AS, 22. 1972. pp 63 – 85.
- G.Maspéros. De Carchemis oppidi situ et historia antiquissima, Paris. 1872.
- Mayence – Le Caire, 1972 – 1977.
- Porter et Moss, II, 98 -100.
- Porer et Moss. I et II (The Theban necropolis et Theban Temples).
- Guy Rachet. dictionnaire de l,archéology. Paris. 1983. pp 681- 682.
- C. Robichon et A. Varille, Description sommaire du temple primitive de Médamoud, Le Caire,1940.
- G. Steindorff et Wolf, Die thebanische Gräberwelt, Leipzig, 1936. (fouilles de Drah – Aboul – Nagga)
- S. Symeonoglov, Kadmeia I. Mycenaean Finds from Thébes,Göteborg, 1973.
- D.Ussishkin «Observation on some monument from C», JNES, 26 . 1967, pp 8792-.
- A.Varille, C.Robichon, L,A. Christophe et alii. Karnak,, I-IV. B.I.F.A.O., 19,22,23,25 (1943...); Karnak, V (Centre franco – égypptien d, étude des temples de Karnak).6, Paris, 1982.
- F. Vian, Les origins de Thébes, Cadmos et les Spartes, Paris, 1963. «Chroniques des fouilles» BCH, (1964), 775- 779 ; (1966), 848- 853; 1968, 856- 862.
- E.F. Wente et alii, The temple of Khonsu, I : Scenes of King Herihor in the Court,Chicago, 1979.
- H. E Wnlock, The Rise and Fall of the s Middle Kingdom in Thebes, New – York, 1947.
- W. Wolf, Das schöne fest von opet, Leipzig 1931.

المجمع الجنائزي في تل أم المرا الأثري

د. محمود حمود*



يقع تل أم المرا شرقي حلب ويبعد عنها نحو ٣٥ كم، على يمين الطريق المؤدي إلى الرقة، وجنوبي بلدة دير حافر في منتصف المسافة بين الفرات وحلب.

شكل التل شبه دائري طول قطره (٥٠٠م)، وتبلغ مساحته نحو (٢٥) هكتاراً، إحداثياته (36° 8'2.86.N 37° 41'35.12E) ويتألف من تل مركزي في الوسط

* باحث وآثاري ومدير آثار ريف دمشق.

ارتفاعه لا يزيد عن (٩م)، ويحيط به بقية الموقع الأقل ارتفاعاً، وهو محاط بتحصينات وسور خارجي يصل طوله نحو (٢كم)، تتخلله ثلاث، وربما أربع بوابات. (كونه، ١٩٨٣م، ص٥٩).

يُعدُّ التل من أكبر مواقع عصور البرونز في منطقة الجبول الخصبة، وهو أهم مركز على طريق التجارة القديم بين الميناء الفراتي إيمار ومدينة حلب «يمحاد القديمة»، والذي يصل بين بلاد الرافدين والبحر المتوسط. كما أنه يشمل منطقة تواصل الأراضي الزراعية الخصبة، غربي سهل الجبول، بالأراضي الرعوية الجافة شرقيها، وهذا ما جعل من الموقع بوابة مهمة للنشاط الاقتصادي والتفاعل الاجتماعي بين هاتين المنطقتين.

المعلومات الأولى عن الموقع جاءت من خلال المسح الأثري لسهل الجبول الذي أجراه البريطاني ماكسويل هيسلوب Maxwell Hyslop عام (١٩٣٩م) ونشر نتائجه عام (١٩٤٣م). لكن المعلومات التي جاءت من أرشيف ماري وإيبلا عن منطقة الجبول، خلال العصور البرونزية، زادت من معرفة الباحثين واهتمامهم بالموقع، الذي يعتقد أنه يضم في طياته مدينة «توبا» tuba القديمة التي جاء ذكرها عدة مرات في نصوص إيبلا العائدة للألف الثالث وتم كتابتها بصيغة «دوب Dob»، كما ذكرت في نصوص أخرى من بينها: نصوص ماري، العائدة للألف الثاني، وكذلك حاتوشا «بوغاز كوي»، وآلالاخ الطبقة السابعة «VII»، حيث وردت بصيغة «توبا Tuba»، لكن التنقيبات في الموقع لم تكشف عن دليل حاسم لهذا الموضوع حتى الآن. «Curvers and Schwartez 1997: 204»، و« SCHWARTZ. 2007 b. p. 512 ».

بدأت بعثة بلجيكية يرأسها رولان تيفنان Ronald Tefnin أعمال التنقيب في تل أم المرا بالتوازي مع عملها في تل أبو ضنة (بين سنتي ١٩٧٦و ١٩٨١م)، الواقع في المنطقة نفسها غربي نهر الذهب. ثم تابعت بعثة مشتركة هولندية أمريكية أعمالها في الموقع بدءاً من سنة (١٩٩٤م) وحتى سنة (٢٠١٠م)، بإدارة كل من هانس كورفيرس Hans Curvers «جامعة أمستردام، هولندا» وغلين شوارتز Glenn Schwartz «جامعة جون هوبكنز: الولايات المتحدة».

أعمال البعثة البلجيكية:

أجرت البعثة مسحاً أثرياً ورفعاً طبوغرافياً للموقع ونفذت مجموعة من الأسبار ظهر من خلالها أن بداية

سكن الموقع تعود إلى العصر البرونزي المبكـر «نحو ٢٨٠٠ ق.م»، واستمر حتى نهاية عصـــر البرونز المتأخر «١٢٠٠ق.م»، كما شهد الموقع إشغالاً بسيطاً خلال عصور متأخرة «فارسيـــة - هلنستية - رومانية».

وقد عثـرت البعثـة في مرتفـع التل، وضمـن الطبقة الأثرية الثانيةII ، على بناء عـام كبير تعرض لحريق هائل أدى لدماره. وفي إحدى الغـرف عثر على مجموعة من الأواني الفخارية لحفظ المؤونة تماثل فخار حماه (G) وعلى ختم أسطواني مزجج يشبه نماذج الصناعـة الميتانية «أختام كركوك». كما عثر على جـزء من بناء آخر ربما كان قصراً. «كونه، ص٦٠» كمـا تم العثور على دميتيـن صغيرتين من الحجر إحداهما من البازلت وتمثل امـرأة جالسة واضعة يديها علـى صدرهـا. «تفنـان، ١٩٨٣، ص٢٦١» ويعود تاريخ البناءين مع اللقى إلى منتصف الألف الثاني ق.م.

في الطبقة الأثرية الثالثة III تم العثور علـى بيوت سكنيـة وقبور لأطفـال ضمن جرار فخارية، تحيط بها كسرات من تماثيل وعربـات، مصنوعة من الطيـن المشوي، وتعود إلى العصر البرونزي الوسيط. «تفنان ١٩٨٣ ص٢٦١». وقد كان فخار الطبقة III مشابـه لفخار حماه G، وتـل مرديخ III، وأبو ضنة VI. «كونه، ١٩٨٣، ص٦٠».

وفي الطبقة الرابعـة IV عثرت البعثة على فخار من النـوع البسيط غير الملون، و فخـار يحمـل زخارف على شـكل حزوز نفذت بطريقـة التمشيـط المشابه لفخار حماه GI، إضافة لوجود أوان كروية الشكل و دمـى فخارية تشبه فخار العمق « I- O». كمـا عُثر على قطعة من حجـر الستياتيت لتسريحة شعر تركب فوق رأس التمثال وهي تشبه بطريقتهـا ومادتها القطعة المكتشفة في قصر تل مرديخ مما يدل على أن تاريخ الطبقـة IV يتطابـق مع الطبقـة IIB وI فـي تل مرديخ. كما تم الكشف قرب البوابة الشمالية الشرقية للموقع عن جزء من سور كبيـر مشيد بالحجارة يعـود إلى مرحلتين زمنيتين تعودان إلى العصر البرونزي المبكر والوسيط.

وتوصلت البعثة بعد هذه الدراسات إلى أن الطبقـة IV تماثـل بمحتوياتهـا طبقة «مرديخ IIB وIB»، وبأن الموقع كان خلال هذه المرحلـة عاصمة إقليمية يتبع لمملكة إيبلا ومركزاً أساسياً لحماية القوافل القادمة من حلب إلى الفرات، ومحطة تجارية مهمة في منطقة بحيرة الجبول.

أعمال البعثة الأمريكية الهولندية المشتركة:

تركزت أعمال البعثة الأمريكية الهولندية على دراسة نشأة المجتمعات العمرانية وتطورها في منطقة الجبول، حيث تمكنت من التعرف على حالة التمدن والعمران المبكر التي شهدها الشمال السوري خلال تلك الفترة، ودور النخب الاجتماعية فيها. «Yukich،2013،p.7». كما أعادت البعثة دراسة وتصنيف الطبقات الأثرية في الموقع، وقد تبين أن تل أم المرا كان ومنذ بداية الألف الثالث وحتى منتصفه مركزاً إقليمياً صغيراً تحت سيطرة إيبلا. وقد أظهرت التنقيبات في طبقات هذا العصر، مجمعاً عمرانياً كبيراً أحيط بتحصينات وأسوار وبوابات، فضلاً عن مجمع جنائزي، هو أهم ما تم اكتشافه في الموقع حتى الآن، ويتضمن قبور الشخصيات المهمة في المدينة كما تضمنت هذه الطبقات منشآت معمارية ذات مستوى متوسط، رقيقة الجدران مبنية من اللبن على أساسات حجرية، وهي تقنية معمارية استمرت في أم المرا على امتداد العصور البرونزية «الألف الثالث والثاني ق.م».

وفي طبقات أخرى، تعود إلى النصف الثاني من الألف الثالث ق.م ظهرت عمارة محلية ذات حجم صغير إلى الشرق والشمال من مرتفع التل «الأكروبوليس»، في حين وجدت إلى الغرب منه مشاغل حرفية لتصنيع الأواني الفخارية والأدوات المعدنية. «SCHWARTZ 2007 b,p513»، و«كرفرس. هـ، و شوارتز. غ، ٢٠٠٥، ص٢٤». وإلى عصر البرونز الباكر« ٤. أ» تعود مجموعة أبنية ذات جدران سميكة وعمارة حجرية دائرية الشكل كانت مليئة بالرماد فسرت على أنها حواصل لتخزين الحبوب. «شوارتز، غ، وكيرفرس. هـ، ٢٠١٢، ص٣٧٢».أما السور الذي يحيط بالموقع فقد تم الكشف عن جزء منه في الجهة الغربية من التل، وهو يدل على أن الموقع كان مدينة محصنة كبيرة خلال الثلث الأخير من الألفية الثالثة ق.م. قبل أن يتضاءل السكن فيه بحدود نهاية هذه الألفية، لأسباب غير معروفة، وربما كانت التغيرات البيئية جزءاً منها. «SCHWARTZ, 2007 b,p.513»

بعد فترة الجمود والانكماش هذه، شهد الموقع انبعاثاً جديداً للنشاط فيه وظل مزدهراً طيلة العصر البرونزي الوسيط «أم المرا III. D» و«أم المرا III. AG» وربما كان هذا الانبعاث مقترناً بانضمام المدينة إلى مملكة يمحاد «حلب» القوية والقريبة من الموقع.

وقد أظهرت التنقيبات جزءاً من العمارة التي أعيد تشييدها في هذا العصر ومنها، بعض التحصينات المحيطة بالموقع، وتتضمن الأسوار والأبراج البارزة. والبيوت السكنية، التي احتوت على فخار وأدوات تصنيع الطعام صنعت محلياً. «كرفرس. هـ، وشوارتز. غ، ٢٠٠٥، ص٣٠».

لكن أهم ما تم الكشف عنه في الطبقة العائدة لهذا العصر، منشأة «الصرح١» التي تمت إشادتها فوق المدافن العائدة إلى الألف الثالث ق.م، وتتمثل برصيف دائري كبير، قطره ٤٠ متراً وهي تشبه البناء «٣ب» في إيبلا، «على الرغم من أن هذا الأخير مستطيل الشكل وأكبر حجماً».كما تم إشادة سور يحيط بالمرتفع المركزي للتل «الأكروبول». «شوارتز. غ، وكيرفرس. هانس، ٢٠١٢، ص٣٧٠».

خلال العصر البرونزي الحديث (١٦٠٠-١٢٠٠ق.م)، مرت سورية بمرحلة تعاقب فيها نفوذ المملكة المصرية، والحثية، ثم الميتانية التي أصبح الموقع جزءاً منها، مع وجود دلائل على عمارة محلية مستقرة، بيد أنه ليس هناك أي دليل على أبنية عامة كبيرة الحجم ولا على وجود تحصينات، وكل ما تم الكشف عنه هو بعض الحواصل لتخزين الحبوب، «غلين. شوارتز، وهانس. كيرفرس، (٢٠١٢م)، ص٣٧٠»، وطريق مرصوف بالحجارة المتوسطة الحجم، كما عثر على رقيم طيني مسماري هو الأول من نوعه حتى الآن في منطقة الجبول، وقد كتب بالخط المسماري واللغة الأكادية، ويتضمن معلومات اقتصادية، تتعلق بمنحة مقدمة لعدد من الأشخاص، بحضور الملك الميتاني شوتارنا الثاني Shuttarna II نحو (١٤٠٠ق.م). والرقيم يحمل طبعة ختم أسطواني يخص سلف شوتارنا واسمه شاوشتاتار Sauastatar والختم يشابه أختاما مماثلة وجدت في تل براك ونوزي. «Curvers H,Schwartez G,2002,P. 81».

المجمع الجنائزي:

يتموضع هذا المجمع وسط التل المرتفع «الأكروبوليس»، ويُؤرّخُ لفترة العصر البرونزي المبكّر «٢٥٠٠-٢٢٠٠ق.م». وهو أهم ما تم الكشف عنه حتى الآن في الموقع، أبعاده (١٥٠×١٥٠م)، عثر عليه سنة (٢٠٠٠م)، وتم حتى (٢٠١٠م) اكتشاف أحد عشر مدفناً، أهمها مدفن الأميرتين (رقم ١)، وهو الأصغر حجماً والأكثر حفظاً، حيث تألَّف من ثلاث طبقاتٍ من الهياكل، في الأعلى هناك امرأتان شابتان (١٥-٢٠سنة) تواجه إحداهما الأخرى، ودفن مع كل منهما

طفل رضيع تم وضعه عند الركبة، وترافقهما تجهيـزات من ذهب وفضـة ولازورد. وقد وضعـت جرة مليئـة بالصدف قـرب رأس إحداهمـا، كانت تحتوي علـى الكحل، مما يعني أنـه كَانَ مَع المرأة فـي قبرِها كامل عُدّة التجميل الخاصة بها. الطبقة الوسطى ضمت هيكليـن لذكرين بالغيـن ربما دفنا سويـة «مـع الشابتين والطفليـن»، اقتصر الأثـاث الجنائزي المرافق لهما على القليل من اللقـى المصنعة من الفضـة والبرونز ومنها خنجر ورأس رمح. وفي الطبقة الأدنى يوجـد هيكل لشخص بالغ، لم يعرف جنسه بشـكل دقيق، يرافقه كأس ودبابيس فضية. «Schwartez, 2007.a,p.41».

وتميـز المدفـن (رقـم٤) بأرضيتـه المجصصة بالكلس، وبوجود جدران ومنصة عالية مـن اللبن، وهي تجهيزات ربما كانت مخصصة لتقديـم القرابين من أجل أرواح الأسـلاف المدفونيـن فيـه «كرفرس. هـ، وشوارتز. غ، ٢٠٠٥، ص٢٦». وقد تموضعت محتويـات المدفـن ضمـن طبقتيـن، في الدنيا وجدت ثلاثة هياكل عظمية لبالغين، مـن بينها أنثـى تم دفنها بشـكل ثانوي مع مجوهراتها المصنوعة من الذهب والفضة والعـاج، إضافة لأثاث مطعـم بقشر بيض النعـام. كما عثر على طاولتيـن صغيرتين مـن الحجر البازلتي رُكِّبـتْ إحداهما فوق الأخرى ربما استعملتا لطحن مستحضرات التجميل. ومـن اللقى أيضاً زوج من العيون الحجرية وجد ضمن حفـرة مربعة الشكل في الزاوية الشماليـة الغربية من المدفن. «Schwartez,2007.a,p.41» وقـد تكـون هاتان العينان جزءاً من تمثال مركب من أكثر من مادة قابلة للتلف.

في الطبقة الأعلى من المدفن وجدت ثلاثة هياكل، لذكر بالغ، ولولد، وامرأة. ومن المرفقات بعضـ الدبابيس الذهبية ولقـى مصنوعة من الفضة، منهـا عصابات للرأسـ وطوق للعنق. «Schwartez.2007.a.p.41» وهنـاك سبع أوان فضية ذات أشكال متنوعة تشتمل على أوان وصحن فنجان وقدح وآنية صغيرة لها مثعـب. ووجد بالقرب مـن الجمجمة مجموعة من الخـرز المصنَّع من اللازورد والعقيـق الأحمـر والذهـب وغيـره مـن المواد، وهناك قطع مـن صدفيات وقشور بيض النعام ربما كانت مستخدمة للتطعيم. ووجدت أيضاً أربعة أختام أسطوانية صغيرة مـن الصلصال مثقوبة علـى امتداد طولها «بطاقـات للتعليق على الأواني» نقش عليها رمـوز كتابية لم يعرف معناهـا حتى الآن. وقد تميز المدفن بوجود الأقداح المموجة الطويلـة و«القوارير السوريـة»، التي عادة

ماكانت تستخدم للعطور والزيت والمراهم، ويعود تاريخها إلى نحو ٢٣٥٠ ق.م. «كرفرس. هـ، وشوارتز. غ، ٢٠٠٥، ص٢٦».

بنيت جدران المدفن (رقم ٥) من الحجارة في جزئها الأسفل، ومن اللبن في الأعلى، واحتوى على بقايا هيكلين لذكريين أحدهما بالغ والآخر طفل، «Schwartez,2007.a,p.41» رافقهما أوان فخارية، من بينها ما يعرف باسم آنية الشمبانيا العائدة لعصر البرونز المبكر ٣ (نحو ٢٥٠٠ ق.م)، وهي تدل على وجود طقس الوليمة الجنائزية «كيسبو»، تشابه تلك التي وجدت في تل جرابلس تحتاني في المدفن٣٠٢ «Schwartez,2007.a,p.49».

يُعدُّ المدفن (رقم٦)، أكبر المدافن المكتشفة، أبعاده نحو (٩٦٠× ٤٨٠سم)، وعثر فيه على هيكلين لذكرين بالغين وبقايا تابوت خشبي، ودبابيس مصنوعة من الذهب والفضة، وخرز من اللازورد والذهب والعقيق الأحمر وخنجرين من البرونز. «Schwartez,2007.a,p.41».

أمَّا المدفن (رقم٧)، فيتألف من حجرتي دفن وُجِد في إحداهما هيكل عظمي لولد يافع. وقد تم حفره في مكان مدفن قديم، وهو ما قد يشير لعدم احترام للقبور القديمة وبالتالي وجود صدع أو قطع أيديولوجي وربما سياسي مع الماضي. وقد يكون هذا القطع مترافقاً مع سقوط إيبلا والمدن التابعة لها والهجوم الأكادي على المنطقة نحو ٢٢٠٠ق.م. «كرفرس. هـ، و شوارتز. غ، ٢٠٠٥، ص٢٦» «Schwartez,2007.a,p.41».

بني المدفن (رقم ١١)، من الحجر واللبن ويتألف من غرفتين متصلتين بممر، وجدت بداخلهما بقايا هياكل عظمية، وأوان فخارية وحلي ذهبية، قطعتان منها على شكل وردة، وشريط ربما كانتا جزءاً من سوار. «شوارتز. غ، وكيرفرس. هـ، ٢٠١٢، ص٣٦٦».

عثر في المجمع الجنائزي أيضاً على منشآت تحت الأرض احتوت على هياكل عظمية لحيوانات، خصوصاً من فصيلة خيول الإكويد equids. فقد وجد جنوب المدفن١، بناء مربع الشكل من اللبن أطلق عليه البناء (B)؛ وكان فيه هيكلان عظميان من دون رأسيهما لحيوان من فصيلة الحمار، ووضعت جمجمتاهما على مرتفع إلى جانب إناء له فوهة صغيرة. وهناك مجموعتان من الهياكل لثلاثة كلاب صغيرة (جراء) وطفل آدمي رضيع. ويوجد تحت المدفن١، هيكل عظمي من دون رأس لحيوان من فصيلة الحمار.

وفي جنوب المدفن ١، هناك البناء (D)، وهو حوض من اللبن احتوى بداخله أربعة هياكل عظمية مقطوعة الرأس وأربعة جماجم لحيوان من فصيلة الحمار، وأيضاً إناء بفوهة صغيرة وعظام طفل آدمي رضيع. وعثر في المخلفات الموضوعة فوق هذا الحوض على جمجمتين لحيوان من فصيلة الحمار أيضاً وإناء آخر ذي فوهة صغيرة، وجثة طفل آدمي رضيع مدفون في إناء. واحتوى البناء (A)، شمال المدفن ١، على أربعة هياكل عظمية لحيوان من فصيلة الحمار. «كرفرس. هـ، وشوارتز.غ، ٢٠٠٥، ص٢٧».

إنَّ وجود هياكل بشرية في هذا المكان ربما كان يشير إلى أنها قتلت لأسباب طقسية «قرابين بشرية» ويقوي هذا الرأي تداخل هذا البناء مع المدافن والذي لايوجد له تفسير إلا لأنشطة طقسية. «Sarah Yukich,2013,p.8».

وقد أظهر تحليل عظام الحيوانات أنها تخص نوعاً مهجناً من الحمير العادية والحُمر الوحشية الآسيوية «الأوناغر» onagers. وتأتي أهمية الاكتشاف من كون النصوص المكتشفة والعائدة للألف الثالث ق.م، ومنها نصوص إيبلا، كانت قد أشارت إلى نوع محيّر من الخيول من فصيلة الإكويد و يسمّى بالكنغا kunga، وورد ذكره بصيغة «أنسه. بار.أن». وهي نوع من الخيول التي كَان لها قيمة كبيرة جداً عند أرستقراطيةِ سورية وبلاد ما بين النهرين، لأنها كَانت تُستَخدم في جر عرباتِ النخبةِ، وتستخدم في مجالات أخرى لهم. وقد أشار العلماء الدارسون للنصوص المكتوبة بأنّ حيوان الكنغا kunga كَانَ هجيناً مِنَ الحمارِ العادي، والحمار الوحشي أوناغر onager. وهكذا فإن الحيوانات الهجينة في أُمّ المرا ربما تكون أول برهان أثري على وجود حيوان الكنغا. كما أن وجود هذه الحيوانات في المجمع الجنائزي أمر كان له علاقة بالوجاهة الاجتماعية المرافقة للصفوة وعجلاتها الحربية. «كرفرس. هـ، و شوارتز. غ، ٢٠٠٥، ص٢٧».

إنَّ دفن هذه الحيوانات في المجمع الجنائزي نوع من الوجاهة الاجتماعية التي كان يتباهى بها أفراد الطبقة العليا من المجتمع، نظراً لارتفاع ثمنها، كما يمكن أن يكون لها دور آخر، في القبر وهي نقل روح الميت إلى العالم السفلي. «Sarah Yukich,2013,p.8».

تشير نصوص إيبلا إلى أن توبا «تل أم المرا»، كان يحكمها ملك وملكة، لهما

نفوذ محلي صغير ومحــدود، وهي بالطبع ليست على مستوى وأهمية المراكز الكبرى نفسهــا مثل إيبلا ومــاري. وهذا ما تعكسه تجهيزات المدافن، التــي وعلى الرغم من قيمتها الثمينة، إلا أنها لم تكن بمستوى تلك التي وجدت في مدافن إيبلا، أو في مدافن أور الملكية جنوب بلاد الرافدين والتي تعود لمنتصف الألف الثالث، أو مدفن قطنة «تل المشرفة» العائد للألــف الثاني. فلا تزيد كميــة اللقى الذهبية التي ترافق الميت في مدافن أم المرا عن (٢٠٠غرام) من الذهب، وهــو أقل بكثير مــن المصنوعات الذهبية التي رافقت مدافن الصفوة في إيبلا. وقد أوردت النصوص أن أحــد الراحلين تلقى مــــا مجموعه (١٠٠٠ وحتى ٢٠٠٠ غرام) من اللقى الذهبية من بين هدايا التقدمات. «Schwartez,2007.a,p.43».

إنَّ تموضــع هــذه المجمــع الجنائزي في مكان مميز مــن الموقع وسط المرتفع المركــزي «الأكروبوليس»، حيــث يمكن أن يشاهــد مــن كل قاطني المدينــة، وكذلك خصائص هذه المدافن، وبناء جزء منها فوق مستوى الأرض ومجاورتهــا لبعضها بشكل منظم إلــى حد بعيــد ومحتوياتها الثمينة، والــدور الكبير الذي لعبته في حياة السكان والذي دام لفترة طويلة، واستمرت على مدى فترة زمنية تبلغ قرنيــن أو ثلاثة قرون، كل هذا يدل على المكانة الاجتماعية الرفيعة للشخصيــات المدفونــة، وربمــا كانوا من أفراد الأسر المحلية الحاكمة. كما أن وجود الأواني الفخاريــة ذات الأغراض المتنوعة سواء التي تستخــدم للتقدمات أو للتخزين أو للاستخدام اليومي في الطعام والشراب، ومنهــا أواني السكب (المــاء وغيره) ذات الفوهــات الصغيرة، يشير لممارسة طقوس احتفاليــة وإقامة وليمة الكيسبو kispum المعروفة جيــداً في بلاد الرافدين وسورية من أجل راحة الأســلاف الراحلين وخاصة الملوك منهم، «Schwartez,2007.a,p.49» وهي ترتبط أيضاً بعبادة الأسلاف، المعروفة في المنطقة منذ وقت مبكر.

ويعــزز ذلك أيضاً إشادة (الصرح ١)، في عصر لاحــق «البرونز الوسيط»، فوق مدافن الألف الثالث. والصرح بناء مخصص لأغراض احتفاليــة طقسيــة، ويشيــر بنــاؤه في هذا المكان، إلــى إعادة الاعتبــار لهذه المدافن واستمراريــة عبــادة الأسلاف فــي الموقع وإحيــاء لذكراهم، خلال العصــر البرونزي الوسيط (٢٠٠٠- ١٦٠٠ق.م)، وذلك بعد فترة من الأزمات والانقطاع وعدم الاستقرار سادت نهاية العصر البرونزي المبكر. «كرفرس. هـ، وشوارتز. غ، ٢٠٠٥، ص٢٧».

ويرتبط مع هذا الرصيف(الصرح١)، بئر عُثرَ فيه على ١٢ جثة بشرية لرجال ونساء وأطفال قتلوا بضربة قوية على الرأس، وفوقها عشر طبقات من عظام الحيوانات. وما زال يتعين تحديد ما إذا كانوا ضحايا لكارثة عسكرية «الهجوم الحثي» أو أنهم أعدموا، أو أنهم قدموا على سبيل التضحية. كما أنه لم يحسم بعد فيما إذا كان هذا البئر بناء طقسي له علاقة بتقديم القرابين للآلهة والمرور عبره للعالم السفلي وبالتالي ارتباطه بعبادة الأسلاف، بشكل مشابه لبناء تل موزان المعروف بالـ «آبي» Abi، وهو على شكل بئر أرضي كبير مبني من الحجر يضم في طبقاته ودائع طقسية. «شوارتز. غ، وكيرفرس. هـ، ٢٠١٢، ص٣٦٨، ٣٧٣».

كل هذا يؤشر إلى أن المجمع الجنائزي كان مركزاً لعبادة الأسلاف، بشكل مشابه لبعض مواقع الفرات مثل جرابلس التحتاني وتل البنات وتل البيعة وتل أحمر، والتي كانت مدافنها أيضاً ظاهرة بشكل واضح ومتوضعة في صدارة مراكز التجمع السكني. لكن الأبنية الجنائزية في أم المرا تختلف عن هذه المواقع من حيث حجمها الكبير والإنشاءات المرتبطة بالتضحيات والطول النسبي لتتابع مدافنها. ويمكن افتراض أن هذا التتابع الخاص بالمدافن كان مستخدماً باستمرار من قبل العائلات والأسر الحاكمة المهمة. «كرفرس. هـ، وشوارتز. غ، ٢٠٠٥، ص٢٧»

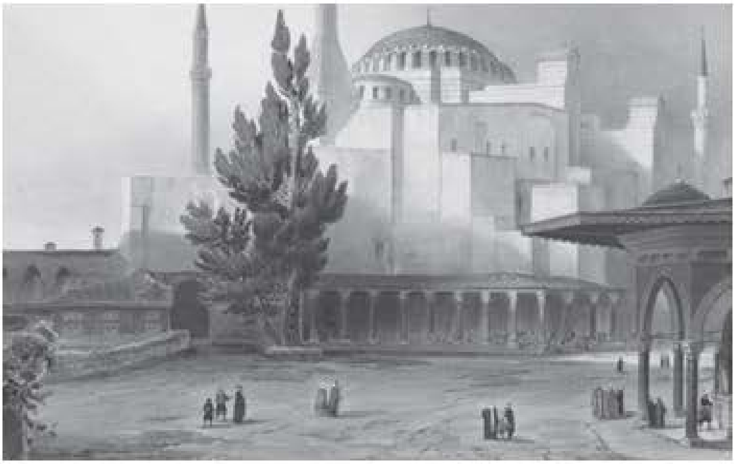
في الحقيقة، لا يتسع المجال للحديث عن المكتشفات، الثابتة والمنقولة، التي جاءت من أم المرا، لهذا تم التركيز في هذا البحث على المدافن لأنها ساهمت في تعريفنا بالجانب الروحي لديانة السوريين القديمة، منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، وقدمت الكثير من الأفكار الجديدة، ومنها فكرة مرافقة المقربين من الشخصيات الملكية، لاسيما الحراس والخدم، لأسيادهم الراحلين، كما في مدافن أور الملكية «جنوبي بلاد الرافدين»، وهي الفرضية التي يقول بها رئيس البعثة، غلين شوارتز، مع شيء من التحفظ، لأن التحقق من هذا الأمر يحتاج إلى براهين أكثر وضوحاً، مثلما يحتاج التحقق من اسم الموقع «توبا» إلى براهين حاسمة. ولكن كل هذا يشير في النهاية إلى أهمية هذا الموقع الواعد، وإلى ثراء وتنوع الثقافة السورية وثقلها، منذ فجر التاريخ.

المراجع

- تفنان، رولان، الحفريات البلجيكية في تلال أبو ضنة وأم المرة، تعريب حسن كمال، «الحوليات الأثرية السورية، العدد ٣٣، ج٢»، دمشق، (١٩٨٣م)، ص (٢٥٩-٢٦٢).
- شوارتز، غ، وكيرفرس، هـ، تقرير موسم (٢٠١٠م) الخاص بحفريات البعثة الأمريكية الهولندية العاملة في تل أم المرا، محافظة حلب، «مجلة الوقائع الأثرية في سورية، العدد السادس»، دمشق (٢٠١٢م)، ص (٣٦٥- ٣٧٣).
- كُرفرس هانس، وشوارتز، غلين، أم المرا (١٩٩٤ - ٢٠٠٤م)، ترجمة حسين عبد البصير (الحوليات الأثرية السورية، العدد ٤٧/٤٨)، دمشق (٢٠٠٥م)، ص (٢٣-٣٣).
-كونه، هارتموت، مواقع التنقيب الأثري في سورية، تعريب قاسم طوير وأسعد محمود، دمشق، (١٩٨٣م).
- Schwartz, Glenn,(a) «Status,Ideology, and Memory in Third-Millennium Syria: Royal Tombs at Umm El-Marra», Performing Death Social Ananyses of Funerary Traditions in The Ancient Near East and Mediterranean, Chicago, 2007, pp 39 -68).
- Schwartz, Glenn,(b) «The Early- Middle Bronze Transition Evidence From Umm El-Marra and Western Syriaq», Accademia Nazional Dei Linci, ANNO CDIV-Roma, 2007, pp 510- 529).
- Curvers, Hans, and Schwartz, Gleen, «Umm El-Marra, abronze age urban center in the Jabbul plain, western Syria», American Journal of Archaeology,101, 1997, PP201- 227.
- R.Tefnin»Apersu sur 9 campagnes de fouilles belges aux Tell Abou Danna et Oum el-Marra» AAAS 33,2(1983) pp.141- 152.
- Sarah Yukich, Spatial Dimensions of social complexity: environment, economy, and settlement in the Jabbul plain, 3000550- BC,Maryland, 2013.
- Curvers H, Schwartez G, Urban oricins, collapse and regenration in the Jabbul palain,(AAAS,Vol.45- 46), Damas, 2002/ 2003 , p. 75- 83.

إشكالية الكتابة التاريخية في القرنين الأول والثاني الهجريين

عبد الله السليمان ❁



المرحلة التي سبقت الإسلام:

عمل العرب قبل الإسلام -شأنهم شأن الأمم الأخرى- على استذكار تاريخهم ونقله من جيل إلى جيل عبر الرواية الشفهية التي ضُمنت في أشعارهم وأخبارهم، واشتهر البدو منهم بهذا الأسلوب.

وكان الفكر التاريخي عندهم يسير في مسارين أساسين: الأنساب وأيام العرب،

❁ باحث في التاريخ.

وكانت الأنساب وسيلةً لتَثبّت القبيلة من هويتها، وتأكيد ذاتها من خلال شجرة النسب، أي الوعي بالذات، وفكرة التأريخ عند أي جماعة إنسانية تنطلق من وعيها بذاتها.

وما يميز الخبر التاريخي في التراث العربي قبل الإسلام بأنه حدث بشري لا علاقة للآلهة فيه، كما هو الحال عند الإغريق.

وإنّ لعب الخيال دوراً كبيراً في تضخيم وقائعه وأصدائها. مع الأخذ بعين الاعتبار التنافس بين القبائل العربية وسعي كل قبيلة إلى تمجيد نفسها والظهور بالمظهر المثالي، لذلك لم يكن رواة أيام العرب يعنيهم الحدث التاريخي إلا بقدر ما يشيد بمآثر أسلافهم وبطولات قبيلتهم، إمَّا وفق تصوراتهم أو أمانيهم. وهكذا حل هذا التمجيد محل الحقيقية التاريخية.[1]

أمَّا العرب المتحضرة سكان اليمن، فإنهم فضلاً عن القصص التاريخية أو شبة التاريخية التي تناقلوها، دوَّنوا أخبارهم نقشاً وبالحرف المسند، على جدران قصورهم ومعابدهم ورووا فيها أحوالهم. وهي توثِّق للمرحلة الممتدة بين القرن العاشر قبل الميلاد والقرن السادس الميلادي[2]. وكانت هذه النقوش تتضمن أسماء الآلهة، وأنواع القرابين، وأسماء القبائل والأفراد، وبعض القوانين التي تحكم علاقات الناس بالأفراد، وبوسعنا أن نتلمس منها الأهمية التاريخية لبعض المنجزات السياسية والإدارية.

أمَّا القصص ذات الطابع التاريخي التي رواها القصاصون الجوالون عن ملوك اليمن وعن بطولاتهم وأعمالهم، تعبِّر عن مدى وعي عرب الجنوب بفكرة التاريخ. وبحكم أن عرب الجنوب عرفوا نُظُماً سياسية واجتماعية متقدمة نسبياً عن تلك التي عرفها عرب الشمال، ولعبوا دوراً بارزاً في التجارة الدولية آنذلك. لذلك أتت الروايات التاريخية منسجمة مع ذلك الوضع، فقد اهتم القصاصون بأخبار الملوك ومآثرهم ومنجزاتهم، وبالممالك التي كانت على علاقةٍ باليمن وبأخبارها. لكن وعيهم بالتاريخ ظل غير ناضج لعدَّة أسباب، أهمها أن هذه القصص لم تعتمد على توقيت زمني يربط بينها، مما يدل على أن الوعي بالزمن باعتباره قاعدةً للحدث التاريخي كان بعيداً عن هذا النمط من الكتابة التاريخية في تلك العصور. ولم تكن هذه القصص ذات الطابع الملحمي تهدف إلى الحقيقية التاريخية. وغالباً ما يختلط فيها التاريخ بالأسطورة[3]. وهي على حد قول ابن خلدون: «بعيدة عن الصحة عريقة في الوهم واللغط وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة»[4].

ودوّن أهل الحيـرة أخبارهم وأنسابهم. ويـروى أن النعمان ملـك الحيرة أمر بنسخ أشعـار العـرب، فدوِّنـت له فـي الطنوج (الكراريس) ثم دفنها فـي قصره الأبيض، وقد نبشـت أيام ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفـي[٥]. وقد دونت بعضـ النقوش في الإمـارات الحدودية في جنوب بلاد الشام، ولا تزال موجودةً، كالنقش الجنائزي المؤرخ بسنة ٣٢٨م والذي وجد في منطقة النمارة في إحدى الإمارات السورية الحدودية، وهو يحيي ذكرى «امرئ القيس ابن عمر، ملك كل العـرب، الذي ارتدى الإكليل وأخضع قبائل أسـد ونزار وملوكها». انتهـت هذه المرثية بالادعـاء أن ما ناله امرؤ القيس لم ينله أي ملـكٍ حتى هذا الوقت. ونقشـ «شراحيل» المؤرخ بـ ٥٦٨م.

البدء بالتدوين:

لما جاء الإسلام بدأ تدوين أوَّلي لبعض الأمـور والأحـداث منذ عهـد النبي، كان أهمها الإحصاء الذي جرى في عهده عليه الصلاة والسلام. خلال العصر الراشدي لما اتسعت الفتوحات الإسلامية وكثرت الغنائم أشار بعض الصحابة على عمر بن الخطاب بضرورة إنشاء ديوان لتسجيل أسماء الجند وأعطياتهم، وديوان للجباية لمعرفة ما يرد لبيت مال المسلميـن من أموال، وكان لهذه الخطوة أهميتها التاريخيـة بقدر أهميتها الاقتصاديـة. وبـدأ المسلمـون بتدويـن بعضـ أقوال النبي عليـه الصلاة والسلام وبعض أخبـاره لمنفعة دينية خاصة، أي إن الصحابة قاموا بالأمر لأنفسهم، وكانوا عند تدويـن كل قول يسجلون المناسبة التي قيل فيها والأسباب التي دعت للقول، وكان هذا جمعاً غير مباشرٍ لأخبار رسول الله وتاريخ حياته[٦]. وكان يُرَى عبد الله بن عباس «ومعه ألواحاً يكتب عليها عـن أبي رافع شيئاً من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم».[٧]

تنسب مرحلة بواكيـر تدوين التاريخ إلى كعب الأحبار وهـو من يهود اليمن، أسلـم زمن أبي بكـر الصديـق، وقدم المدينـة زمن عمر بـن الخطاب، وأخذ عنـه المسلمـون أخبار اليمـن والأمم الغابرة، توفي فـي حمص عام (٣٢هـ/ سنة ٦٥٦م). ولـ عبيد بن شرية أحد حكماء الجاهليـة، الذي أدرك رسـول الله وأسلم، كتب عن تاريخ اليمن بناء على طلب معاوية بـن أبي سفيان، الـذي كان شغوفاً بالتاريخ يخصصـ شطراً مـن الليل لسمـاع أخبار الملوك والحروب والمكائد السياسية. ومن أشهـر مؤلفات ابن شريـة «أخبار عبيد بن شرية في اليمن وأشعارها وأنسابها» و«كتاب

الملوك وأخبار الماضيين»، وقد توفي في عصر عبد الملك بن مروان، واقتصر عمله على الجمع ولم يخرج عن الطابع القصصي. ووهب بن منبه (ت١١٤هـ) صاحب كتابي «قصص الأنبياء» و«قصص الأخبار» وأصله فارسي وأمه من حِمّير، عاش في اليمن كان يهودياً واعتنق الإسلام وعمل قاضياً على صنعاء[٨]، وكان يجيد أكثر من لغة كالسريانية واليونانية والحِمّيرية.

التقويم الإسلامي:

كانت العرب قبل الإسلام يوقتون بالنجوم، وينسئون الشهور، أي يكبسون السنين القمرية، أو يزيدون في أشهر لإلحاقها بالسنة الشمسية، وكانوا يوقتون بالليالي من دون الأيام بخلاف ما كان يفعله الفرس واليونان[٩]، وكانوا يؤرخون بالحوادث العظام في تأريخهم فأرَّخ العدنانيون بعام نزول إسماعيل في مكة وعام تفرق ولد معد، وعام الفيل (غزو أبرهة الحبشي لمكة) وهو العام الذي ولد فيه رسول الله، وبناء الكعبة، ويوم ذي قار وغيرها كثير.[١٠]

ولما كانت خلافة عمر بن الخطاب، اتخذ عام هجرة رسول الله من مكة المكرمة إلى يثرب بداية للتأريخ الإسلامي، فقد روي أنه قال: «اصنعوا للناس تاريخاً يتعاملون عليه، وتصير أوقاتهم مضبوطة فيها يتعاطونه في معاملاتهم. وبذلك قدَّم للتأريخ العربي عموداً أساسياً من أعمدة بنيانه، ونشأ ما يسمى بـ«التقويم الهجري» المعتمد على التقويم القمري وحده، واعتبر أول محرم بداية للسنة الهجرية الموافق لـ١٥ تموز ٦٢٢م».[١١]

نشأةُ التاريخ الإسلامي:

مع الاعتراف مبدئياً بوجود مثل ذلك التدوين الأولي، يمكننا القول إن نشأة الوعي التاريخي عند العرب المسلمين بدأت بالقرآن الكريم الذي أورد العديد من قصص الأمم البائدة كعاد وثمود وقصص الأنبياء والصالحين كقصة أهل الكهف، وقصة يوسف...إلخ. وبيَّن القرآن الكريم أن هذه القصص للعبرة، يقول الله تعالى: **﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾**[١٢]. ومن هنا كان التاريخ لدراسة العبرة والاستفادة من تجارب الأمم الغابرة وأخبارها. وأكثر ما يتجلى البناء الدراماتيكي، الذي يمكن أن نسجله للأحداث التاريخية في القرآن الكريم، في قصة النبي يوسف عليه السلام، فشخصيات القصة هم من يحرك الأحداث،

وليس العكس، وكل شخصية لها كيانها وأفكارها وأبعادها النفسية الذاتية. لكن ليس بوسعنا أن نعتبر القرآن كتاباً تاريخياً إذ ينقص أخباره التحديد الزماني والمكاني. ومن حيث المنهج حث القرآن الكريم على التثبت والتحقق من الأخبار، من خلال نقد الراوي وخبره معاً، وذلك في قوله تعالى: **﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾**(١٣).

ويمكننا القول إن نشأة التدوين التاريخي عند العرب-المسلمين تمت تحت تأثير علم الحديث والإسناد وتقصّي الحقيقة(١٤). وكانت البداية مع عروة بن الزبير (ت ٩٢هـ)، وأبان بن عثمان (ت ١٠٢هـ)، فقد كتب كلاهما كتاباً في «الحديث»(١٥) وبعمليهما هذا تكون البداية الأولى للتدوين التأليفي للتاريخ العربي الإسلامي في العصر الأموي. وقد روى إبان بن عثمان أخباراً متفرقة عن حياة الرسول. ولم يكتب في المغازي(١٦). وتعتبر كتب المغازي والسيرة من أقدم الكتب التاريخية التي تجمع بين التاريخ والحديث وتمثل أول شكل للكتابة التاريخية عند العرب المسلمين(١٧) وتتالى تدوين الحديث فقد كلف الخليفة عمر بن عبد العزيز أو هشام بن عبد الملك، محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (٥٠-١٢٤هـ) بتدوين ما جمع من أحاديث. وقد قام هذا بتدوينها فعلاً، ووضعت في دار قراطيس الخلافة، لكنها فقدت في ما بعد(١٨). ولم يكتفِ المسلمون بتدوين الحديث وإنما دققوا في ما يروى من أحاديث رسول الله، ولاسيما بعدما تزايد وضع الأحاديث على لسان النبي زوراً وبهتاناً، وهكذا أوجد علماء الحديث تدريجياً، أصولاً نقدية للتميز بين الصحيح والموضوع من الأحاديث، ولتصنيفها بحسب قربها من الحقيقة. واتبع المؤرخون العرب تلك الأصول للتحقُّق من «صحة الخبر» أيضاً. فقد طبق النقاد من الحُفاظ والمؤرخين، الذين نقدوا الروايات التاريخية، المنهج نفسه في نقد الحديث، على مستوى الأسانيد والمتون معاً، من دون أن يُفرقوا بين نقد الإسناد والمتن، ولا بين الخبر الشرعي والخبر البشري من حيث طريقة النقد وجوانبه. والأسلوب النقدي الذي ساروا عليه، كان «التجريح والتعديل»، أي إنهم كانوا يتابعون «الرواة» الذين أسندت لهم الأخبار، ويعملون على دراسة شخصياتهم دراسة تفصيلية من حيث: تاريخ ميلادهم، ووفاتهم، وسيرة، حياتهم، وسلامة حواسهم الجسدية وقواهم العقلية،

وخلفياتهم الدينية أو العرقية أو المذهبية أو السياسية ومقدار الأخلاق التي يتحلون بها، وهذا ما يسمى: «التجريح». أي بذكر عيوبه الشخصية التي تجرده من صفة العدالة (الثقة والاستقامة)، وعلى هذا الأساس يوجه الطعن له، كأن يقال ضعيف، أو ساقط الحديث، أو لا يحتج به، أو كذاب. أو بتعديل بعضهم الآخر، أي بيان الصفات الشخصية للراوي، التي تثبت أنه «إنسان عَدْل»، أي موضع للتصديق والثقة، ككونه عالماً، نقي النفس، سليم السريرة، تقياً، ورعاً، ومستقيماً في أخلاقه وسلوكه فيقال عنه بأنه ثقة أو ثبت أو حجة إلى غير ذلك من الصفات.(١٩)

وقد لخص الإمام مالك بن أنس (ت١٧٩هـ) ذلك بقوله: «لا يؤخذ العلم من أربعة، ويؤخذ ممن سوى ذلك: لا يؤخذ من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه، ولا من كذاب يكذب في أحاديث الناس، وإن كان لايتهم على أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة، إذا كان لا يعرف ما يحدث به».

وكما اشتغل الزهري في جمع الحديث فقد اشتغل في كتابة التاريخ. وكان أول من تحررت كتاباته من الطابع القصصي، وتمثل كتاباته المرحلة الأولى من التدوين التاريخي، ويعتبر من مؤسسي علم التاريخ عند العرب-المسلمين. وأخذت الكتابة التاريخية على يديه طابعاً أكثر منهجية، ولم يقتصر عمله على الجمع فقط، وإنما لجأ إلى ترتيب مادته وتبويبها(٢٠). مورداً تفاصيل كثيرة عن البعثة النبوية وبداياتها والهجرة إلى الحبشة وأسبابها، وهجرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة المنورة، والمغازي، ورسائل النبي إلى القبائل العربية وملوك العصر، والفترة الأخيرة من حياة الرسول، كما تحدث عن حروب الردة وفتوح الشام(٢١). وشكل الحديث مصدره الأساسي وكان يتنقل بين مشايخ الحديث حتى توفرت له هذه المادة العلمية الغزيرة. فقد أخذ عن عبد الله بن عباس وعن إبان بن عثمان وعروة بن الزبير وآخرين، ممن يمكن أن نعتبرهم مؤرخي القرن الأول الهجري، وقد انصب اهتمام معظمهم على السيرة والمغازي انطلاقاً من معاصرتهم للنبي وقربهم من الأحداث السياسية.(٢٢)

وكان محمد بن سعد (ت١١٣هـ)، صاحب كتاب (طبقات الصحابة)، مؤسس علم الطبقات في التاريخ الإسلامي، وهو علم يبحث في تراجم الأشخاص التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ الأمة، ويتبع أسلوب الترتيب الزمني أو المكاني أو الفئوي أو كل ما سبق،

فالمؤرخ ابن سعد في كتابه طبقات الصحابة سار في تصنيفه مراعياً عنصري الزمان والمكان، فذكر الصحابة والتابعين بحسب أسبقيتهم في الإسلام، مستمداً أسلوبه من الخليفة عمر بن الخطاب الذي كان عندما يوزع العطاء يعتمد القِدم، ورتَّبهم حسب المكان على أساس المقيمين في الكوفة أو في مكة أو في المدينة أو في البصرة... إلخ. والتقسيم الفئوي أي عدم وضع كل الشخصيات بمختلف اختصاصاتها ومهنها في بوتقة واحدة بل تصنيفهم إلى طبقات بحسب طبيعة عمل كل منها مثلاً: الأطباء، الأدباء، الفلاسفة، الشعراء، الفقهاء. ويعتبر عمله إبداعاً جديداً في الفن التاريخي عند العرب المسلمين. وأشهر من كتب في هذا الفن بعده محمد بن سلام الجمحي البصري (١٥٠- ٢٣٧هـ).[٢٣]

وهكذا فإن نشأة التاريخ عند العرب- المسلمين علماً مدوَّناً ومجموعاً من مصادره الشفوية والمدونة بجاهليته وإسلامه، ترجع إلى القرن الثاني للهجرة، الثامن الميلادي، وكان في نشأته عربياً أصيلاً، وجديداً بفكره، وبتقويمه الزمني، وبأهدافه، أي أن المسلمين لم يقلدوا فيه غيرهم من الأمم. وهكذا فإن القرن الثاني الهجري أرسى قواعد علم التاريخ العربي الإسلامي، ورسم أطره من حيث التطور المنهجي الهام الذي طرأ عليه كعلم بدأ يأخذ استقلاليته عن علم الحديث، ولكن من دون إهمال السند الذي أعطى للروايات التاريخية في ذلك الوقت الكثير من الثقة التي اتخذها الحديث، ولاسيما أن معظم المؤرخين في هذا القرن كتبوا في التاريخ انطلاقاً من الاهتمام بالحديث، جمعاً أو كتابةً، بحيث ظهر تداخل واضح بين العلمين، وقد ظل هذا التداخل وثيقاً لعدَّة قرون، استطاع التاريخ بعدها الخروج من دائرة علم الحديث والاستقلال عنه.[٢٤]

وإضافة لفضل علم الحديث على التاريخ كان للفتوحات الإسلامية فضل لا ينكر، وإذا كان للحديث الدور الأبرز والحضور الأقوى في المدرسة الحجازية فإن فضل الفتوحات الإسلامية لم يقتصر على قطر من دون آخر، فاختلاط المسلمين بالشعوب المختلفة دفعهم للتعرف على عاداتهم ودياناتهم وتاريخهم وحضارتهم. وكان المسلمون بحاجة إلى التعرف على تاريخ الفتوحات الإسلامية، رغبةً ثقافيةً ودينيةً في المقام الأول، ولتنظيم شؤون الدولة وللفصل في بعض القضايا الإدارية والمالية التي واجهتهم. كالتميز بين ما فتح من تلك البلاد صلحاً وما فتح عنوة. وكان

للاحتكاك مع شعوب البلدان المفتوحة دورٌ بارزٌ في دفع المسلمين للترجمة عن لغاتهم الأعجمية، كالفارسية، والسريانية، واليونانية، مما أثرى علم التاريخ، فقد بدأت هذه الحركة في إطار مادة التاريخ بترجمة ابن المقفع لكتاب «خداينامة» عن الفارسية عام (١٤٠هـ) في تاريخ الفرس وأحوالهم تحت عنوان «سيرة الملوك»[٢٥]. وكان لتأسيس أول معمل للورق في بغداد سنة (١٧٨هـ/ ٧٩٤م)، دور كبير في انتشار كتابة التاريخ، فبعد توافر المادة الورقية اللازمة للتدوين ازدادت المؤلفات، ومن بغداد انتشرت صناعة الورق في مختلف أرجاء العالم الإسلامي، وكان الورق يصنع من الخرق البالية، ومن ألياف الحشيش ومن القنب والكتان.[٢٦]

المدرسة الحجازية:

يعتبر الزهري مؤسس مدرسة التاريخ الحجازية، ومن وضع خطوط كتابة تاريخ السيرة النبوية[٢٧]. وقد تتلمذ على يديه كل من موسى بن عُقبة (ت ١٤١هـ)، الذي كتب في المغازي[٢٨]، ومحمد بن إسحاق بن يسار الفارسي (ت ١٥١هـ) الذي لم يقتصر بتاريخه على سيرة رسول الله وإنما قدم تاريخ الدعوة الإسلامية.

في كتابه «السيرة» الذي دوَّنه كما يقال بناء على طلب الخليفة العباسي المنصور. فقد قسم كتابه إلى ثلاثة أقسام، هي:

المبتدأ: ويبحث في تاريخ العرب قبل الإسلام منذ بدء الخليقة ويعتمد في هذا القسم على أخبار التوراة وروايات وهب بن منبه.

والمبعث: ويبحث في حياة النبي في مكة، والهجرة.

والمغازي: ويضم تاريخ الرسول في المدينة حتى وفاته، وركز على حروب النبي مع القبائل المشركة[٢٩]. وقد ضمَّن ابن إسحاق كتابه قصص رواة الخبر وأيام العرب والكثير من الأشعار. ويوجه النقد له لإهماله التدقيق في السند، وتحامله على الدولة الأموية، وتأثره بواقعة الحرة، وروايته للكثير من الأمور اللاعقلانية، وبعض الأحاديث الموضوعة، حتى إن بعضهم نعته بالكذب وقال بأنه مشهور بالتدليس عن الضعفاء والمجهولين[٣٠]، على أية حال لم يصلنا كتابه، وإنما وصلتنا منه فقرات عن طريق تلخيص المؤرخين له وتنقيحهم. ولاسيما عن طريق عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨هـ) في كتابه المشهور «السيرة» والذي يطلق عليه عادة اسم «سيرة ابن هشام».[٣١]

وكان عاصم بن عمر بن قتادة (ت١٢٠هـ) وعبـد الله بن أبي بكر بـن حزم (ت ١٣٠هـ) مـن معاصري الزهري. وأبـو معشر السندي (ت ١٧٠هـ) الذي عاش ردحاً من حياته في المدينة وآخر في بغداد، واهتم بالسيرة النبوية وبالمغـازي. وهـؤلاء العلماء هم مـن أرسى قواعد علم التاريخ. وعلى الرغم من اهتمامهم بالسيرة بصورة رئيسية إلا أن أخبارهم تنوعت في السيرة، والمغـازي، والمواقع، والأنساب، والمثالب، والإدارة، والقضاء، وأخبار الخلفاء، والولاة، والقضاة.[٣٢]

وإذا انتقلنـا إلى المنهج فإنه تأثر شأن الموضـوع، بالمنـاخ الاجتماعـي الفكري السائـد حينذاك في المدينـة، التي ظلت نحـو قرنين من الزمن مرجع المسلمين في شؤونهم الدينية، ومقر محدثيهم وفقهائهم الكبار وأئمتهم من أمثال عبد الله بن عباس، والحسن بن علي، والحسين بن علي، والباقر، والصـادق. وكان مـن الطبيعـي أن ينعكس المنهـج «الحديثـي» على أعمـال سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وأبان بن عثمان، وشرحبيل بن سعـد، والزهري، وأبي بكر بن عبد الرحمـن، وحتى مالك بـن أنس. فقد طغت لدى بعضهـم صفة المحدث والفقيه على صفة المؤرخ مثـل سعيد بن المسيب، وأبان بن عثمان، وقد جاءت أعمال مدرسة الحجـاز مختلفـة عـن أعمـال المدرسة العراقية.[٣٣]

كان للمدرسـة الحجازيـة ظرفهـا ومعطياتهـا الخاصة فضلاً عـن مؤثراتها الاجتماعيـة والسياسيـة المختلفـة، فقد كانـت المدينة بشـكل عام، فـي منتصف المسافة بين دمشق والكوفة، أو بين السلطة والمعارضة، مما جعل مؤرخيها على الرغم من معارضتهم الضمنية للحكم الأموي، أقل تحامـلاً عليها من مؤرخي الكوفة، ولاسيما أن السلطـة فيها كانت شبـة مباشرة، بعد تولـي بني العاص مسؤوليتهـا طوال العهد السفيانـي. ومن ناحية أخـرى فإن الوضع الاجتماعي وغيـاب المواقف الحاسمة عن رموزهـا وقبولهـا أن تبقى علـى المسافة نفسها من الحكم والمعارضة، هذه العوامل كلها أسهمت في تكويـن فكرها المحافظ، وتفـادي الوقوع فـي خنـدق المواجهة أو التحزب العلني. ولا شـك أن هناك علاقة بيـن رواد هذه المدرسة والموضوعات التي ألفوا بها، حيث تمحـورت في الغالب حول سيـرة رسول الله ومغازيـة وأخبار الخلفاء الأوائـل، وغيـر ذلك مما شهدتـه المدينة على أرضها[٣٤]. ولم يشذ عن هذا النهج إلا الواقـدي، وهو: ومحمد بـن عمر بن واقد السهمي والمعـروف بالواقدي (ت ٢٠٧هـ)

والذي نسبت له عدة كتب في طليعتها كتاب «المغازي»، وهو ليس بثقة، متهم بالكذب والتحريف والتدليس، ومعروف برواية المناكير عن المجهولين، وكان حاطب ليل في مؤلفاته، خلّط فيها الغث والسمين، والخرز بالدر الثمين، لذا طرحه العلماء ولم يحتجوا به، حتى قال الشافعي عن مؤلفاته: «كُتب الواقدي كذب».(٣٥)

المدرسة العراقية:

يأتي في مقدمة هذه المدرسة مؤرخو الكوفة (أهل الرأي)، ويأتي في مقدمتهم لوط بن يحيى الأزدي والمشهور بـ أبو مخنف (ت ١٥٧هـ) ولد وعاش في الكوفة. نسب له أكثر من ثلاثين كتاباً في شتى المواضيع، ولاسيما ما يتصل بتاريخ العراق حتى سقوط الدولة الأموية. كتب في الردة والفتوحات الإسلامية وأخبار الشورى وصفين(٣٦) وما يؤخذ عليه أن يروي عن المجهولين والكذابين وكان متحاملاً في كتاباته على الأمويين بشدة. ووصف بالكذب لذلك هو متروك.(٣٧)

وعلى النقيض من أبو مخنف كان في الكوفة مؤرخ آخر هو عوانة بن الحكم الكلبي (ت ١٤٧هـ) الذي سعى لإنصاف بني أمية. أمَّا سيف بن عمر التميمي الكوفي (ت١٣٠هـ) الذي قاد حركة الخوارج في عهدها الأول، انصب اهتمامه على أخبار الفتنة وواقعة الجمل بصورة خاصة من النظرة العراقية وربما التميمية(٣٨)، لذلك ليس بوسعنا أن نعتمد أخباره. بينما كتب نصر بن مزاحم (ت ٢١٢ هـ) كتاب بعنوان «وقعة صفين». إلا أن علماء الجرح والتعديل قالوا فيه: بأنه كثير الخطأ، مضطرب الحديث، ليس بثقة ولا بمأمون لذلك هو متروك.(٣٩)

إنَّ دراسة هذه الكتب تاريخية المظهر سياسية النزعة والمضمون، يظهر بجلاء درجة الميول السياسية -التي يصعب الخروج عنها- لهؤلاء المؤرخين. ومن الناحية المنهجية تسامحوا في قضية الإسناد مما جعلهم عرضة لنقد الفقهاء الذين التزموا بقضية الإسناد بشكل دقيق. بينما برز منهم من اهتم بالنقد التاريخي الذي سار عليه علي بن محمد المدائني (ت٢٢٥هـ). وعرف بهذا الاسم نسبة إلى عيشه في المدائن، على الرغم من نشأته في البصرة وقضاء الشطر الأخير من حياته في بغداد، حيث نال موقعاً بارزاً في حياتها الثقافية والاجتماعية. كتب أخبار النبي وقريش والمنافقين والخلفاء وتحدث عن الردة والفتوحات والجمل وصفين والخوارج والأنساب(٤٠). وكان

عالماً بأيام الناس، وأخبار العرب وأنسابهم ورواية الشعر، وكان مهتماً بتاريخ خراسان والهند وفارس. وقد مثل المدائني مرحلة مهمة في تطور المنهج التاريخي متأثراً بالأسلوب النقدي للمحدثين، ووصف بأنه الأكثر دقةً والأكثر موضوعيةً، وكان ثقة إذا حدَّث عن الثقات.(٤١)

وروى هشام بن محمد بن سائب الكلبي (ت٢٠٤هـ) في عدَّة موضوعات: كالأحلاف والألقاب والمثالب وأخبار اليمن وأخبار الخلفاء والأمصار والبلدان والأنساب ولاسيما في كتابه الشهير «جمهرة النسب». ونسب له ابن النديم في كتابه «الفهرست» أكثر من ١٤٠ كتاباً لم يصلنا منها إلا ثلاثة. وما يؤخذ عليه أنه يروي الأخبار الموضوعة، وقد وصف بالكذب.(٤٢)

وهكذا فإن أبرز سمات المدرسة العراقية في القرن الثاني الهجري هي التنوع في المضمون الذي اتسعت دائرته لتشمل تفاصيل واسعة عن تاريخ العرب قبل الإسلام، وعن بلدانهم وأمصارهم وأحوالهم وأنسابهم بعده، فضلاً عن أخبار النبي والخلفاء والفتوحات والصراعات السياسية التي دارت في العهد الأموي، واتسمت هذه المرحلة بظهور الخلفية السياسية للمؤرخ الذي كان أكثر تأثراً بأجواء الصراعات الحادة بين الأمويين وخصومهم. لذلك ينبغي التدقيق في أخبار هذه المرحلة التي لم تخلُ أخبارها من التعاطف مع هذا الاتجاه السياسي أو ذاك، ولاسيما الاتجاه المناوئ للدولة الأموية.(٤٣)

الهوامش

١- قاسم عبده قاسم، تطور منهج البحث في الدراسات التاريخية، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية، القاهرة (٢٠٠٠)، ص١١١.

٢- ليلى الصباغ، دراسة في منهجية البحث التاريخي، ط١٣، منشورات جامعة دمشق، (٢٠٠٨م)، ص٣٧.

٣- قاسم عبده، المرجع السابق، ص١١٨.

٤- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ط١، دار الكتب العلمية، (١٩٩٣م)، ص٢٢٤.

٥- ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص٣٧.

٦- عبد العزيز العمري، الولاية على البلدان في عصر الخلفاء الراشدين، ط١، الرياض (١٤٠٩هـ)، ص١٥٨.

٧- إبراهيم بيضون، مسائل المنهج في الكتابة التاريخية العربية حتى نهاية القرن الثالث الهجري، مجلة الفكر العربي العدد ٥٨ سنة العاشرة، بيروت (١٩٨٩م)، ص١٠.. نقلاً عن ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢، ص٧٣١.

٨- ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص٤٠.

٩- ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص٣٦.

١٠- قاسم يزبك، التاريخ ومناهج البحث التاريخي، دار الفكر اللبناني، ط١، بيروت ١٩٩٠م، ص١٠.

١١- ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص٣٦.

١٢- القرآن الكريم، سورة يوسف، الآية الثالثة.

١٣- القرآن الكريم، سورة الحجرات، الآية السادسة.

١٤- ليلى الصباغ المرجع السابق، ص٣٩.

١٥- وقد اختلفوا في تاريخ وفاته فمنهم من قال توفي سنة (١٠٥هـ) ومنهم من قال توفي سنة (٨٥ هـ)، وقد حقق المسألة محقق تهذيب الكمال، وخلص إلى القول إن أبان بن عثمان سنة (١٠٢هـ) في خلافة يزيد بن عبد الملك. يجب عدم الخلط بين أبان بن عثمان بن عفان، وأبان بن عثمان بن يحيى الأحمر صاحب كتاب «المغازي» المتوفى نحو (٢٠٠هـ/ ٨١٥م). انظر: عبد الباري محمد الطاهر، أبان بن عثمان بن عفان رضي الله عنهما الأمير العام، مجلة دراسات تاريخية، العددان ٧٥- ٧٦، دمشق (٢٠٠١م)، ص٩٥.

١٦- عبد الباري محمد الطاهر، المرجع السابق، ص١٣٥.

١٧- فريد بن سليمان، مدخل إلى دراسة التاريخ، مركز النشر الجامعي، تونس ٢٠٠٠م، ص٩٥.

١٨- ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص٤٣.

١٩- ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص٤٣.

٢٠- إبراهيم بيضون، المرجع السابق، ص١٠.

٢١- ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص٥٩.

٢٢- إبراهيم بيضون، المرجع السابق، ص١٠.

٢٣- فرانز روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلي، بغداد (١٩٦٣م)، ص١٣٣- ١٣٤.

٢٤- إبراهيم بيضون، المرجع السابق، ص١٤.

٢٥- ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص٤٥- ٤٦.

٢٦- ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص٤٨.

٢٧- فريد بن سليمان، المرجع السابق، ص٩٥.

٢٨- إبراهيم بيضون، المرجع السابق، ص ١١.

٢٩- ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص٤٤.

٣٠- ابن الجوزي: الضعفاء والمتروكين، حققه عبد الله القاضي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤٠٦هـ)، ج٣، ص٤١. وانظر ابن حجر، طبقات المدلسين، ط١، مكتبة المنار، عمان، ج ١، ص٥١.

٣١- ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص٤٤.

٣٢- إبراهيم بيضون، المرجع السابق، ص١٣.

٣٣- إبراهيم بيضون، المرجع السابق، ص١٤.

٣٤- إبراهيم بيضون، المرجع السابق، ص١٣.

٣٥- الذهبي، محمد بن أحمد- سير أعلام النبلاء، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م، ج ٩، ص٤٦٦.

٣٦- إبراهيم بيضون، المرجع السابق، ص١١.

٣٧- الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٧، ص٣٢٠.

٣٨- إبراهيم بيضون، المرجع السابق، ص١١.

٣٩- العقيلي، الضعفاء، ج٤، ص٣٠٠.

٤٠- إبراهيم بيضون، المرجع السابق، ص١٢.

٤١- صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، دار إحياء التراث العربي، (٢٠٠٠م)، ج ٢٢، ص٢٩.

٤٢- الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٠، ص١٠١، ١٠٢.

٤٣- إبراهيم بيضون، المرجع السابق، ص١٢.

البحث العلمي في مسيرة البناء والتطور

د. ميخائيل معطي ٭

من المسلمات أن الحياة كفاح، مع الطبيعة للبقاء، وأن التقدم كفاح، لتحقيق الأفضل، وأن القوة الحقيقية في هذا الكفاح هي قدرة الإنسان واستعداده على البحث والإبداع.

عندما تولى جواهر لال نهرو، زعامة الهند، توجّه إلى الأمة الهندية في خطابه الأول بالعبارات التالية: «يحتل البحث العلمي المكان الأول في حياة الأمم وفي تقدمها وتطور قدراتها في مجالاتها الحياتية كافة. فلكي نبني مجتمعنا على أسس سليمة تؤمن لنا الحياة الكريمة، ونلحق بركب الأمم المتقدمة، علينا بالبحث العلمي». وقد أولى نهرو هذا الموضوع جلّ اهتمامه، وأمدّه بدعم مادي متميز من ميزانية الدولة، على الرغم من احتياجات الهند المادية الملحّة في العديد من القطاعات الأخرى. فجاءت النهضة العلمية والتكنولوجية التي أعطت الهند اليوم مكانتها السيادية المرموقة بين الأمم.

البحث العلمي هو الأساس الذي لا غنى عنه في أي مسعى تنشده الأمم في مسيرتها نحو التقدم والرقي. هو العنصر الرئيس في

٭ باحث وعضو لجان تحكيمية علمية جامعية عالمية، وأستاذ جامعي.

التطور، وهو القوة المعتمدة في سيادة الأمة واستقلالها، وهو الحصن الذي يحميها من سيطرة الأمم المتقدمة في هذا الميدان. وما الصراع الدولي القائم حالياً، والذي نشهد مظاهره في المجالات الحياتية كافة، الاقتصادية والعسكرية، سوى صراع المنافسة في ميادين البحوث العلمية. وما الحروب التي تشنها الدول المتقدمة علمياً على دول العالم الثالث، مباشرة أو مداورة، إلاّ للحيلولة من دون وصول هذه الدول إلى امتلاك المعرفة التي تمكنها من تحقيق أي تقدم في مجال البحث العلمي، وبالتالي امتلاك القدرة على تقرير مصيرها وتحقيق السيادة على مقدراتها. فالمعرفة قوة، وقوة الأمة بعلمائها. وإنَّ ما جرى من اغتيالات للعلماء في العراق الشقيق، وما يجري الآن للعلماء في إيران وفي سواها من دول العالم الثالث، لهو الدليل على الأسباب الرئيسة لهذه الحروب الرهيبة التي تشنها الدول الاستعمارية. بهدف تحطيم مسيرة البحث العلمي التي يقودها هؤلاء العلماء.

الجامعة والبحث العلمي:

من المعروف أن الجامعات هي مراكز للبحث العلمي بالدرجة الأولى، قبل أن تكون للتدريس ونقل المعرفة. فإذا تخلت الجامعة عن هذه المهمة أصبحت مدرسة ثانوية عليا. وعلى الإدارة الجامعية أن تهيئ الأسباب كافة لدعم البحث العلمي في كلياتها، وأن توفر المتطلبات الضرورية لهذه الغاية. فالعمل في البحث العلمي يتطلب دعماً قوياً كي يؤدي دوره في التنمية والتطور.

دعائم العمل في البحث العلمي:

يرتكز العمل في البحث العلمي على دعائم أساسية هامة هي: الباحث؛ مستلزمات البحث وخطة واضحة تشرف على تنفيذها إدارة خبيرة.

الباحث:

إنَّ أعضاء الهيئة التدريسية في الجامعة هم العلميون المعتمدون للقيام بالبحوث العلمية إلى جانب مهامهم التدريسية. والأساتذة في جامعات الدول المتقدمة يعتبرون البحث العلمي جزءاً أساسياً من طبيعة عملهم الأكاديمي، إلى جانب القيام تلقائياً بمهامهم التدريسية. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الشروط المادية الحياتية لهؤلاء العلماء متميزة ومؤمنة بشكل يليق بمكانتهم العلمية الرفيعة.

منذ وقت قريب، تظاهر الموظفون في ألمانيا مطالبين بزيادة رواتبهم أسوة

بالرواتب العالية التي يتقاضاها الأساتذة والمعلمون. وعندما قابلوا رئيسة الدولة السيدة ميركل لهذا الغرض، قالت لهم: «كيف لي أن أساوي رواتبكم مع رواتب الذين علموكم؟»

مستلزمات البحث العلمي:

من الأهمية بمكان تأمين المستلزمات المادية للبحث العلمي، فمن دونها لا تقوم له قائمة. وأهم هذه المستلزمات هي:

أولاً: تزويد المخابر في الكليات العلمية بالأجهزة الضرورية للبحث العلمي.

ثانياً: تأمين صيانة الأجهزة المخبرية بصورة مستمرة كي تظل جاهزة للعمل. وتعمل الجامعات والمراكز العلمية في البلدان المتقدمة على التعاقد مع شركات متخصصة لصيانة الأجهزة المخبرية، وتأمين جاهزيتها للعمل بصورة دائمة.

ثالثاً: تزويد الأقسام العلمية بمكتبة خاصة تضم الكتب والدوريات العلمية العالمية، وقاعدة بيانات أو بنوك معلومات تؤمّن للباحثين الاطلاع على مستجدات البحوث والاكتشافات العلمية.

خطة البحث العلمي:

يتوقف نجاح العمل في مجال البحث العلمي على خطة واضحة المعالم شاملة لكل المسائل المتعلقة بالبحث العلمي، تقوم بوضعها هيئة متخصصة تتضمن الأمور التالية:

- رسم السياسة الوطنية الشاملة للبحث العلمي.
- التنسيق بين الهيئات العلمية البحثية لتحقيق أغراضها، وبصورة خاصة تعزيز الموازنة الداعمة للبحث العلمي.
- التعاون في مجال البحث العلمي مع الجامعات ومراكز البحوث العلمية العالمية.

جهاز إداري للبحث العلمي:

الإدارة هي ركن محوري وقاعدة أساسية في تنفيذ الخطة الموضوعة للبحث العلمي. يتولاها عادة أشخاص من ذوي الخبرة بشؤون البحث العلمي، ممارسة وإدارة، ولهم معرفة واسعة بدور البحث العلمي وأهميته في تقدم البلد وتطوره نحو الأفضل، يقومون بتحضير برامج تطوير البحث العلمي، ويشرفون على تنفيذها وتنظيم شؤونها والارتقاء بالمستوى العلمي والتقني للباحثين، وتقويم أدائهم، ووضع الأسس والقواعد اللازمة لتشجيع الباحثين وتحفيزهم مادياً ومعنوياً والإشراف على مشاريع البحوث الجارية وتقويم مسارها سعياً للوصول بها إلى المستويات العالمية.

قام الجنرال ديغول عندما كان رئيساً للجمهورية الفرنسية بتكليف المجمعي

الكبيـــر إدغـــار فـــور وضع خطـــة لتطوير برامج التعليم العالي في فرنسا. وتصدرت الصفحات الأولى مــن الصحف الفرنسية في اليــوم التالي على هــذا التكليف صور المجمعي إدغار فور كمرشح لمنصب وزارة التعليم العالي في تشكيلة الوزارة المرتقبة. وقد حظيت الخطة التي وضعها إدغار فور بالإعجاب الكبير من قبــل الجنرال ديغول ومن المجمعيين الفرنسيين. وعندما صدرت بعدها التشكيلة الوزارية، لم يكن إدغار فور وزيراً للتعليــم العالي فيهــا. وعندما سئل الجنرال ديغول عن السبب أجاب: إنَّ فرنسا مدينـــة لإدغار فـــور بهذا الإنجـــاز العظيم الذي قدمه للأجيـــال الفرنسية الصاعدة. إنما الحرص على نجاح هذا الإنجاز العظيم يقتضي أن نولي أمر تنفيذه إلى إداري خبير رفيـــع المستوى. وقد وقع اختياري على من هو جدير بهذه المهمة الكبيرة فعينته وزيراً للتعليم العالي.

واقع البحث العلمي في الجامعات السورية:

في خطابه التاريخي الشهير إلى الأمة، وجّـــه الرئيس السوري حافـــظ الأسد نحو البحـــث العلمي بالعبـــارات التالية: «إذا لم نمسك بناصية البحث العلمي ونسبر أغواره فلن نملـــك التقدم الذي ننشـــد». وأضاف: «يجـــب أن يكون البحـــث العلمي في طليعة الأولويات». وأضاف أيضاً: «إنَّ مسألة البحث العلمي يجب أن تكون ركيزة أساسية في كل جامعة إلى جانـــب التعليم، وعلى الحكومة توفير مستلزمات تحقيق هذه المهمة».

بعد هذا التوجيه التاريخي، نتساءل عما تحقق في مجال البحث العلمي في جامعات الجمهورية العربية السورية وفي المؤسسات العلمية في سورية.

إنَّ قطـــاع الإبداع والتطوير قوامه النقد الجـــدّي للمعطيات والوقائـــع والشك حتى في البديهيات، وصولاً إلى الحقائق العلمية المجـــردة. ولا بد فـــي هذا المجـــال، من الإضاءة على القطاعات المعنية بهذا الشأن، وفي مقدمتها الجامعة بالدرجة الأولى.

تقويم البحث العلمي:

نظرة فاحصة على واقع البحث العلمي في الجامعات السوريـــة، يتبين من خلالها حالة متواضعة لواقع ضعيف القدرة، مقارنة بما هـــو قائم في العالم، واقع تبينه بوضوح التقاريـــر الإحصائية لمنظمـــة اليونسكو. والتـــي تنشـــر سنوياً عن نشاطـــات البحث العلمي فـــي العالـــم. وتتحمـــل الجامعات السورية القسط الأكبر عـــن الأسباب التي أدّت إلى ذلك.

صحيح أن جامعاتنا تقوم بدورها المطلوب في القطاع الخدماتي في مجالاته المختلفة، ولكنها مقصرة إلى حد بعيد في قطاع البحث العلمي، قطاع الإبداع والتطور الذي تنشده الأمم في مسيرتها نحو التقدم والرقي، حيث لا تقدم أو رقي من دونه. فيقتضي الواجب أن يولى البحث العلمي في الجامعة قسطاً كبيراً من الرعاية والاهتمام. والجامعات كما هو معروف، هي مراكز للبحث العلمي بالدرجة الأولى، قبل أن تكون للتدريس ونقل المعرفة.

البحث العلمي تعريفاً هو السعي إلى كشف جديد يحظى باعتراف مصادر علمية ثقة، ومعروفة على الصعيد العلمي، وذلك من خلال نتائجه المنشورة في مجلات علمية متخصصة ومعتمدة، وذات مستوى رفيع.

يتم تقييم واقع البحث العلمي في بلد ما من خلال البحوث التي يقوم بها الباحثون في الجامعات ومراكز البحوث العلمية، والتي يتم نشرها في المجلات العلمية المتخصصة المحلية والعالمية.

يصدر عن المراكز العلمية كما هو معروف مجلاّت متخصصة تنشر البحوث العلمية التي يقوم بها الباحثون. وهذه المجلات العلمية هي عنوان النشاط العلمي في هذه المراكز. وتكتسب المجلة العلمية أهميتها من خلال قيمة وأهمية البحوث العلمية التي تقوم بنشرها. وترجع هذه الأهمية بالدرجة الأولى، إلى المستوى العلمي للمحكمين الذين يوكل إليهم تقويم البحوث المقدمة للنشر في المجلة. ويتم اختيار هؤلاء المحكمين من الذين لهم باع كبير في البحث العلمي. وتتنافس المجلات العلمية فيما بينها من خلال سويات المحكمين الذين تختارهم لتقييم البحوث التي تعتزم نشرها. ومن البديهي، في غياب المحكمين الأكفاء، أن تضعف الثقة بأهمية البحوث المنشورة في هذه المجلات، وبالتالي بالدور الذي تؤديه في خدمة التطوير المنشود.

يصدر عن الجامعات السورية مجلات علمية تنشر العديد من البحوث في مختلف الاختصاصات. وبعيداً عن تقويم المستوى العلمي لهذه المجلات العلمية، وعن أهمية البحوث المنشورة فيها، نعتقد بأنها تفتقر إلى العديد من المحكمين الأكفاء الذين لهم مكانة علمية مرموقة مدعمة ببحوث علمية منشورة في مجلات علمية مشهورة. وللوصول بمجلاتنا العلمية إلى المستوى المطلوب لا بد من توافر محكمين أكفاء يعملون على تقويم البحوث العلمية المقدمة للنشر فيها. وإذا تعذر وجود محكمين

محليين، يمكن اللجوء عندئذ إلى محكمين مــن الخارج، عربــاً كانــوا أم أجانب، على غرار ما تقوم به أرقى المجلات العلمية في العالم. ففي غيــاب المحكمين الأكفاء، لن يكون لمجلاتنا العلميــة إسهام في ما يتوق إليــه الوطن من نهضة علميــة تمهّد أمامه طريــق التطور والتقدم، ولــو تكدست لدى هذه المجــلات كميات كبيرة من بحوث قد لا تمت للبحث العلمي بصلة.

علــى هــذا الأســاس، ينبغــي تقويم واقع البحــث العلمي في بلدنا من خلال مجلاتنا العلمية والبحوث المنشورة فيها، وعلى الأخص تلــك التي يقوم بإعدادها أعضاء الهيئــة التدريسية في الجامعات السورية الذيــن يتحملون مسؤولية كبرى في هذا المجال.

أعضاء هيئة التدريس والبحث العلمي:

تضم الجامعات السورية عدداً كبيراً من الأساتذة حملة شهادة الدكتوراه في مختلف الاختصاصــات، ولكنها ما تــزال تفتقر مع الأســف الشديــد إلى الأساتــذة الباحثين، لأن معظمهــم لــم يمارس البحــث العلمي بعــد حصوله على شهادة الدكتوراه. وحامل شهــادة الدكتوراه، كما هــو معروف بصورة عامة، هو من تعلم البحث العلمي بمساعدة أستاذ مشرف وتوجيهاتــه المتتابعة. ولكنه لــن يصبح باحثاً بعد حصولــه على شهادة الدكتــوراه، مــا لم يقم ببحــوث علمية في مضامير علمية رفيعة المستوى تثبت قدرته على البحث العلمي. مثله في ذلك كمثل من يتعلم السباحــة بمساعدة مدرب، ولكنه لن يصبح سبّاحاً ما لم يمارس السباحة منفرداً ويثبت قدرته في السباقات الطويلة.

العلــم فــي تطــور مستمــر، والمعرفة العلمية في تجدد واتساع دائمين، وأساليب البحــث ووسائله وطرائقــه تتطور بسرعة، ولا بد للعاملين فــي البحث في الجامعات مــن مواكبة ذلك. وهنــاك سبيلان لتحقيق هــذا الغرض: أولهما الإيفــاد إلى الخارج، وثانيهما استقدام الخبراء إلى الوطن.

من الأهمية بمكان اعتماد مبدأ استمرار التأهيل العلمي لأعضــاء الهيئة التدريسية من خلال الزيــارات الاطلاعية للجامعات ومراكــز الدراســات والبحــوث العلميــة، وتشجيع تبادل الباحثين واستقدام الخبرات في البحث العلمي لإرساء دعائم هذا البحث في الوطن.

إنَّ اكتســاب مهارة البحث العلمي ليست من مسؤولية أعضــاء الهيئة التدريسية في الجامعــة وحدهم، وإنما تتحمــل الجامعة أيضاً القسط الأكبر من المسؤولية في هذا

المجال، إذ عليها أن تهيئ للأساتذة كامل الأسباب الضرورية لتنمية قدراتهم على البحث العلمي وتوفير المتطلبات الضرورية لهذه الغاية. وهذا هو السبب باعتقادنا في ندرة الباحثين العلميين في الجامعات السورية. فالإنسان السوري مشهود له بالإبداع، وقد برهن منذ فجر التاريخ عن قدراته الإبداعية في بناء الحضارة الإنسانية. وتشهد له بذلك حالياً جامعات ومراكز بحوث علمية أجنبية عالمية يعمل فيها باحثون سوريون في جو تتوافر فيه المستلزمات الضروية للبحث العلمي.

معوقات العمل في البحث العلمي:

أسباب عديدة تعيق العمل في البحث العلمي، من أهمها:

١- **نقص في الميزانية المخصصة**

المال هو العصب المحرك لكل نشاط. ومن الصعب تصور بحوث علمية تجري من دون نفقات مالية. إن تخصيص المال اللازم للبحث العلمي يشكل خطوة لا بد منها لبدء هذا البحث ويؤكد جدية العمل من أجله. كما أنه لا بد لتأمين نفقات البحث العلمي، وهي في بعض الأحيان باهظة، من أن تسهم فيها الجهات المستفيدة منه. وهذا يؤكد ضرورة التمويل المشترك للبحوث من الجامعات والوزارات والهيئات والمؤسسات المستفيدة، وخاصة المنتجة منها، كوزارات النفط والثروة المعدنية، والزراعة، والصناعة، والري.... وعلى هذه الوزارات أن تدعم البحوث العلمية الخاصة بها، حتى التي لا حاجة لها بصورة مباشرة، ففائدة النتائج الحاصلة من تلك البحوث ستصب في خزائنها، إن لم يكن عاجلاً فآجلاً.

٢- **نقص في التجهيزات المخبرية وإهمال في صيانتها:**

يشكو العديد من المخابر في كليات الجامعة من نقص في الأجهزة المخبرية الضرورية للبحث العلمي. وكثيرة هي الأجهزة العاطلة عن العمل في عدد من المخابر الجامعية بسبب الإهمال أو إنعدام الصيانة. فالخبرات الفنية لصيانة الأجهزة المخبرية تكاد تكون معدومة، أو هي معدومة في الواقع. وقد يكون من الأجدى التعاقد مع شركات متخصصة لصيانة الأجهزة المخبرية، وتأمين جاهزيتها للعمل بصورة دائمة، على نحو ما هو قائم في الجامعات والمراكز العلمية في البلدان المتقدمة.

قد لا تسمح الإمكانات المادية الحالية تأمين بعض التجهيزات المخبرية المعقدة التي يقوم على تشغيلها وصيانتها فنيون ذوو خبرة عالية. ويمكن في هذه الحالة،

الوصول إلى استخدام هذه الأجهزة من خلال اتفاقيات التعاون العلمي مع الجامعات في البلدان المتقدمة، وإيفاد الباحثين السوريين إلى هذه الجامعات لتطوير البحوث التي يقومون بها.

٣- نقص في التواصل العلمي مع المراكز العلمية العالمية:

الأقسام العلمية تكاد تكون خالية من مكتبة خاصة تضم الكتب والدوريات العلمية العالمية، ومن قاعدة بيانات أو بنك معلومات تؤمّن للباحثين الاطلاع على مستجدات البحوث والاكتشافات العلمية. وتنعكس نتائج هذا النقص على المستوى التدريسي الذي يبدو متخلفاً عن أمثاله في بعض الجامعات الأخرى.

ما تزال تدرس في جامعاتنا حتى الآن معلومات دحضتها الحقائق العلمية منذ أكثر من ربع قرن وبعضها منذ أكثر من نصف قرن!... قد يكون بعض السبب عدم وجود الدوريات العلمية في مكتبة الكلية أو مكتبة الجامعة، والتي تحمل المكتشفات المستجدة في البحوث العلمية الحديثة.

على سبيل المثال، يتعلم الطلاب اليوم في جامعاتنا أن الألماس منتشر بكثرة وبكميات كبيرة في عدد من الأماكن في سورية، في جوبات الحافة الشرقية من جبال السلسلة الساحلية وفي الجبال المحيطة بمنطقة الزبداني تحديداً. ويتعلم الطلاب في جامعاتنا اليوم أيضاً، أن صخور الكربوناتيت المعروفة بغناها الكبير بعنصر اليورانيوم، منتشرة بكثرة في المنطقة الجنوبية من البلاد. أقوال أمثالها الكثير، تزخر بها بعض الكتب الجامعية. ومن سوء حظنا أن هذا الادعاء غير صحيح، ومن حسن حظنا أن الآخرين لم يصدقوه.

٤- تحفيز الباحثين ومكافأتهم مادياً ومعنوياً:

وفي جامعاتنا، يهدف مرسوم تفرغ أعضاء الهيئة التدريسية المنصوص عنه في قانون تنظيم الجامعات إلى دعم البحث العلمي في هذه الجامعات بالدرجة الأولى. وقد أريد بهذا القانون تحفيز أعضاء الهيئة التدريسية على القيام بالبحث العلمي لقاء تعويض مادي محدد. وكان مطلباً ملحاً من قبل أعضاء الهيئة التدريسية في الجامعة في الستينيات من القرن الماضي. وهذا الدعم المادي المتميز لأعضاء الهيئة التدريسية في الجامعات السورية هو خطوة هامة على الطريق في دعم الجامعة وتطويرها كي تؤدي الغاية المنشودة منها في دعم مؤسسات الدولة، وخاصة دفع مسيرة البحث العلمي إلى الأمام.

غير أن هذا الدعم المادي المتميز لأعضاء الهيئة التدريسية في الجامعات السورية، قد لا يؤدي هدفه إذا لم يقرن بمكافأة البحوث المنجزة. فمن الأهمية بمكان مكافأة الإنتاج العلمي. فما من تأثير كالمكافأة، مادية كانت أو معنوية، على شعور الباحث بالتقدير على عمله، وبتشجيعه على الاستمرار في العمل لتقديم الأفضل. وهذا واجب على الجهات المسؤولة تحقيقه، إذ ليس من العدل أن يستوي الذين يعملون والذين لا يعملون.

إنَّ مكافأة الباحث هي تقدير للنجاح الذي حققه، وهي محرض للقيام بتقديم المزيد من العطاء العلمي. وهي من أهم العوامل في دفع مسيرة البحث العلمي إلى الأمام. فيها تنطلق هذه المسيرة بصورة حثيثة، ومن دونها لا تتقدم خطوة واحدة. وهي بمثابة تعويض عن الجهد المبذول من جهة، وتقدير معنوي للنجاح الذي تحقق. ويدفع الباحث إلى المزيد من المثابرة في التقدم والنجاح. وإذا لم تكافأ البحوث العلمية المنجزة فكل الجهود والنفقات المبذولة في تقدم مسيرة البحث العلمي هي جهود ضائعة غير ذات جدوى.

إنَّ مكافأة الباحث أمر غير معمول به في جامعاتنا مع الأسف الشديد. ونسجل هنا، بمزيد من التقدير، ما هو قائم في هيئة الطاقة الذرية منذ الثمانينيات من القرن الماضي، حيث يمنح الباحث مكافأة مادية قيمة عن كل بحث يتم نشره في مجلة علمية أجنبية محكمة، وليس في مجلة الهيئة التي تقتصر على نشر ترجمات تلك البحوث.

لا بد من إيجاد الحوافز المناسبة لتشجيع أعضاء الهيئة التدريسية في الجامعات على القيام بالبحث العلمي. وإن وجود الرغبة لدى بعضهم للقيام بالبحث العلمي غير كاف بحد ذاته، إذا لم ترعَ هذه الرغبة وتشجع حتى تتحول إلى عمل جاد ومثمر.

لا بدّ أن نقدم هنا تحية الإكبار والتقدير للباحثين في الجامعات السورية الذين قاموا بجهود فردية جبارة، وبوسائلهم الخاصة، ببحوث علمية تصدرت أمهات المجلات العلمية العالمية، وهم مع ذلك مغيبون عن المكافأة وعن الجوائز التقديرية المادية والمعنوية التي تمنحها الدولة ذات اليمين وذات الشمال.

٥- افتقار كليات العلوم إلى الطلاب المبرزين:

من المفيد أن نشير إلى أن البحث العلمي في جامعاتنا شبه مقصور على البحوث التي يجريها طلاب الماجستير والدكتوراه

تحت إشراف أعضاء الهيئة التدريسية. وأن المشكلات التي تعاني منها الدراسات العليا والصعوبات التي تعترضها يتعلق معظمها بالتطبيق العملي أكثر من تعلقه بالنصوص القانونية. وأن العقبات التي تواجه التطبيق هي في معظمها عقبات مادية وإدارية.

من هذه العقبات هو إقبال الطلاب الكبير على متابعة دراستهم في الكليات ذات الطابع المهني مثل كليات الهندسة والطب... الأمر الذي أدى إلى استقطاب هذه الكليات للطلاب ذوي معدلات التحصيل الدراسي العالية، بحيث أضحت كليات العلوم وقفاً على الطلاب ذوي معدلات التحصيل الدراسي المنخفضة.

إنَّ افتقار كليات العلوم إلى الطلاب المبرزين في دراستهم، يعني تعثر سير الدراسة في هذه الكليات، وعدم نجاح الدراسات العليا فيها، وبالتالي عدم إمكان إعداد الأطر العلمية اللازمة في اختصاصات العلوم التي تشكل القاعدة العلمية الأساسية التي لا غنى عنها للتقدم العلمي في سورية.

لذلك لا بد من إيجاد الحوافز التي تضمن إقبال الطلاب المبرزين على متابعة الدراسة في كليات العلوم، لتهيئة القاعدة اللازمة لتأمين الأطر العلمية للمتابعة في الدراسات العليا والبحث العلمي. وقد تكون الحوافز المادية هي الأسرع مردوداً في هذا المجال.

البحث العلمي والتنمية:

يعتبر البعض أن القيام بالبحث العلمي لمجرد البحث هو ترف علمي، وأن على البحوث العلمية أن تكون موجهة. ومع اعتقادنا بإطلاق الحرية الكاملة للقيام بالبحث العلمي، نرى من الواجب أن يكون الاهتمام كبيراً بالبحوث العلمية اللازمة للتنمية، وخاصة لزيادة قدرة البلد الدفاعية.

إنَّ ربط البحث العلمي بالتنمية على درجة كبيرة من الأهمية. وهو بطبيعته الأساس في التنمية والتطوير، إذ من المفيد جداً أن يساهم البحث العلمي في حل المسائل التي تواجه قطاعات الإنتاج في الصناعة والزراعة.. وأن يقدم لهذه القطاعات ثمار إبداعه في تطويرها. إلا أن العمل في تنفيذ هذا التوجه ينبغي أن يتم في إطار من التمعن والدقة في التخطيط، فالارتجال هنا قد يسبب هدر الطاقة وتعطيل مفعولها.

على هذا الأساس، ينبغي **دعم البحوث ذات العلاقة الملحة بمشاريع**

التنميــة القائمــة، وذلك على غــرار ما هو منصوص عليه في مرسـوم إحداث الهيئة العليـا للبحــث العلمي القائمــة حالياً في الجمهورية العربية السورية.

وعلى أهمية الدور المناط بالهيئة لدعم الجامعات كي تأخذ دورها في مجال البحث والاكتشاف، ينبغي أن لا يقتصر هذا الدور على التنسيــق الذي من دونه يصبح البحث العلمي عرضــةً للفوضى ومصــدراً للهدر المالي وإضاعة الجهد البشري، بل يتجاوز ذلك إلى التوجيه وترتيب الأولويات وتوزيع المهمات والمسؤوليات.

كمــا أن العلاقة بين الجامعة وقطاعات الإنتــاج ينبغــي أن تكون مبنيــة على أسس تتحقق بموجبها الفائدة المرجوة. فليس على الجامعة مثلاً تحديــد احتياجات قطاعات الإنتاج من البحث العلمي، فالمسؤولون عن تلك القطاعات الذين هم أدرى باحتياجاتهم مــن سواهم، هم الذين باستطاعتهم تحديد البحــوث العلميــة التــي يحتاجونهــا من الجامعــة وليس العكس. فالحاجات الملحة فــي التنمية تحددها الجهات المسؤولة عن قطاعات التنمية دون سواها. وعلى الجامعة أن تعمــل قدر المستطــاع على تلبية حاجة تلك القطاعات مــن خلال البحوث العلمية التي تقوم بها.

ويجــدر التنويه هنا إلى أنــه ينبغي ألا يقتصــر عمل أساتــذة الجامعة في البحث العلمي بالكامل على المشاريع ذات العلاقة المباشــرة بحاجات المجتمــع، وذلك لأكثر من سبب:

– لا يجوز التمييز بين مشاريع البحوث العلميــة من حيــث أهميتها فــي التنمية. فمشاريــع البحــوث تؤدي كلهــا، عاجلاً أم آجلاً، إلى التنمية.

– لا يجــوز التمييــز والمفاضلــة بين مشاريــع البحوث العلمية من حيث أهميتها العلميــة والعمليــة، فهذه كلهــا على سوية واحــدة من حيــث الأهمية. ومــا من أحد يستطيع التنبؤ بأفضلية النتائج المتوقعــة، أو أن يفاضل بين بحث في الرياضيات وآخر في البيولوجيا أو الكيميــاء.. فربّ معادلة مبتكــرة فــي الرياضيات تكــون ذات تأثير فعال في تطوير الصناعات الميكانيكية، أو ربّ تفاعــل كيميائي جديد ذي فائدة كبيرة في الصناعات الغذائيــة والدوائية، أو ربّ اكتشاف مستحاثــة مجهرية توجه عمليات التنقيب عن مكامن نفطية هامة جداً.

لقد تــم رفع شعار: «الجامعة في خدمة المجتمع». وهذا قول حق. والخدمات التي تقدمها جامعاتنــا للمجتمع كبيرة جداً. إلا أن من المفيد في هــذه المرحلة من النمو

العلمـي، ولكـي يصبح هذا الشعـار واقعاً فاعـلاً ومنتجاً، ينبغـي أن يقترن به شعار: «والمجتمـع في خدمة الجامعة»، يقدم لها الدعم المادي والمعنـوي حتى يبلغ البحث العلمـي فيها سـن الرشد، ويشتـد عوده، ويصبح قادراً على تقديم خدماته للمجتمع، ويدعم بجدارة مسيرة التطور والبناء.

التعاون في البحث العلمي:

- على الصعيد العربي:

لا حاجـة للتحدث عن أهميـة التعاون بيـن الجامعـات ومراكز البحـوث العلمية العربية في مجال البحث العلمي، وقد كتب الكثير عن ذلك من قبل اللجان التي أقامتها مؤتمـرات الجامعة العربيـة، والتي لم تبلغ أهدافهـا مع الأسـف الشديد. كما لم تفلح الاجتماعات شبه الدورية لرؤساء الجامعات في الأقطار العربية في تفعيل التعاون فيما بينها على صعيد البحث العلمي.

إنَّ الوسائـل المتاحة لـدى الجامعات ومراكز البحوث العربيـة، من كوادر علمية وتجهيزات مخبرية ومكتبات حديثة وبنوك معلومـات متطـورة، تجعـل التعـاون بين الباحثيـن العرب يسيراً إذا مـا تولى أمره هيئـات البحث العلمي حصراً، على نحو ما هو قائم في الدول المتقدمة.

ولمـا كانـت للعلميين العـرب مصادر ثقافية علميـة متنوعة، فـإن الثقافة التي تجمعهم هي العربية. وهنا تبرز الحاجة في تبادل المعلومـات وتسهيل التواصل العلمي فيمـا بينهم، إلى ضـرورة العمل الجاد في توحيـد المصطلحات العلمية العربية، وهو ما تقوم به حالياً مجامع اللغة العربية، وفي مقدمتها مجمع اللغة العربية في دمشق.

- على الصعيد الأجنبي:

الجامعـات ومراكز البحـوث العالمية تستقبل بصدر مفتوح الباحثين من مختلف بلـدان العالم. ومـا أكثـر الباحثين العرب الذين يعملـون في تلك الجامعات والمراكز العلمية. ومن المؤسـف أن تكون اتصالات جامعاتنا مع هؤلاء الباحثين معدومة أو شبه معدومة.

إنَّما علينا أن نعرف أن لاستقبال الباحثين الأجانب في هذه الجامعات خطوطاً حمراً لا يسمـح بتجاوزها بالنسبة للاختصاصات العلمية التي تحمـل صفة السرية، وتخضع بصرامـة لرقابـة السلطة. وتعمـل الدول الاستعمارية على تحريـم وصولها إلى دول العالم الثالث، وخاصة الدول العربية، حتى لو أن استخدامها للأغراض السلمية. وهذا ما حصل بالفعل مـع حكومة الجزائر التي عقدت اتفاقية مع الأرجنتين لإقامة مفاعل

نووي، حيث نشط اللوبي الصهيوني ومارس الضغط على الولايات المتحدة الأمريكية التي عملت على إلغاء الاتفاقية. وهذا ما جرى أيضاً مع هيئة الطاقة الذرية السورية التي سعت إلى أن تحذو حذو الجزائر مع الأرجنتين، وقد حققت خطوات في هذا الاتجاه، ولكن سرعان ما أغلق الباب في وجهها للأسباب ذاتها.

إذا كنا نعلم أن الأرجنتين هي من الدول المتطورة جداً في مجال العلوم النووية، فإن الواجب القومي يدعونا إلى السعي في هذا المجال، باستقطاب الجالية السورية في الأرجنتين التي تعد أكثر من ثلاثة ملايين سوري مهاجر، تبوأ عدد منهم مراكز هامة في العلم والاقتصاد والسياسة، وبلغ أحدهم سدة الرئاسة في الأرجنتين منذ عهد قريب.

وفي الختام، لا بد من التأكيد على الأسس الكفيلة بدعم البحث العلمي الذي هو الأساس الذي لا غنى عنه في أي مسعى تنشده الأمم في مسيرتها نحو التقدم والرقي. وهذه الأسس هي:

- رسم السياسة الوطنية الشاملة للبحث العلمي.
- وضع خطط وبرامج تطوير البحث العلمي.
- وضع موازنة خاصة تهيئ متطلبات العمل بالبحث العلمي.
- وضع نظام متكامل لتحفيز الباحثين مادياً ومعنوياً.
-وضع خطط وبرامج الارتقاء بالمستوى العلمي والتقني للباحثين.
- وضع أسس لتقويم البحوث العلمية تضمن الارتقاء بها إلى المستويات العالمية.

روي عن القائد الفرنسي ليوتي أن قال لبستانيّه مرة: «اغرس شجرة غداً». فقال البستاني: «إنها لن تثمر قبل مئة عام».«فقال ليوتي للبستاني: إذن فاغرسها عصر اليوم».

إنَّ حصاد غلال البحث العلمي وجني ثماره، يقتضيان أن لا يكون موعد التخطيط له غداً بل اليوم.

سراج الأعمى

*
ساجدة الموسوي



خذْ قلبيَ علّقهُ على باب الخوف تميمةً
فإنْ استوحشتَ فأوقدهُ سراجاً
واقرأ آيات الرحمن، ستهبط أجنحةُ الأمن عليك
ويزول الخوف
يا من سلبتك الحربُ قرارك
وبنفسجةً نشوى فوق قميص نهارك
مجنونٌ ذئبُ الحرب

* أديبة وشاعرة من العراق الشقيق.

فلا تطعمه صغارك

لا تركب طوفان الهجرةِ، قد تغرقَ

وامسك داركَ

ستعاتبك الدار إذا تُركت، وتحنُّ لرؤيةِ أطفالكَ

أوَ تنسى ماقالت أمك، «من يترك داره سيقلل مقداره»

ستهيم من الخوف على وجهكَ

وتضيِّعُ كالأعمى دربكَ

أين.. وأين ستمضي

وتشدُّ رحالك؟

للغرب؟ ...

وتُسمى أيّاً كنت «مهاجر»

وستُملى كلُّ شروط التوطين عليكَ

وإذا خالفت بقدر قلامة ظفركَ

سيكون قرار الحكم جلياً: «غادر»

وإن استمرأتَ الغربة والوحشة والظرف القاهر

ستموت وحيداً

حتى قبرك تأكله الأمطار ويُمحى

وسيُمحى ذكرك من كل سجلٍ

أو خاطر...

أين تهاجرّ؟

للغرب...

وصغارك سوف تضيع هويتهم

وسينسون اللغة الأم...

ويضيع عليهم درب الخال ودرب العم

بين الفهم وسوء الفهم

سوف ترى ما يعجز عنه الوصف

من خوفٍ ليس من الحرب أو الموت
بل من أن تفقد في تيهور الغربة أبناءك
من هذي الساعةِ فكّر
واستبصر
لا تكُ أعمى
فيضيع عليك الدربُ وتشقى
أين ستمضي
أجلس في دارك
واحفظ «مقدارك»
رب كلام في الغربة يطرق سمعك
فيكون كما الخنجر في قلبك
الوطن الأم نعيمٌ حتى لو جارَ عليك؟
والغربة لو كانت فردوساً
ستظلُّ جحيماً يأخذ منكَ
ولا يعطيكَ

الجواد
- لذكرى الرضوان عماداً وجهاداً -

❁
محمد حمدان

وبكى الحصانُ عليَّ حين سقطتُ من سرجِ الحصان

إلفانِ منذ النخلة الأو
لى على درب الزمانِ

عَلِقتْ بفتنته شِباكي
مثلما نَهِل افتتاني

قلِقٌ، عصيٌّ، جامحٌ
أدرى بطقسي من بياني

فأنا الحصان إذا كبا
وإذا كبوتُ غدا جَناني

❁ ❁

كنّا، وهل كنّا سوى
عطش الدواة إلى المعاني

فمتى سيغسل فجرُنا
تعبَ المراكب والمواني؟

❁ أديب وشاعر سوري.
في ذكرى استشهاد عماد مغنية.

ومـــــتى سيغدو شعرُنا عِقداً على جِيْدِ الحسانِ؟
بحـــري ســـنابلُهُ يداي وضـفـتـاهُ فـراشـتـانِ

❁ ❁

ومـتـى؟ أكـاد أُغَـصُّ تحتبس العبارة في لساني
فلقد قرأتُ بدمعك الحا ني على جرحي أواني
لكنَّني ما زلتُ ألمح في شموخك عنفواني
حين الردى يدنو ســـتبقى حمحماتُك ترجماني
قلبي شهيد العشق، بعضُ العشق يُكتب بالسنانِ

❁ ❁

يا أهلُ! دمعُ الشهمِ يأ سو ما شجاهُ وما شجاني
لي عندكم وطنٌ؛ صهيـــلُ الأرض يعبَق بالأماني
ولكم غدي، مسكُ الجها ت دمي، وعرشي غيمتانِ

❁ ❁

أيضيعُ من حملته قا فلةُ الصباحِ إلى العنانِ؟
من هودج النجوى إلى أبد الشقائقِ مهرجاني
في كلِّ ليلٍ من ليا لي الشوق يسطعُ فرقدانِ
سَفَرٌ مطيَّته البُراق وروحه سبع المثاني
نهض الشغاف إلى أحبَّتهِ فَرفَّتْ قمتانِ
وعلى بساط من ربا الأ حلام تورقُ نجمتانِ

❁ ❁

خَفِّفْ شكاتَكَ يقتضي جسرُ الصبابةِ أن نعاني
حسبُ الغزالة أن دمعـــك كان أوّلَ من رثاني

أمضي وفي عطفيَّ ذكرى   صهوةٍ، عُرْفٍ، عِنانِ

فاصبرْ على شغفي إلى   أن يستريحَ الأصغرانِ

وارمخْ، قليلُ الجمر والغضبُ المجنَّح توءمانِ

غضبٌ نبيلُ الهمِّ أسبقُ في الرهان من الرهانِ

وإليه تواقينَ يزدلفونَ من قاصٍ ودانِ

يا صاحِ! نهرُ الصمتِ مرتَدٌّ ووجهُ الشمس قانِ

من جلّنار الوعد مهجتُنا، ومنها الأسمرانِ

كنْ يا مليكَ الريح قا   فيتي إذا افتقدوا طعاني

(هيهات منا الذل) يا   علياءُ في الحرب العَوانِ

هي خطوة – ويعانقونَ   مزارهم – أو خطوتانِ

وأعود من سفري إليك موشحاً بالأرجوانِ

ما مات من كانت إمار   تهُ مكانك أو مكاني

قِطَع غيار لكبار السن

نجيب كيالي ❁



ظَهْـرُ أبي خلدون، رقبتُـه، ركبتُه، كلُّها تؤلمه في وقت واحد!

صـار جسمـه السبعيني آلـةً موسيقية ينطلق منها صوت واحد هو: آخ!

حالةُ قلبـه هي الأسوأ، هـذا المحترم انسـدَّت أكثـر شرايينـه، انتفـخ وتضخم حتـى بات أبو خلدون يتصـوره تارةً بحجم قرنبيطة، وتارةً كبالون طفل منفوخٍ أكثر من اللازم.

أمـام الوضـع المتدهور أخـذ الرجل العجـوز يتابـع بعضَ البرامـج الطبية في التلفزيون، أدوية كالسحر ستنزل قريباً إلى

❁ أديب وقاص سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

الأسواق، عمليات جراحيــة مبتكرة ستعيد الشيخَ إلى صباه!

وذاتَ ليلة بعد أن أخذ دواءَ القلب، وضع رأســه على المخـــدة بجوار تلــةٍ من اللحم والشحم هي زوجتــه، مرَّ النوم على عينيه، فرأى في الحلم أمراً عجيباً..

كان مشتركاً فــي مظاهرة، كلُّ مَنْ فيها شيـــوخٌ من أمثالــه، خدود أكثرهـــم ناشفة، مُخفَّسة، ملتصقة ببدلات أسنانهم! قاماتهم مائلــة كأغصان شجر مكسورة، واللهاث من كل حدب وصوب!

قــام هؤلاء بمظاهرتهـــم بعد أن علموا بأن الطب تقدَّمَ إلى حد كبير في مدينتهم، وتوافــرتْ قطــعُ غيــار للبشر، لكنَّ أحــداً لا يفكر في تقديمها إليهم.

فوق الرؤوس الشائبة والصلعاء ارتفعتْ لافتات كثيرة، عليها عبارات متنوعة:

- ذهبتْ صحتنا، لكننا أحياء.

- نريد عيوناً جديدة لنرى الطريق.

- نريــد آذاناً جديـــدة لنسمـــع زقزقة العصافير.

- اعطونا سيقانـــاً لنركضَ ونرقصَ مع الصبايا.

- يا أهلَ بلدنا إذا لم تساعدونا سنجلس وراء مكبرات الصوت نئن ونتأوه ونخنخن بأصواتنا ونمطُّ سعالنا حتى نحرمكم من الراحة.

بـــدأ الناســ يتجمعـــون للفرجـــة على المظاهرة، ومَنْ لم ينزل من بيته إلى الشارع مدَّ رأسَه ونصفَ جسمه من النافذة.

مـــع زيـــادة المتفرجيـــن زادتْ حماسة الشيـــوخ المتظاهرين، فأخذوا يهتفون بقوة مؤكدين طلباتهم، ثـــم صمتوا ورفع أحدهم صوته وكأنه يغني:

(طلِّعْ.. طلِّع في الختيارْ/ في عيونو ميةْ حكايةْ
يا شب الزمنْ دوّارْ/بيرمي طيورْ معلايةْ)

وصل الموكب إلى الميــدان الكبير في المدينة، فأطلقَ الشيوخُ من مناخيرهم وفي لحظــة واحدة صوت(خـــن..ن..ن) أي إنهم بدؤوا ينفِّذون تهديداتهم.

بعـــد الخنخنة أرسلوا في الجو عنيناً طويلاً، ثـــم وحَّدوا حلوقَهم فـــي وَصْلة سعـــال عجيبـــة جعلتِ الناسَ يمسكون رؤوسَهم!

ظهـــرَ عندئذ رجلٌ وقور مـــن متوسطي الأعمـــار، تقدَّمَ نحو المظاهرة وخلفه شاب يحمل دفتراً، قال:

- مهـــلاً أيهـــا الشيوخ الأعـــزاء.. أنا منـــدوبُ أهـــل المدينة، جئـــتُ لأتفاوض معكـــم. لا توجـــد فـــي مستودعاتنا- مع الأسف- قطعُ غيار كافية لكل ما ترغبون في تبديلـــه من أجسامكم، لكننا لن نردَّكم خائبين سنعطي كلَّ شيخ منكم قطعةَ غيار

واحدة يدبِّر نفســه بها، عين جديدة مثلاً أو عمــود فقري أو ركبة. هيــا سجلوا ما تريدونه عند الشــاب الذي يحمل الدفتر من ورائي.

تــردد الشيوخ في قبول العرض لحظاتٍ قليلــة، تبادلوا خلالها النظرات، ثم وافقوا، فبدأتَ عملية التسجيل.

كان الشــاب الذي يقــوم بذلك خفيفَ الظل، فحين يتلقى الطلب من أحدهم يرفع صوته وهو يكتبه على الدفتر..

(أنف لأبي سمير)

(رقبة طويلة للعم يوسف)

(بطة ساق للخال محمود)

(شعر لصلعة السيد فؤاد)

وصــل الدور إلــى أبي خلــدون، فسأله الشاب:

- وأنت ماذا تريد يا عم؟ اطلبْ وتمنَّ.

أشار أبو خلدون إلى صدره قائلاً:

- قلــب. يلزمني قلب. هــذا الذي في صدري صار في حالة يرثى لها.

صاح الشاب وهو يسجل:

- قلب من أحسن نوع للعم أبي خلدون.

استدار أبو خلدون، مشى خطوةً واحدة، لكنه رجعَ وعصفورُ القلق ينقر عينيه:

- اشطــبْ.. اشطبْ أرجوك. أنا لا أريد قلباً، لا أريد أيَّ شيء.

طار حاجبا الشاب إلى فوق أو طيَّرهما هو بأسلوبه الخفيف الظل، سأل:

- مــا الحكاية يا عمنا؟ لمــاذا لم تعد تريــد القلب؟! هل تظن أننا- لا سمح الله- سنعطيك قلباً لــه أذين واحد؟ أو قلباً سبقَ استعمالــه مــن (البالة الطبيــة)؟ والله لن أشطب إلا إذا عرفتُ منك السبب.

بلع الرجل الكبير ريقه، قال:

- قد لا تفهم ما سأقوله يا ولدي.. بيني وبين قلبي القديم عِشرةٌ طويلة. صحيح أنه تالف مهترئ، لكنه حنون حساس، يجعلني مثلاً أسلطن على أغانــي أيام زمان عند محمــد عبد المطلب وأم كلثــوم، يجعلني أملأ الأنــفَ ولا أشبع برائحة حارتي على الرغم من عيوبها وعيــوب أهلها، والأهم أنه يساعدنــي على تحمُّل أكبــر بلوة في حياتــي: زوجتي المصونة أم خلدون. آه لو رأيــتَ منظرها. إنها دبة حقيقية، ولسانها ألعــن من شكلهــا! بهذا القديــم المهترئ أصبــر أيضاً على الأقرباء الأعداء.. أعني أولادي وزوجاتهم. إنهم يسرقونني وعيوني مُفتَّحــة، ولا يعجبهم أن أصرف ولو قرشاً واحداً على نفســي! تصوَّرْ أنهم ينزعجون إذا ذهبــتُ إلى الطبيــب أو اشتريتُ دواءً للقلــب الذي أتحملهم بــه! لأن الدواء قد يؤخر ما يتمنونه لي وهــو أن يقوم السيد

عزرائيــل بزيارتي، ومع هذا كلّه أفتح باب بيتي لهؤلاء، ويضحك سني لهم أحياناً . أيُّ قلب جديد يفعل هذا؟ أيُّ قلب؟!

كرجــتْ دمعةٌ مــن عين أبــي خلدون، والتصقتْ لحظة بقرنة أنفه، فأسرع الشاب يقول:

- اطمئــن يا عــم.. لن تتغيــرَ ذرةٌ من مشاعــرك مع القلــب الجديــد، فالعلم له رأي قاطع في هذه المسألة: عواطفُ الناس مكانُها في رؤوسهم لا في قلوبهم.

لم يطمئــن أبو خلدون، بل ابتعدَ واضعاً يده علــى صدره، وكأنه يخــاف أن يأخذوا قلبــه رغماً عنه، أخذ يركضــ ويلهث، ومع لهاثه انتفضَ واستيقظ.

ألقى نظرةً على ما حوله، فرأى بجواره تلــةً اللحــم والشحم قد دفعتــه إلى طرف السريــر حتــى كاد يسقــط علــى الأرض! وسمعهــا تشخر شخيراً عجيباً، فتمتم: رباه مــا أغبانــي.. كان يجب أن أقبــل بالقلب الجديد لعله يريحني منها.

الوجه الآخر

❋
باسم عبدو



المرآة الوحيدة في البيت ثُبِّتها منذ عقدين فوق المغسلة وجهها يشبه وجهي لكنّ مساحتها أكبر.. الفرق بين وجهينا أنها على شكل مربّع، أمّا وجهي فلم يتغير منذ ولادتي، وحافظ على شكله البيضوي القريب من شكل الأرض.

وعلى الرغم من الغبش الذي يتوزّع على سطحها إلاّ أنها كانت صادقة، فهي تُظهر لي عدد التجاعيد وبقايا نُدب الجدري، الموزّعة على كتفي خدّيّ وفوق الغمازتين الهرمتين، وأنف متواضع في

❋ أديب وكاتب.

حجمه ونعومته يطلُّ عليهما من نافذتين صغيرتين.

كنـت في كل صباح ومثـل جميع الناس أراقب حالات الحزن والفرح، وكل التغيرات اليومية التي تظهر على البَشَرة السمراء، وأنا أحلق ذقني الكثيفة وشعرها الإبري القاسي، بشفرة جديدة، ساحرة، حادة، تركها والدي على رفّ المغسلة قبل أن يرحل..!

لم أكن بحاجة لمن يخبرني عمَّا يجري في المدينة، فعندمـا أعود من عملي في المساء، وقبل أن أتناول الطعام، ألقي نظرة تأملية على سطح المرآة، فتظهر تضاريس وجهي بكهولته وبقايا ملامح شابة تختفي بيـن التجاعيد، وخريطـة المدينة تهبط مثل مظلة مـن ذاكرتي على سطح المرآة، فتظهـر الشـوارع والأبنيـة واليافطـات الملوّنة بالشعـارات والبرلمان والوزارات والمؤسسات الحكومية والحدائق والفنادق المخمَّسة النجوم.

وتزدحم المـرآة بالصور والكثير من التشوهات الحاصلة في تاريخ المدينة، وما بقـي من اللافتـات التـي تركتها الريـاح شواهـد للأجيال، كـي يعرفوا المزيفين وجِبرهم الفاسد وما في بطون أقلامهم.

يــزداد عذاب روحــي أكاد أختنق أشعر أن رئتــيَّ التحمتا وتحوّلتا إلــى قطعة من حديــد أتعذَّب وأنا أفكّــر بعمق وأبحث عن ما هو موجود وراء المرآة وكيف يأتي الفجر ويفتح نــوره ممراً للنهار. أرى صورتي تمتلئ بالحفــر والنُّدب والتجاعيــد تغطّيها بقايا دمــوع جففتها حــرارة النسيــان وكيف أن مسامــات بشَرَتي أغلقت وتفحَّم لون وجهي كل هــذا يدعوني إلــى الإحجام عن معرفة الحقيقة وتجاهل ما يجري من موبقات، وما يجــري خارج هذا المكان حيث أنّي لم أعد أهتـمّ بوجوه الجيران وسكان الحي، بعد أن سقــط ربما حجر عليها فتحطَّمت وتناثرت نتفــاً صغيرة، ولم أعد أرى وجهي منذ ذلك التاريــخ، وغابت صورتــه وكأنَّ وجهاً بديلاً حلَّ مكانه..!

كانت التّهمة لابن الجيران المشاغب في غير مكانها، لأنني وجدتُ شظية من قذيفة مثلثيــة الشكل لها أنياب حادة عندئذ بدأتُ أتلمّســ وجهي ربما قَطَعــت الشظية جزءاً منــه وتضاحكــت زوجتي من كثــرة هوسي ووسواسي وحساباتي الخاطئة، ومن الخطأ الفاحش الــذي ارتكبته الحاســة السادسة عندئــذ أشــارت زوجتي إلــى صورتي في جوَّالها وبدا وجهي كما عرفته من قبل.

الصــور اليوميــة التــي أراهــا بالعين المجــردة فــي الساحــات، وبقايــا اللحم المتشبث بالجدران، والأيــدي المقطوعة، والأحذيــة المتناثرة، وبقــع دماء الضحايا، وجثث الأبريــاء والرؤوســ المفصولة عن أجساد أصحابها، وكيف تعضّ الأسنان على الألسنة، والأفواه الفاغرة، والبطون المبقورة والأمعاء المثقوبة.

لم تعــد ذاكرتي تتسع لتخزين ما يجري في البلاد مــن مآس ورذائل، ومن تشوهات فــي الأعضــاء والأفكار وعلــى الرغم من تعدد المرايا التــي ثبّتّها على أربعة جدران صالحة لعكس ملامح وجهي، والوجه الآخر، الــذي يخزّن تحت جلده الموبقات والشرور والقاذورات المهرّبة، فالتهمتُ مكيال الصبر علــى الرغم من مضاعفة سعــره مئة مرّة، وتجرّعتُ مأســاة عدم الرؤية حينما فقدتُ عيني بشظية بحجم الدبوس.

ارتفعــت نسبة العذاب وجــفّ آخر نبع للدمــوع وتهدّمت عمــارات وعشش النمل الطيّــار في بيــوت الفقراء وكثــر الجراد الأشقــر والأسمر وما يطلــق عليه عشرات التسميات في ربوع البلاد.

ولم تعــد أعصابــي تتحمَّــل غليان الدمــاء، وتضاعف عــدد نبضات قلبي، وعلــى الرغم من تحذير الأطباء إلاَّ أنني استمريتُ في فضح ما يجري على سطح المرآة وكشف ما يجري على سطح الوجه الآخر وتحت جلده.

لقد علّمتنــي المرآة دروساً كثيرة، لكني حينما فقدت عيني ردَّدتُ عبارتي المشهورة: (عيــن واحــدة لا تكفــي لرؤيــة العالم). أصبحتُ أغضــب بسرعة وأثور بسرعة في وجه زوجتي التي تنسى أنني فقدت البصر مــن عيني، وعندما كانت تقــف أمام عيني السليمة كحائط تمنــع الأكسجين عنّي ولم أعد أرى أحداً!

كنت أقــرأ بنهــم أوراق نعــي الأموات الملصقــة علــى الجدران، وفــي اللوحات المعلَّقــة علــى مداخــل وأبــواب الجوامع والكنائس والمدارســ وأراقب الابتسامات المموهــة بحزن مغســول بالحياء، وملامح الفرح بادية بوضوح على وجوه تجار التوابيت والأكفان.

ظلَّ وجه المــرآة التي أحبّها راسخاً في ذاكرتي، هي رفيقة مخلصــة طيلة سنوات القحــط والخير، لكنهــا استشهدت بسبب شظية وما زلت حتــى اليوم وفي كل صباح أستعيد من ذاكرتي تلك العلاقة التي توطدت بيننــا لقد كانت خسارتــي كبيرة انطفأ نور

عينَي وتحطّمت صديقتي المرآة التي ورثتها من أبي وبقيت عيــن وحيدة صامدة تحدّق في هذا المكان وفي هذه المساحة الصغيرة وقد تجمّعت في قاع ذاكرتي حكايات وتاريخ يصرخ من شدة الألم طوال السنوات الخمس قبــل الرحيل وفــي خزانهــا صديد جروح ودماء متجمّدة وصور لأحباء سقطوا شهداء أمــا ذاكرتي فلن تصاب بالوهن ظلت تجمع خيوط الأخبــار وتصنع منها تاريخاً مجيداً وصفحات من الفرح والحزن والأمل وذاكرة تحافظ علــى الطقوس والتــراث وتبخّر للشمس..!

هل كانت الموسيقى رابع العلوم الأساسية اللازمة لفهم الكون عند اليونان.. أم كانت، بالنتيجة، غايتها ومنتهاها؟

د. سعد الله آغا القلعة ❁



في زمن الإغريق، اعتمد الفلاسفة علوماً أربعة أساسية، تشكل بتكاملها الخلفية المرجعية لأي فيلسوف، يسعى لتفسير الكون، ومظاهر الحياة، وفهم آلية تأثيرها على الإنسان. وقد لا يفاجأ أيٌّ منا إن عَلِمَ بأن الحساب والهندسة والفلك، هي ثلاثة من تلك العلوم الأربعة، إلا أن العلم الرابع لا شك سيفاجئ الكثيرين، لأنه كان: المُوسيقى!!

❁ باحث في الموسيقى وأستاذ جامعي ووزير سابق للسياحة.

وهنا قد تطرح الأسئلة التالية:

١- ما هو المُشترك بين العلوم الأساسية الثلاثة الأولى؟ وما علاقتها بالمُوسيقى؟

٢- هل لهذه العلوم من ترتيب على الفيلسوف اتباعه أثناء دراسته لها؟ وفي أي مرحلة يَدّرس الفيلسوف المُوسيقى؟

٣- ماذا عن فلاسفة العرب الذين اعتمدوا الفلسفة الإغريقية، ومع أي موسيقى تعاملوا؟

٤- هل بقي لهذه التوجهات من أساسٍ اليوم؟

ما هو المشترك بين العلوم الأساسية الثلاثة الأولى؟ وما علاقتها بالموسيقى؟

تُبَيِّن نظرة سريعة إلى العلوم الثلاثة الأولى: الحساب والهندسة والفلك، أنها تشترك في اعتمادها على الرياضيات، المعتمدة على الأعداد في بنائها، فالحساب، أي الرياضيات في المسمى الشائع حالياً، هو العلم المجرد الأول، ومنه يتم الانطلاق إلى فهم الهندسة، وهي تجسيد مباشر للرياضيات المجردة في الحياة المادية للبشر، إذ يصمم المهندسون المنشآت وفقاً لعلاقات رياضية.

أمَّا علم الفلك، فهو التجسيد المباشر للرياضيات والهندسة، في السعي لفهم تصميم وهندسة الكون، كما أبدعه الخالق عزَّ وجل.

فلنأتِ الآن إلى الموسيقى: بماذا تشترك مع العلوم الأساسية؟ ولماذا ضُمت إلى هذه الباقة؟ ما يقود إلى أسئلة أخرى: ما هو تعريف المُوسيقى؟ ما الذي يجعلنا نقول على مجموعة معينة من الأصوات المتلاحقة أنها موسيقى، بينما لا نُعرِّف مجموعة أخرى من الأصوات على أنها كذلك؟ كيف تؤثر الموسيقى على مشاعرنا وأفكارنا؟ ما الذي نقصده عندما نقول أن مقطوعة موسيقية ما «حزينة» أو «فرحة» أو «عاطفية»؟

في الواقع، لما كان الصوت عبارة عن موجة اهتزازية تُعرّف بتردداتها، وبالتالي فإن دراسة المُوسيقى علمياً، هي دراسة رياضية للعلاقات بين هذه الترددات التي تصدرها الآلات المُوسيقية، أساسها الأعداد أيضاً. وإن استطعنا وضع تعريف رياضي للعلاقة بين الأصوات المنسجمة أو المريحة المشكِّلة للألحان، أمام الأصوات المزعجة والمنفرة، فإننا سنستطيع معرفة كيف تكون هذه التراكيب مريحة وملذة للأذن، ولكننا سنكون أيضاً قد عَرَفْنا، لماذا أدخل اليونانيون الموسيقى في إطار العلوم الأربعة الأساسية اللازمة

لفهم الكون، خاصة إن فَهِمْنا أن الفلاسفة نظروا، في حينه، إلى الكون نفسه، كما الموسيقى، على أنه مبني على علاقات رياضية وأعداد.

في الموسيقى

عرف الإنسان الموسيقى منذ زمن طويل، لكن النظرة العلمية للموسيقى، والعلاقة بين الأصوات الموسيقية، لم تأتِ إلا في مرحلة متأخرة. من المتوقع أن الأفكار الأولى، كانت تستند إلى الملاحظة المجردة، بأن الصوت الصادر عن النقر على الأوتار، كان يختلف عند اختلاف طول الوتر المصنع من مادة متماثلة، أو عند اختلاف قوة شده.. وأن التطبيقات الأولى كانت تعتمد ضبط الأصوات المنسجمة في إطار ذوقي، ولكن التاريخ وَثَّق لفيثاغورث أنه كان الأول في التعامل مع الموسيقي في أسلوب علمي خالص، ولاشك في أنه كانت لديه دواعيه لذلك.

فيثاغورث والموسيقى

كان فيثاغورث (٥٧٠- ٤٩٥ ق.م)، قد اعتمد مبدأ أن الكون جميل ومنسجم، تحكم مكوناته الأعداد، ونسب منسجمة بينها، ووجد في الموسيقى، بما لها من تأثير طاغٍ على الإنسان، التجسيد المباشر والملموس لنظريته. كانت البداية عندما استطاع وضع الأسس الأولى لدراسة الموسيقى بطريقة علمية، من خلال توصله إلى تحديد نسب أطوال الأوتار التي تُصدر بالنقر عليها أصواتاً منسجمة.

لاحظ فيثاغورث أن تقصير طول الوتر ينتج صوتاً جديداً مختلفاً عن الصوت الذي ينتج لدى النقر على الوتر ذاته حراً. وأنه كلما كانت نسبة تقصير الوتر نسبة بسيطة، كلما كان الصوت الجديد منسجماً مع الصوت الأصلي الناتج عن نقر الوتر بطوله الأصلي. وكلما تعقدت النسب كلما كانت الأصوات مزعجة وغير متآلفة مع الصوت الأصلي، وفيما بينها. وفي الواقع فإن نسب إصدار الأصوات الموسيقية الرئيسية للسلم الموسيقي السباعي ترتبط فقط بالنسبة ٣/٢:

دو-١: (١)- ري: (٣/٢)^{٢}- مي: (٣/٢)^{٤} - فا: (٢/٣) - صول: (٣/٢) - لا: (٣/٢)^{٣} - سي :(٣/٢)^{٥}- دو-٢: ٢.

ما يعني أن الأصوات الموسيقية المرتصفة في جمل لحنية، والجمال الناجم عنها، هي نتيجة لنظام متجانس، أساسه نسبٌ لأطوال الأوتار، يعبر عنها بنسب بسيطة. بنى فيثاغورث نظريته

على هـذا الأساس، ثم عممها على الكون. اهتمَّ فيثاغورث بالموسيقى لأنها موجودة فيزيائياً أمامه، كمجسد للكون البعيد، وبعد أن توصل إلى استنتاج العلاقات الرياضية المجسدة للجمال الموسيقي، كما رأينا، فقد حاول تعميم مفهوم التناغم الموسيقي على الكون برمَّته. مشابهاً بين الموسيقى والكون. بالنسبة لفيثاغورث، الأرض مركز الكون، وتدور حولها الشمس والقمر والكواكب والنجوم، وفق مدارات، نسبة أقطارها، نسب بسيطة وجميلة، وتنتج بالتالي موسيقى كونية جميلة، لأن هذه النسب مماثلة للنسب الرياضية التي تحكم إنتاج الأصوات الموسيقية المنسجمة، وقد سمى التركيب الناتج: موسيقى الكواكب المنسجمة، مستفيداً من كون الأصوات الموسيقية في السلم الموسيقي سبعة، وأن الكواكب التي كانت معروفة في زمانه كانت أيضاً سبعة.. طبعاً هذه «الموسيقى» لا يمكن أن تكون مسموعة حرفيَّاً، ولكن المقصود هو مفهوم التوافق والانسجام بين تلك الأصوات المتخيلة، على الرغم من فيثاغورث ادّعى بأنه كان يسمعها!

الأصوات الموسيقية السبعة والسلم السباعي بين الشرق واليونان..

لاشك في أن الشرق عرف السلم السباعي قبل اليونانيين، إذ أثبتت لويحة أوغاريت، المكتشفة في رأس شمرا قرب اللاذقية في سورية، والتي تعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد، أن منشأه كان شرقياً وأنه ولد في منطقة ما بين النهرين، بل إنني أرى أن الكثير من عناصر هذه الحزمة من الأفكار اليونانية، كانت معروفة عند السومريين والأكاديين والآراميين والبابليين والمصريين القدماء، سواء في ضبط الأصوات الموسيقية المنسجمة في إطار ذوقي، عبر شد الأوتار، أو محاولة ربط الأصوات بالنظام الستيني عند السومريين، أو في الدراسات الفلكية عند البابليين. ولكن اليونانيين اعتمدوا تقصير أطوال الأوتار بنسب عددية محددة، لإصدار أصوات موسيقية منسجمة، ولاحظوا أن تلك النسب تكون بين أعداد بسيطة، ثم عمموا الفكرة لجعل الكون تتحرك كواكبه في مدارات تباعداتها نسب بسيطة أيضاً، وبالتالي تصدر موسيقى منسجمة. ما يجعل الإضافة اليونانية تتمثل في تشكيل حزمة متكاملة من العناصر التي تضم الكون

بمكوناته الفلكية والإنسانية، استناداً إلى علاقات رياضية تربط بين المكونات، وتجسد الجمال والانسجام.

كان هذا عملاً فكرياً يونانياً، لأن الأعداد عندهم كانت أكثر من مجرد وسائل مساعدة، لقد كانت في نظرهم الأساس الذي قام عليه الكون ما جعلها أساس دراستهم في شتى المجالات. ولما كانت الموسيقى هي المجال الوحيد الذي كان له تطبيق جمالي ملموس لتلك العلاقات الرياضية المجسدة للجمال والانسجام، فقد كان لابد من أن تُضم الموسيقى إلى العلوم الأساسية الأربعة، إن لم تكن قد أصبحت بالنسبة لهم الأهم بينها، لأنها كانت التجسيد الأهم والمباشر والملموس للجمال من جهة، والكون، من جهة أخرى.

هل لهذه العلوم الأربعة من ترتيب كان على الفيلسوف اتباعه أثناء دراسته لها؟ وفي أي مرحلة يدرس الفيلسوف الموسيقى؟

أعتقد أن هناك ترتيباً خفياً لدراسة العلوم الأربعة الأساسية، ألمحت إليه فيما كتبت أعلاه، فالحساب يأتي أولاً، ثم الهندسة، فالفلك. فمتى تأتي مرحلة دراسة الموسيقى؟ في رأيي: أتت دراسة الموسيقى بعد دراسة الفلك دراسة غير مكتملة، لصعوبة تلمس تفاصيله عن بعد، ومن هنا أتت المشابهة بين الكون والموسيقى لتحل المعضلة، ولتجعل الموسيقى التطبيق الملموس للكون. كما رأينا، ثم كانت بعد ذلك عودة إلى الفلك، لدراسة الكون والعلاقة بين كواكبه دراسة أعمق، ثم كان لابد من العودة إلى الموسيقى لفهم تأثيرها العميق على الإنسان، ومنذ اللحظات الأولى لولادته. فهي مجردة، لا ترتبط بكلمة أو بمادة ملموسة، كما هو حال الهندسة والفلك، كما أنها تتفرد، أيضاً، ومن خلال تأثيرها على المزاج الإنساني، بارتباطها بالزمن، أي بحركة الكون، ويجعل من الضروري أن يبدأ الفيلسوف دراسته للفلك، ثم ينتقل إلى الدراسة الرياضية للموسيقى، ليعود إلى دراسة الكون وحركته في هذا الإطار مجدداً، ليعود أخيراً للسعي لإسقاط كل هذا على المزاج الإنساني. ما يقوده إلى ضرورة أن يدرس الموسيقى بعد أن يتقن العلوم الثلاثة الأساسية الأولى. ثم أن يعود إليها . في تمثيلها للكون. رياضياً . وللمزاج الإنساني. على الأرض.

طبعاً . اليونانيون تطرقوا لاحقاً إلى تأثيرات الموسيقى المختلفة على

الإنسان، من دون أن يربطوا بينها وبين العلاقات الرياضية المستنتجة بوضوح، على الرغم من وجود علاقة بينهما في رأيي، فأنت عندما تستمع إلى صوت واحد، تتلقى طاقة يستقبلها الدماغ برد فعل معين واستجابة إيجابية، فإذا أُتبع الصوت بصوت آخر منسجم معه، فالطاقة الجديدة ستعمق الاستجابة وتهدئ الأعصاب، بانتظار الصوت التالي، لكي تبدأ الاستجابة في تفرعات فرحة أو حزينة أو عاطفية، حسب العلاقة بين الأصوات الموسيقية، والنسب الجمالية الفرعية التي تحكم تتاليها، فيما يسمى المقامات الموسيقية، خاصة إن ترافقت بإيقاع ملائم، أما إن كان الصوت ناشزاً، ناجماً عن نسب رياضية معقدة، فإنه يصدر طاقة سلبية، ستؤثر سلباً على الاستجابة في الدماغ. وقد تثير الأعصاب وتسبب الضيق، مثلما تضيق النفس لدى الاستماع إلى نبضات إيقاعية غير منتظمة. إذن. يبقى الانتظام أساس الاستجابة الإيجابية، والانتظام أساسه الأعداد والنسب فيما بينها. ما يجعل المبدأ الذي قامت عليه أفكار القدماء صالحاً حتى اليوم.

ماذا عن فلاسفة العرب الذين اعتمدوا الفلسفة الإغريقية، ومع أي موسيقى تعاملوا؟

درس علماء العرب الفلسفة الإغريقية، انطلقوا منها، وشرحوها، ثم طوروها، وأضافوا كثيراً في الحساب والفلك والهندسة.. ولكن مشكلتهم، لدى مواجهة الموسيقى، كانت في أنهم لا يستطيعون فعل الشيء ذاته معها. فالحساب والهندسة والفلك، علوم لا تختلف باختلاف الشعوب. أساسياتها واحدة، وبالتالي كان الانطلاق من أساسيات إغريقية أو حتى بابلية أو هندية، ومن ثم شرحها وتطويرها، ممكناً.

أما في الموسيقى، فلكل شعب موسيقاه ومزاجه. من هنا كانت دراسات الفلاسفة العرب في الموسيقى العربية، أصيلة بالكامل، صحيح أنها استندت إلى دراسات الإغريق في الموسيقى، التي تُرجمت وشُرحت، ولكن مسارات التطوير اتجهت، وبعد امتلاك الفلاسفة العرب، لأدوات العلوم الأساسية الثلاثة الأولى، إلى دراسة أساسيات الموسيقى العربية ذاتها، لحناً وإيقاعاً ومقامات وآلات موسيقية، باستخدام الأدوات المعرفية المحققة، من خلال دراستهم

لأساسيات الموسيقى الإغريقية، ومن ثم السعي لفهم ارتباط عناصر الموسيقى العربية الهندسية، المختلفة عن العناصر اليونانية، بالعلوم الثلاثة الأولى، وخاصة الفلك، في علاقة جدلية جديدة، بين الفلك والموسيقى، غير متطابقة مع النظرة اليونانية، فكانت تلك أول مواجهة علمية حقيقية بينهم، وبين واقعهم العربي، من جهة، وأول فراق بينهم والفلسفة اليونانية.

وأخيراً

رأينا أن العلاقة بين الموسيقى، كما الشعر، الذي أساسه موسيقى اللغة، من جهة، والهندسة والفلك، وفق ما عرَّفتهما أعلاه، على أنهما التجسيد المباشر للرياضيات المجردة في الحياة المادية للبشر، وفي فهم تصميم الكون، من جهة أخرى، وثيقة جداً، فالموسيقى، كما الشعر، كما الهندسة والفلك، تستند إلى علاقات رياضية، يكسوها المبدعون بالإحساس والجمال..

في الموسيقى والشعر، تبنى العلاقات بين الأصوات أو الإيقاعات أو الجمل الموسيقية أو الشعرية، وفق نسب جمالية صوتية وإيقاعية، لها بناء هندسي، يشبه البناء الهندسي للمباني الجميلة، التي تجذب اهتمام الناس، والبناء الكوني للأبعاد بين الكواكب والمجرات. في العمارة تدعى تلك النسب بالنسب الذهبية، وفي الموسيقى، تدعى بالأجناس والمقامات والإيقاعات والأشكال اللحنية. وفي الشعر، تدعى بالبحور والقوافي وفنون الشعر. هي نسب متشابهة في الطبيعة، ولكنها غير متطابقة. فللأذن نسبها. وللعين نسبها المختلفة.

من هنا، أستطيع أن أقول، أولاً، بأن الشعر والموسيقى هندسة صوتية، والهندسة المعمارية، هندسة بصرية إنسانية، والفلك، هندسة بصرية كونية، ولاشك في أن لها، جميعها، ما يجمعها، وهو الأعداد والنسب الرياضية، وثانياً، أن الموسيقى ضُمت إلى العلوم الأساسية الثلاثة الأولى، لأنها أيضاً تستند إلى الرياضيات، ولأنها مثلت، في الفكر اليوناني، تجسيد الكون على الأرض، ولكن الحاجة إلى دراستها، أتت أيضاً، من كونها تختلف عن تلك العلوم الثلاثة، بأنها لا تختص بالماديات، بل بالإنسان المتأثر بها، وبحركة الكون. وبالنتيجة، يمكن في رأيي، تصنيف العلوم الأساسية الأربعة عند اليونان في مسارين: عِلمان

أساسيان قابلان للفهم الإنساني هما الحساب والهندسة، وعلمان مفتوحان على المجهول، هما الفلك والموسيقى، الأول يمثل الكون بمجاهله البعيدة اللامتناهية، والثاني، يمثل الإنسان، بخفاياه القريبة، ولكن اللامتناهية أيضاً.

ولكن حقيقة أن الإنسان موجود أمام الفلاسفة، بقيت طاغية، ما جعل الموسيقى، في رأيي، تتجاوز في أهميتها الفلك، من الناحية التطبيقية، إذ أدرك هؤلاء الفلاسفة، أنه من دونها لا يُفهم الإنسان، أولاً، ولا الكون، ثانياً، ما جعلها، من الناحية العملية، وعلى المدى المتوسط بالنسبة لهم على الأقل، غاية تلك العلوم الأربعة.. ومنتهاها.

الرمزية في فكر جلال الدين الرومي

د. سيف الدين القصير ❁

برز جلال الدين الرومي، أو محمد ابن الحسين، كما يُسمي نفسه، كعالم كبير وشاعر مفوه وصوفي جليل في النصف الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي في القسم الشرقي من أراضي الخلافة العباسية. وكان جده، الحسين بن أحمد الخطيبي، من أفاضل عصره وأعلام زمانه وعالماً تتلمذ على يديه العديد من فقهاء القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وأشهر هؤلاء رضي الدين النيسابوري المتوفى سنة (٥٩٨هـ[1])، وفي



سنٍّ مبكرة، ارتحل جلال الدين برفقة والده وأسرته متجهاً غرباً نحو العراق والشام بعد انقلاب التقادير ضد والده. ومرَّ بنيسابور حيث التقى الفيلسوف والصوفي الشهير

❁ أديب وباحث ومترجم.

فريد الدين العطار. ويُقال إن فريد الدين أخذ جلال الدين الرومي بين ذراعيه وقال لوالده إن مستقبلاً عظيماً ينتظر هذا الغلام، ثم أهداه بعض كتبه ومنها كتابه المشهور، «إلهي- نامه».[٢] ثم عَبَرَت العائلة بغداد متجهة إلى مكة المكرمة بقصد الحج، ومن هناك عادت إلى الشام ومنها إلى الأناضول حيث حطت الرحال في قونية. ولقيت العائلة ترحيباً من السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباد الذي كلف والد جلال الدين بمهام الوعظ والتدريس في مدارس قونية.

عمد جلال الدين، عَقّب وفاة والده سنة (٦٢٨هـ) إلى التوسع في معارفه وعلومه عبر رحلة قام بها إلى حلب حيث التقى كمال الدين بن العديم، وإلى دمشق حيث كان يعيش الصوفي والعارف بالله الكبير محي الدين بن عربي. لكن الحدث الأهم في حياة شاعرنا كان اللقاء الذي جمعه بالشاعر والصوفي الكبير شمس الدين التبريزي، المشهور بشمس تبريز[٣] ويعد هذا اللقاء الذي حدث سنة (٦٤٢هـ). نقطة تَحوُّل كبيرة في حياة الرومي حيث عزف عن التدريس والوعظ لينصرف إلى ممارسة التصوف والذكر والعبادة والتأمل. ولا يرى مولوي أن هذا التحول حدث فجأة «من دون مقدمات، فقد نشأ جلال الدين في بيت تصوف، وأخذ عن شيوخ الصوفية، ودل شعره على استعداد وميل إليها... ».[٤]

تعلق جلال الدين بشمس الدين التبريزي وأخذ يسايره في المنتزهات ويخلو به لدرجة جعلت تلاميذ جلال الدين يحقدون على الضيف ويضمرون له الشر لأنهم رأوا أنه استبدّ بأستاذهم وصرفه عن سبيلهم وعن سنن العلماء فهاجموه وثاروا عليه. فغادر شمس الدين قونية إلى دمشق وحزن جلال الدين لهذا الفراق ونظم الكثير من الأشعار الوجدانية المعبِّرة عن ألمه ومعاناته. فما كان من ابن جلال الدين إلا أن سافر إلى دمشق وعاد بشمس الدين إلى قونية مرة أخرى. لكن ثورة حدثت في قونية نحو منتصف القرن السابع الهجري ذهب شمس الدين ضحية لأحداثها فقتل على يد بعض تلاميذ جلال الدين. وعاد الحزن ليستبد بجلال الدين الذي تألم لفقد صاحبه وصديقه فانصرف إلى الرياضة وسماع الموسيقى ونظم الأشعار التي رددت اسم شمس الدين وعبرت عن الوفاق الروحي القائم بين الرجُلَين. وتمخض هذا النشاط الفكري عن ديوان رائع من الغزل الصوفي أسماه جلال الدين «ديوان شمس تبريز»[٥] وأنشأ جلال الدين الطريقة الصوفية

المعروفة بالطريقة المولوية إحياء لذكرى صديقه الروحي، وجعل قباء شمس الدين التبريزي شعاراً لأتباع هذه الطريقة يرتدونه فيتميزون به عن غيرهم.

فإذا ما استعرضنا أشعار الرومي في «ديوان شمس تبريز» وفي «المثنوي» رأيناها تزخر بالمعاني الجميلة والكنايات اللطيفة والرمزية الرائعة إضافة إلى موسيقاها المرددة لألحان الناي الحزينة المثيرة للشوق والحنين. وتعتبر الرمزية أسلوباً من أساليب التعبير عن حقائق الأشياء بوساطة رموز وكنايات ليست سوى مظهر خارجي لهذه الحقائق يدل عليها ويشير إليها. فعندما أراد أحدهم(٦) إخبارنا عن عظمة الله، على سبيل المثال، وصف لنا هذه الذات وشبهها بجبل عظيم تنتهي قمته في ظلمة أزلية غير مرئية. وإن جزءاً صغيراً جداً من هذا الجبل هو في مرمى البصر. ونحن نرى هذا الرأس الدقيق جداً عبر سديم هذا العالم ودخانه ونعتبره بمثابة النهاية. وكلما رأينا مظهراً إلهياً، سعينا إلى إيداعه في الذاكرة مستخدمين الكلمات أو الكنايات. غير أن كل كلمة نعثر عليها أو كل رمز نستخدمه لإبداع المظهر هو غير حقيقي في أحد معانيه. لذلك، وانسجاماً مع ما تقول به الأديان كلها، فإن الوصف المناسب للسر الإلهي ليس سوى الصمت. إنه من غير الممكن وصف سر الكائن الإلهي الذي هو مختلف بالكلية عن المخلوقات كلها.

أمَّا الكائن الإنساني الذي يكتشف هذا السر والحقيقة النهائية، فإن عليه ألاّ يكشف ذلك. وكما أصرّ الرومي جازماً وشدد على قوله، فإنه من المستحيل الاقتراب من الشمس. لأن نور الشمس ونارها سيصرعان حالاً أي شخص يحاول النظر إليهما من غير حجاب. ولذلك، فإن المتصوفة الذين يختبرون هذه الرؤية بنشوة يستخدمون الرموز لوصف هذه الحالة. إنهم يقومون بذلك إما لعرض صورة عن الحقيقة النهائية أو لحجب نار هذه الحقيقة التي لا ترحم بستارة ملونة. وأعمال الرومي مشبعة بمثل هذه الرموز. وليس ثمة من شاعر متصوف آخر لا في الشرق ولا في الغرب يعادل الرومي في استخدام مثل تلك الرموز الثرية والزاهية.(٧)

شمس أزلية – شمس الدين

الرمز الأكثر أهمية الذي استخدمه الرومي كان رمز الشمس. وهذا ليس بالشيء المستغرب لأن معلمه المعشوق الأول والأصيل كان شمس الدين. لقد شاهد

انعكاسات الشمس الأزلية وأشعتها، أو وجه المعشـوق، في كل مكان. إذ لا أزهار ستنمو ولا فاكهة ستنضج في غياب هذه الشمس.

إنَّ الشمس تتوّج أشواك الأدغال بالأزاهير وتحوّل الحجـارة الخشنة إلى ياقوت أحمر عبر عملية تستمر قروناً. وبطريقة مشابهة، فـإن المعشـوق الإلهي يمنح حيـاة جديدة وجمالاً خالداً لـكل العشاق الذين يعشقون ويكابدون وينتظـرون وهم يتحرقون شوقاً. لكن لا أحد يستطيع دخول هذه الشمس لأن روعة بهائها تحرق الجميع.

وتُعدُّ الشمس رمزاً جميلاً جداً وملائماً للتلميـح إلـى جمال الله وجلالـه. غير أن رمزاً واحداً ووحيداً لا يمكن أن يكون كافياً، مهما كان عميقـاً وذا معنى، لفهم الجوانب المتنوعة للحقيقة الإلهية. لقد كان الرومي يبحث دائماً عن رموزه ويجدها في الطبيعة. فالبساتيـن والحدائق، والطيـور والأزهار هـي التي روت حكاية العاشـق والمعشوق. وصار الطيـر رمزاً للروح، وهو الرمز الذي استخدم منذ زمن المصريين القدماء وحتى يومنا هذا.(٨)

إنَّ حكايـة الـوردة والعندليب الرمزية، أو البطـة التي تنجو إلـى البحر إنما تلمح كلهـا إلى الحقيقـة المركزيـة القائلة بأن الروح ترغب بالعـودة إلى مجالها الأصلي.

وتكتسـب أصغر الأشياء فـي يدي الرومي، سـواء أكانت فراشة أم قطرة ماء، الشفافية تكشـف عن نور السر الإلهـي. فمن واجب الإنسان الذوبـان ضمن المحيط الهائل لله مثـل قطرة المـاء، لأن الإنسان هو كموجة صغيـرة أو بقعـة من زبد ذلـك المحيط. والنعم التي يُنعم بها الله تندفع طافية على سطح ذلك المحيط لملاقاة شواطئ الحياة الإنسانيـة. لكن الوقائع التي تقع في زماننا ومكاننـا هي، بالنسبة للحكيم، لاشيء سوى انعكاسـات لمد وجزر النعم وخيبات الأمل التي تحدث على سطح ذلك المحيط والتي تقع خارج مجالي الزمان والمكان. وكل من يواجـه الذوبان على سطـح ذلك المحيط يتحـول حـالاً إلـى الـدرة الأم الموجدة للمحيط. فالهجران المطلق لا بد وأن ينتج كسباً مطلقاً.

إنَّ إحـدى خصائص فكـر الرومي هي أن الرموز التـي استخدمها لم تحمل معنىً واحـداً فقـط، وإنمـا كانت مليئـة بمعانٍ مختلفة. كما يمكـن اعتبار أن لهذه الرموز معنىً إيجابيـاً أو سلبياً. فالنار، على سبيل المثال، يمكن اعتبارهـا على أنها تعني نار جهنم، التي يمكن إطفاؤها إما بماء الرحمة أو بنـور الجـود والكـرم؛ أو حتـى يمكن اعتبارها أنها تعني نـار خيبات الأمل التي

تقوم بتطهيــر القلوب. وأينمــا استُخدمت خيبة الأمل كرمز للعشق الإلهي، فإنها يجب أن تكون نار العشق.[٩]

فــي جميع الأديــان، ثمة رمــوز بعينها تلمــح إلى الحقائــق الدينيــة وإلى علاقة الله بمخلوقاته. وتلمّــح معظم هذه الرموز إلــى الشعائر القديمة والعــادات البدائية. وأحــد أكثر الأمثلة شهــرة لهذه الرموز هو الخمر. ويرســم الرومي مقارنة بين النشوة التــي لا توصف والناتجــة عن الوجد وتلك التي تنتج عــن الخمر. وفي دار البقاء، في (اليــوم الآخر)، فــإن الله سيُناول، وهو في هيئة حامل الكأس، خمرة العشق إلى الرجل الباكي البعيد عــن موطنه، يحن إلى رائحة هذه الكأس، وهو يشير لمخلوقاته بذلك إلى مجاله الأصلي أو الــدرب إلى معشوقه. إنَّ هذا العالم هو كالكأس الفارغة؛ وما إن يرى العاشــق الكأس حتى يصبــح مُنتشياً. لأنه إذا مــا أصبح جمال حامــل الكأس ظاهراً، وإذا كان ثمــة من فرصة للعاشق كي يرشف العشــق من شفــاه المعشوق، فــإن العاشق سيهلك تحت وطأة جلال المعشوق. وحامل الكأس هو صانع موسيقى أيضاً. إنه يعزف علــى المزمار والناي والقيثــارة. والألحان التي تخرج من هذه الآلات هي دائماً ألحان الشوق والحنين.

إنَّ الإنســان هــو كالقيثــارة فــي يدي معشوقه يعزف عليها أنغام الأسى والحزن؛ أو إنه كالناي في شفتي معشوقه، يستقصي خلود الحنين.[١٠]

أمَّــا المزمــار، الــذي استُخــدم كرمز فــي العديد من الأديان منــذ أيام البابليين القدماء، فقــد كان الرمــز الأكثر تفضيلاً عنــد الرومي. وطبقاً له، فإن سقف وأبواب بيــت العشق قد صُنعت بكاملها من الأغاني والأشعــار. والعاشــق القــادر علــى فهــم صــوت المزمار يستجيــب لألحانه وينضم في السمــاء وهو يطير متألقــاً حول النور الخالــد للمعشوق الإلهــي، ككوكب أو نجم حول الشمس.إنَّنا نجــد أعمق المعاني في سمــاء الرومي وفي الرموز كلها ذات الصلة بالسماء. لأن العاشق المتصوف يطير متألقاً إلى الأبد حول مركز واحد فقط؛ إنه يرغب بالاقتــراب من هدف واحــد فقط ويحاول تقديم سره باستخدام رموز جديدة. وأخيراً يفهــم العاشــق المتصوف عقــم مساعيه الشعريــة ويستأنف صمته، وبامتنان صامت يطير متألقاً حــول جمال وجلال الله كذرّة حــول الشمس. إنه يصغي إلى ما يصل إليه (من الله)، ويــذوب تماماً في حالة حيث لا ذكــر فيها ولا متكلم ولا مستمع. وفي ظلمة النور، ينســاب العاشق المتصوف إلى حالة

من التحلل وسط الرموز كلها من ألوان وأشكال مختلفة[11].

فالرمزية، إذن، خاصية هامة من خصائص الفكر والممارسة التي اشتهر بها المتصوفون عبر التاريخ، وهي ممارسة عابرة للأديان والمذاهب لأنها ذات أبعاد فردية وذاتية يقوم بها الفرد تلقائياً من دون إلزام كي يصل إلى درجات الكشف ويختبر تلك العلاقة المباشرة بين الصانع والمصنوع التي تتجاوز الوصف بالكلمات. وكان «مولانا جلال الدين الرومي» صاحب الطريقة المولوية في الصوفية خير من جسّد هذا النموذج من الفكر والممارسة بحيث أصبح علماً من أعلام الصوفية في العصور الوسطى وما تلاها وحتى يومنا هذا.

الهوامش

١- انظر محمدي، محمد، الأدب الفارسي في أهم أدواره وأشهر أعلامه (طهران، ١٩٦٥م)، ص(٢٦٢). وردت عند مولوي، مراد، التربية الاجتماعية عند جلال الدين الرومي (دمشق، ٢٠٠٣م)، ص (١٦٠).

٢- غالب، مصطفى، جلال الدين الرومي (بيروت، ١٩٨٢م)، ص(١٣).

٣- محمدي، المصدر السابق، ص(٢٦٨).

٤- ذكر مراد مولوي أن جلال الدين كان يعتبر رسالته استمراراً لرسالة أسلافه من شعراء التصوف البارزين حين قال: «كان العطار وجهاً وسنائي عينيه

ونحن جئنا في إثر سنائي والعطار».

- انظر مولوي، المصدر السابق، ص(١٦٤).

٥- انظر مولوي نقلاً عن كفافي في المصدر السابق، ص(١٦٥).

٦- انظر شيميل، أنيماري، «الرومي والرموز التي يستخدمها في أشعاره»، مجلة علم، المجلد (٧)، العدد (٣)، كانون الأول (١٩٨١م) - شباط (١٩٨٢م)؛ الصفحات (٢٩- ٣١).

٧- المصدر السابق.

٨- المصدر السابق.

٩- المصدر السابق.

١٠- المصدر السابق.

١١- المصدر السابق.

الشعر التعليمي فنّ يمخر عباب بحر العلوم

د. كارين صادر ❁

هو فنٌ أدبي طرقه بعض شعراء العصر العباسي الذي كان يضجّ بمختلف العلوم حتى تشابكت المعارف في الذهن، وبات من الصعب حفظها. فكان أن وُجِد هذا الغرض الشعري لحاجة طلاّب العلم إليه بغية تسهيل حفظ العلوم والمعارف عليهم، ولاسيما بعد الإقبال الشديد على التعلّم المتعدد المناحي والاتجاهات، والرغبة القوية في طلب المعرفة في ذاك العصر الذهبي.

فكان أن أوجد الشاعر أبان بن عبد الحميد (ق٢هـ) طريقة تسهّل عملية حفظ المعلومات عن طريق تضمينها في أبيات شعرية تنضوي تحت عنوان الشعر التعليمي، وسار بعده في مجراه وعلى خطاه شعراء كثر.

والشعر التعليمي هو في الغالب شعر يزخر بالمعارف، ويفتقر إلى العاطفة والخيال كونه يخاطب العقل، ويتميز بطول النفس الشعري، واعتماده بحر الرجز، وتنوع القوافي في القصيدة الواحدة.

وأبان بن عبد الحميد بن لاحق، هو مولى بني رقاش، وكذا كان أبو جدّه «عفير»

❁ أديبة وباحثة في التراث العربي من لبنان الشقيق.

من الموالي. وقد نشأ نشأة شعريّة حيث كان جدّه، وأبوه، وابنه، وحفيده، جميعهم من الشعراء المقلّين.

تفتّحت شاعرية أبان في سن مبكّرة، فاتّجه بداية في شعره ناحية شعر الهجاء إذ اصطدم بالشاعر المعذّل بن غيلان، فتهاجيا واستفحل بينهما الهجاء، فاتّهمه المعذّل في هجائه بالزندقة، والمانوية، وبقيت هذه التهمة عالقة فيه.بعدها جاء الجاحظ وأثبت أنه كان زنديقاً ومانوياً، كونه عاش أول حياته مع المجّان والخليعين في البصرة، حيث كان صديقاً لمجموعة من شعراء المجون، أمثال: حمّاد الراوية، وحمّاد عجرد، ومطيع بن إياس.

أتيح لشاعرنا فرصة الاطلاع على ثقافات عصره المختلفة في البصرة من: دينية، وأدبية، ولغوية، وتاريخية، فكان يحضر الحلقات التي تعقد في مساجد البصرة، وخاصة في المجسد الكبير الذي كان مركزاً للثقافة الدينية، والعلمية، والأدبية. وكان من جملة أساتذته فيه: يونس بن حبيب النحوي، والحسن بن علي الجوهري، والمرزباني.

وكان أبان يعشق الشعر سماعاً وإنشاداً وحفظاً، فدأب على الوفود على سوق المريد، وهو سوق من الأسواق القديمة في البصرة، ويبعد عنها ثلاثة أميال، وكان قديماً سوقاً للإبل تحبس فيه، ولذلك سمّي بالمريد، ثم غدا مقصداً للشعراء في القرن الثاني الهجري، إذ راحوا يقصدونه ليسمعوا الشعر ويأخذوا بأحسنه عن الأعراب، وفيه كانت تقام مبارزات في الشعر بين الفرزدق وجرير عُرفت بـ«شعر النقائض».

ولمّا شبّ، ترك البصرة إلى بغداد، قاصداً آل برمك الذين كانوا فرساً مثله، فأحسنوا استقباله، وقَصَرَ حياته على مدحهم، ونظم الكتب وترجمتها لهم. ويقول واصفاً ذاته:

أنا من بغيَةِ الأميرِ وكَنز
مِن كُنوزِ الأميرِ ذو أرباحِ
كاتِبٌ حاسِبٌ خَطيبٌ بَليغٌ
ناصِحٌ زائِدٌ عَلى النُصّاحِ
شاعِرٌ مُفلِقٌ أَخَفُّ مِنَ الري
شَةِ مِمّا يَكونُ تَحتَ الجَناحِ
ثُمَّ أروي مِنِ ابنِ هَرمَةَ للنا
سِ بِشِعرٍ مُحَبَّرِ الإيضاحِ
ثُمَّ أروي مِنِ ابنِ سيرينَ للعل
مِ بِقَولٍ مُنَوَّرِ الإفصاحِ

ومما روته المصادر في أمر اتصاله بالبرامكة: «خرج أبان بن عبد الحميد من البصرة طالباً الاتصال بالبرامكة، لأن البرامكة أصلهم فارسي، وهو كذلك حيث

أنه كان من الموالي في البصرة من أصل فارسي، وكان الفضل بن يحيى غائباً، فقصده، فأقام ببابه مدّة مديدة لايصل إليه، فتوسّل إلى من وصّل له شعراً إليه، وقيل: إنه توسّل إلى بعض بني هاشم ممّن شخص مع الفضل. وبعدها أكثر من مدحهم، كما كانت تقدّم إليه المدائح ليقدّر جوائزها. وقد خصَّ بالمدح الفضل بن يحيى، الذي قلّده ديوان الشعر. وإليه نظم شاعرنا كتاب «كليلة ودمنة» شعراً، وكان قد أحبّ يحيى بن خالد البرمكي أن يحفظه، فاشتد عليه ذلك، فقال له أبان بن عبد الحميد اللاحقي:

– أنا أعمله شعراً ليخفّ على الوزير حفظه.

فنقله إلى قصيدة عملها مزدوجة، عدد أبياتها أربعة عشر ألف بيت، في ثلاثة أشهر وقيل أربعة. وقد قال في أولها:

هذا كتاب أدب ومحنه
وهو الذي يدعى كليلة ودمنه
فيه احتيالات وفيه رشد
وهو كتاب وضعته الهند

وكان أبان شاعراً مكثراً وأديباً وعالماً ظريفاً، ومنطقياً، ومطبوعاً على الشعر، ومقتدراً عليه. وقد نقل كتاب «كليلة ودمنة» شعراً بالألفاظ الحسنة العجيبة. ولم يقدر أحد من الناس أن يعلّق عليه بخطأ في نقله، ولا أن يقول: ترك من لفظ الكتاب أو معناه، وكان حسن السيرة حافظاً للقرآن، وعالماً بالفقه.

فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار، وأعطاه الفضل بن خالد البرمكي خمسة آلاف دينار، وقال له جعفر بن يحيى البرمكي: – ألا ترضى أن أكون راويتك لها!؟ ولم يعطه شيئاً. وقيل: فتصدّق بثلث المال الذي أخذه من البرامكة. وفيما بعد، أوصله البرامكة إلى الخليفة الرشيد، فمدحه، ورضي عنه الأخير، وأجزل له الصلات، وأصبح من شعراء البلاط العبّاسي، فأشاد بالعباسيّين، ودافع عن حقّهم بالخلافة. وكان هجّاء للشعراء، فهجاه أبو نوّاس وغيره، وكان مقلاً في غرض الغزل، وعرف واشتهر بالمزدوج والمسمّط.

ولمّا توفى خلّف وراءه ديواناً شعرياً، وعدداً من الكتب نذكر منها :السندباد وسيره، أردشير وسيره، وسيرة أنوشروان، وسيرة مازدك وتعاليمه وفلسفته، وبلوهر، وبوداشف، وكتاب الصيام والزكاة وأسماه «الفهرست في الصيام والاعتكاف». وتصدّى لنظم ملحمة عالج فيها مبدأ الخلق وأمر الدنيا أسماها «ذات الحلل»، وتنسب خطأً إلى أبي العتاهية. وليس لهذه الملحمة ذكر

فـي كتب الأدب التي بيـن أيدينا، كما ألّف كتاب «حكـم الهند»، و«مجموعـة رسائل». وكتبه مفقوده كلّها.

وقـال عند وفاته: «أنا أرجو الله وأساله رحمتـه ما مضـت عليّ ليلة قـطّ لم أصلِّ فيها تطوّعاً كثيراً».

وسلك ابنه حمدان من بعده هذا المسلك، ونظم مزدوجة في وصف الحبّ وأهله:

يـا أيـهـا الـنـاس افـعـوا

وصـيَّـتـي واسـتـمـعـوا

فـفـي صـفـاتـي عـجـبٌ

وفـي كـتـابـي أدب

وفي علم الحيوان نظم بشر بن المعتمر قصيدة، وفي تاريخ الطبّ نظم ابن إسحاق قصيدة، وفي الملل نظم أبو العباس الناشئ قصيدة ذكـر فيها الملـل وعقائدها، وفي علم الفلك نظم محمد بن إبراهيم الفزاري قصيدة، قال فيها:

الحمد لله العلي الأعظم ذي

الفضل والمجد الكبير الأكرم

الواحد الفرد الجواد المنعم

الخالق السبع العلي طباقا

والشمس يجلو ضوءها الإغساقا

والبدر يملأ نوره الأفاقا

وبعدهـا شـارك الشعراء فـي تدوين التاريـخ شعراً، ولعلّ أحـداً لم يسبق علي بـن الجهم في هذا المضمـار، فقد نظم مزدوجة في أكثر مـن ثلاثمئة بيت تناول فيهـا بدء الخليقـة وتاريـخ الأنبياء، كما حكى تاريخ الإسلام منذ بعثة الرسول إلى خلافة المستعين:

ثـمَّ أزال الـظـلـمـة الـضـيـاء

وعـاودت جـدّتـهـا الأشـيـاء

وفي السياق ذاته تناول أبو العتاهية أيضاً المواعظ والحكم، والإرشادات والتهذيب في أرجوزة ذات الأمثال، قال فيها:

لـكـل مـا يـؤذي وإن قـلّ ألـم

ما أطول الليل على من لم ينم

مـا انـتـفـع الـمـرء بـمـثـل عقله

وخير ذخـر الـمـرء حسن فعله

وكثـر هذا اللون مـن النظم في العصر العباسي، وكان يتمتع بأسلوب سهل ميسور، لأن التعلّم آنذاك كان يعتمد كثيراً على حفظ القرآن الكريـم، والحديث النبوي الشريف، والمتون اللغوية، والقصائـد الشعرية، ولم يتجـاوز الغايـة التعليمية، ولـم يتطور في اتجاه آخر.

وظـلّ الشعـر التعليمي قائمـاً وزاد الإقبـال علـى نظمه بمـرور الأيام حتى أصبحنا نـرى في العصور اللاحقة كثيراً مـن المنظومـات فـي الفقـه، والطبّ، والخطّ، والبلاغة، وغيرها.

ومن نحو ذلك ألفية ابن مالك (٦٠٠هـ)، هي متن يضمّ قواعد النحو والصرف العربي في منظومة شعرية يبلغ عدد أبياتها تسعمئة وثمان وثمانون بيتاً، على وزن بحر الرجز أو مشطوره.

ومنها:

كلامنا لفظ مفيد كاستقم
واسم وفعل ثم حرف الكلم
واحده كلمة والقول عم
وكلمة بها كلام قد يؤم
بالجر والتنوين والندا وأل
ومسند للاسم تمييز حصل

وقد حظيت بقبول واسع لدى دارسي النحو العربي، فسعوا إلى حفظها وشرحها أكثر من غيرها من المتون النحوية، وذلك لما تميّزت به من التنظيم، والسهولة في الألفاظ، والإحاطة بالقواعد النحوية والصرفية في إيجاز، مع ترتيب محكم لموضوعات النحو، واستشهاد دقيق لكل واحد من هذه المواضيع.

عربة أفلاطون

❋
د. موريس منصور



- قال أفلاطون: (النفس البشرية تشبه مركبة يقودها جوادان، الأول جواد العقل وهو يطيع الأوامر والثاني جواد جامح وهو الشعور).

وبين جواد العقل وجواد الشعور عالم من التناقضات والصراع.

وقد حاول شكسبير في مسرحياته أن يظهر هذا التناقض والصراع بين الشعور المدمر والعقل.

فالعقل هو فخر الإنسان وهو معقل العلم والذاكرة والتخطيط والتفكير والتنفيذ،

❋ أديب وطبيب.

وعلى كل عاقل أن يحاول قيادة عربة الحياة على الرغم من كل الظروف وفي كل مكان وأي زمان.

وقد يحالفه التوفيق وقد يصاب بالفشل ولكن عليه المحاولة من أجل شيء هام مثل الحياة حتّى يستحق الإنسان شرف المحاولة.

فجواد العقل يفكر ويخطط ويعمل ويقرأ ما بين السطور لأن لديه واجب يرتكز على الواقع.

أمَّا الجواد الجامح وهو الشعور فيجب محاولة كبح جماحه قدر المستطاع على الرغم من صعوبة السيطرة عليه.

وهنا تظهر قدرة جواد العقل فتارة يتحالف مع جواد الشعور الثاني وتارة يقاوم جواد الشعور المدمر وهذا الأخير يدعى عصاب القلق وهو مزيج من الخوف والأوهام.

الخوف من المستقبل، الشعور بالإحباط، الحب، أحلام الهجرة، الخطف وأخيراً الخوف من الموت.

وحتى أسمى المشاعر، وهي الحب الذي يملك عدة درجات ومسميات فما زاد عن الحب يدعى العشق ثم هناك الشغف ويعني ملامسة الحب شغاف القلب وعند هذه الدرجة من درجات الحب تبقى الأمور تحت سيطرة جواد العقل.

أمَّا باقي التسميات من أسماء الحب وهي التيم والتبل والهيام فهذه الأشكال من الحب تتراوح بين المرض والجنون فهي درجات صعبة العلاج ومن الصعب على جواد العقل أن يسيطر عليها.

وفي مسرحيات شكسبير أمثلة عديدة عن الإفراط في العواطف وهذا الإفراط ظهر تحت اسم الجنون.

أمَّا المبالغة في الاعتداد في النفس فهي تقود إلى مرض عقلي يدعى الهوس وما أكثر المصابين بهذا الداء في هذه الأيام وهو شكل خارج عن سيطرة جواد العقل.

فكل هذه المشاعر هي مشاعر مدمِّرة للنفس البشرية لأنها أصبحت من الأمراض المزمنة التي تحتاج إلى علاج.

وخير علاج لهذه الأمراض يكمن في الوقاية منها وهنا يبرز دور جواد العقل في محاولة تهدئة جواد الشعور المحبط حيث يزرع جواد العقل الأمل ويمد يد المساعدة بكل أشكالها المعنوية والمادية.

وبما أن رحلة الحياة مستمرة فلا بد أن يتابع كل عاقل الأحداث وأن يقاربها بصورة منطقية واقعية حتى الوصول إلى نهاية الرحلة بسلام.

وحين تحتفظ الذاكرة بعدد أكبر من الذكريات السعيدة يمكن القول بأن وصلنا إلى نهاية الرحلة بسلام.

ومن أقوال شكسبير عن الحياة قول هام (**هكذا تمر الأيام من حيث لا نشعر بها فالحياة هي ظل عابر**).

وقد حاول فلاسفة الحضارة الإغريقية إعطاء وصية للبشرية حين قال أحدهم: «**الذي يضبط نفسه هو الذي يعتدل في أمنياته**».

لأن الاعتدال أشبه بقلادة ذهبية ولأن العمل هو كنز الإنسان فقد تقاطعت أفكار المفكر الفرنسي جان جاك روسو إلى مثل يقول:

«**الاعتدال والعمل هما أفضل أطباء البشرية**».

فالاعتدال في كل أنواع المشاعر هو مطلب كل العقلاء وهو جزء من تربية الأجيال القادمة.

والعمل بمختلف أشكاله الذي نأكل منه خبزنا اليومي بشرف ومن دون حاجة يحتاج لعلم وتفكير وتخطيط حتى الوصول إلى مرحلة الإتقان وعندها يمكننا القول: بأن تضافر جهود جواد العقل وجواد الشعور وبمساعدة القدر والحظ ببعض المال الضروري نتابع رحلة الحياة حتى الوصول إلى بر الأمان.

أمَّا غوته الكاتب والشاعر الألماني الذائع السيط فقد قال:

«**تحتاج الحياة لحقيبة أخذ وحقيبة عطاء**».

وهنا يجب أن نفهم بأن كل شيء نأخذه أو أخذناه في هذه الحياة له ثمن.

قد يكون ثمن مادي أو على حساب عمرنا وصحتنا وكل شيء نأخذه يحتاج لجهد وقلق وأمل وعمل وكل شيء بحسابه.

أمَّا العطاء فهو واجب ويجب على كل إنسان يحمل هذه الصفة الإنسانية أن يفتح حقيبة العطاء حين الطلب سواء كان هذا العطاء بشكل مجاني أم عطاء له ثمن لأن المهم أن يتمم الإنسان واجب العطاء.

وللعطاء أشكال وأشكال فهناك عطاء مادي وهناك عطاء فكري يتمثل بالنصح والإرشاد.

وبغض النظر عن النتائج يجب أن نفتح حقيبة العطاء لمن يطلب ويجب أيضاً عدم انتظار المكافأة لأن المجتمع في كل الأزمان يحتوي على فئة تنكر العطاء وتنكر المساعدة وتدعى الفئة الانتهازية.

وفي النهاية يجب أن يترافق الأخذ مع الشكر لكل من أعطى ويجب على كل من أعطى عدم انتظار المكافأة لأن في نهاية المطاف لا يمكن لأحد مهما كانت صفته أو

ثروتــه أن يأخذ فقط أو يعطي فقط فالكل بحاجة للكل لأن هذا قانــون الطبيعة ومن يجــد بأنه غير محتاج لأحد الحقيبتين فهو واهم ومصير رحلته الفشل.

وفي فرنسا مثل عن الحياة يقول:

«تحتــاج الحيــاة لحقيبة مــال وحقيبة صبر وقليل من اللامبالاة».

وهنا أقول:

- **المال دون صحة لا شيء.**
- **والصبر دون أمل هو لا شيء أبداً.**
- **وقلــة اللامبــالاة هــي سلاح قــد يكون مدمر وقد يكون مفيد.**

وفي الهند قالوا:

- **الحياة مدرسة أقساطها غالية.**

ولكــن بعــد إتمــام الدراسة فــي هذه المدرسة تظهر النتائج فهناك ناجح وهناك راســب والإنسان وحده هو من يقرر النجاح والرسوب حين يقتنع بما أنجز في حياته أو يتحسر على الماضي.

أمّا في إيطاليا فمثلها يقول:

«تحتاج الحياة لجرأة وقدرة وصمت».

فهم يطلبون المغامــرة أولاً والقوة ثانياً وأخيراً يطلبون السرية.

وهنا أسأل:

ما هو شعور المغامر؟

وبقدر ما نحتاج لقوة نحتاج لحنان،

وبقدر ما نحتاج لجرأة نحتاج لتبصر، والصمت فــي بعض الأحيان هو نصف موافقة على رفض ما.

وبمــا أن الزمن هو الأكثر حكمة بين كل الناصحين وذلك لأنــه يكشف الأسرار كلها ويبوح بها من دون طلب من أحد، فهو يغطي كل شــيء ويكشف كل شــيء ويعلمنا معنى الصبر فلا بد كما قــال سيرفانتس فارس الدراما الإسبانية:

«يجب إعطاء وقت للوقت».

وهــذا أيضــاً يخضــع لجــواد العقل، فالصبر مفتاح الفرج.

والزمن سيــد كبير قادر على ترتيب كل الأشياء.

وهنــا عند إضافة جــواد الزمن وجواد المال وجــواد الصبر إلى عربــة أفلاطون تصبح الرحلة في هذه المرحلة أكثر متعة.

ومع جــواد المشاعر الجامح ومع الحب النبيل والطموح تصــل عربة أفلاطون إلى بر الأمان.

وقد قال باسكال المفكر الفرنسي:

«الحيــاة تبــدأ بالحــب وتستمــر بالطموح».

أما فلسفة نيتشيــه فقد ظهرت بعد أن منحــه القدر عقــل راجح ومرضــ ووراثي مجنون وسلب منه عائلته وحبيبته فقال:

«لا قوة في الحياة تفوق قوة الخير وقوة الشر».

وهو الذي قال:

«لقد تحتم عليّ أن أتفوق على نفسي».

ومن الأمثال العالمية عن الحياة وسرها:

«الحياة حلم....مثل لاتيني».

«الحياة أمل....الحياة كفاح...» (عند الإغريق).

«حياة الإنسان على الأرض تشبه حصان أبيض يقفز بالمنحدرات ويختفي فجأة...» (مثل صيني).

«الحياة تشبه قصة يهمنا مغزاها لا طولها...» (مثل لاتيني).

«الموت أقرب إلينا من حدقة العين...» (مثل عربي).

ولأن الوقت يذهب من دون عودة فيجب على كل عاقل أن يحفز جواد العقل وجواد المشاعر السامية من أجل متابعة حياته اليومية بكل أشكالها (الخدمية والعائلية والثقافية وحياة المتعة والهناء...).

وعند توفر الصدق والبساطة نحيا ونتمتع ونتقن فن العيش لأن الصدق هو نوع من أنواع المشاعر السامية وهو أحد أركان الحياة.

وإذا ابتعدنا عن عربة أفلاطون وعن أفكار الفلاسفة والمشاهير وعدنا إلى عالمنا الواقعي فهل نلاحظ أي اختلاف بين أفكار الحكماء ورأي العامة.

سأكتب بعض تعاريف الحياة باللغة المحكية العامية للضرورة ففي عالم الواقع هناك سيل من الإجابات عن الحياة وعن السؤال عن الأحوال تتدرج الإجابات بين كلمات بسيطة تحمل في معانيها فلسفة عميقة.

أمثلة:

عايشين.

عند العامة كلمة واحدة تعبر عن الحزن والحسرة.

وكلمة ماشي الحال..

وكلمة بعين الله..

ومن رضي عاش..

الله يديما نعمة..

وأختم بأجمل كلمات اللغة العامية:

(الحياة حلوة بس نفهمها).

المراجع

- معجم الحكم والأمثال بالفرنسيّة.
- مسرحيات وليم شيكسبير.
- هكذا تكلّم زاراداشت.

هل يوجد طريق ثالث للفلسفة؟

❁
مؤيد جواد الطلال





لم يكن انتصار الفلسفة المادية ممكناً في العصر الإغريقي القديم، نتيجة لطبيعة الإنتاج المادي السكوني في المرحلة العبودية أولاً، وعدم توافر معطيات علمية آنذاك ثانياً. ولذلك فقد سادت الفلسفات المثالية، وغرقت في حمى الأساطير المثيولوجية، معبرة بذلك عن مصلحة الطبقات المستغِلة، ومبررة لواقع العلاقات

❁ باحث من العراق الشقيق.

الاجتماعية والإنتاجية التي كانت سائدة آنذاك؛ كعلاقة العبد بسيده، مثلاً.

هذا لا يعني طبعاً، خلو الفلسفة الإغريقية من بذور حية لأفكار جنينية مادية، سيكون لها تأثير بعيد المدى على الفلسفات اللاحقة حتى يومنا هذا.. وتلك البذور، هي نتيجة تصعيد متسام لأفكار وأخلاق الفئة الديمقراطية التقدمية، إضافة إلى الطبقات المحرومة، طبقات أوسع قطاعات الشعب آنذاك (مثل طبقة العبيد الشغيلة على مستوى أعمال الخدمات العبودية والزراعية في وقت واحد)؛ لأن الأفكار والمفاهيم هي بنت الواقع الموضوعي.

وقد كان صراع الفلسفات المادية والمثالية في العالم الإغريقي القديم، بمثابة انعكاس لواقع صراع الطبقات الاجتماعية. واستمر ذلك الصراع في مرحلة جديدة من تطور القوى المنتجة للحياة المادية، وعلاقة هذه القوى ببعضها في المرحلة التالية -مرحلة الإقطاع- فتحولت الأساطير المثيولوجية إلى أيديولوجية لاهوتية، وأحياناً صوفية، لتبرير الاستغلال الإقطاعي/ الكنسي لجمهرة الفلاحين: فكادت أن تنجح في إخضاع الفلسفة، وبعض مكونات نظرية المعرفة وعلوم ذلك الزمان البسيطة، للدين ولتعاليم الكنيسة (التي جهدت إلى تجاهل الطبيعة، وإعاقة تقدم العلوم، وسحق الأثر الضئيل للمبادئ المادية بإقامتها محاكم التفتيش الشهيرة. غير أنّ تطور القوى الإنتاجية، ومتطلبات الحياة اليومية وحاجات الناس الأساسية، قد بعثت في شرايين العلوم المتصلبة دماءً جديدةً. وبذلك قوضت تجربة الحياة، والنشاط العملي، بعض قوانين المثالية والعقائد الكنسية- المصدر: ي- كليانيش (نظرة ماركسية في تاريخ الفلسفة) ترجمة حنا عبود - ص٤٥/ ٥٠- دار الطليعة- بيروت ١٩٧١).(١)

حاجة البرجوازية الصاعدة إلى العِلم

إنّ البرجوازية الصاعدة - برجوازية ما قبل عام ١٨٤٨م الثائرة على المجتمع الإقطاعي في مرحلة أفوله- بحاجة إلى العلم الذي يُساعدها في تسخير قوى الطبيعة، حيث إن المعرفة الصحيحة للطبيعة وقوانين تطور المجتمع لا تقوم إلاّ على علم مادي موضوعي. ومثل هذا العلم قد أخذ في الظهور: الفيزياء الميكانيكية، التشريح الفسيولوجي، الكيمياء.. إلخ أمَّا وقد اختارت البرجوازية الصاعدة طريق العلم والتمرد على نمط وعلاقات الإنتاج

الإقطاعي، فقد جعل منها آنذاك طبقة تقدمية على حد تعبير ماركس.

لقد استمدت البرجوازية تقدميتها آنذاك ليس من محاربتها لذلك المجتمع الإقطاعي المتعفن ومبادئه المهترئة، أو من وضع حجر الأساس للعلوم الطبيعية والصناعية حسب، بل ومن دورها في تكوين مفاهيم ومبادئ فلسفة مادية كما هو الحال عند كل من (كوبرنيكوس- برونو- غاليلو- بيكون- هوبز- ديكارت- سبينوزا- جون لوك- ديدرو - هولباخ- هيلفتيوس.. إلخ)؛ فأصبحت هذه المفاهيم والأفكار بمثابة النواة الأساسية للعقلانية العلمية والإنسانية المعاصرة.

وقد هيأت تلك المفاهيم والمبادئ، أيديولوجياً، الأرضية للثورة البرجوازية الفرنسية، ولعبت دوراً كبيراً في النضال ضد المثالية، وذلك من خلال تبريرها النظري للإلحاد ودعوتها إلى تطوير العلوم الفيزيقية والنضال من أجل انتشار النظريات والأفكار الاشتراكية الطوباوية، كما هو الحال عند (سان سيمون، فورييه، أوين)؛ إذ تحتل الفلسفة المثالية الألمانية مكاناً مرموقاً في تاريخ الفلسفة. فقد عكست، بطريقتها الخاصة، الطبيعة المتناقضة لتطور ألمانيا عشية الثورة البرجوازية. وكان كل من (كانط وفيخته وشلنج وهيجل) أشهر ممثلي هذه المدرسة.

لقد أحدث هيجل (١٧٧٠- ١٨٣١م) ثورة فكرية هائلة لا تضاهيها في القوة والتأثير إلا الثورة الكوبرنيكوسية، وصلت ذروتها الثورية العقلانية العلمية في الماركسية عبر اليسار الهيجلي: (الراديكالية الليبرالية والاجتماعية مثل شتراوس، باور، فيورباخ، موسى هس.. إلخ).

ففي الوقت الذي بدأ الفكر الأوروبي ينظر إلى الهيجلية نظرة استخفاف وازدراء، معتبراً إياها فطيسة نتنة، أعلن ماركس في (رأس المال) دفاعه عنها وافتخاره بأستاذية (هيجل) له، وبيّن أهميتها التاريخية (باعتبارها أعظم نظرية للتطور في عمقها وغناها وشموليتها، وأثمن كنز في الفلسفة الألمانية. فقد درس هيجل قضايا المعرفة البشرية وأشكال التفكير البشري، وصاغ قوانين الديالكتيك الأساسية (وحدة التناقضات وصراعها، قانون التحولات ونفي النفي) واستنبط المراحل المتميزة في العمليات التاريخية وترابطها الداخلي، ونقد الفلسفة اللاأدرية.. إلخ).[٢]

من تفسير العالم إلى تغييره

بيد أنّ ماركس لم يتقبل أو يتبنَ البذرة الديالكتيكية الهيجلية في وضعها المثالي المقلوب، بل عمل على تنميتها ورفعها إلى أقصى أبعادها وإمكاناتها الحيوية، بعد أن أوقفها عند موضعها المادي الصحيح؛ (وذلك من أجل اكتشاف اللب العقلاني داخل القشرة الصوفية.. فجميع الأسرار التي تقود الأيديولوجيا إلى الصوفية، تجد حلها العقلاني في الممارسة الإنسانية، وفي فهم هذه الممارسة؛ إذ لم يفعل الفلاسفة غير تفسير العالم، أما المهم فهو تغييره).

بهذا النقد الموجه إلى الفلسفة عامة، والجناح اليساري من فلسفة العقل الهيجلية، دفع ماركس بالفلسفة - كمعرفة مُستقلة- إلى الجحيم؛ من أجل تحقيقها عمليّاً وتحويلها من تجريد ذهني إلى واقع معاش. حيث إن الفلسفة/ المعرفة تنتقل من الوعي الذهني إلى البراكسيس العملي، فجذور الضياع الديني والفلسفي قائمة في الانقسام بين الحياة العامة والحياة الخاصة للإنسان، بين الفرد والكائن النوعي.. ففي الدين يخلع الإنسان إلى خارجه «كيانه الجوهري» ويضيّع نفسه في وهم عالمٍ مُتعالٍ على حد تعبير ماركس. وهذا الضياعُ لا يزول إلاّ بزوال التناقضات الطبقية، وتحرير البروليتاريا لجميع الطبقات من خلال تحريرها لذاتها.

هل هنالك طريق فلسفي ثالث؟؟

إنّ التيار الذي يقع على يمين الهيجلية هو الذي أعاد صياغتها لتتلاءم والردة الرجعية، ولتدافع عن تراث المثالية الميتافيزيقية والغيبيّات الدينية، وذلك في عصر تحول البرجوازية الصاعدة إلى برجوازية استعمارية. فبعد إنجاز البرجوازية الصاعدة لمهامها ورسالتها التاريخية على الصعيد الداخلي: (تحويل الطبيعة واستغلال الثروات الوطنية مع النزوع نحو ليبرالية تحررية، توحيد الإمارات والممالك الصغيرة في جمهوريات برجوازية شبه ديمقراطية على أسس قومية، إضافة إلى سيادة مفاهيم هذه الطبقة التي تحتاج إلى العلم المادي.. إلخ) - بدأت تتفسخ وتنوء بحمل رسالة ذات طابع رجعي تتناسب وحاجتها إلى المزيد من الإفقار الداخلي/ المحلي للبروليتاريا، والمزيد من الأسواق الخارجية لتصريف بضائعها واكتشاف قارات جديدة غنية بمواردها الأولية الخام. إنّ هذه البرجوازية تتحول إلى عصر جديد: العصر الاستعماري، عصر التسويات الاجتماعية والقومية الخانقة.

وفلسفة هـذه المرحلة تشكل الانعكاس الدقيق للتسوية الاجتماعية على صعيد الفكر، حيث تتخلى عن طموحها القديم في تقديم أجوبة عقلانية على مسائل الفكر البالغة الأهمية. فنظرية المعرفة تتحول في هذه المرحلة، بعد أن استنفدت متطلباتها وموضوعاتها الداخلية، إلى فلسفة لا أدرية بلهاء تقوم بوظيفة (حارس حدود) وصمام أمان للنظام القائم. إنّ الفلسفة السائدة في هذا العصر هي فلسفة أساتذة، على حد تعبير لوكاتش، بعد أن أصبحت بنفسها «علماً متخصصاً» يقوم على ملامح كانطية جديدة وأسس وضعية، أو نزعات لتجديد المادية الميكانيكية القديمة (مالشوت- باشلار) مع روح تشاؤمية صوفية (شوبنهاور- نيتشه- كيير كيغارد) في وقت واحد. (يُراجع جورج لوكاتش: ماركسية أم وجودية؟ ترجمة جورج طرابيشي- دار اليقظة العربية في دمشق).[٣]

ما يزال التخطيط الذي رسمه لوكاتش في عام (١٩٤٧م) لأزمة الفلسفة البرجوازية، وحقيقة الوجودية، محتفظاً بقوته النقدية وعمقه الفكري حتى الآن. فالبرجوازية في طورها الاستعماري الجديد وحاجتها الماسة لأسواق النهب الإمبريالي، مقابل تصاعد المدّ الاشتراكي والتقدمي في العالم، سعت (في محاولات لا تستطيع أن تتحقق إلاّ على حساب خداع دوغمائي إلى رسم طريق ثالث للفلسفة، لتتمكن نظرية المعرفة البرجوازية من تجاوز المادية والمثالية في آن واحد).

وفي الحقيقة ليست المسألة إلا محاولات لتجديد المثالية الفلسفية، ببعث دماء جديدة في عروقها المتيبسة والمتشنجة لتكون سلاحاً في المعركة العقائدية المعلنة على الماركسية بعد إلباسها لباس الموضوعية الكاذبة، وتزيينها بأساطير جديدة تخفي مذهب (وحدوية الذات القديم) وتستر إفلاس المثالية الموضوعية على صعيد التطور التاريخي. غير أن هذا الطريق قد وجد في «لينين» خصماً عنيداً حين طرح القضية بشكلها النهائي: أولوية الوجود أم الوعي؟ وهل يوجد العالم الموضوعي/ المادي خارج وعينا الذاتي؟!؛ وذلك في كتابه (المذهب المادي والنقد التجريبي).

موقع الوجودية من شجرة الفلسفة المثالية الغربية

والفكر البرجوازي من خلال أزمته في البحث عن طريق ثالث، يبدو أنه قد عثر على صوفيته الخاصة ليس في علم النفس الكلاسيكي حسب -كما اعتقد

جورج بوليتــزر- بل وفي الوجودية أيضاً. فالوجودية، الملحــدة والمؤمنة على حدٍّ سواء، تعكس أيديولوجياً السديم الروحي والأخلاقي لتناقضــات العقل البرجوازي الراهن، حيث أن الوعي الوجودي، المجرد من كل منظور عينــي وحقيقي، يقود إلى العدمية الفلسفيــة، وإلى خلق الأساطير، التي تعود إلى بقايا لاهوتية لم يعرف هذا الوعي السبيل إلى قهرها. فالوجودية إذن تحمل طابع العدمية التلقائية، شأنها شأن كل عقيدة برجوازية حديثة لا تستطيع أن تجتاز هذه الهوة إلا بفضل مذهب انتقائي معين، على حد تعبيــر لوكاتش. ولم يكن العقل الماركسي هو الوحيد الذي استطاع أن يلحظ ويكشف تلــك البقايا اللاهوتية والصوفيــة فحسب، بــل أنّ أحد مفكري التحليلية المنطقية (ألفرد جولز آير) قد أشار إلى كثرة التجاء الفيلسوف الوجودي إلى الميتافيزيقيا الغامضة لتبرير مفاهيمه من دون الالتفات إلــى أساسها المنطقي (المصدر: مجلة الآداب البيروتية- العدد الخامس- أيار ١٩٦٥- صفحة ٣٦).(٤)

تنتقي فلسفــة المرحلــة الإمبريالية (المثالية الموضوعية) من نظرية المعرفة للمرحلــة السابقــة، وتطرح جانبــاً مبدأ اللاأدرية وحتى منهــج الجدل الهيجلي، لتحل محله تصورات ومناهج أكثر سحرية وأسطورية مثــل الحدس اللاعقلي (دلثي - هوســرل- برغسون) باعتبــاره منهجاً فلسفياً يتجاوز المناهج المثالية والمادية ويعتمــد التأمــل الخالصــ والمحايــد للواقع، مــع تعليق العالــم المدروس بين قوسين كما تفعل (الأبوخية) في المعرفة الفينومولوجيــة.. إضافــة إلــى تعليــق القضايا الإنسانية والحقائق الموضوعية باعتبارها مسائل (نسبية)، كما عند (ماخ، إيفانوروس).. إشاعة الفوضى العلمية في ميــدان الفيزياء الحديثــة، وإعلان نهاية المــادة والحتمية العلمية وبــزوغ عصر الحرية الذاتيــة حسب مفهوم (هيزنبرج) في الــذرة: عدم إمكانيــة تحديد موضع وسرعة الإلكتــرون في وقت واحد.. إلخ. غير أن ذلك لا يعني نهاية العِلم وحقائقه، بــل يعني الانتقال من النظرة الميكانيكية (أرسطــو- نيوتن- لاباســ) إلى النظرة الديناميكية الديالكتيكية.

وما دام العقل قد اهتز عرشه باهتزاز مواقع الطبقــة البرجوازية على صعيدي العِلــم والعمــل، ودخــول هــذه الطبقة مرحلتها الأخيرة وأزمتها العامة، ووقوفها على أعتــاب حرب كونيــة شرسة تصفي حساباتهــا مــع الغنيمــة لتجــد مخرجاً

لأزمتها؛ فإن الوجودية تضطلع بهذا الدور على الصعيد الفلسفي المتقدم، فيستعير (كارل ياسبرز) من (نيتشه) قدريته العمياء، ومن (هيدجر) مفهوم الكينونة من أجل الموت ليبشر ويعظ بوجود منطوٍ على ذاته ومعزول عن كل حياة عامة، يقوم توازنه على تشاؤم كلي إزاء العالم الخارجي كما ظهر سابقاً عند (شوبنهاور).. والهدف الحقيقي لهذه النزعة هو (منع الاستياء الذي ولدته الأزمة في أن ينقلب ضد أسس المجتمع الرأسمالي، والعمل بحيث لاتقدر الأزمة على دفع الفئة المثقفة إلى التمرد ضد مجتمع الإمبريالية- لوكاتش/ مصدر مذكور سابقاً ص٣١).

فما دام العِلم، بالنسبة إلى فلسفة الإمبريالية، عاجزاً عن تقديم رؤية إجمالية شمولية؛ وأن العقل قد توقف - أو وصل إلى حدود ضيقة ومنيعة- فإنها تقدم لنا تصوراً أكثر كوزموبولوتية. وهذا التصوّر هو بمثابة إرهاصات أولية للنزعة الفاشية نحو دولة عالمية، دولة عنصرية هرمية تحاول حل التناقضات البرجوازية الأوروبية، بقدر ما تقدم هذه الفلسفة الإمبريالية منظوراً أبعد من العقل المعروف ومناهجه البالية.. منظوراً يعتمد الحدس اللاعقلي الذي يمكن أن يستشف الواقع العلوي، أو (ما هو فوق العقلي) ليكون مصدر كل معرفة حقيقية (كذا ..!!).

بيد أن هذه المعرفة مجردة من كل عنصر اجتماعي، ومن ثم واقعي، يمكن أن يُعارض وعي الفرد المعزول أو (العبقري) بالمفهوم الفلسفي الوجودي؛ لأنّ العالم الواقعي وقضاياه اليومية حسب ها المنهج الفلسفي - ستكون معلقة بين قوسين. وللتأكد من صحة معطيات هذا المنهج ونتائجه يمكن أن يعود القارئ الكريم إلى مراجعة أي كتاب في هذا الشأن من كتب فلاسفة هذا التيار، وخاصة كتاب هوسرل (تأملات ديكارتية أو المدخل إلى الفينومولوجيا) وكتاب سارتر (الوجود والعدم).. ومن كل هذا تستبين وتتضح الجذور الدينية/ الصوفية لهذا المنهج الذاتي الذي يذكرنا أيضاً بأفلاطون وعالميه الشهيرين: عالم الحقيقة مقابل عالم الوهم، أو الرغبة في الوصول إلى عالم المُثل المطلق!!

الأسطورية والتشاؤم كبديل عن الروح العلمية

وهذا الطابع الأسطوري لا يقف عند حدود نيتشه ومغامراته الذهنية والروحية فحسب، بل يمتد ليغطي الوجه المأساوي من الفلسفة الوجودية المعاصرة برمتها.

فإذا كانت فكرة الأبدية (العود الأبدي) تشترك في أكثر من جانب مع فكرة (التكرار) الكيركيجوردية -كما لاحظ ريجس جوليفيه[٥] - فإنها تترك أثرها الأسطوري واللاعقلاني على مفاهيم وجودية أكثر حداثة، مثل مفهوم (ياسبرز) حول ما أسماه باللحظة السرمدية، ومفهوم هيدجر حول (الكينونة من أجل الموت)، ومفهوم سارتر حول عزلة الإنسان الأبدية في عالم مُعطى وغريب (كثيف ولزج واحتمالي أيضاً.. إلخ)؛ وصبوة هذا الإنسان لأن يكون الله: (إنّ الإنسان هو الموجود الذي يشترع أن يكون الله!!)[٦].. وولع (كامو) في الفكر المثيولوجي والعدمي، وخاصة أسطورة «سيزيف»..إلخ.

موت الإله في فلسفة نيتشه: محاولة حل مشكلة الإنسان في الأرض من خلال التوجه صوب النظر إلى السماء.

إنّ النتيجة التي آل إليها موت الإله المسيحي المزعوم، والحقائق الأخلاقية والتشريعية التي تُبنى على ذلك الزعم أو ما يسميه نيتشه بأخلاق العبيد، اقتضت منه تصوراً أسطوريّاً جديداً للحياة والخلق والإنسان، تصوراً بعيداً عن المنطق والواقع العلمي الذي كان سائداً في الربع الأخير من القرن التاسع عشر.. تصوراً يتلاءم وردة الفعل ضد تنامي الروح العلمية الموضوعية التي بشرت بها طلائع الطبقة الصاعدة (البروليتاريا)، ويعبر في الوقت عينه عن أزمة الفلسفة المثالية في مرحلتها الخانقة (المرحلة الإمبريالية). ولم يترك ذلك الطابع الأسطوري أثره العدمي والسلبي على تفكير نيتشه ورؤيته الكونية الزائفة فقط، بل ترك طابعه المفجع على قواه العقلية أيضاً. وبهذا نستطيع أن نعتبر فلسفة نيتشه من أكثر الفلسفات الذاتية تطرفاً؛ وهذا ما يفسر أيضاً عبارته الشهيرة (لقد كتبت كتبي بدمي!!).

وقد لاحظ المفكر التقدمي الفرنسي (هنري لفيفر) في معرض نقده للفكر الوجودي بأن الإنسان ليس فريسة للقوى الكونية مباشرة كما اعتقد نيتشه، أكثر مما هو منحصر في ذاته انحصاراً انعزالياً. ولذا فإن التهيج العصبي -كما هو حاصل في حالة نيتشه على وجه الخصوص- يؤدي بسهولة إلى حلول مزيفة، ميتافيزيقية، رمزية وخرافية. حيث إن التوسط التاريخي والاجتماعي بين الفرد (العصري) وبين (الكوني) لايمكن إلغاءه بمرسوم شعري فلسفي. وإذا خرج أحدهم من (الإنسان النظري) أو من الأشكال

الأسطورية، ولاسيما من إطار الشكل المسيحي وأخلاقيتهما (العبودية) على حد تعبير نيتشه ذاته، فإن خروجه لا يمكن أن يتم إلاّ بمعرفة الخبرة الاجتماعية وسبل تنميتها وتطويرها من أجل تغيير تلك الأطر الأسطورية والعبودية، وتحويل الواقع تحويلاً ثورياً.

إلحاد نيتشه، إذن، هو الآخر أسطوري؛ لأنّ وعي الواقع الإيماني كان وعيّاً وهميّاً وزائفاً. لذا جاء نقد ذلك الواقع جزءاً من نقد السماء بدل نقد الأرض، نقد للنتيجة الظاهرة بدل العلة الجوهرية.. نقد لشكل الأسطورة من دون محتواها!!

وكما لاحظ (جوليفيه) فإن فلسفة نيتشه كلها، من البداية إلى النهاية، مرتبطة بمشكلة الإله. فالإله هو الشخصية الرئيسة، أو هو بحق الشخصية الوحيدة في قصة نيتشه الدرامية، كما أن صليب المسيح يسيطر في جلاء على أفق نيتشه كله، وذلك على نحو يتحول فيه الإنكار بما ينطوي عليه من عنف إلى توكيد. فتكون (لا) صورة من (نعم).. وقد استخلص (ياسبرز) النتائج من هذا الإلحاد الكاذب، فاعتبر كفاح نيتشه ضد المسيحية ما هو إلا نتيجة لميول مسيحية - ونيتشه على علم بذلك - تجلت لديه منذ البداية على أنها البقية الباقية من فقدانه التام للإيمان بالمعتقدات المسيحية، أي بالشكل الإيماني (ص٦٣ من كتاب ريجيس جوليفيه - مصدر مذكور في هامش رقم ٥).

وهكذا فإننا نستطيع أن نبني على شهادة (كارل ياسبرز) اتهامه لنيتشه بالإصلاحية العتيقة، وإعادته لصياغات أسطورية. أي جهده في إزالة التناقض بين شكل الأسطورة ومحتواها، ليس عن طريق الممارسة العملية التي تسعى إلى الكشف عن (اللب العقلاني داخل القشرة الصوفية)، وليس عن طريق تجاوز معطيات الواقع الذي تشكلت وترعرعت من خلاله الرؤية الأسطورية - بل عن طريق التأمل الخالص والنباح النظري المتعالي ضد سبل وأشكال التعبير الميثولوجي فقط، والنتائج القريبة التي تفضي إليها تلك السبل والأشكال. ولذا فقد جاءت رؤية نيتشه الكونية قريبة كل القرب من التصور المسيحي في جوهره العام، وخاصة جانبه المأساوي كموضوعة (الخطيئة الأصلية).. رؤية قريبة أيضاً من الاستكانة ذات الطابع الأسطوري التي تؤمل الناس بانتظار البعث والنشور المسيحي مقابل فكرة (العود الأبدي) النيتشوية!!

الوجودية كبديلٍ للماركسية

هـذا الإعراض عن العقل هـو السبيل الوحيـد أمـام الفلسفـة البرجوازية، التي لاتستطيـع الاعتـراف بإفلاسهـا وأزمتها الحـادة، والسبيل أيضـاً لإخفـاء النتائج الاجتماعية والتقدمية لمكاسب العِلم، وجعل هذه النتائج مبهمة ونظرية في آن معاً.

هـذا التيـار اللاعقلـي علـى صعيد الفلسفة، هو التمهيد لسيادة المناخ الروحي لمثقفي الطبقة البرجوازية: أي الوجودية؛ التي ستجهز على البقية الباقية من العقل والعلم والأمل فـي بناء عالم أفضل، لتحل محله الـذات الرافضـة المتوحدة القلقة اليائسة في خضم وجـودٍ منطوٍ على ذاته كما هو الحـال عند (ياسبرز)، عالم كثيف ولزج كما قرأنا في سطور (سارتر).. عالم أخرس وعبثي، لا جدوى فيـه من الفعل الإنساني إزاء صمـت العالم ولا عقلانيته كما تفيد أفكار (كامـو).. والقائمة تطول من هذه التهويمـات الإنشائية التي تُطرح كبديل للفلسفة الماركسيـة، فلسفة الأمل والفعـل الإنساني القادر على تغيير الواقع تغييراً ثوريّاً وجذريّاً!!

بالطبع فـإن هذا التيـار، من تيارات الفكـر البرجوازي المعاصـر، لم يستطع أن يحـل القضايا والأسئلـة المُلحة التي طرحهـا وما يزال يطرحها الفكر البشري (علاقـة الفكر بالواقـع وأولويـة أيهما، مثلاً)، بـل زادتها غموضاً (لتظهر تراجعاً واضحاً من نواحٍ عديدة حتى بالنسبة إلى المرحلـة الكلاسيكية؛ لأنهـا حين تجهد لحل هذه القضايا تلجأ إلى طرد المثالية مـن الباب لتعيـد إرجاعها مـن النافذة، حيـث أن الضـرورة التاريخيـة للطريق الثالث المزعوم أثناء المرحلة الإمبريالية، هي هجر منهج المثالية، مع الحفاظ على نتائجهـا وأسسهـا -لوكاتشـ - ص٥٥/ مصدر مذكور).

إنّ تدمير العقل، على الصعيد الفلسفي، مستهـدف منه أمران: الأول تحويل الواقع الموضوعـي إلى معطى كثيف ولا عقلاني ليعلن هـذا العقل عجزه عـن سبر غوره، وبالتالـي التصريح بزيـف ولا جدوى أي فلسفـة عقلانيـة تجهـد إلى مثـل هذه المعرفة أو السيطرة على هذا الواقع. أمَّا الأمر الثاني فيقوم علـى إهمال الشروط الاجتماعية وقضايا الحياة الإنسانية، ومن ثـم اعتبارها مجرد معطيـات ثانوية؛ من أجـل أن يبقى العالم كمـا هو على صعيد الممارسـة العمليـة، وعدم الجـدوى أو القـدرة من تغييره.. إنه شـكل من أشكال مكافحة الاشتراكية!!

الهوامش والمراجع

١- ي - كلبانيش: نظرة ماركسية في تاريخ الفلسفة، ترجمة حنا عبود، دار الطليعة، بيروت (١٩٧١م).

٢ - يتضح دور هيجل التقدمي في كتاب أنجلز حول نهاية الفلسفة الألمانية الكلاسيكية، وفي دفاتر لينين عن الفلسفة والديالكتيك (تُراجع المصادر المذكورة ومؤلفات أوغست كورنو حول حياة ماركس وأنجلز وأعمالهما الفكرية).

٣ - جورج لوكاتش: ماركسية أم وجودية؟ ترجمة جورج طرابيشي، دار اليقظة في دمشق.

٤- تُراجع صفحة ٣٦ من مجلة الآداب البيروتية، العدد الخامس، أيار (١٩٦٥م).

٥- ريجيس جوليفيه: المذاهب الوجودية من (كيير كيجورد) إلى جان بول سارتر، ترجمة فؤاد كامل، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٦- جان بول سارتر: (الوجود والعدم ص ٨٩٣) ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الآداب، الطبعة الأولى (١٩٦٦م).

كونفوشيوس والحضارة الصينية

جميل حسين الأحمد ❁



يقول الباحثون في الحضارة الصينية إنَّ الصين كان فيها من الكتب أكثر مما في سائر العالم وإنَّ كونفوشيوس بتعاليمه المأثورة، وحكمته العميقة كان أقوى حافز للصينيين على طلب العلم والتثقيف الذاتي والعناية بتحصيل المعرفة والاستزادة من العلم والتعمق في البحث.

يعد كونفوشيوس من أعظم الرجال الذين عرفتهم الحضارة الصينية وأبعدهم أثراً في حياتها السياسية والاجتماعية والثقافية. وقد قال عنه الحكيم الصيني

❁ كاتب وباحث.

منتشيوس بعد مرور قرنين على وفاته: إنَّه أعظم الحكماء قاطبة، وشدة إكبار الصينيين لمكانته جعلهم يحيكون حول حياته الأساطير، ويعزون إليه أقوالاً لم تصدر عنه. وحملت الحكماء الصينيين وسائر أصحاب النحل والمذاهب الذين جاؤوا بعده، ونهجوا منهجه على أن يفسروا آراءهم في ضوء أفكاره، وينهجوا بمذهبه الأخلاقي الاتجاه الذي يلائم مذاهبهم الخاصة، وأفكارهم المستجدة، ليدعموا مكانتهم وتظفر تعاليمهم بالثقة المطلوبة، والتأييد المرجو. ومن أجل ذلك يجد المتخصصون في دراسة حكمة كونفوشيوس، وأحداث حياته أنهم في حاجة ماسة إلى إطالة التحقيق، وكثرة التحري.

وقد تعلق الصينيون بآراء كونفوشيوس الأخلاقية تعلقاً شديداً، ولم ينحرفوا عنها إلا في النادر، والملاحظ في تاريخ الأمم والحضارات أن فرط التعلق بمذهب من المذاهب، أو نظرية من النظريات قد يعوق حركة التقدم ولكن الميزة الواضحة في الكونفوشيوسية أنها كانت خلال القرون الماضية القوة التي جنبت الصين تفرق الشمل، وتصدع الوحدة، وحافظت على كيان الإمبراطورية الصينية.

وليس معنى ذلك أن الصين لم تتعرض في تاريخها لموجات من الاهتزازات العنيفة، والثورات المدمرة ولكن حياة الأمم والحضارات لا تخلو من النكسات، ونوبات التصاعد والسقوط، ومزية الكونفوشيوسية أنها كانت على الدوام تعين الصين في استعادة التماسك بعد تفرق الشمل، واسترداد الهدوء والاستقرار بعد التقلقل والاضطراب.

نشأته:

المعروف عن كونفوشيوس أنه ولد في عام (٥٥١ق.م) في مدينة تشوفو وهي إحدى البلاد التي كانت وقتئذ إمارة (لو) والتي تدعى الآن بولاية شاندونغ اسمه الحقيقي كونج كيو. أما الاسم كونفوشيوس فهو شكل لاتيني من لقب كونج فوزي الصغير، ومعناه المعلم الكبير كونج، وكان والده أحد المجاهدين الشجعان والإداريين الأكفاء، وقد صار أبوه حاكماً في إحدى المدن ومديراً لإحدى مقاطعات ولاية (لو)، وكانت هذه الولاية تعد في هذه الفترة أرقى ولايات الصين حضارةً وأكثرها تقدماً.

وكانت الوظائف الحكومية فيها وراثية وقد ولّي كثيرون من أسرة كونفوشيوس

وظائف الحكومة جرياً على هذا النظام الذي كان سائداً، وقد تيتم في باكورة حياته وظهر ميلُهُ الشديد إلى التحصيل منذ صغره، فلم يكد يبلغ الرابعة عشرة من عمره حتى كان قد وعى كل ما عند معلمه من ذخائر المعرفة، وفي الوقت نفسه كان لا يكف عن مباشرة التمرينات الرياضية وكان له ولع خاص بالموسيقى والعزف على القيثارة، كما عرف بحبه للشعر وباستقامة الأخلاق ورجاحة العقل ورباطة الجأش.

ولما بلغ أشده عُيِّنَ في وظيفة حكومية متواضعة إذ وُكِّلَ إليه الإشراف على أحد الأمراء، وبعض الأراضي العامة التابعة للحكومة ولكي يزيد دخله القليل صار يعطي دروساً لبعض الطلبة، وأظهر تفوقاً ملحوظاً في التدريس مما جعل الطلبة من الأسر النبيلة يؤمون داره لتلقي العلم وسرعان ما ذاعت شهرته، وأثبت أنه أغزر سكان الولاية علماً، وأوسعهم معرفة ويبدو أنه أول من احترف تدريس الموضوعات السامية التي كانت تعلو على المعلومات الدارجة المألوفة التي كان يتلقاها الطلبة قبل عهده. وقد قدم بذلك مثلاً يقتدى به وجرى الصينيون منذ ذلك العهد على اتباع مثاله واتخاذه قدوة ولما كان كونفوشيوس عالماً جليل الشأن ومدرساً موهوباً فقد رفع ذلك من قدر العلماء والمدرسين وجعلهم مناط الاحترام والتبجيل في تاريخ الثقافة الصينية.

فلسفته:

كثيراً ما وصف كونفوشيوس بأنه أحد مؤسسي الديانات، وهذا تعبير غير دقيق إن لم يكن خاطئاً فمذهبه ليس ديناً. فهو لا يتحدث عن الإله أو السماوات. وإنما مذهبه هو طريقة في الحياة الخاصة والسلوك الاجتماعي والسلوك السياسي. ومذهبه يقوم على الحب - حب الناس وحسن معاملتهم والرقة في الحديث والأدب في الخطاب. ونظافة اليد واللسان. وأيضاً يقوم مذهبه على احترام الأكبر سناً والأكبر مقاماً، وعلى تقديس الأسرة وعلى طاعة الصغير للكبير وطاعة المرأة لزوجها. ولكنه في الوقت نفسه يكره الطغيان والاستبداد. وهو يؤمن بأن الحكومة إنما أنشئت لخدمة الشعب وليس العكس. وأن الحاكم يجب أن يكون عنده قيم أخلاقية ومثل عليا. ومن الحكم التي اتخذها كونفوشيوس قاعدة لسلوكه تلك الحكمة القديمة التي تقول: «**أحب لغيرك ما تحبه لنفسك**».

يعتبر كونفوشيوس الفضيلتين الهامتين هما (جن) و(لي) والرجل المثالي يسير حياته طبقاً لهما. وقد ترجمت (جن) بالحب أو الاهتمام الحميم بإخواننا البشر، أما (لي) فهي تصف مجموعة من الأخلاق والطقوس والتقاليد والأتكيت واللياقة والحشمة.

وكان كونفوشيوس محافظاً في نظرته إلى الحياة فهو يرى بأن العصر الذهبي للإنسانية كان وراءها - أي كان في الماضي. وهو لذلك كان يحن إلى الماضي ويدعو الناس إلى الحياة فيه، ولكن الحكام على زمانه لم يكونوا من رأيه ولذلك لقي بعض المعارضة.

وقد اشتدت هذه المعارضة بعد وفاته ببضع مئات من السنين، عندما ولي الصين ملوك أحرقوا كتبه وحرَّموا تعاليمه، ورأوا فيها نكسة مستمرة. لأن الشعوب يجب أن تنظر أمامها. بينما هو يدعو الناس إلى النظر إلى الوراء، ولكن ما لبثت تعاليم كونفوشيوس أن عادت أقوى مما كانت وانتشر تلاميذه وكهنته في كل مكان، واستمرت فلسفة كونفوشيوس تتحكم بالحياة الصينية قرابة عشرين قرناً أي من القرن الأول قبل الميلاد حتى نهاية القرن التاسع عشر بعد الميلاد.

أما إيمان أهل الصين بفلسفة كونفوشيوس فيعود إلى سببين: أولاً أنه كان صادقاً مخلصاً. لاشك في ذلك. ثانياً أنه شخص معقول ومعتدل وعملي. وهذا يتفق تماماً مع المزاج الصيني. بل هذا هو السبب الأكبر في انتشار فلسفته في الصين. وهو بذلك كان قريباً منهم. فلم يطلب إليهم أن يغيروا حياتهم أو يثوروا عليها. وإنما هو أكد لهم كل ما يؤمنون به فوجدوا أنفسهم في تعاليمه.

ولذلك ظلت فلسفة كونفوشيوس صينية. ولم تتجاوزها إلا إلى اليابان وكوريا. ولكن هذه الفلسفة قد انحسرت تماماً عن الصين. بعد أن تحولت إلى الشيوعية واتجهت الصين إلى المستقبل وانتزعت نفسها من هذا المذهب في الحياة وذلك بالبعد عن الماضي ومسالمة الناس في الداخل والخارج. ولكن تظل فلسفة كونفوشيوس هي التي حققت سلاماً وأمناً داخليين أكثر من عشرين قرناً للصين. وقد فشلت الكونفوشيوسية أن تترك أثراً يذكر خارج الصين.

من حكم كونفوشيوس:

لو قال كل إنسان ما يفكر فيه بصدق فإن الحوار بين البشر يصبح قصيراً جداً.

سلح عقلك بالعلم خير من أن تزين جسدك بالجواهـر. ليس من أغراك بالعسل حبيباً، بل مـن نصحـك بالصدق عزيـزاً. العقل كالمعدة المهم ما تهضمه لا ما تبتلعه.

ممـا قاله عن لسان المـرأة «إنك مهما حـذرت من لسان المـرأة فسوف تلدغ منه عاجلاً أو آجلاً». إن تجاوز الهدف مثل عدم بلوغه. ليست العظمة في ألا تسقط أبداً بل في أن تسقط ثم تنهض من جديد.

تلقى كونفوشيوس علومه الفلسفية على يـدي أستـاذه الفيلسوف لوتسـ Laotse صاحب النِحلة الطاوية، حيث كان يدعو إلى القناعة والتسامح المطلق، ولكن كونفوشيوس خالفـه فيما بعد داعياً إلـى مقابلة السيئة بمثلها وذلك إحقاقاً للعدل.

- عندما بلغ الثانية والعشرين من عمره أنشأ مدرسة لدراسة أصول الفلسفة، تكاثر تلاميذه حتى بلغوا ثلاثة آلاف تلميذ، بينهم نحو ثمانين شخصاً عليهم أمارات.

تنقل في عدد مـن الوظائف فقد عمل مستشـاراً للأمـراء والولاة، وعيّـن قاضياً وحاكماً، ووزيراً للعمل، ووزيراً للعدل ورئيساً للـوزراء فـي سنـة (٤٩٦ ق.م) حيث أقدم حينها على إعدام بعضـ الوزراء السابقين وعدداً من رجال السياسة وأصحاب الشغب حتـى صـارت مقاطعة (لـو) نموذجية في تطبيـق الآراء والمبـادئ الفلسفية المثالية التي ينادي بها.

رحـل بعـد ذلـك وتنقل بيـن كثير من البلدان، ينصح الحـكام ويرشدهم ويتصل بالنـاس يبث بينهـم تعاليمـه يحثُهم على الأخلاق القويمة.

أخيـراً عاد إلـى مقاطعة (لـو) فتفرغ لتدريسـ أصدقائه ومحبيه منكبًّا على كتب الأقدمين يلخّصها، ويرتبها، ويضمنها بعض أفـكاره، وحدث أن مات وحيـده الذي بلغ الخمسيـن من عمره، وفَقَـدَ كذلك تلميذه المحبّب إليه هووي فبكى عليه بكاءً مرّاً.

صفاته الشخصية:

دمث، مرح، مـؤدّب، يحبّ النكتة، يتأثر لبكاء الآخرين، يبدو قاسياً وغليظاً في بعض الأحيان، طويـل، دقيق في المأكل والملبس والمشرب، مولع بالقـراءة والبحث والتعلم والتعليم والمعرفة والآداب.

مغـرم بالبحث عن منصب سياسي بغية تطبيق مبادئه السياسية والأخلاقية لتحقيق المدينة الفاضلـة التي يدعو إليها. خطيب بـارع، ومتكلّم مفوّه، لا يميـل إلى الثرثرة، وعباراتـه موجـزة تجري مجـرى الأمثال القصيرة والحكم البليغة.

لديه شعـور ديني، يحتـرم الآلهة التي كانت معبودة فـي زمانه، ويداوم على تأدية

الشعائر الدينية، يتوجه في عباداته إلى الإله الأعظم أو إله السماء، يصلي صامتاً، ويكره أن يرجو الإله النعمة أو الغفران إذ إن الصلاة لديه ليست إلا وسيلة لتنظيم سلوك الأفراد، والدّين - في نظره - أداة لتحقيق التآلف بين الناس.

كان يغني، وينشد، ويعزف الموسيقى، وقد ترك كتاب الأغاني Book of Songs كما أنه كان مغرماً بالحفلات والطقوس، إلى جانب اهتمامه بالرماية وقيادة العربات والقراءة والرياضة الحساب ودراسة التاريخ.

حرق كتبه:

على الرغم من قرب كونفوشيوس من أباطرة وحكام الصين، إلا أن تعاليمه تعرضت للمعارضة والاضطهاد من بعض الحكام، وزادت نبرة المعارضة له، وتم حرق كتبه وحرمت تعاليمه في عهد الإمبراطور «تشين شي هوانغ»، وكونفوشيوس على الرغم من وفاته إلا أن الشعب الصيني ظل متمسك بتعاليمه والتي ما لبثت أن عادت مرة أخرى وربما أكثر قوة، وانتشرت بين تلاميذه وكهنته، وظلت الفلسفة الكونفوشيوسية مسيطرة على الحياة الصينية قرابة العشرين قرناً من القرن الأول قبل الميلاد وحتى نهاية القرن التاسع عشر بعد الميلاد، ومازالت الروح الكونفوشيوسية تحيا في المجتمع الصيني بشكل أو بآخر إلى الآن.

معبد كونفوشيوس:

كونفوشيوس «أبو الفلاسفة» ونظراً للمكانة التي مثلها كونفوشيوس في المجتمع الصيني تم إدراج معبده وغابته وقصره في مدينة تشوفو مسقط رأسه في قائمة التراث العالمي التي حددتها منظمة اليونسكو التابعة للأمم المتحدة.

قدم كونفوشيوس عدداً من الكتب تمثل فيها فكره فقدم الكتب الخمسة وهي الكتب التي قام كونفوشيوس بنقلها عن الأقدمين وهي كتاب الأغاني أو الشعر، كتاب التاريخ، كتاب التغيرات، كتاب الربيع والخريف كتاب الطقوس، كما توجد الكتب الأربعة وهي الكتب التي قام بتأليفها هو وأتباعه وهي كتاب الأخلاق والسياسة، كتاب الانسجام المركزي، كتاب المنتجات، كتاب منسيويس.

الكونفوشيوسية الحديثة.

كان الكونفوشيوسيون القدامى يشغلون أنفسهم باحتياجات المجتمع بصفة رئيسية. ومع ذلك، فإن تعاليم الفلسفة

الطاويَّة وكذلك الفلسفات الأخرى، ساعدت على التركيز على جوانب أخرى من التجربة الإنسانية. فعلى سبيل المثال، كانت قدرة الشخص على أن يعيش في انسجام مع الطبيعة قضية ثانوية بالنسبة لكونفوشيوس، ولكنها أصبحت موضوعًا مهمًّا في الفكر الكونفوشي خلال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد.

واعتباراً من القرن الثالث الميلادي وحتى القرن السابع الميلادي، تناقص الاهتمام بالكونفوشية في الصين. وتحول كثير من الصينيين إلى البوذية والطاويّة، تلك الفلسفات تناولت مشكلات كانت تعاليم الكونفوشية قد تجاهلتها تماماً، مثل معنى المعاناة والموت.

وفي القرن السابع الميلادي، بدأ إحياء الاهتمام بالفلسفة الكونفوشية. وفي خلال القرن الثامن الميلادي كان على المرشحين لوظائف حكومية أن يؤدوا امتحاناً للخدمة المدنية مبنيًا على التعاليم الكونفوشية. كان الامتحان يُطَبِّق اعتقاد كونفوشيوس بأن الدولة القوية يجب أن تقوم على كفاءة مستشاريي حكامها.

وأصبح ذو كسي (١١٣٠-١٢٠٠م) قائدًا لحركة الكونفوشية المُحَدَثة. وقد أنشأ فرعًا من الكونفوشية المحدثة يسمى الجناح المنطقي. وأكد على دراسة النموذج الذي وراء العلاقات الإنسانية والطبيعية.

أمَّا الدارسون بقيادة وانج يانج منج (١٤٧٢-١٥٢٩م)، فقد وسّعوا الجناح البديهي للكونفوشية المحدثة. وبحثوا عن التنوير عن طريق المزج بين التوسّط والعمل الأخلاقي.

واستمرت الكونفوشيوسية تؤثر بقوة في الحياة الصينية إلى أن حدث الصراع بينها وبين الأفكار الغربية، خصوصًا الشيوعية، وذلك خلال سنوات القرن العشرين. وقد عارضت الحكومة الصينية الشيوعية، الكونفوشية لسنوات طويلة، لأن تلك الفلسفة تشجع الناس على النظر إلى الماضي أكثر من النظر إلى المستقبل. ومع ذلك، فقد انتهت معارضة الحكومة عام (١٩٧٧م) أن الكونفوشيوسية ليست ديناً سماوياً معروفاً. وقد تتضمن بعض تعاليمها دعوة إلى خلق حميد أو رأي سليم أو سلوك قويم، ولكنها ليست مما يتقرب به إلى الله.

وقد كان المزج المحكم بين الفلسفة الخلقية والتعاليم الدينية على أتم وضوح في الكونفوشيوسية وصاحبها كونفوشيوس الذي لم يكن رسولاً مبعوثاً ولا مدعياً لرسالة.

المراجع

١- الحوار، كونفوشيوس فيلسوف الصين الأكبر، ترجمة محمد مكين، المطبعة السلفية، القاهرة، (١٣٥٤هـ).

٢- كونفوشيوس، المعرفة، فؤاد محمد شبل، ص(٧٧، ٧٨) محمد أبو زهرة، ص(٨٠).

٣- كونفوشيوس: النبي الصيني، د. حسن شحاتة سعفان، مكتبة نهضة مصر.

٤- كونفوشيوس والصين الحديثة، علي أدهم، مجلة العربي، العدد (١٦٣) يونيو(١٩٧٢م).

٥- محاضرات في مقارنات الأديان، محمد أبو زهرة، مطبعة يوسف، مصر.

٦- الملل والنحل للشهرستاني، الطبعة الثانية، دار المعرفة، بيروت. انظر الذيل الذي هو من تأليف محمد سيد كيلاني صفحة (١٩).

سحر الشخصية (الكاريزما)

ترجمة: هبة الله الغلاييني ❊



ما الذي يجعل قطعة أدبية أو موسيقية تعرف بأنها من الروائع الفنية؟ ما الذي يمكن القائد من الاستئثار بولاء الجمهور، ومن يستطيع أن يُرفَ في التاريخ بوصفه أحد العظماء؟ إن الإجابة على السؤال الأول هي من أمور علم الجمال، أما الإجابة على السؤال الثاني فتتعلق بتلك الخاصية الغامضة المسماة «سحر الشخصية» أو «الكاريزما Charisma»، والأحكام الإستطيقية والكاريزما يشتركان في خاصية واحدة وهي أن كلاً منهما يقوم على إحساس

❊ باحثة ومترجمة.

ذاتي عميق، فكلاهما يعتمد على قدرة العبقري على الاستثارة المباشرة للانفعالات. وبسبب هذه الخاصية اللاعقلانية، فإن هاتين الظاهرتين لاتذعنان تماماً لتطبيق المنهج العلمي، ولذلك فإن نتائج البحوث حول الإستطيقا والكاريزما ذات طابع أولي ومؤقت. وكلا هذين الموضوعين من الحقول الجديدة التي يبحث فيها القياس التاريخي عن مبادئ ناموسية أو عامة.

الموسيقى الكلاسيكية:

لماذا تعلق بعض المقطوعات الموسيقية بأذهاننا، ونقوم بتصفيرها أثناء مشينا في الشارع، بينما تتلاشى مقطوعات أخرى من الذاكرة بسرعة بمجرد انتهاء النغمات الأخيرة منها؟

إنَّ القول بأن قابلية لحن معين للتذكر أكثر من غيره يعتمد على تكرار إذاعته على موجات الأثير أو عزفه في قاعات الموسيقى، هو من نوع المصادرة على المطلوب، ففي المقام الأول لماذا يجري عزف بعض المؤلفات أكثر من غيرها؟ ويفترض أن الإجابة تكمن في فارق الجمال، أو القوة الانفعالية المميزة للألحان المختلفة، فالألحان التي تمتلك أعظم أثر يجب أن يكون احتمال سماعها ومن ثم تذكرها أكبر. والسؤال الذي ينبغي طرحه الآن هو: ماهي هذه الخصائص التي تجعل العمل الموسيقي جميلاً أو قوياً لاينسى؟

للإجابة عن هذا السؤال قام برلين (١٩٧١م) Berlyne وهو واحد من روّاد الإستطيقا التجريبية، بتطوير نموذج «الاستثارة المثالية» Model Optimal Arousal. ووفقاً لهذا النموذج، فإن الخبرات الإستطيقية تستثير العقل، وترفع مستوى التعقيد Complexity والجدة Novelty والإدهاش Surprisingness والغموض Ambiguity وغير ذلك من الخصائص الإستطيقية المميزة. فالأعمال الفنية البسيطة جداً، والمبتذلة، أو العادية هي أعمال لاتثير الاهتمام.

أمَّا الأعمال الإستطيقية التي تمعن في التعقيدات وتسرف في المفاجآت غير المتوقعة ويبلغ من أصالتها أنها تتحدى فهم من يسعون لتذوقها فأغلب الظن أنها ستستثير رد فعل معاكس. والأمر المثالي، بالنسبة لأي عمل إستطيقي كالمؤلف الموسيقي، هو أن يقع فيما بين هذين النقيضين.

لقد أيدت التجارب العملية بشكل عام بأن هذه الدراسات استخدمت منبهات مصطنعة لذلك، فإننا لانستطيع أن نعرف

بشكل يقيني ما إذا كان هذا النموذج ينطبق على المواقف الإستطيقية في الحياة الواقعية أم لا. هذا على الرغم من أن واحداً من علماء الموسيقى قد طرح نظرية تتفق وهذا النموذج. ومايحتاجه هو فحص يعتمد على القياس التاريخي للمؤلفات الموسيقية الفعلية، وهو مافعلته في دراسة حديثة (Simonton، 1980 d) وقد كانت وحدة التحليل هي اللحن الواحد أو الثيمة. وقد تم الحصول عليه من ذخائر الموسيقى الكلاسيكية التي تتردد في الحفلات الموسيقية. وتكونت العينة من ٦١٨، ١٥ ثيمة قدَّمها ٤٧٩ مؤلِّفاً موسيقياً. ولم أستبعد أي مؤلِّف موسيقى كبير، ولاحتى أية مقطوعة موسيقية ابتذلت لكثرة تكرارها. وقمت من خلال استخدامي لكتب التذوق الموسيقي، وأدلة بيع الأسطوانات، ومجموعات المقتطفات الشائعة، وكتب التاريخ الثقافية العامة، والقواميس الثيمية، وأدلة المكتبات، قمت بتقدير الثيمات بشكل موضوعي عبر مقياس يتكون من ٣٢ نقطة يبدأ من أقلها إلى أكثرها. وقد أظهر مقياس «الشهرة الثيمية» هذا أنه يرتبط مع التكرار الفعلي لعزف هذه الألحان في الحفلات الموسيقية. كانت المهمة التالية هي تقدير الأصالة اللحنية في كل ثيمة. فاستخدمت تحليل المضمون المحوسب لحساب احتمالات الانتقال بين نغمتين في كل لحن داخل في الذخيرة الكاملة من الألحان. ففي مقام C مثلاً كانت النقلتان من (C إلى C) ومن (C إلى G) شائعتين تماماً، بينما كانت النقلتان من (C إلى Dsharp) ومن (C إلى Gflat) أندر بكثير. وقد استطعت من خلال أخذ النغمات الست الأولى في كل ثيمة وحساب احتمالات الانتقال الخمس الممكنة بين كل نغمتين من هذه النغمات الست أن أحدد الأصالة اللحنية للثيمة في الذخيرة على أنها تتمثل في عدم احتمال ظهور الثيمة في سياق كل الألحان عالية الكروماتية Highly Chromatic Melodies المشتملة على نوتات عارضة Accidentals كثيرة أشد أصالة من تلك التي تلتزم بالنوتات السبع للسلم الموسيقي. كذلك فإن الألحان التي تقفز فيها النوتات المتتالية قفزات غير مألوفة أو غير عادية، هي أكثر أصالة من الألحان التي تتقدم بشكل ثلثي Thirds by، وعلى الرغم من أنه قد يبدو من المرغوب فيه النظر إلى نقلات من مستوى أعلى إلا أنه ظهر أن هذا غير ضروري، إذ وجدنا أن درجات الأصالة اللحنية التي قامت

على الأصالة اللحنية التي تقوم على أساس النقلات بين نغمتيـــن (ر= ٠,٨١). والنوع الأخير من النقلات النغمية تكاليف حسابه أقل بكثيــر. وقد يتشكك امرؤ من إمكانية الحصول على معلومـــات كثيرة حول لحن ما من خلال نغماتـــه الست حتى النغمات الأربـــع الأولى تكفي عـــادة لكشف أسلوب المؤلف الموسيقـــي (Paisley، 1964). فإذا كانـــت النغمات الأربـــع الأولى قادرة على الكشف عن هوية المؤلف الموسيقية، فإن النغمات الســـت الأولى لابد أن تكفي لتخبرنا بشـــيء عن البنيـــة اللحنية لتلك الثيمة. يسمح لنا هذان المقياسان بتحديد العلاقة الوظيفية بيـــن شهرة الثيمة وبين الأصالة اللحنيـــة. فالشهرة دالة لها شكل حـــرف J (المعكوسة)، فمع تزايد الأصالة اللحنيـــة يتزايد تكرار عـــزف الثيمة إلى الحد الأقصـــى، ثم ينخفض معدل تكراره وتميـــل أقل الثيمات شعبيـــة إلى أن تكون أشدها أصالة، فجمهور المستمعين يفضل النغمات المبتذلة أو الشائعة على الألحان اللامقامية Atonal أو الجمل الموسيقية القائمة على النوتـــات المتسلسلة Serial وقـــد اكتشفـــت هـــذه العلاقـــة المنحنية بعـــد التحكم فـــي مجموعة مـــن العوامل الاصطناعيـــة الممكنة. فيمـــا أن الألحان المؤداة بوساطة الآلات تميل إلى أن تكون أشهر من الألحان المغناة -مثلاً- وبما أن مقطوعات الحفلات الموسيقية تميل إلى أن تكون أكثر شعبية من مقطوعات الغلافة Chamber والمســـرح، أو الأعمال التي تعزف في الكنائس، فقد كان لابد من أخذ ذلك التفضيل المشار إليه ضمنا للموسيقى الأوركسترالية- في الحسبان.

الدراما

تعـــد «هاملـــت» و«أوديب ملـــكا» من روائع الأعمـــال المعترف بها، فهما كثيراً ما تقرأان، وتناقشان، وتقدمان للجمهور، ويستشهـــد بهما. ومع ذلك فـــإن كلاً من شكسبيـــر وسوفوكليس، أنتج أيضاً أعمالاً درامية أقل مرتبة. فكم مرة قدمت «تايتس أندرونيكوســـ» Titus AndronicuS للجمهـــور؟ ومن يقـــرأ «بنـــات تراخيس» الآن؟ مـــن الواضح أن هناك شيئاً ما أكثر رهافة ومراوغة من اسم المؤلف الموجود على صفحـــة العنوان، هو الـــذي يجعلنا نَصِـــفُ مسرحيـــات معينة بأنهـــا أعظم مـــن غيرها ونودع مسرحيـــات أخرى في غياهـــب الإهمال. لقـــد تصديت لمسألة الأسباب التـــي تساهم في جعل مسرحية معينة مـــن الروائع، فقمـــت بفحص ٨١

مسرحية أبدعها خمسة من أشهر مؤلفي الدراما في العالم: منها ٧ مسرحيات لأيسخيلوس، و٧ مسرحيات لسوفوكليس، و١٩ ليوريبيدس و١١ لأريستوفانيس، و٣٧ لشكسبير. وهناك تحليل مضموني مفصّل لكل هذه المسرحيات موجود في كتاب (الكتب العظيمة في العالم الغربي) The Greol Westen Worls (Hutchins، 1952 Books of the Westen). وقد حددت من هذا المرجع القيم الثيميات الاثنتين والأربعين الكبرى لهذه الأعمال الدرامية الكلاسيكية وعرفت الثيمة الرئيسية بأنها موضوع ناقشه المؤلفون الخمسة في مسرحية واحدة على الأقل لكل منهم. وبشكل موضوع «الصراع بين الحب والواجب» مثالاً على ذلك. وقد قمت بحساب النسبة المكرسة لكل قضية في كل مسرحية، ثم قمت بعد ذلك بإجراء التحليل العاملي لدمج هذه القضايا في ١٩ قضية أساسية. واستخدمت هذه العوامل المضمونية أيضاً من أجل التحديد الإجرائي «لثراء القضايا» Issue Richness التي تثيرها كل مسرحية: أي عدد القضايا أو المشكلات الأساسية التي تتناولها كل مسرحية. وقمت، من أجل تقدير عظمة المسرحية، بالتحليل العاملي لخمسة مقاييس للاستشهاد، من بينها: تكرار الظهور في المختارات، والملخصات الأدبية، وملخصات الحبكات وتواريخ الأدب. وكانت النتيجة مقياساً للعظمة الدرامية له درجة عالية من الموثوقية (معامل ألفا ٠,٨٢). وتم تقدير خصائص أخرى عديدة للمسرحيات، من بينها مدى قابلية المسرحية للاستشهاد بها، Play´s Quotability وعدد أبيات المسرحية البارزة أو الجديرة بالذكر فيها. وقد وضعت في اعتباري أيضاً عُمُر المؤلف المسرحي عند تأليفه للمسرحية، وكذلك متغيرات عديدة تتعلق بالسياق السياسي المعاصر له، من أجل إلقاء الضوء على القاعدة التطورية والاجتماعية الثقافية للإبداع المسرحي. وأخيراً أدخلت العديد من متغيرات الضبط المناسبة. لقد تبين أن أشهر مسرحيات هؤلاء المؤلفين الدراميين الخمسة تشتمل على العديد من المقطوعات التي يكثر الاستشهاد بها (ر=٠,٣٩) وأنها تحيط بعدد أكبر من القضايا الكبرى (ر=٠,٢٦) من ذلك الذي تحيط به أعمالهم المسرحية الأقل شهرة وقد كشف تحليل المسار Path Analysis أن ثراء القضايا ليس له تأثير مباشر على النجاح المستمر للمسرحية، وبدلاً من ذلك، فإن

هذه السمــة المضمونية تجعــل أثرها محسوساً من خــلال أثرها على قابلية المسرحية لأن يستشهد بها. وكلما اتسع مدى القضايا الفلسفية الجوهرية التي تطرحها المسرحيــة زاد تأثير ماتقدمه مــن أقــوال مسرحيــة جديــرة بالذكر والاستظهار. والشــيء المثير للاهتمام أن المناظــرات الفلسفية التي تتلاقفها الشخصيــات في المسرحيــة لاعلاقة لها بنجاح المسرحية لدى المشاهدين، فالمسرحيات العظيمة لايمكن تمييزها عن المغمــورة على أساس الثيمات التي تتناولهــا. إذ لايمكن لقصة حب مثلاً أن تنقذ مسرحية رديئة من الفشل أكثر مما يمكنها أن تنقذ فيلماً رديئاً.

إنَّ عدد القضايا التي تعالجها المسرحية (أي ثراءهــا) هــو ما ينبغــي أن يوضع في الحسبــان بشرط أن يتــم التعبير عن هذه القضايــا بلغة تعلق بالذاكــرة. لم تقم هذه الدراســة التــي استخدمت أسلــوب تحليل المضمــون بأكثر من خدشــ سطح السؤال التالي: ما الذي يجعــل بعض المسرحيات من الروائع؟. ومع ذلك فإن هذا الاستقصاء التمهيدي قــد قدَّم لنا مثــالاً موضَّحاً عن الكيفيــة التي يمكــن من خلالهــا اختبار عظمة المبدعات الأدبية في ضوء خصائص المحتــوى. ولاشــك أن بحــوث المستقبل ستقربنا من اكتشاف الخصائص الإستطيقية التي تنتج معاً ما نسميه بالعظمة.

القائد الكفء

قليلة هــي السمــات الشخصيــة التي تضاهــي الدرامــا فــي صعوبــة التعريف الدقيق. فأن تكون كاريزمياً معناه أن تمتلك خاصيــة غامضة تــزودك بالأساس القوي للتأثيــر الفذ، سواء أتم هــذا في الصلات الشخصية الحميمية، أو أمام الحشود الهائلة مــن البشر. ومــن الأسهل بكثيــر أن نقدم أمثلة موضحة لهــذا الموقف من أن نعرفه إجرائياً بأي شكل من أشكال التعريف. لقد كان نابليــون قائداً كاريزميّــاً بشكل واضح، وكذلــك كان هتلر، ولكن مــا الذي جعلهما كذلــك؟ كان الباحث الوحيد الــذي أحرز بعض التقدم في اتجــاه تقدير المستويات المختلفة من الكاريزما التي أظهرها زعماء عديــدون للدول هو تشارلــز سل (١٩٧٤م) C. Ceil فقد ابتكر، من خلال تركيزه على زعماء الدول الذكــور، مقياساً يحتوي على مؤشرات وثيقــة الصلة بالموضوع: فالقائد تتراكم عنه نقاط تجعلــه شخصاً كاريزمياً إذا ألصقت صورتــه الشخصية، أو وضعت بطريقة بارزة، في الأماكن العامة والمنازل،

وإذا ظهر تمثال للزعيم في عاصمة الأمة خلال توليه مقاليد الحكم، وإذا اعتبر موحداً للدولة في اتجاه هدف عظيم، وعلى أنه يقودها نحو النصر العسكري ضد الأعداء الخطرين، وإذا كان هذا القائد يلقي بخطب طويلة، ولايبالي في تقديره للأمور الاقتصادية الأساسية، وإذا كان لدى الناس الرغبة في القيام بتضحيات شخصية من أجله، وإذا كان يتصف ببعض الفحولة. وقد قام سل بتطبيق قياسة المكون من ١١ نقطة حول الكاريزما على ٣٤ من زعماء دول العالم المعاصرين. وكان الزعماء الذين حصلوا على عشر نقاط، وهي تقع عند قمة هذا المقاس، هم هتلر وكينياتا وموسوليني وأتاتورك؛ أما عند قاع المقاس، وعند النقطة صفر فقد وجدت شخصيات مثل: بن غوريون، وفري Frei وأديناور، وفيما بين القمة والقاع وجدت شخصيات مثل: سوكارنو حصل على ٩نقاط، و«ماو» حصل على ٨ نقاط، وكاسترو حصل على ٧ نقاط، وديغول حصل على ٥ نقاط، ولينين حصل على ٤ نقاط، وحصل نيريري على ٣ نقاط، وتشرتشل على نقطتين. أمَّا خروتشوف فحصل على نقطة واحدة. وقد كان الرئيسان الأمريكيان الوحيدان بين هؤلاء الزعماء الـ ٣٤، هما فرانكلين روزفلت وحصل على ٦ نقاط، جون كندي وحصل على ٤ نقاط.

إنَّ محاولة سل هذه لجعل مفهوم الكاريزما مفهوماً موضوعياً، هي محاولة غير عادية، فمعظم البحوث التي ترتبط بهذا الموضوع لم تحاول حتى أن تقيس الكاريزما بشكل مباشر، على الرغم من أن هذه السمة كانت دائماً تكمن في الخلفية. فقد انحصر التركيز عادة في جوانب القيادة التي تبدو أكثر مطاوعة للقياس العلمي.

أداء الرئيس وعظمته

حاول الباحثون في المجال التاريخي أن يتوصلوا لطريقة تمكنهم من التنبؤ بأن أي الطامحين لمنصب الرئاسة سيكون الرئيس الأكفأ، آخذين بعين الاعتبار ثروة المعلومات المتاحة عن خلفية كل مرشح وعن خبرته السياسية. لكن هذه المحاولات لم تكن ناجحة تماماً مع الأسف. وعلى سبيل المثال، فقد قمت بدراسة شاملة عن رؤساء الولايات المتحدة الثماني والثلاثين منذ واشنطن حتى كارتر (Simonton 1981 C) وقمت بتحديد مجموعتين من المتغيرات. اشتملت الأولى على عدد كبير من المتغيرات الخاصة بالسيرة عن فترة ما قبل الرئاسة،

وتم التعريف الإجرائي لهذه المتغيرات لتكوِّن مؤشرات تنبؤية ممكنة. وقد اشتملت هذه المتغيرات الخلفية الأسرية، والتعليم الرسمي، والعديد من الخصائص الشخصية (مثل العمر عند تسلم الرئيس مقاليد منصبه الرئاسي) والمهنة السابقة، والخبرة السياسية السابقة. أمَّا المجموعة الثانية من المتغيرات فقد تم تحديدها إجرائياً على أنها معايير موضوعية للأداء الرئاسي الفعلي. وقد اشتملت هذه المعايير على جوانب عديدة من سلطة الرئيس التشريعية والتنفيذية، مثل استخدام حق الفيتو أو الاعتراض، والمفاوضات لعقد المعاهدات، ونوعية التعيينات التي يقوم بها في المحكمة العليا وفي مجلس الوزراء. وقد كان عدد هذه المتغيرات ومداها مماثلين بدرجة كبيرة لعدد المتغيرات التنبؤية ومداها.

وقد تبين أن هناك متغيراً واحداً من متغيرات السيرة السابقة على الرئاسة له فائدة تنبؤية عامة فيما يتعلق بالأداء الرئاسي الذي قيس قياساً موضوعياً: فالرؤساء الذين وصلوا إلى منصب الرئاسة من مواقعهم في نيابة الرئيس، عقب وفاة الرؤساء السابقين أو استقالتهم ثبت أنهم أقل نجاحاً من الرؤساء الآخرين. فهؤلاء الرؤساء غير المنتخبين يميلون إلى أن تحدث خلال حكمهم استقالات أكثر من مجلس الوزراء وإلى أن يرفض مرشحوهم للتعيين في مجلس الوزراء أو المحكمة العليا أكثر من قبل مجلس الشيوخ، وأن يرد استخدامهم للفيتو أكثر، من قبل الكونغرس، وأن يرفض حزبهم ترشيحهم للجولة القادمة من انتخابات الرئاسة. فمن بين نواب الرؤساء التسعة الذين أصبحوا رؤساء بشكل غير متوقع، وهم تايلر وفيلمور وأندرو جونسون وآرثر وتيودور روزفلت وكولج وترومان ولندن جونسون وفورد، لم ينتخب إلا أربعة منهم لفترة ثانية من الحكم. ومقارنة بذلك، فإن ٨ فقط من ٣٠ رئيساً تم انتخابهم بشكل طبيعي هزموا خلال عملية إعادة الترشيح أو إعادة الانتخاب وهم: جون آدمز وجون كويني آدمز، وفان بيورن، وكليفلاند، وبنيامين هاريسون وتافت وهوفر وكارتر، ولايكاد كليفلاند يستحق الضم إلى هذه القائمة لأنه خسر الانتخابات ضد هاريسون على الرغم من أنه قد كسب أغلبية الأصوات الشعبية ولأنه هزم هاريسون في الانتخابات التالية فأصبح الرئيس الوحيد الذي يحكم فترتين غير متتاليتين... وهكذا، فإن احتمالات هزيمة الرؤساء غير المنتخبين في مسعاهم لإعادة انتخابهم تزيد بمقدار الضعف تقريباً، عند مقارنتهم بالرؤساء

المنتخبين. وإذا ما أخذنا أداءهم الضعيف نسبياً في الاعتبار، فإن هذه الفروق لاتثير العجب. لكن لماذا يكون أداء هؤلاء الرؤساء أسوأ من أقرانهم الذين جاؤوا إلى الرئاسة عن طريق الانتخاب؟

قد يكون الأمر -من ناحية- هو أن الرئيس الذي نجح في الوصول إلى منصب الرئاسة من دون انتخاب لايعد قائداً شرعياً. فهذا الرئيس غير المتوقع لابد أن يواجه الكونغرس المتشكل من شيوخ ونواب يمكنهم الادعاء بوجود ناخبين يقفون خلفهم وهذا الفارق الواضح في الشرعية قد يجعل الكونغرس غير مهيأ بشكل كاف للموافقة على تعيينات الرئيس في مجلس الوزراء وفي المحكمة العليا، وأن يكون أميل لرد لجوئه لحق النقض ومن ناحية أخرى، فإنه من المحتمل بدرجة مماثلة أن هذه الهزائم السياسية تعبير عن افتقار هؤلاء الرؤساء لمهارات القيادة. فالرئيس غير المنتخب قد يحاول أن يعين أشخاصاً غير أكفاء، أو غير مقبولين لأسباب أخرى في المراكز العليا، كما أنه قد يفتقر إلى الكاريزما أوالفطنة المطلوبة لإقناع الكونغرس بتأييد استخدامه لحق الفيتو. ولنتذكر أيضاً أن المرشح لمنصب نائب الرئيس غالباً مايختار من أجل تحقيق التوازن بين مرشحي الحزب أيديولوجياً أو جغرافياً، ومن ثم فليس هنالك من ضمان بأن الصفات القيادية ستكون هي ما تتوخاه عملية الاختبار بالدرجة الأولى.

وربما كان سبب فشلنا في اكتشاف معادلة موضوعية يمكنها أن تتنبأ بأداء الرئاسة هو أن المتغيرات المعيارية التي استخدمناها كانت أشد موضوعية ممايجب. فرفض المرشحين للتعيين في مناصب مجلس الوزراء أو المحكمة العليا، ليس أكثر من ظاهرة سطحية، أي مجرد مظهر من مظاهر القصور الأعمق من حيث التأثير الشخصي للرئيس. ومثل هذه المقاييس قد تكون بعيدة تماماً عن الموضوع الأصلي لدراستنا الحالية: أي الكاريزما الرئاسية. وقد ننجح أكثر إذا ما لجأنا إلى معيار أشد ذاتيه، وقد ذكرت في الفصول السابقة البحث الذي قام به مارانل (١٩٧٠م) الذي طلب من ٥٧١ مؤرخاً أن يقدروا ٣٣ رئيساً على سبعة أبعاد للقيادة. وقد أخذت تقديرات مارانل هذه وقمت بدمجها، باستخدام التحليل العاملي، في بعد واحد أطلقت عليه اسم العظمة الرئاسية (Simonton، 1981 c). وانظر أيضاً: (Wendt & Lighl 1976) واعتبرت أعظم الرؤساء هم الذين يحصلون على درجات أعلى في كل من: المكانة العامة، وقوة الفعل، والنشاط

الرئاسي وإنجازات إدراته، وهي خصائص تبدو أقرب للكاريزما للوهلة الأولى من العد البسيط لعدد المرات التي رد الكونغرس فيها فيتو الرئيس، أو عدد الترشيحات المرفوضة. وأعظم رئيس للولايات المتحدة الأمريكية وفقاً لهذا المقياس هو فرانكلين روزفلت الذي كان تقديره مرتفعاً أيضاً على مقياس الكاريزما الذي قدمه سل. وقد ارتبط مقياس العظمة هذا ارتباطاً عالياً مع تقديرات أخرى للرؤساء الأمريكيين، ومع المتغيرات التي اعتبرها سل شواهد على القيادة الكاريزمية، وطبقاً لهذا المقياس يزداد احتمال وجود نصب تذكارية بنيت لتخليد ذكرى الرؤساء العظماء في عاصمة الأمة، ووجود حاضرة إقليم أو عاصمة ولاية سميت بأسمائهم وظهور صورهم على أوراق العملة الورقية الصغيرة، وما شابه ذلك. وهكذا فإن هذا المقياس يمزج مابين الإجماع الأكاديمي، والإجماع الشعبي. بعد ذلك استخدمت «تحليل الانحدار المتعدد» لتحديد أفضل المؤشرات للتنبؤ بالعظمة بوساطة هذا المعيار الأكثر ذاتية. وقد أمكن التنبؤ بحوالى ٥٧٪ من فروق العظمة لـ٣٣ رئيساً من رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية بنجاح. وكانت أهم أربعة مؤشرات تنبئيّة هي مايلي:

أولاً: إن الرؤساء الذين حصلوا على أسوأ تقديرات كانوا هم الذين أصاب حكوماتهم وبال الفضائح الكبيرة (بيتا=٠,٢٠). والرؤساء غرانت وهاردنغ ونكس هم رؤساء السلطة التنفيذية الثلاثة الوحيدون الذين وقعت خلال رئاستهم فضائح وصلت إلى مستوى مجلس الوزراء.

ثانياً: يميل الرؤساء الذين تعرضوا لمحاولات اغتيال غير ناجحة إلى أن يعتبروا أعظم من قبل مؤرخي الأجيال اللاحقة (بيتا= ٠,٣٠). وترومان هو أحد الرؤساء الذين كتب لهم البقاء بعد محاولة اغتيال خطيرة. لكن الأمر اللافت للنظر هو أن الرؤساء الذين وقعوا ضحايا محاولة اغتيال، مثل لنكلن أو كندي، لم ترتفع تقديراتهم الخاصة بالعظمة بشكل مماثل.

ثالثاً: إنَّ الرؤساء الذين كانت تقديراتهم هي الأعلى يميلون إلى أن تكون فترات حكمهم أطول (بيتا= ٠,٢٤). فقد حصل فرانكلين روزفلت الذي عمل في البيت الأبيض ١٢ سنة و٣٩ يوماً على أقل تقدير للعظمة. أمَّا معظم الرؤساء الذين حصلوا على تقديرات ضعيفة أمثال تايلر وأندرو جونسون، وآرثر، وهاردنغ. فقد عملوا إما أقل من فترة رئاسية، أو فترة رئاسية كاملة واحدة. وتوحي هذه النتيجة بأن تقديرات

المؤرخين تميل إلى أن تكون في حالة اتفاق تقريبي مع تقديــرات المعاصرين للرؤساء، الذين يرفضون انتخاب الرؤساء الأقل كفاءة لفترة ثانية.

الخلاصة

لابد من الاعتراف بأن دراسات القياس التاريخي التــي تناولها هذا المقال هي كلها جهود أولية. وعلى الرغم من هذا فإن الجهد القليل الذي بذل حول الإستطيقا والكاريزمــا يكشف عن بعضــ الأشياء حول الطريقة التــي تؤثر بها الانفعالات على أحكام التاريــخ فقد رأينا في حالة الفنون كيــف أن أحد الأهداف الظاهرة للتأليــف الموسيقي هو إثــارة المستوى المناســب من الاستثــارة الانفعالية لدى المستمع، كذلك تمثــل الأصالة اللحنية التي تولد هذه الاستثارة، في جانب منها، استجابــة المؤلــف الموسيقي لأزمات حياته الشخصيــة وتقلباتها. وتكتسب الأعمال الدرامية أيضاً قوتها من خلال نقلهــا لمجموعة خصبة مــن الثيمات التــي تتنــاول القضايــا الرئيسية في الوجود الإنسانــي. وهي تعبّر عن ذلك باستخدام أكبر عدد ممكن من الأقوال التي لاتبرح الذاكرة.

أمّــا الدراسات الخاصة بالكاريزما فقد اعتمدت الأسلوب غير المباشر، ولكن، يبدو أنها تشيــر إلى شعبيــة الرئيس وتقديرات العظمــة الخاصة به تعكس درجة عالية من اللاعقلانية فالطريقة التي تؤثر بها الحرب على هــذه الأحــكام، وكذلــك التأثير غير المتجانــس للكساد الاقتصــادي في مقابل الازدهــار أو الرخــاء، وأصــداء محاولات الاغتيال، والأزمات الدولية، كلها تشير إلى أحكام غير موضوعية، من قبل المؤرخين.

المصدر

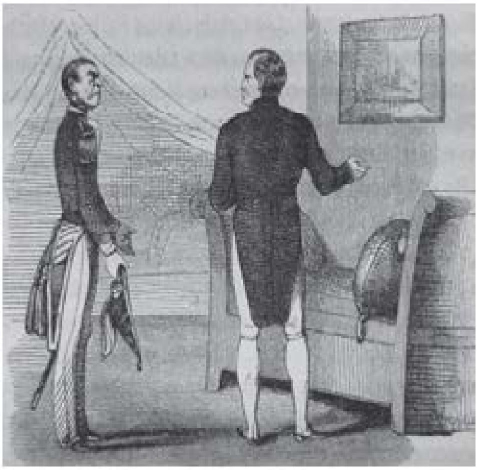
- المقال مأخوذ من مجلة:

Creative Productivity and Performance. No. 49- 1981, P. 306 – 323.

تفاعل الحضارات وعقدة الآخر

د. محمد ياسين صبيح ❁

أدت التداخلات الحضارية المهمة عبر التاريخ، إلى حصول اختراقات مميزة في مجالات العلوم الإنسانية والعلمية وغيرها، التي تركت بصمة عالمية حضارية لا نزال ننهل منها حتى الآن.. فالصيغ الأولى لهذه التفاعلات والتقابلات، نشأت فيما بين النهرين وسورية الطبيعية، وفي مصر الفرعونية حصراً، فهذه التفاعلات الحضارية وإن تخللها مشاحنات وحروب طاحنة، إلا أنها أدت إلى وجود تداخلات اقتصادية واجتماعية وثقافية هائلة، نتج



عنها تبادل للمنتوجات الحضارية (صناعة، ثقافة، زراعة وغيرها)، ثم انتقل هذا

❁ شاعر وقاص وناقد.

التأثير والتفاعل إلى الأرض السورية، بما تمتلكه من تجمع حضارات مشرقية عدَّة، وهي على تماس مباشر مع الحضارة المصرية القديمة، ومع العنصر الإغريقي على الجانب الآخر الذي بدأ بالظهور، حيث تمثل التأثير السوري بنقل المنتوج الثقافي الكبير المتمثل بالأبجدية والحرف إلى الجانب الإغريقي، والذي أدى إلى اعتماد اللغة الأوغاريتية في اليونان القديمة في بداية نهضتها[١]، كما كان إسهام الحضارة الفينيقية حاسماً في تطوير ذلك النظام اللساني الذي بدأ في اليونان؛ فمعلوم (أن الكتابة الأبجدية قد ابتكرت من قبل الفينيقيين في مطلع (الألف الأول ق.م، في مدينة أوغاريت الأثرية، شمال مدينة اللاذقية)، وأنها انتقلت إلى اليونانيين في نحو (القرن الثامن أو السابع ق.م)، وأن هؤلاء الأخيرين قد استغرقوا قرناً آخر من الزمن قبل أن يطوروها ويضيفوا إليها الحروف الصوائت التي تحتاجها كتابة لغتهم؛ إذ إن الفينيقية، ككل اللغات السامية، لا تعرف سوى الصوامت، فلنا أن نقدر أن اللوغوس ما كان له أن يعلن عن ظهوره قبل (القرن السادس ق.م)، وذلك هو القرن عينه الذي تهجى فيه طاليس بأول حروف الفلسفة)[٢]..

وهذا ساهم في نشر بذور الثقافة اليونانية خلال اندفاعتها اللاحقة، في شتى المجالات الفلسفية والعلمية (الرياضية وغيرها)[٣]، لذلك لم تأت هذه الطفرة التطورية من فراغ أو من تأثير ذاتي بحت، كما يَدَّعِي بعض المؤرخين الغربيين، إنما أتت كنتيجة طبيعية للتفاعل الذي حصل مع الشرق (سورية ومصر)، عندما كان طلاب العلم اليونانيون يجوبون المدن والشواطئ السورية والمصرية بحثاً عن المعرفة والثقافة، والتي كان لدورهم اللاحق العامل المهم في الطفرة الإغريقية[٤]، ولم تكن هذه النهضة (الأوروبية) ذاتية المسببات فقط، وهذا ما أكدته المكتشفات التاريخية، حتى أن فيثاغورث مؤسس الفلسفة اليونانية نهل من مصر القديمة[٥]، واستمر التأثير الشرقي بعد ذلك، من خلال حملة الإسكندر المقدوني على الشرق، حيث نجد الأثر الفارسي والهندي عند الكثير من المفكرين اليونان[٦]، فنظرية الفيض التي جاء بها أفلوطين اليوناني من خلال رحلاته إلى الشرق[٧] والخاصة بتطور الكائنات وانتقالها من الواحد إلى الكثرة، أي من الوجود البدئي إلى الوجود الزماني المتغيِّر[٨]، جاء نتيجة التفاعلات الثقافية والفكرية السورية ولبلاد ما بين الرافدين، كما عند الصابئة

وغيرهم[٩]. كما أن صناعة الحرف والزجاج وغيرها من الصناعات الأساسية، كانت نتاج الحضـــارة السورية التي انتقلت إلى اليونان لاحقـــاً، والتي سخَّـــرت هـــذه المكتشفات ببراعة نادرة لإعطـــاء الإبداعات الفلسفية والرياضية والعلمية لاحقاً..

فـــي هـــذا الجو مـــن التفاعـــل تمكنت اليونـــان (أوروبا) من تقديم إبداعات مهمة في مجالات الفلسفـــة والعلوم، وهذا إنجاز تاريخـــي يحســـب لهـــم بالتأكيد، ثـــم ورّث اليونانيون هذه المعارف فيما بعد إلى روما البيزنطية، التي اجتاحـــت الشرق بما فيها سورية لاحقاً، في هـــذه الأثناء قويت شوكة الدولة الإسلاميـــة جغرافياً، حيث سيطرت علـــى مساحات كبيـــرة من آسيـــا وأفريقيا وأوروبـــا، واستطـــاع المسلمـــون فـــي زمن الخلافـــة العباسية، الاستفـــادة من خبرات الفرق العلمية البحثيـــة السورية ولبلاد ما بيـــن النهرين والشرق القديـــم، من ترجمة أمهات الكتـــب اليونانية في شتى العلوم[١٠]، حيـــث خرّجت هذه المراكز والفرق البحثية الأطباء والعلماء مثل الرازي، ابن سينا، ابن زهر والزهراوي[١١] وغيرهم، كما كان للنافذة الغربية للدولة الإسلامية (الأندلس)، الدور الكبيـــر في ظهور الكثير مـــن العلماء وعلى رأسهـــم ابـــن رشد، هكذا نـــرى أن التفاعل الحضـــاري أدى ثانيـــة فـــي فتـــرة محددة إلى نشـــوء مركز ثقل حضـــاري جديد في الشرق تمثل فـــي الدولة الإسلامية، لم يدم طويـــلاً للأســـف لأسباب عدَّة، مـــن أهمها ظهور التأثيـــر الكبير للفقهاء، حيث وصلت المواجهـــة بيـــن العلماء والنخبـــة الفقهية وجماعة التشـــدد الديني إلى حد طرد ابن رشد مثلاً وحـــرق كتبه، وإلى تكفير العديد من العلماء، كالخوارزمي والكندي وابن سينا وأبي العلاء المعري وغيرهم الكثير[١٢]، وفي أواخر انهيار العصر العباسي بدأت السيطرة العثمانية، والتي لم تكن من أولى اهتماماتها (الفكـــر والعلم)، بل التمدد التركي والتوسع الفقهي الديني فقـــط، والانغلاق الثقافي، فأصيبـــت الدولـــة الإسلاميـــة بالضمـــور الثقافي والاجتماعـــي، ونشطت الكثير من الحـــركات الأقلياتيـــة والصوفيـــة، كحالة انسلاخ عن الواقـــع المتخلف، وهروب من المواجهـــة، باتجاه الذاتـــي، الانعزالي، من دون أن ندخـــل في سبر الأسباب والأهداف والظروف الكلية لنشوئها..

في هـــذه الأثناء كانـــت أوروبا تستفيد ثانية من حضارة المنطقة السورية والعربية المتمثلـــة بالتراث الإسلامـــي العلمي، ومن التـــراث الأوروبي نفســـه (اليونان خاصة)، للتأسيـــس لنهضة حضاريـــة غير مسبوقة،

استطاعت أن تحقق فيها قفزات حضارية (صناعية واجتماعية وفكرية)، من خلال ظهور الثورة الصناعية، والثورة الفرنسية، وغيرها، حيث استطاعت تكريس سلطة القانون، واحترام الفرد كعامل أساسي في النهضة المجتمعية، ورسخت التقاليد العلمية والأكاديمية، والتي أسست لاحقاً لبحث علمي جاد ورصين، قاد العالم إلى تطور نهضوي كبير..

في نهاية الدولة العثمانية المريضة، التي احتكرت الخلافة الإسلامية، ولم تستطع الحفاظ على مكاسبها الحضارية (العلمية والاجتماعية)، وفقدت أفريقيا وآسيا العربية، لصالح الدول الاستعمارية الجديدة (فرنسا وإنكلترا وإيطاليا)، وبغض النظر عن الهدف النهائي الاستعماري غير المعلن للحملات التي شنتها هذه الدول على المنطقة العربية، إلا أنها ساهمت بشكل كبير في ظهور بوادر نهضة حضارية وثقافية جديدة، تمثلت في إدخال نابليون لأول مطبعة إلى مصر، إضافة إلى مئات العلماء الذين حاولوا بناء بعض الأسس الحضارية (مدارس، أبحاث)، وكل ذلك لايبرر أبداً النيات الاستعمارية، والممارسات القاسية التي قامت بها هذه الدول، ضد شعوب المنطقة، إنما قصدنا هنا إبراز التأثير المتبادل الهام، الذي كان له دور كبير، استمر منذ أوائل القرن العشرين في ذهاب الكثير من أبناء المنطقة العربية للدراسة في أوروبا، والعودة، ومن ثم محاولة تأصيل الكثير من العلوم، والفروع الثقافية، مثل القصة والرواية، وهكذا نجد أن التفاعلات الحضارية بين الدول كان لها الدور الأساس في التطور الحضاري لها، حيث وجدنا أن المستعمر بنى المدارس الأولى وشق الطرقات الأولى وغيرها من الأمور التي تهمه بالدرجة الأولى لتطلعاته الإستراتيجية البعيدة، ولتعبر عن حسن نيته المزيفة.. ولكن بالمقابل لا ننكر بأن هذا التفاعل أدى إلى خلق حالة حضارية وثقافية، ساهمت في خلخلة المجتمعات العربية، التي كانت منغلقة على نفسها، وترفض الجديد بحجة التقاليد، نتيجة التأثير المهيمن للفترة العثمانية المنغلقة على نفسها.. وكذلك كان للرحلات العلمية والدراسية للكثير من المثقفين العرب إلى أوروبا الفضل في ظهور العديد من التنويريين أمثال محمد عبده وطه حسين ورفاعة الطهطاوي، وأديب إسحاق وعبد الرحمن الكواكبي، وبطرس البستاني وغيرهم، والذين ساهموا في وضع أسس النهضة الثقافية الجديدة.

في هذا الجو من الانفتاح الذي بدأ

عند الغرب، تــم التعرف على النتاج الأدبي الجديد المتمثل بالقصة القصيرة والرواية والشعر الحديث النثري، وكان من الطبيعي الاستفادة من ذلك فــي تفاعل طبيعي بين الغــرب والشــرق، كما كان يحصــل دائماً، وهكذا بدا الكثير من الكتاب العرب يشقون طريقهم بصعوبة، لكنهم أثبتوا مقدرة وعزم على إنتاج أعمــال قصصية وروائية جيدة، استطاعوا أن يضعــوا الذاتي والمحلي في اهتماماتهــم، وخاصة في مصــر وسورية، ثم لاحقا تلتها باقي الــدول العربية، والآن نــرى أدباء عــرب تركوا بصمــة كبيرة في الأدب، وفي شتــى ميادينه، لكن الكثير من هذه الأعمال لــم تدخل إلى صلب المشكلة التي يعاني منهــا الإنسان العربي، بل كانت القضايا التي تطرحهــا، تدور حول الزوايا الميتة، من دون الدخــول في اللب، مخافة الاصطــدام مــع المــوروث الدينــي، بكل حمولاته، ومع السلطــات القائمة، ومخافة أن يدخــل الكاتب في متاهــات صعبة، قد تجلب له العزل القسري ربما، أو الاختياري، لذلك لم يكن لهــذه الأعمال تأثير مهم في الثقافة العربية، وبالتالي الحياة المجتمعية والسياســة، كما أنها لم تكــن رائدة، بينما بقي رجال الديــن والسياسة في المقدمة، حيــث كان الأديب دوماً لاحقــاً وتابعاً لهم، إلا فيمــا ندر، مما أفقد الأدب دوره وبريقه وتأثيره، علــى عكس ما حصل على الشطر الثاني من المتوسط (أوروبا)..

وهكذا خاض كثير مــن الأدباء والنقاد العــرب فــي قضايــا، بعيدة عــن الهدف الأساســي، مثــل إدانة التأثيــر الغربي في النتــاج العربي، وكأننــا تناسينا التفاعلات الحضارية التي جرت وتجري عبر السنين، وأهميتهــا فــي رفــع السويــة الحضارية والثقافيــة للمجتمعات، بشــرط ألاَّ تذهب الذاتيــة والخصوصية لــكل مجتمع، وبدلاً من أن نشير إلــى مواضع الضعف في هذه النتاجات الأدبية (بنيوياً وجمالياً)، والتنويه إلــى إهمالها، يجب التطــرق بحق إلى لب المشاكل، نجد أن بعض النقاد يتهمون بعض الكتاب بالتبعية للغرب، من دون الانتباه إلى أن تطور الأساليب غير مرتبط بنمط واحد غربي مثلاً، وهذا أفقد الأدب رؤيته وعمقه وقيمته..

أين تكمن المشكلة إذن؟ كما رأينا ليست العبرة فــي التأثر أو التأثيــر بالآخر، إنما تكمن المشكلة في كيفية تطويع هذا التأثير لتحقيــق قفزة خاصة ذاتيــة، وهذا ينطبق علــى العلــوم والصناعة وغيرهــا، فعقدة الآخــر التــي لا نزال نتشدق بهــا، ويحاول كثيــر من النقــاد إعطاءها أولويــة، ليست

هي المعضلة، إنما تكمن المعضلة كما قلنا فـي رؤيـة الثقافـة كفعـل تـأثيري تغييري لاندركه، ولا ننظـر إليه إلا كحدث إجرائي تحليلي لقضايـا بعيدة عن لـب المشكلة، فالهروب إلى مواضيع هامشية، تعتبر نتيجة لممارسات خاطئة تقوم بها جهات فاعلة..

تكمـن المعضلـة القائمة فـي الثقافة الحضاريـة التي أجبرنا علـى الاعتقاد بها مـن خلال تكريسهـا في وسائـل الاتصال والمنابـر الثقافيـة المختلفـة والمتاحة، الرسميـة والخاصـة (كمجتمع كلي مرتبط بالموروثات التاريخية بغثها وثمينها)، وليس كأفراد، هذه الثقافة التي رسخت الكثير من التقاليد والمفاهيم التي لا تصلح لبناء دول بمؤسسات تعطي دوراً حضارياً للثقافة، إنما تصلح ربما للحالة القبلية والشمولية فقط. فالمشكلة تكمن في غياب بعض الحرية التي يجب أن تعطى للمجتمـع ليأخذ دوراً بارزاً في تنظيم الحيـاة المدنية والثقافية ضمن أطر فاعلة تستطيع الثقافة من خلالها أخذ الدور الفعَّـال في إغناء الثقافة العامة، من خلال مصداقية طـرح الأمور بفاعلية، من دون تكلف وحشو زائد..

فأهم ما استفاد منه الغرب، كان انفتاحه الثقافي الفردي والجمعي، من خلال تأطير الحالة المدنية بتوسعاتها الثقافية المختلفة (الجمعيـات والنوادي الثقافيـة والتاريخية والأدبيـة)، والتي كان لها الـدور البارز في تعدد النشاطات، التي يمكن للفرد أن يشارك فيها كفاعل مؤثر وكمتلقي ديناميكي، تجعله يبتعـد رويداً رويـداً عن الحالـة التقليدية الموروثة، وعن الحالـة الانغلاقية الفكرية والاجتماعيـة، وبالتالـي محاولـة إبعـاد الكثيريـن عـن الحالة التعصبيـة الإلغائية (الأيديولوجية والدينية وغير ذلك...)، وهذا يجعله أكثر تقبـلاً للحالة التطورية، إضافة إلى تقبـل المجتمعات الغربيـة للتفاعلات الحضارية التي تأثرت بها (تراث ابن رشد، ابن سينا، ألف ليلـة وليلة بالنسبة للأدب.. إلخ...)، وهكذا استطاع الغرب الانفلات من عنـق الزجاجة، المتمثل بالموروثات القبلية والأطر المتخلفة، التي تضع هوة بين التطور التقني والثقافـي، ولكن على الجانب الآخر فـي المجتمعات العربية، وفي العالم الثالث بشكل عام، فإن استخدام التقنيات الحديثة، فـي كثير منـه أخذ طابعـاً سلبيـاً، وحتى السلطـات لم تسمح بدخـول هذه التقنيات خوفـاً من تأثيرهـا المباشر علـى الهيمنة الحكومية، فالفراغ الثقافي (أدبي، فلسفي، ثقافي، وغيره...) يحـوِّل الإنسان العصري الرقمـي إلى حالـة أشبه بالآلـة، قد تتلف كل شيء بكبسـة زر، من دون إدراك لماهية

الذاكـرة الجمعية والتاريخيـة، لذلك يكون الترميم بالنشاط الذهني المتمثل ثقافياً بكل الفروع (أدبية، فلسفيـة، تقنية، اجتماعية، وسياسية)، غير ذلـك ستنشأ هوة حضارية كبيرة، تجعل الإنسان مسلوب العقل الذاتي، والتخيل الماص للمثالب الناتجة عن الهيمنة الرقمية، وعقدة الدونية تجاه الآخر، من هنا تأتـي توجهات بعض النقاد، برفض الهيمنة الغربية في الأثر المحلي للإنتاجات الأدبية، وحتى فـي رفض التكنولوجيـات الحديثة، ولكن ذلـك يعتبر ضرباً من الخيال، فليست العبـرة بالتأثر كمـا ذكرنا، بـل في تطويع هـذا التأثر لاستنباط طرق وأساليب ثقافية جديدة، يكون الذاتي فيها مهيمن..

لذلك يجب علينا التفكير بشكل مختلف، من خـلال تعميق الحالـة الثقافية، لتواكب التطـور التكنولوجي، لخلق توازنات مطلوبة في المجتمع، وعـدم الانجرار إلى متاهات التعصـب الأيديولوجي والدينـي، وذلك لا يتم إلا مـن خلال الحالـة الانفتاحية التي تحدثنا عنها آنفاً، والتشجيع للحالة الثقافية والمجتمعية والفنية، من خلال إنشاء النوادي الثقافية والمجتمعية والتاريخية والفلسفية وغيرها، فليس من الصـواب اعتبار الآخر مسؤولاً عن مشاكـلنا، وضعف البنية الفكرية أو الجمالية للنتاجات الأدبية، وحتى التقنية، مـن دون أن نبحث عن السبـب الكامن في أساليبنا المتبعة للتطور، والدفع باتجاه خلق إبداعاتنا المنظورة. حيث تستطيع الشعوب الاستفادة من التفاعـلات الحضارية، عند توافـر بعضـ الحرية في تنـاول تداولاتها ونواتجها، وفي خلق استنتاجات جديدة، دون أن يكون لدينا عقدة التأثر من الآخر.. لذلك نعتقد أنه آن لنا الانفتـاح بشفافية منتجة، علـى مختلف الثقافات، وعـدم جلد الذات بتأثرنـا بثقافة ما (غربيـة أو غيرها)، إنما نبحث عن المفيد ونطوعـه لصالح التطور الثقافي والمجتمعي المنشود..

فالتفاعـل الحضاري الـذي ساد قروناً بين مختلف الحضارات العالمية، مثالاً على ضرورة هـذا التفاعل، وعـدم الركون إلى العزلة الفكرية والثقافية التي ستولد حالات ثقافية وفكرية آسنة.

تكمـن المشكلة أيضاً فـي ذواتنا، لأننا لـم نكن قادرين على الاستفادة من التداخل والتفاعـل الحضـاري مـع الغـرب، لعدم مقدرتنا على التخلص من عقدة المستعمر، ولاعتبـارات موروثة أخـرى.. فالآخر ليس شماعة لتعليق الفشل، أو التأخر عن الركب الثقافي، بـل يجب أن يكون حافزاً للنهوض والمنافسة الخلاّقة..

المراجع

1-Jan Burian, Pavel Oliva,Civilization Medieval Mediterranean, Svoboda, Prague 1984 (p275).

٢- جورج طرابيشي، نظرية العقل، بيروت: دار الساقي، ط١، (١٩٩٦م)، ص (٧٤-٧٥).

٣- مرجع سابق Civilization Medieval Mediterranean ص(٢٧٦).

٤- مرجع سابق Civilization Medieval Mediterranean ص(٢٧٦).

٥- جورج، جي، أم. جيمس، التراث المسروق، الفلسفة اليونانية فلسفة مسروقة، ترجمة شوقي جلال، القاهرة المجلس الأعلى للثقافة (١٩٦٦م)- ص(٥٥).

٦- مصطفى النشار، المصادر الشرقية، م، س، ص(١١٣).

٧- الدكتور سعد الدين كليب، البنية الجمالية في الفكر الإسلامي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق (١٩٩٧م)، ص(١٦).

٨- الدكتور جميل صليبا، من أفلاطون إلى ابن سينا، الهيئة العامة للكتاب، دمشق ص(٩٨).

٩- مرجع سابق، الدكتور سعد الدين كليب، ص(٢٢).

١٠- د خالد أحمد الحربي، فرق العمل العلمية في الحضارة الإسلامية، كتاب مجلة العربي (١٨٩) الرياض (١٤٣٣هـ)، ص(١٤+٣٢).

١١- مرجع سابق، فرق العمل، ص(٨٤).

١٢- أنظر الكتب (سير أعلام النبلاء) ص(٦+٢٠٨) وكتاب (لسان الميزان) ص(٣-٤٤٩) وكتاب (مجموع الفتاوي) ص(٢٩+٣٧٤) وغيرها.

قصر الحمراء شاهد على تفوّق العبقرية العربية

محمد مروان مراد ❁



على مرتفع مكسو بالخضرة الزاهية، تظلّله الأشجار المعمرة، وتتحدر في خاصرته ساقية ماء صافية، جلست مع مضيفي ودليلي في زيارتي - الحلم، لمعالم الأندلس الزاهرة وكانت إطلالتي المبهورة من على هضبة الحمراء، فوق أعرق تحفة فنية خلّفها العرب في أوروبا، «قصر الحمراء» ولا أبالغ حين أقول:

❁ باحث وناقد.

كانت إطلالة على جنّة حقيقية من إبداع العبقرية العربية، تبهر العيون وتخلب الألباب...

تستلقي «غرناطة» أمامي في حضن الوادي العريض المنبسط وسط التلال والهضاب على الضفة اليمنى لنهر «شنيل» أحد فروع الوادي الكبير، ويخترقها فرعه «نهر حدارة» ويلتقي به عند جنوب المدينة.

يعود الاهتمام بغرناطة إلى القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي - مع تولي زعيم البربر «باديس بن حبوس» السلطة في المدينة، حيث اختار هضبة الحمراء المشرفة على المدينة، لإنشاء قصر وقلعة وسور، نظراً لموقعها الحصين الذي يمكّن من صدّ غارات المعتدين. وكانت النقلة الهامة في تاريخ المدينة، مع تولّي السلطان محمد بن الأحمر زعيم بني نصر عام ٥٩٥هـ- ١١٩٨م، حيث شيّد قصراً وسوراً منيعاً، وأجرى إليها مياه نهر «حدارة»، كما أقام فيها عدة أبراج لحراستها ومنها «برج الحراسة» الذي ما يزال قائماً إلى يومنا...

وتمّت فيما بعد إضافات عديدة إلى القصر في عهد محمد بن محمد بن الأحمر «الغالب بالله» (١٢٧٩-١٣٢٥م) الذي شيّد قصره الملكي، وأنشأ مسجداً فخماً، تحوّل فيما بعد إلى «كنيسة سانتا ماريا»، وتدين «الحمراء» بفخامتها وأبّهتها إلى السلطان «يوسف أبو الحجاج» (١٣١٨-١٣٥٤م) الملك الشاعر والفنان البارع، الذي امتدّ حكمه لعشرين عاماً، أنشأ خلالها معظم الأجنحة والأبهاء الملكية، وأغدق على الحمراء روائع الفن والزخرفة المبهرة.

الطبيعة الآسرة في غابة أسطورية:

توجهنا من المدينة إلى هضبة الحمراء عبر طريق صاعد تحفّ به الأشجار الظليلة، دخلنا من باب «الرمان» الذي أنشئ في عهد الإمبراطور «شارلكان» لتستقبلنا من خلفه غابة أسطورية، تسلب البصر بأشجارها الباسقة، وشدو البلابل على أفنانها، وخرير المياه الصافية في سواقيها، ومن طريق فرعية بلغنا «باب الشريعة» مدخل الحمراء الرئيسي، المفضي إلى «ميدان الأحباب» وعنده تستقبل الزوّار مجموعة الصروح والمعالم الأثرية وفي مقدمتها «قصر الحمراء» الذي يسميه الإسبان «القصر العربي».

قصر الحمراء في الواقع عدّة قصور وأجنحة بُنيت في أوقات متعاقبة، وقد تهدّمت أجزاء عديدة منه وخاصة «قصر

الشتاء» الذي أُقيم في موقعه قصر الإمبراطور شارلكان.

غير أنّ الجزء القائم من «قصر الحمراء» حالياً هو أبدع آثار الأندلس الباقية إلى يومنا. كما يُعدّ من أروع الآثار الإسلامية التي نَجَت من عوادي الزمان، وهو يبدو بعقوده وسقوفه ذات الزخارف الفنية الرائعة، وأعمدته الرخامية الأنيقة، من أبدع ما تراه العين من الصروح الأثرية.

*** وآمّنت حتى الغصن من نفحة الصّبا:**

دخلنا إلى القصر من فناء «الريحان» الذي بني في عهد السلطان «محمد الغني بالله» (١٣٣٨-١٣٩١م) وهو عبارة عن صحن مستطيل واسع، يتكون من رواقين، في وسطه بركة ماء كبيرة تسبح فيها الأسماك، وتحفّ به شجيرات الريحان ذات الرائحة المعطّرة، وعلى جدران الرواق الشمالي من الفناء، وفوق الفسيفساء مباشرة نقشت أبيات منها:

«تبارك من ولاّك أمر عباده
فأولى بكَ الإسلام فضلاً وأنعَما
ولو خيّر الإسلام فيما يريدُه
لما اختار إلا أن تعيش وتَسلَما
فكم بلدة للكفر صَبَّحتْ أهلها
وأمسيتَ في أعمارهم متحكّما
فيا ابن العلا والحِلم والبأس والندى
ومن فاق آفاق النجوم إذا انتمى
طلعتَ بآفاق المليكة رحمة
لِتجلوَ ما قد كان بالظُلم أظلما
فآمّنت حتى الغصن من نفحة الصّبا
وأرهبتَ حتى النجم في كبد السما»

وعلى جدران ملحق جانبي في الفناء، مقطوعتان للشاعر «ابن الجياب» أبو الحسن علي الأنصاري الغرناطي المتوفى (١٢٧٤م) نُقشتا في مساحتين متقابلتين هما:

«أنا محلاة عروس
ذات حُسن وجمال
فانظر الإبريق تعرِفْ
فضل صدقي في مقال»

وفي المقطوعة الثانية:

«أنا فخرٌ لصلاة
سَمتُهُ سَمتُ السعاده
تحسب الإبريق فيه
قائماً يقضي عباده»

... ونتقدم نحو ركن في جناح الريحان، لنتوقف عند قاعة صغيرة معروفة باسم «قاعة الأختين» لأن في أرضها قطعتي رخام فريدتين متساويتين في حجمهما الضخم. وقد حظيت القاعة بعناية سلاطين غرناطة ومهندسيها وشعرائها، لأنّ الزائر يجد فيها كل ألوان الزخرفة المبهرة التي تزيّن

الجوانب الأخرى من القصر، وأروع ما فيها الأشعار المنقوشة على الجدران، والتي تخلب الأنظار بأسلوب كتابتها الرمزية المتشابكة، ومن أمثلتها الأبيات المدوّنة فوق فسيفساء جدران قاعة الأختين من قصيدة للشاعر الأندلسي «ابن زمرك» أبو عبد الله محمد ابن يوسف (٧٣٣ - ٧٩٣هـ):

«تمد لها الجوزاء كفّ مصافح
ويدنو لها بدر السماء مُناجيا
به البهو قد حاز البهاءَ وقد غدا
به القصر آفاق السماء مُباهيا
وكم حلّة جلّلته بِحُليّها
من الوشي تنسي السابري اليمانيا
أباهي من المولى الإمامَ محمد
بأفضلَ من يأتي ومن كان ماضيا
تبيت له خمس الثريا معيذة
ويصبح معتلّ النواسم وافيا»

... نتقدم خطوات إلى المدخل الجانبي من قاعة «الأختين» لنُطالع من جديد أبياتاً جديدة يقول فيها الشاعر:

«كل صُنع أهدى إليّ جماله
وحَباني بهاءه وكماله
فإذا مُبصري تأمّل حُسني
كذّب الحسن بالعيان خياله
ورأى البدر من شُفوف ضيائي
حلّ طوع السعود مني ماله
ذاكَ صرح الزجاج من قد رآه
ظنّه لُجة تروع وهاله
شيدتني يد الإمام «ابن نصر»
حَرَس الله للملوك جلاله»

● فَقتُ الحِسان بحُليتي وبتاجي: يقابل الزائر بعد اجتياز فناء الريحان، بهو السفراء ويسمونه أيضاً «بهو قمارش» الذي يضم أعظم وأفخم أبهاء الحمراء كلها، فيه قاعة السفراء المعدّة لعقد مجلس العرش، وتظلل البهو المستطيل الفخم قبة بارتفاع ثلاثة وعشرين متراً، والفناء مزخرف من جميع جوانبه، وتزيّن جدرانه قصائد عدّة من بينها قصيدة الوزير «لسان الدين بن الخطيب» محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني (١٣١٣- ١٣٧٤م) ومطلعها:

«فقتُ الحِسان بحليتي وبتاجي
من بعد ما نظمت جواهر تاجي
وحكيتُ كرسي العروس وزِدته
أني صنعتُ سعادة الأزواج
مَن جاءني يشكو الظماءَ فموردي
صرف الزلال العذب دون مزاج
فكأنني قوس الغمام إذا بدا
والشمس مولانا «أبو الحجاج»

وفي الجهة اليمنى بعد مدخل البهو أبيات جاء فيها:

«تحييك مني حين تصبح أو تمسي
ثغور المنى واليمن والسعد والأنس
هي القبة العليا ونحن بناتها
ولكن لي التفضيل والعز في جنس
جوارح كنت القلب لا شك بينها
وفي القلب تبدو قوة الروح والنفس»

أمّا الأبيات التالية فهي على الجهة اليسرى:

وإن كان إشكالي بروج سمائها
ففي عدا ما بينها شرف الشمس
كساني مولاي المؤيد يوسف
ملابس فخر واصطناع بلا لُبسِ

* جناح الأسود أبهى معالم الحمراء:

على أنّ أجمل معالم «الحمراء» وأكثرها روعة وبهاءً: جناح الأسود الذي شيّده السلطان «محمد الغني بالله»، ويشتمل هذا الجناح على «بهو الأسود» وهو قاعة مستطيلة بطول ٣٥ متراً، وعرض ٢٠ متراً، ويحيط بمساحتها ١٢٤ عموداً من الرخام الأبيض، تحمل أربع قِباب، وفي وسط هذا الجناح حوض مرمري دائري، تنبثق مياهه من نافورة مرتفعة، ويحمل الحوض اثنا عشر أسداً من المرمر، تنفث الماء من أفواهها على مدار السنين.

وعلى جدران الحوض، نقرأ قصيدة الشاعر «ابن زمرك» الشهيرة التي يقول فيها:

«تبارك من أعطى الإمام محمداً
مغاني زانت بالجمال المغانيا
وإلا فهذا الروض فيه بدائع
أبى الله أن يلقى لها الحُسن ثانيا
تشابه جارٍ للعيون بجامدٍ
فلم نَدرِ أيّاً منهما كان جاريا
ومنحوتة من لؤلؤ شق نورها
تجلّى بمُرفضّ الجمان النواحيا
ألم ترَ أنّ الماء يجري بصفحها
ولكنها أبدَت عليه المجاريا
كمثل مُحبّ فاض بالدمع جفنه
وغيّض ذاك الدمع إذ خاف واشيا
وهل هي في التحقيق غير غمامة
تفيضُ إلى أسدِ الجهاد الأياديا
فيا مَن رأى الآساد وهي روابض
عداها الحيا مِن أن تكون عواديا»

جلة العريف... متنزّه السلاطين:

في الناحية الجنوبية من بهو الأسود مدخل قاعة «بني سراج» وهو اسم الأسرة الغرناطية التي لعبت دوراً هاماً في أحداث غرناطة الأخيرة، وتمتاز بدقّتها العالية ونقوشها الباهرة، أما في الناحية الشرقية من جناح الأسود فتقع «قاعة الملوك» أو قاعة العدل.

يتقدمنا الدليل إلى معلم قريب شمالي «قصر الحمراء» صَرْح أندلسي ممتد على

ربوة عالية هو قصر «جنة العريف» اختلطت أروقته العربية الأساسية بما أُنشئ فوقها من أبنية دخيلة، وكان القصر متنزّهاً لسلاطين «غرناطة» وموئلاً للراحة والمتعة بالمناظر الطبيعية الخلابة..

ديـوان شعر عربي على جدران الحمراء: رُحنــا نتنقل مع الزوّار فــي سرداقات الفن المعمــاري البديع وكان سكون شامل يحيط بنا، لا ترى فيه غير عيون بهرتها روائع العمارة الأنيقة، وأسارير مُشعّة بالفخر والاعتزاز.. ولم يكن مصــدر ذلك كلــه ضخامة البناء وأبّهته، ولا شموخ المعالم الفنية الراقية، بل كان المثير للدهشة بشكل أكبر، تلك النقوش المحفورة في رخــام الجدران، والمتضمنة نصوصاً من آيــات القرآن الكريم، وقصائد الشعر العربــي المعبّرة، والتي لا تزال قِبلة أنظار الزائرين، يتوقفــون أمامها يردّدونها بهمس ويستعيدون منها صفحات مجد غابر في تاريخ الأندلس العربي.

جهـود المستشرقيـن لتسجيـل نقوش الحمـراء: أخبرني مضيّفــي ونحن وقوف أمــام واحدة مــن القصائــد المحفورة في الجدار، أنّ لهــذه النصوص تاريخاً جديراً بالتسجيــل، وأنّ التعــرّف إليهــا اقتضــى سنــوات طويلة، كانت الخطــوة الأولى على يد الغرناطي الموريسكي «ألونسو الكاستيو» (١٥٢٠- ١٦١٠م)، الــذي أمضى سنين في استنســاخ النصوص وترجمتهــا، وضمَّن إنجازه في كتابه: «استيعاب ما بغرناطة من التواريخ والأشعار» عام (١٥٦٥م)، وفي العام (١٧٦٤م) أصــدر «خــوان إجيبيريا» كتابه: «نزهات في غرناطــة» معتمداً على مؤلف (الكاستيو) واحتوى على نصوص كثيرة من كتابات الحمراء.

ويُعزى للوزير المغربي «أبو العباس أحمد الغزال» الفضل في تدوين الكثير من كتابات القصر، وتضمنّها كتابه «نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد» وتوالت فيما بعد مؤلّفات المستشرقين المخصصة لنصوص الحمراء، فظهرت ترجمة الإنكليزي «شكسبير» ودراسة الفرنسي الألماني الأصل: «روتنبورغ» الذي صحّح الكثير من الأخطاء التي وقع فيها مَن سبقه إلى نصوص الحمراء.

أوين جونس... وإنجاز فكري متميّز: على أنّ العمل الأفضل في دراسة نصوص الحمراء وتوثيقهــا، والــذي حظي باهتمــام وتقدير الباحثين، أنجزه المهندس المعماري ومهندس الزخرفة الداخلية البريطاني «أوين جونس» المتوفــى عام (١٨٧٤م)، وكان من أوائل زوّار الشرق الأوســط والأندلس، في بداية القرن التاســع عشر، وتأثّــروا بالزخرفة الإسلامية عامة، وبالعمارة العربية بوجه خاص.

بدأ «جونسن» أسفاره وهو في الثانية والعشرين من عمره، فتوجّه إلى فرنسا وإيطاليا ثمّ إلى الإسكندرية والقاهرة، حيث التقى بالمهندس الفرنسي «جيل جوري» الذي رافقه من هناك إلى القسطنطينية واليونان ثمّ إلى قصر الحمراء في غرناطة، حيث قام بنسخ زخرفة القصر الغرناطي بأكملها وعاد برسوماته إلى لندن لينشرها في كتاب بطريقة الطباعة الحجرية الملونة التي كانت يومها في بدايتها.

اضطر أوين جونسن أن يبيع قطعة من الأرض ورثها عن أبيه ليموّل طبع كتابه بنفسه، لأنه لم يجد مَن ينشر أعماله عن قصر الحمراء بالطريقة الحديثة التي أرادها وهي الطباعة الحجرية الملوّنة، وقد تمّ نشر الكتاب سنة (١٨٤٢م)، وسمّاه «الحمراء»، وفي الصفحات الملوّنة التي يحتوي عليها الكتاب الذي يتألف من مجلّدين من الحجم الكبير جعل جونس من كتاب (الحمراء) سِفراً مهماً جداً في تاريخ الطباعة الملوّنة، إذ يُعدّ من أوائل الكتب التي نُشرت بالألوان في العصر الفيكتوري.

ويوجد الآن عدد قليل جداً من نُسخ هذا الكتاب في بعض المتاحف والخزنات البريطانية، أما بقية الـ ٤٥٠ نسخة التي طُبعت تحت إشراف «أوين جونس» فقد وجدت طريقها إلى مكتبات هواة جمع الكتب النفيسة في أوروبا وأمريكا.

زار «أوين» قصر الحمراء في غرناطة ربيع سنة (١٨٣٤م) بصحبة صديقه المهندس الفرنسي «جيل جوري» وقد قام الاثنان بدراسة جميع زخارف القصر ورسمها من جصّ منقوش ورخام منحوت وفسيفساء مزجج، وقد استعمل «أوين جونس» و«جيل جوري» في نقل هذه الزخارف ورقاً رقيقاً تتبعاً للنقوش من خلف بالقلم الفحمي، وفي بعض الأحيان لجأ إلى استعمال الجصّ المبلل للحصول على النقوش البارزة والمحفورة في شكل قوالب، والتي كانت عنصراً أساسياً في تهيئة الرسوم اللازمة للطباعة الحجرية الملوّنة التي تمّ بها طبع الكتاب، وكذلك في التوصّل إلى قراءة وترجمة الآيات القرآنية والأمثال والحِكم والأبيات الشعرية التي تزيّن حروفها المتشابكة جُلَّ جوانب القصر الساحر.

أمّا الآيات القرآنية والأمثال المنقوشة على جدران القصر فجعلها مكتوبة بالخط الكوفي، وفي أغلب الأحيان تبدو فيها الحروف بشكل منتظم من الجهتين، مما يجعل الكتابة تُقرأ من اليمين إلى الشمال وبالعكس ومن أعلى إلى أسفل وبالعكس أيضاً.

أمّـا الأبيات الشعريـة فمكتوبة بالخط المغربـي وحروفهـا متشابكـة فـي شكل تلافيف متتابعة، ومعظـم هذه الأشعار من نَظم الشاعر «أبي عبد الله بن زمرك» الذي كان يقطن بـلاط ملوك غرناطـة، إذ كان وزيراً للملك محمد الخامس الذي حكم من ١٣٥٢ إلـى ١٣٩١م، عـدا الأبيات الشعرية التـي توجد على جـدران قاعـة السفراء مكـررة فإنها من نظم الشاعـر «أحمد بن محمـد القلبي»، ومن أكثـر كتابات القصر شيوعـاً ويطالعك في جميـع أرجائه شعار الناصريين وهو (ولا غالب إلا الله).

قـام المستشـرق الإنكليـزي «لافوينته إلكنتـرا» بإصدار دراسات جديدة قدّم فيها قـراءة جيّدة لكتابات الحمـراء مع ترجمة إسبانيـة عـام (١٨٥٩م)، بعنـوان «كتابات غرناطـة العربية» ولقيـت دراسته اهتمام وتقدير عدد من المستشرقين.

وتابـع الباحثون المختصـون الاهتمام بالقصائـد العربيـة التـي تزيّـن جدران الحمـراء، ونشـرت دراسـات عديـدة في مجلّـدات اشتملت علـى النصوص العربية وترجماتهـا، كمـا كان الأمر مـع الباحثة الإسبانيـة «ماريـا روبيـرا» التـي اهتمّت بشعر «ابـن الجياب» وقدّمـت عنه دراسة وافية، وكذلك الدراسة الأدبية والفنية التي أصدرها الإسباني «كابانيلاس» الأستاذ في جامعة غرناطة وزميله المستشرق «أنتونيو بويرتا» وأخيراً مع كتاب «قصائد عربية على جدران ونوافير الحمـراء» لمؤلّفه «غارثيا غوميث» عميد الاستشراق الإسباني.

وتجدر الإشارة هنا إلى الطباعة الأنيقة لهذه المؤلّفات وغناها بالصور المتقنة التي أبرزت روعـة العمارة العربيـة الإسلامية، وغناهـا الفنـي والفكري، ولكـن الاهتمام العربي بتلك الروائع لـم يرقَ إلى المستوى المنشود، واقتصر الأمر على بحوث متفرقة وكُتـب بعـدد أصابـع الكف فـي المكتبة العربية.

* **ابكِ مثل النساء مُلكاً مُضاعاً:** وأخرج من الفردوس الأسطوري، فيقفز إلى خاطري شريـط أليم تمثّل وقائعه نهاية الحلم البهي لثمانية قرون من العز والمجد العربي.. بدأ الشريط فـي العشرين من كانون الأول عام (١٤٩٢م)، يتقدم فيه ملكا إسبانيا «فرديناند وإيزابيلا» في موكب ملكي مبهر، ويدخلان قصر الحمراء على وقع موسيقا الانتصار، ودقّات الطبول، وتراتيل الرهبان، ويُقبل آخر سلاطيـن غرناطة «أبو عبـد الله الصغير» لاستقبـال الملِكَيْن.. يقبـل حزيناً مُنكسِراً يجر أذيال الخيبة، وتتحشرج في حلقه عبارة «لقد أصبحتَ أيها الملك سيّد تراثنا وديارنا

وأشخاصنـــا، هكذا قضت مشيئة الله، فكن في ظفرك رحيماً وعادلاً»..

ويرحل إلى طريــق «البشرات» ليُشرف من تل علـــى «غرناطة» المغتصبة، ويجهش بالبكاء على المجــد الغابر، لتجيئه صيحة أمّه «عائشة الحرة»•:

«ابكِ مثل النساء مُلكاً مُضاعاً

لم تحافِظ عليه مثل الرجال»

غـادة السمّـان: عدوّنـا يحـاول إلغـاء تاريخنا الحقيقي:

وأرفع رأســي طائفاً بعينـــيّ في أرجاء معالــم الحمــراء، وفيما أمســح دمعة حرّة انسالــت علــى وجنتــي، يجيئنــي صــوت الياسمينة الشامية غادة السمان «لعلي جئت إلى الأندلـس كما ذهب مجنون ليلى يطلب جمراً وناراً. فقــد علّموني في المدرسة أنّ العــرب لم يغزوا الأندلس بالقوة العسكرية، بل بسلطة الحضـــارة أولاً، وبمشعلها الذي حملوه ذلك الزمان، ولــم يستتب لهم الأمر هنا قروناً بسطوة السجان بل بسطوة الفِكر المتفوّق.. وربما كان علينا أن نُعيد امتلاك أنفسنا وأوطاننـــا مارّين بهذه الدرب ذاتها، وبقوة الحضارة والضوء الداخلي، والعطاء الإنساني وجوهره الحرية والتسامح.

وتلاحظ غـــادة السمّان أنّ تاريخ العرب فــي إسبانيا معرّض لسرقـــة إسرائيلية في محاولة تضخيــم الدور اليهودي، والحديث عن «موســى بن ميمون» وإغفال «ابن رشد» ونـــرى أنّ هناك خطـــة إسرائيليـــة لتهويد التـــراث العربـــي فـــي إسبانيـــا وضمّه إلى مستوطنـــات الثقافـــة الإسرائيليـــة، بحيث تطمس الذاكرة الدولية، ويصبح اليهود هم الذين فتحوا إسبانيا وليس العرب.

وتقـــول الكاتبـــة إنّ مشاعرها لا تحمل العدوان: «وانطلاقاً من هذا الشعور الودي غيـــر العدواني لا أملك إلا أن ألاحظ بحياد محاولة تضخيم الدور اليهودي في الأندلس مـــن أجل توظيفـــه لمجد إسرائيـــل، وهذا أمر طبيعي. فكل دولـــة تحاول إعادة كتابة التاريخ بالطريقة التـــي تناسب مصالحها، ونحن مسؤولون عن تقصيرنا.

❁ اختراع دور لليهود في الأندلس:

إنّ الانتصـــارات الإسرائيلية الإعلامية الذكية على العرب في حقول السينما والفن (وسرقة الفولكلور الفلسطيني وتسويقه في الغرب علـــى أنه الـــذوق الإسرائيلي)، هذه الانتصـــارات تواكبها حملـــة إعلامية ذكية على الصعيد الأندلسي.. وحتى المرء الذي لا يحمـــل أيّة كراهية مبدئيـــة سيجد نفسه غاضباً متوجّعاً وهـــو يلاحظ انحياز بعض الكرّاســـات السياحية الغربيـــة إلى القشة اليهودية في الأندلـــس، غاضة الطرف عن

القلاع الإسلامية.. بل إن «النفخ» في الآثار اليهودية يتم أحياناً على حساب روائع الفن المسيحية، حيث ينصحك الدليل بزيارة الكنيس ويغفل ذكر كنيسة مجاورة أكثر غنىً فنيّاً وعظمة تاريخية، ولا تسلني عما يدور في بعض الندوات الجامعية الخاصة بتكريس دور مزور لليهود في الأندلس.

قليلة هي الأقلام العربية التي التفتت إلى هذه الحقيقة المؤلمة التي تتّخذ شكل الممارسة اليومية. وأعني بها ظاهرة تضخيم الدور اليهودي في تاريخ الأندلس. وهي ظاهرة لا يملك السائح إلا أن يلاحظها على كل صعيد حيث يتم أحياناً اختراع دور لليهود في التاريخ الأندلسي، كله مبالغة.. وبينما يتابع الإعلام الصهيوني التهام الحقائق التاريخية، نتابع نحن شخيرنا التاريخي واستجمامنا القومي.. ويتمنى السائح دليلاً سياحياً عربياً للأندلس بالمعنى العصري العملي للكلمة - لا بمعنى أشعار الحنين وبكائيات الأطلال - يحمله السيّاح العرب معهم ليتعرّف أولادهم على حقيقة التاريخ الذي كان لنا في الأندلس بعزّه وسقطاته... دليلاً على غرار «دليل ميشلان» الفرنسي الشهير ندفع تكاليف إصداره من مال عربي يهدر أحياناً على عرس باذخ البطر في لاس بالماس مثلاً، أو قصر في ماربيا حنفياته من ذهب!.

وإذا كان الفن المبدع يخترع أشخاصاً وهميين فيجعلهم حقيقيين أمثال دون كيشوت وزهرة ومدام بوفاري وآنا كارنينا، فإنّ الإعلام الصهيوني المضلّل يفعل العكس، إذ يحاول إلغاء تاريخ عربي حقيقي في الأندلس ويغتال أبطاله من جذورهم بحيث يبدون وهميين - مثل طارق بن زياد - الذي لم يفتح إسبانيا لأنّ اليهود هم الذين فعلوا ذلك..!

فهل نسارع إلى خوض حرب التحدّي الإعلامي الصهيوني هذه، أم نترك جيلاً عربياً ينشأ في منتجع ماربيا مثلاً ويجهل انّ الأندلس تقع في إسبانيا؟!!.

وتتابع الكاتبة: أتجوّل في أروقة الحلم الأندلسية وأنشد في قلبي مواويلي الشامية المليئة بالأمل والطموح والبهجة، كما كنت أفعل في صِباي قبل أن تكسر الهزائم المتعاقبة أجنحتي وتسلبني الخيبات تورد آمالي القومية.. وداخل ذلك الدهليز الحجري الصلد كالقلعة، تمر بأبواب قديمة موصدة، ويخيّل إليك أنّ الأجداد العظماء يقبعون خلفها وتقرع الأبواب وسط دهشة بقية السيّاح، ويخيّل إليك أنّ موسى بن نصير وطارق بن زياد والمنصور والحكم الثاني وهشام الثاني يقبعون خلفها.

غمرني إحساس حاد بذلك وصرت واثقة وأنا أقرع الأبواب أنّ عبد الرحمن الداخل سيفتحها لحفيدته الضالّة في أزمنة عدوانية.. وسأبكي طويلاً على صدره ولن يصدق حين أروي له ما فعله أحفاده بمجده العريق، وسيتبرأ من أقوام تقتتل فيما بينها والعدو يتابع بناء المستوطنات، وجلب المهاجرين من أقطار الأرض وطرد أحفاد العز الذي كان.. حين تصل إلى قمة المئذنة (الخيرالدا) ستجد مكافأة جميلة في انتظارك: ستنبسط إشبيلية تحت قدميك وديعة وعريقة بكل سحرها وكنوزها، بالقصر الخالد وحدائقه، بقرميد البيوت الأحمر النابض تحت الشمس كقلب عار، بالأزقة البيض التي تتعالى منها أغاني الغجر وتمضي فيها عرباتهم، وإلى جوارك الكاتدرائية الرائعة بكل كنوزها وبهائها... وتحت ذلك العناق بين أماكن العبادة المختلفة لإله هذا الكون الواحد، وتغمرك لحظة تسامح وحنان وفرح بتعايش الأديان.. هكذا بنى العرب مجدهم، لا بالحقد والأذى والغطرسة والانتقام... وتهبط من المأذنة وأنت تتابع غناء مواويلك الشامية في قلب الأندلس».

الهوامش

- عائشة الحرّة: زوجة السلطان محمد بن سعد (الغالب بالله) وملكة غرناطة.

المصادر

- الآثار العربية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله عنان، القاهرة (١٩٦٢م).
- الآثار الأندلسية في غرناطة، محمد عبد الله عنان، مجلة الفيصل /العدد ٥٧/، ربيع الأول (١٤١٢هـ).
- نقوش الحمراء، محمد بن عودة، مجلة الأنوار، تونس، أعداد متفرقة (١٩٥٤م).
- قصر الحمراء، ديوان شعر منقوش على الجدران، صبيح صادق، مجلة الفيصل العدد ٢٥٣، ذو القعدة (١٤٢٦هـ).
- مصرع غرناطة، شوقي أبو خليل، دار الفكر في دمشق، (١٩٨٠م).
- دراسة لسقوط ٣٠ دولة إسلامية، د.عبد الحليم عويس، دار الصحوة، القاهرة، (١٩٩٢م).
- القلب.. نورس وحيد، غادة السمان، منشورات غادة السمّان، بيروت (١٩٩٨م).

بازار الانتخابات الرئاسية الأمريكية

❁
د. قحطان السيوفي



يبدو أن بازار الانتخابات الرئاسية الأمريكية قد بدأ عملياً قبل عام تقريباً من التاريخ المقرر دستورياً لانتخاب رئيس لدولة الولايات المتحدة الأمريكية. ويستأثر موضوع الاستعدادات لهذه الانتخابات الرئاسية بالمشهد الداخلي في الولايات المتحدة، وحسب المألوف والمقرر ينتهي موسم الاستعدادات هذا بانتخاب رئيس جديد في أول ثلاثاء من تشرين الثاني (نوفمبر) (٢٠١٦م)، وسينتخب الأمريكيون

❁ باحث في السياسة والاقتصاد ووزير وسفير سابق.

أيضاً كل أعضاء مجلس النواب، وثلث أعضاء مجلس الشيوخ. ومما سيثير الاستغراب والدهشة لدى القارئ وجود ثلاثين مرشحاً للرئاسة الأمريكية من الحزبين الجمهوري والديمقراطي... والأمر الذي قد يثير الدهشة أكثر احتمالات أن يصل أحدهم إلى البيت الأبيض وقد تدفع الولايات المتحدة والعالم ثمن نقص خبرته بل ولنقل ثمن جهله.

المنافسة، بل الصراع على الرئاسة الأمريكية، أو السباق إلى البيت الأبيض بين مرشحي الحزب الجمهوري (وشعاره الفيل)، والحزب الديمقراطي (وشعاره الحمار) تحكمه اعتبارات متعددة، ومتشابكة بل ومعقدة أحياناً وهناك تناقضات تاريخية ومفارقات مختلفة المنابع... لأسباب محلية ودولية.

المشهد الأمريكي للاستعداد للانتخابات يظهر المرشح (سكوت ووكر) من الحزب الجمهوري، وهو حاكم ولاية، يضع في مقدمة برنامجه الانتخابي مثلاً العمل على إلغاء الاتفاق النووي الذي عقدته دول (٥+١) مع إيران... ويجاهر بضرورة إعادة فرض العقوبات على إيران. بالمقابل هناك مرشحون من حزبي الفيل والحمار على السواء بالكاد يعرفون أين تقع إيران! وما هي تفاصيل الاتفاق المبرم!! (جيب بوش) مرشح جمهوري من عائلة بوش... يعلن في برنامجه معارضته لسياسة جورج بوش الابن، المرشح (دونالد ترامب) مهرج جمهوري له تأييد واسع في الأوساط الجمهورية... وهو قليل المعرفة بشؤون السياسة الخارجية... ويطالب ببناء سور بين الولايات المتحدة والمكسيك بطول (٣٢٠٠) كم، وطرد جميع المهاجرين غير الشرعيين من الولايات المتحدة، علماً بأن لهؤلاء دوراً كبيراً في دعم اقتصادات العديد من الولايات الأمريكية وفي مقدمتها ولاية كاليفورنيا التي تقدم (١٣٪) من الناتج القومي الأمريكي، كما يطالب بإغلاق شركات صناعة السيارات الأمريكية في المكسيك.

هيلاري كلينتون المرشحة الديمقراطية وزيرة خارجية سابقاً، وزوجة رئيس سابق، تعتبر في رأي بعضهم أكثر خبرة واعتدالاً، وتميل للبعد عن المغامرات العسكرية الخارجية، وتدعو لدعم القوة العسكرية لتكون قادرة على التدخل عند الضرورات الملحة... وعلى الرغم من تعاطف، وهوى هيلاري كلينتون مع إسرائيل إلا أن الإعلام الليكودي الصهيوني في الولايات المتحدة بدأ يشن حملة مضادة لكلينتون ويحاول تزوير الأخبار عنها....

كما أن مساعدتها السابقة (هوما عابدين) التي تنحدر من أصول شرقية؛ تتعرض لحملات إعلامية قاسية .ومع ذلك تحافظ كلينتون على تقدمها بين المنافسين الديمقراطيين.

مشهد مسرح الاستعدادات للسباق إلى البيت الأبيض يكشف مدى الاحتيال والمراوغة في اللعبة الانتخابية الأمريكية، حيث تسيطر الحملات الدعائية اللامنطقية على المسرح بين المتنافسين، وجميعها تأخذ بعين الاعتبار المصالح الإسرائيلية والعمل على الاستفادة من موارد العالم العربي وإضعافه، بل والسعي لتفتيته... وما الدعم الأمريكي المستمر لما سمي الربيع العربي وتداعياته السوداء على العديد من الدول العربية سوى دليل واضح على ذلك... ومؤشر على ما تتضمنه وستتضمنه برامج المرشحين للرئاسة الأمريكية من عداء واضح، وغير مباشر لحركة التحرر العربي بكل مكوناتها... واستمرار لمحاولات فرض الهيمنة الأمريكية المتراجعة في ضوء تقدم القطبية الثنائية منذ ما بعد عام (٢٠٠٥م)، مع ظهور مجموعة دول بريكس (الصين، روسيا، البرازيل، الهند، وجنوب أفريقيا) وتألقها سياسياً، واقتصادياً...

وحتى يحيط القارئ بكل أبعاد بازار الانتخابات الرئاسية الأمريكية؛ من المفيد الإشارة إلى أن سياسة جورج بوش الابن كانت قائمة على ردات فعل لأحداث أيلول الإرهابية (٢٠٠١م)، والتي كانت بدورها ارتداداً لتنظيم القاعدة الإرهابي على صانعيه (الولايات المتحدة) بمعنى آخر سياسة أمريكا بدعم الإرهاب، وارتداده عليها، وإجراءات ردود الفعل لجورج بوش الابن بغزو العراق وأفغانستان... ثم جاء الرئيس أوباما ليعتمد سياسات التردد والانكفاء... وحرب أمريكية في الخارج بالوكالة عن طريق حلفاء أمريكا التقليديين في الشرق الأوسط الذين دعموا، ويدعمون الإرهاب...

إنَّ التظاهر بمكافحة الإرهاب حالياً، والتردد والبطء في آليات عمل الإدارة الأمريكية هو نوع من الحركات البهلوانية ظاهرها نوع من النفاق الدبلوماسي الدعائي، وباطنها رغبة في إدامة عمر الإرهاب بحجة توفير المناخات المناسبة لمحاربته خلال سنوات طويلة... إنَّ السياسة الأمريكية في عهد بوش الابن، وباراك أوباما بالتالي تأخذ طابع العمل الجيوسياسي العبثي المغامر في عهد الأول، كما

تأخذ طابع التراجع والانكفاء من حيث الشكل حالياً في الولاية الثانية لأوباما.

العلامة التجارية لأمريكا في الشرق الأوسط مشوهة في عهد أوباما بقدر ما كانت في عهد جورج دبليو بوش. ربما يكون من الظلم مقارنتهما، لأن بوش كانت أخطاؤه في أعماله - على رأسها غزو العراق وأخطاء أوباما كانت الامتناع فيما يتعلق التعامل مع إرث بوش. لكن تكاليفهما حقيقية.

أين تقع قضايا الشرق الأوسط والعالم العربي في بازار الانتخابات الرئاسية الأمريكية؟ تداعيات الربيع العربي الأسود من الإرهاب التكفيري... وما رافقه من استهداف وتدمير لمؤسسات، ومكونات الدولة الوطنية في العالم العربي لتفتيته... وعمليات القتل، والذبح، الإبادة الجماعية وتشريد الملايين... على يد داعش وأخواتها من التنظيمات الإرهابية... كل ذلك يحظى بمباركة ضمنية في برامج المرشحين للسباق إلى البيت الأبيض؛ باعتبار أن كل ذلك يخدم أمن إسرائيل... ويجعل العالم ينسى (فلسطين).القضية العربية المركزية... ويحوِّل قضايا العرب إلى مشاكل اقتتال داخلي أو بين الدول العربية... وتصبح مشاكل اللاجئين من الدول العربية قضايا الساعة... بالمقابل يحتل موضوع الاتفاق النووي الإيراني حيزاً هاماً في أغلب برامج المرشحين للانتخابات الرئاسية الأمريكية ولاسيما المرشح (سكوت ووكر) من الحزب الجمهوري.

إنَّ معارضي الاتفاق النووي في الولايات المتحدة بما في ذلك المرشحين للرئاسة هم حلف بين لوبي الصناعة، واللوبي الإسرائيلي، مما يذكر بالتحذير الذي سبق لـ (دوايت أيزنهاور) أن أطلقه من خطر تحالف الصناعة والعسكر... ولعل أهم صفة لمعارضي الاتفاق النووي الإيراني في أمريكا... أنهم مؤيدون للحرب على العراق، وأنها كانت أشبه بمشوار للجيش الأمريكي مع أنها كلفت أمريكا آلاف القتلى، وما يقارب تريليون دولار.

الانتخابات الرئاسية الأمريكية والسباق إلى البيت الأبيض، في ظل العام الأخير لإدارة أوباما، أشبه ببازار للمرشحين من الحزبين الجمهوري والديمقراطي يعرض فيه هؤلاء برامجهم الانتخابية من خلال حملات إعلانية دعائية يغلب عليها، عادة، الترويج والحماس لأمن إسرائيل، ومحاربة مكونات حركة التحرر العربي باتجاه تشجيع الإرهاب، أو السعي لإطالة

عمر التنظيمات الإرهابية.. وبما يؤدي لنشر الفوضى الخلاقة (التي بشّرت بها الوزيرة الأمريكية كونزاليزا رايس) في الشرق الأوسط، وتفتيت الوطن العربي، وتغذية الصراعات الطائفية والمذهبية.. وكل ما يصب في مصلحة الكيان الصهيوني... من دون أن ننسى تكالب المرشحين على المصالح النفطية الأمريكية في الشرق الأوسط والمنطقة العربية ناهيك عن الترويج لمصالح شركات صناعة الأسلحة الأمريكية. أي يميل المرشحون لإرضاء المصالح السياسية والاقتصادية لأصحاب مراكز القرار في أمريكا: شركات صناعة الأسلحة، شركات النفط، بيوتات المال في وول ستريت؛ واللوبي الصهيوني الحريص على أمن إسرائيل... وكل قضايا الشرق الأوسط، والعالم العربي ينظر إليها من خلال مصالح أصحاب مراكز القرار التي أشرنا إليها... **ويبقى السؤال هل استخدام القوة الصلبة (العسكرية)، أم القوة الناعمة (الدبلوماسية) خياراً إستراتيجياً أم تكتيكياً بالنسبة للمشاركين في السباق إلى البيت الأبيض؟**

تقدم العلم
مجموعة منتقاة من الأخبار العلمية

م. فايز فوق العادة ❀

تُخلِّف الإنجازات العلمية آثاراً عميقة ومديدة لا يحدها مكان أو زمان، من هنا كانت خصوصية الخبر العلمي، يبقى الخبر العلمي مضيئاً وفاعلاً لفترة غير محدودة، تتميز بعض الأخبار العلمية بديمومة تواجدها، إنها لا تغيب أبداً عن الذاكرة، نجد في معادلة تاريخية لآينشتاين خير مثال: تكافؤ الطاقة جداء الكتلة في مربع سرعة الضوء، عندما تُكتشف الحياة بعيداً عن الأرض، سيبقى نبأ اكتشافها ماثلاً على الدوام، نعرض فيما يلي مجموعة منتقاة من الأخبار العلمية، يبدو كل خبر من هذه الأخبار مستقلاً عن الفترة الزمنية التي نُقل أثناءها، ينظر المتلقي إلى الخبر وكأنه طُرح من وقتٍ قريب.



❀ رئيس الجمعية الكونية السورية.

التحكم بطيران الحمام:

قال علمـــاء صينيون إنهـم نجحوا في تجربــة لتوجيه طيــران الحمـــام عن بعد باستخدام تقنيـــة إلكترونيـــة. زرع العلماء أقطاباً كهربائية في دماغ حمامة كي يتمكنوا من توجيههـــا أثناء الطيران يميناً ويساراً أو إلى الأعلى والأسفل. كان هؤلاء العلماء قد أجروا تجارب مماثلة ناجحة على الفئران.

قوة ضوء الشمس:

استطـــاع العلمـــاء أن يقيســـوا بشكل مباشـــر قوة ضوء الشمـــس التي تغيّر من سرعة دوران كويكبات أو صخور الفضاء. يقوم ضوء الشمس بدفع الكويكبات برفق لـــدى امتصاصها الضـــوء على سطوحها المُواجهـــة للشمس ثم إشعاعه وهي تدور بما يؤدي إلى تأثير ارتدادي ضئيل يعادل دفـــع محرك صغيـــر. إنَّ طلي الكويكبات الخطـــرة على الأرضـــ بالأبيضـــ يلغي هذا التأثير ويغيِّـــر بالتالي من مساراتها فيبعدها عن الأرض.

مياه الصرف الصحي للتدفئة:

بدأ الخبراء في بعض البلدان الصناعية باستخـــدام منظومـــات خاصة فـــي أنفاق تحت الأرض تقـــوم بامتصاص الحرارة من البالوعات وتحويلها إلـــى شبكة من أنابيب المياه الساخنة التي تغذي مساحات سكنية واسعة. يوفر هذا المشروع كميات كبيرة من الطاقات المستخدمة في التدفئة.

اكتشاف حلقة مفقودة:

يقول العلماء إنَّهم اكتشفوا بقايا أحفورية فـــي شمال كندا قد تشكل دليلاً على انتقال أنواع معينة من الأسمـــاك إلى الحياة على اليابسة في العصور الغابرة. تعود الأحافير المكتشفـــة إلى فصائل مـــن الكائنات تشبه الأسمـــاك وتتشـــارك فـــي خصائصها مع التماسيـــح وقد وجدت شبـــه مكتملة ويبلغ طول إحداها نحو ثلاثة أمتار.

انهيارات جليدية على كوكب المريخ:

التقط أحـــد المسابر الفضائية صوراً رائعـــة لانهيـــارات جليديـــة فـــي منطقة القطـــب الشمالـــي مـــن كوكـــب المريخ. حدثت الانهيـــارات من قمـــة جبل يرتفع نحو (سبعمئة متر) ويكسو قمته جليد غاز الفحم. أمَّا سفوح الجبل فتتكون من جليد المـــاء وغبـــار وتربة سوداء. حـــدث أحد الانهيارات عندمـــا انفصلت كتلة جليدية من أعلى الجبل وانزلقت فأحدثت عاصفة غباريـــة امتدت نحو مئتـــي متر كما تناثر الجليد على مدى مماثل.

كواكب شبيهة بالأرض:

بينــت الدراسات المجراة بالأشعة تحت الحمراء على مجرة درب التبانة التي تنتمي إليها الشمس أن سحباً كثيفة من الغبار تطوّق النجوم الشبيهة بالشمس. تتراوح نسبة هذه النجوم من عشرين بالمئة إلى ستين بالمئة من مجمل نجوم المجرة. يدرس العلماء هذه السحب بدقة في محاولة لتكوين تصور عن التاريــخ المبكر للمنظومة الشمسية. يعتقد العلمــاء أن معظم هذه السحب في طريقها إلى التكاثف لتكوين كواكب شبيهة بالأرض.

أقدم تابع صنعي:

بدأ عصر الفضاء بإطلاق سبوتنيك في الرابع من تشرين الأول عام (١٩٥٧م). لكن أقدم تابــع صنعي ما زال فــي مداره حول الأرضــ هو فانغــارد (١) الــذي أطلق في (١٧) آذار من العام (١٩٥٨م). اعتمد التابع الطاقة الشمسية ودرس لأول مرة شكل الأرض وحجمها وغلافها الجوي. نظراً لصغر كتلة التابع فقد اندفــع نحو مدار مرتفع يضمن له الاستمرار في الدوران حول الأرض لعدّة قرون تالية.

اكتشاف سمكة غريبة:

اكتشف العلماء في إحدى جزر الأرخبيل الأندونيسي سمكة غريبة وفريدة من نوعها وتختلف عن الأسماك البحرية بعيونها التي لا تشبه عيون الأسماك الأخرى إذ إنها توجد في مقدمة الرأس كمــا أنها تسمح للسمكة بقياس العمق تماماً كما يفعل الإنسان.يتميز جســم السمكة بالنعومة والليونة بما يمكنها مــن الانزلاق سريعــاً والاختباء وهذا يفسر سبب عدم اكتشافها حتى الآن.

طاقة الهيدروجين:

كان أحد العلماء يحاول تحلية كمية من المياه المالحة بتعريضها لموجات إشعاعية من جهاز خاص صممه لمعالجة السرطان. اكتشف هــذا العالم أن الموجــات تسببت بإحــراق هيدروجين الميــاه. يجري العالم الآن دراسات عــن إمكانية استغلال الطاقة المنبعثة عن احتراق الهيدروجين والتحقق فيمــا إذا كان استخدامهــا فــي السيارات ممكنــاً. تسببــت الأشعة بإضعــاف روابط جزيئات الماء وتحرير الهيدروجين.

انسياب الماء إلى أعلى:

من المعــروف أن الماء يندفــع منساباً مــن أعلى إلى أسفل. استطاع بعض العلماء تحريك المــاء باتجاه معاكس. وضعوا لوحاً بلاستيكيــاً مائلاً بنبضات ذات تردد معين. أصبــح بمقــدور المــاء في سيــاق الحالة الطنينية الناجمة أن يتحرر من أسر الجذب

الثقالـــي وأن تندفع قطراتـــه نحو الأعلى. يقول هؤلاء العلماء إن النبضات غيرت شكل قطرات المـــاء والقوى المؤثـــرة فيها. أدى انضغاط قطرات الماء بسبب النبضات إلى توليد قوة محصلة دفعتها نحو الأعلى.

تأكيد جديد لنظرية النسبية:

من جديـــد يعـــود العلمـــاء للبحث عن تأكيد إضافـــي لصحة نظرية النسبية، فقد أعلن عدد من الباحثين أن معادلة آينشتاين التاريخية التي تنص على أن الطاقة تساوي جداء الكتلة في مربع سرعة الضوء صحيحة إلـــى سبع مراتـــب بعد الفاصلـــة العشرية. انطـــوت التجربة التي أجراها الباحثون في هذا السياق على قياس أشعة غاما المنطلقة من ذرات الكبريت والسيليكون وتحديد كتل النوى قبل وبعد الإطلاق.

وفاة سلحفاة معمّرة:

توفيـــت سلحفاة معمّرة في حديقة حيوان أوسترالية. بلغ عمر السلحفاة المتوفاة (١٧٦) عاماً. كانت سلحفاة معمّرة أخرى قد سبقتها إلـــى الموت وكان عمرهـــا (١٨٨) عاماً. كان عمر السلحفاة المتوفاة خمس سنوات عندما زار داروين جزر الغالا باغوس واصطحب معه السلحفاة علـــى متن السفينة التي استخدمها لدراسة نماذج الحياة حول العالم.

تطوير وقود جديد للسيارات:

بـــدأ العلماء فـــي الهند بتطويـــر خلايا وقود الهيدروجيـــن مستخدمين التكنولوجيا الخاصة بوقود الصواريخ التي تنقل المركبات إلـــى الفضاء. يقول هـــؤلاء العلماء إن نجاح تكنولوجيـــا الوقود التـــي طوروها في مجال الصواريخ قد شجعهم على المضي قدماً في تأمين بديل عن النفط لتشغيل السيارات.

تحويل خلايا جلدية إلى خلايا جذعية:

حقق العلماء إنجازاً كبيراً بتحويل خلايا جلد بشري إلى خلايا جذعية مما قد يمهد الطريق لابتكار وسائل علاج جديدة لأمراض مختلفة كالسرطان والسكـــري والزهايمر. تكمن أهميـــة الخلايا الجذعية في إمكانية تحولها إلى (٢٢٠) نوعاً مختلفاً من الخلايا. تم الإنجاز بتحويل الخلايا إلى خلايا جذعية عن طريق إدخـــال أربع جينات مختلفة إلى الخلايا الجلدية بوساطة فيروس.

فئران لمقاومة السرطان:

أعلن العلمـــاء أنهم نجحوا بإنتاج سلالة من الفئران أبدت مقاومة كبيرة لأشد أنواع السرطان. أدى حقن خلايـــا الدم البيضاء التـــي استخلصت من أفراد هـــذه السلالة ونقلـــت إلى فئران المختبـــرات العادية إلى وقاية هـــذه الأخيرة مـــن السرطان. يعكف

العلماء الآن على دراسة الجينات التي تمنح الفئران هذه المقاومة.

الدلافين لها أسماؤها الخاصة:

اكتشف العلماء أنَّ الدلافين تتواصل مع بعضها البعض بأسماء خاصة. تستطيع الدلافين التعرف على غيرها من الفصيلة نفسها ويمتاز كل منها بهوية خاصة. إن لهذا الاكتشاف أهمية كبيرة، إذ كان من المعتقد حتى الآن أن هذه المقدرة تقتصر على الإنسان فقط.

أبحاث جديدة لاسترجاع الذاكرة:

طوَّر العلماء طريقة جديدة لقراءة الأفكار بالاعتماد على نظم مسح الدماغ. نجح العلماء بذلك في مساعدة الأشخاص للتنقيب عن ذكرياتهم بعد توفير الظروف الملائمة لتشكيل نمط تفكير في الدماغ مماثل للنمط الذي يتشكل عند التقاطه الأشياء بهدف تذكرها. قد تفيد هذه الأبحاث على نحو خاص الأشخاص المصابين بمرض الزهايمر.

اكتشاف عناصر الحياة الأولى خارج المجموعة الشمسية:

رصد العلماء عناصر أساسية للحياة داخل غبار كوني يحوم حول نجم جديد. تتكون العناصر المكتشفة من الأسلاف الغازية للحموض النووية وبروتين واحد. يقع النجم الوليد على مسافة (٣٧٥) سنة ضوئية عن الشمس. يماثل النجم مع سحابته البدئية الحالة الأولية للمجموعة الشمسية التي سادت قبل (٥٠٠٠) مليون سنة. السنة الضوئية وحدة لقياس المسافات الكونية تساوي المسافة التي يقطعها الضوء في سنة زمنية كاملة مرتحلاً بسرعته المعهودة ثلاثمئة ألف كم في الثانية. تكافئ السنة الضوئية نحو عشرة مليون مليون كم.

رصد الحركة داخل الخلية الحية:

تمكن العلماء من تصوير الخلايا الحية بالأبعاد الثلاثة حيث ظهرت أدق التفاصيل وتم رصد الحركة داخل الخلايا الحيَّة. استخدم العلماء لهذه الغاية تقنيات التصوير التوموغرافي. طبق العلماء مباشرة هذا الاختراع لدراسة بعض أنواع السرطان مما مكّنهم من معرفة التركيبة الداخلية للخلية وتحديد وفصل عدد من الخلايا السرطانية المُنشطة للمرض والتي تسهم في انتشاره.

ألماس من عمر الأرض:

قال علماء إنهم عثروا على قطع من الألماس في أوستراليا يُعتقد أن عمرها من عمر الأرض. يعني ذلك أن كوكب

الأرض قد تبرد بأسرع مما كان يُتصور سابقاً. لاشك أنَّ نسبة كبيرة من سطح الأرض كانت عبارة عن كتلة هائلة من الحمم البركانية الملتهبة. خلص العلماء إلى استنتاج مفاده أن هذه القطع تشكلت بعد (٣٠٠) مليون سنة فقط من تشكل الأرض الذي حدث قبل (٤٦٠٠) مليون سنة.

أبحاث الوعي المعاصرة:

ماذا يعني بالنسبة للكائن البشري أن يكون واعياً يفكر ويشعر بالعواطف وأن تكون له تجربة ذاتية مع العالم. يقول علماء البيولوجيا إن كامل التجربة الذاتية ليست أكثر من سلوك مجموعة واسعة من الخلايا العصبية وجسيماتها المرافقة، أما علماء الفيزياء الكوانتية فيقولون إننا لن نفهم الدماغ قبل أن نكوّن فهماً دقيقاً للجسيمات الأولية حيث ربما تنشأ المشاعر والوعي. يقول فريق آخر من العلماء إننا لن نفهم أبداً ماهية الوعي ببساطة لأننا واعون. تستمر الأبحاث من دون توقف وربما تشهد إضافات جديدة إلى هذه الآراء.

السلوك والوراثة:

يبحث العلماء عن رؤية معقولة وواقعية لدوافع السلوك البشري: رؤية تمزج البيئة والوراثة بطرائق معقدة وغير متوقعة. يقول بعض العلماء إن العوامل الوراثية تفسر ما تتراوح نسبته من ثلاثين إلى سبعين بالمئة من السمات السلوكية عند البشر وفي كثير من الحالات تكون نسبة السببية الوراثية للعلل الفيزيائية أعلى. لقد تراجعت إلى حد كبير وجهة النظر القائلة إن البيئة والظروف الموضوعية هما المحرك للسلوك وبات على العلماء اليوم أن يعيِّنوا الدور المحدود لهما في السلوك.

نشأة الحياة:

يعرف العلماء اليوم أنه بإضافة طاقة على شكل حرارة أو كهرباء إلى مزيج من المواد شبيه بما كان سائداً في الغلاف الجوي المبكر للأرض يُمكن إنتاج جزيئات من النمط الذي نجده في النسج الحية، كما يعرفون أيضاً أنه كان بمقدور هذه العمليات أن تحوِّل محيطات العالم في زمن جيولوجي قصير إلى مزيج من الجزيئات فيما يُعرف بالحساء البدئي. يركِّز العلماء على فهم الآلية التي سببت نشوء خلية توالدية مكتفية بذاتها. ربما ينجح العلماء في وقتٍ ليس ببعيد بإنتاج شيء مماثل في المختبر.

استنساخ قطط مشعّة:

قام علماء باستنساخ قطتين تشعان باللون الأحمر عندما يجري تعريضهما للأشعة فوق البنفسجيــة. كانــت ثلاث قطــط أخرى قد استنسخت تحمل جينات يُمكن أن تفرز بروتيناً بلون أحمــر يجعلها تتوهج وتشع في الظلمة. إن مــا يهم في الأمر هو إدخال جينات غريبة أثنــاء الاستنســاخ الأمر الذي جعــل العلماء المشرفين على هذه التجارب يؤكدون إمكانية استخدام التقنية نفسها للمساعدة في القضاء على الأمراض الوراثية.

العالمة ماري كوري:

لعبت مــاري سكــلودوفسكا كــوري – وهي امرأة بولونية قضت معظم حياتها في فرنسا – دوراً أساسياً في الدراسات المبكرة للنشــاط الإشعاعي كمــا اكتشفت عنصري الراديــوم والبولونيوم وفازت مرتين بجائزة نوبل. أدت تجاربها على النشاط الإشعاعي إلــى وفاتها في النهايــة. كان العداء للمرأة العالمــة ومقاومتهــا قوياً جدّاً فــي أواخر القرن التاسع عشر إلى درجة أنه على الرغم من فوز ماري كوري مرتين بجائزة نوبل فلم تصبح عضواً في أكاديمية العلوم الفرنسية. كانــت ماري كوري الشخصــ الوحيد الذي فاز بجائزة نوبل مرتين.

فجوة في الفضاء الكوني:

استخدم الفلكيون منظومة من العواكس الراديويــة الضخمة لسبر تــوزع المادة في حيز من الفضاء. اكتشف الفلكيون لدهشتهم أن بقعــة من الفضاء تمتد لألف مليون سنة ضوئية تخلو تماماً من أي أثر للمادة. لاحظ الفلكيون انخفاضاً ملحوظاً في درجة حرارة الخلفية الإشعاعية الكونية في تلك البقعة.

نمو الديناصورات:

اكتشف العلمــاء أن الديناصورات كانت تنمــو بسرعة كبيرة وأنهــا كانت تُنجب في الثامنــة من العمــر قبــل أن يصل حجمها إلــى حجــم البالغين. وعلى الرغــم من أن الديناصــورات من سلالة الزواحف وارتقت لتصبح من الطيور فإنها كانت تنمو بسرعة كبيرة. خلص العلماء إلى هذه الاستنتاجات بعد حفريات واسعة اكتشفــوا بعدها بقايا كثيرة للديناصورات.

هل تتحدث النباتات؟

عثر العلماء على دليل يثبت أن النباتات تتبــادل المعلومــات فيما بينهــا. بث نبات روائــح معينة إلى نبات آخر بهدف التحذير من التعرض لبعض الآفات. راقب الباحثون نبات الشويلاء ولاحظــوا أنه يسارع بإفراز رائحــة عابرة عندمــا يُصاب مــن إحدى

الحشرات الضارة وأن هذه الرائحة أدت إلى ردود فعل دفاعية لدى التبغ البري.

الفلك وعلم الحياة:

تعيش أسماك القرش الحوتية في المناطق المدارية. يقول العلماء إنّ البقع على أجسامها تقي جلودها من مخاطر المحيط. يشبه توزع تلك البقع توزع الأضواء عبر القبة السماوية التي تزيّنها نجوم الليل. هكذا عمد العلماء إلى استخدام برنامج حاسوبي خاص بدراسة توزع النجوم على القبة السماوية في بحث توزع البقع على أجسام تلك الأسماك بما يُمكّن من تصنيفها بشكل أسهل.

المراجع

- تم انتقاء هذه المجموعة من الأخبار العلمية من مواقع الإعلام العلمي المتخصصة التالية على شبكة الإنترنت:

1- Universe Today.

2- Physicsworld.

3- Biolugy News.

4- Evolution News.

الأشعة غير المرئية

❁
وهدان وهدان



من المسلم به أن الضوء هو مصدر الأشعة بمختلف أنواعها وإنَّ العين البشرية تدرك وتبصر ما يسمى بالنطاق المرئي للأشعة من خلال شبكيتها من دون الحاجة إلى استخدام وسائل إظهار لها، إلا أنَّ هناك نطاقاً آخر من الأشعة غير مرئي للعين المجردة يحتاج إلى استخدام وسائل إظهار حتى تدركه وتبصره، وهذا الجزء من الأشعة هو ما يسمى بالأشعة غير المنظورة، وبفضل التقدم العلمي والتكنولوجي في مجال الأشعة أصبح لهذا النوع من الأشعة

❁ باحث ومترجم.

استخدامات واسعة في شتى مجالات الحياة، فقد تم استخدامها في المجالات الطبية والصناعية والأمنية والجنائية، ومن أهم أنواع الأشعة غير المنظورة التي أصبح لها استخداماً واسعاً في المجالات الأمنية يأتي في المقدمة الأشعة تحت الحمراء والأشعة فوق البنفسجية والأشعة السينية.

الأشعة تحت الحمراء

هي الموجات الكهرومغناطيسية غير المنظورة التي تلي الأشعة المنظورة ومصدرها في الطبيعة ضوء الشمس وأي مصدر حراري يعتبر مصدراً للحصول عليها ويحصل عليها من الحرارة المشعة من الأجسام الساخنة ومن أجهزة الإنارة الخاطفة ومن المصابيح الكهربائية ويبلغ طول موجتها من (٧٠٠٠-١٠٠٠٠٠٠) أنغستروم، ومن المعلوم أن هذه الموجات الكهرومغناطيسية عند اصطدامها فإنَّ رد فعل مواد الجسم الذي اصطدمت به إما السماح بمرورها أو يمتص أجزاء منها ويحتفظ بها لبعض الوقت ثم يقوم بإشعاعها على هيئة موجات حرارية وهذه الموجات الحرارية يمكن تسجيلها باستخدام كاميرات حرارية خاصة وقد أمكن باستخدام هذه الكاميرات الحرارية التعرف على كمية الحرارة المنبعثة من كل مادة وهو ما أطلق عليه مجازاً البصمة الحرارية للمادة، وبسبب هذه الخواص والتطبيقات العلمية لهذا النوع من الأشعة تعددت أنماط استخدامها في المجالات الأمنية والجنائية لإفراط في الحرص من عدم اكتشافها ولكن في حالة الاشتباه بذلك يتم من خلال التصوير الجوي بالأشعة تحت الحمراء تحديد أماكن وجود النباتات المخدرة ومعرفتها بسبب تباين البصمة الحرارية التي تستشعرها الأفلام الحساسة للأشعة تحت الحمراء. ومن أهم استخدامات هذه الأشعة:

١ - عمليات المراقبة والرؤية الليلية:

يتم من خلال استخدام أجهزة الرؤية الليلية التي تعمل بالأشعة تحت الحمراء تمكين رجال البحث من القيام بعمليات المراقبة والرؤية الليلية إذ إنَّ الأشعة تحت الحمراء المنعكسة من تحركات أفراد معينين تجري مراقبتهم تمكن من رؤيتهم من دون أن يشعروا بذلك من خلال هذه الأجهزة كما يمكن تصويرهم أيضاً.

٢ - التعرف على وجود أحياء تحت الأنقاض في حوادث الانهيارات والتعرف على أماكن الأحياء في حوادث الطائرات والسفن:

تُولِّد أجسام الأشخاص الأحياء تحت الأنقاض إشعاعاً حرارياً يمكن لأجهزة

البصمة الحرارية استشعاره والذي يكون مختلفاً عن الإشعاع الحراري للمكان نفسه وبذلك يمكن تحديد أماكنهم وكونهم على قيد الحياة. وكذلك تتسم حوادث الطائرات والسفن بتناثر ضحاياها على مسافات متباعدة ويمكن من خلال التباين في درجات الحرارة المنبعثة من أجسامهم والوسط الموجودين فيه باستخدام الكاميرا الحرارية المحمولة جوا تحديد أماكنهم والعمل على إنقاذهم.

٣- معاينة مسارح الجرائم وتحديد أماكن إخفاء بعض أدوات الجريمة:

تستخدم الكاميرات الحرارية في تصوير مسرح الجريمة بعد ارتكابها بوقت مناسب للتعرف على الآثار التي تركها الجناة خلفهم وخاصة ذات التأثير الحراري، كما ويمكن أيضاً تحديد أماكن إخفاء بعض أدوات الجريمة باستخدام تلك الكاميرات التي تمكن من تمييز البصمة الحرارية للمكان المخبأ فيه تلك الأدوات والبصمة الحرارية للأدوات ذاتها مما يسهل عملية ضبطها.

٤- مقارنة أنواع الأنسجة ذات الألوان المتشابهة:

يمكن في حالة قيام شك في أنَّ بعض الأنسجة تنتمي لجزء واحد من الثياب كما في حالة حدوث قطع جزء منها نتيجة عملية المقاومة أو أثناء التسلق أو الهرب أو حوادث السيارات أن يتم فحصها بالأشعة تحت الحمراء التي تظهر فيما إذا كان النسيجان ينتميان لقطعة واحدة أم أن هناك اختلافاً بينهما حتى وإن كان الظاهر للعين المجردة أنَّ لونها واحد وذلك لاختلاف المواد في امتصاص وإشعاع الأشعة الحرارية أو الحمراء المنعكسة مما يمكن من إجراء المقارنة.

الأشعة فوق البنفسجية:

هي من الأشعة غير المنظورة وتوجد بوفرة في الطبيعة في أشعة الشمس وأهم مصادرها مصابيح غاز الزئبق ذات الضغوط المختلفة حيث يحصل من خلالها على مجالات مختلفة من الأشعة القصيرة والمتوسطة والطويلة حيث يبلغ طول موجتها من (١٠٠٠ - ٤٠٠٠) أنغستروم. وتتميز هذه الأشعة من خلال تأثيرها على بعض المواد من خلال خاصية التألق (التوهج) التي تحدثها للمواد عند تعريضها لها أو عند سقوطها عليها فتظهر تلك المواد متوهجة ذات لون بخلاف لونها الأصلي، ومن أنماط استخدام تلك الأشعة في المجالات الأمنية ما يلي:

١- إثبات وجود المواد والآثار الخفية:

يتخلف عادة عن بعض الحوادث والجرائم آثار لا تكون ظاهرة للعين المجردة ولا يمكن التعرف على وجودها بالطرق العادية لمعاينة مسرح الحادث ويكون من بين هذه الآثار ما يتأثر بإسقاط هذه الأشعة على الأماكن التي يرجح وجود هذه الآثار بها فتحدث تألقاً بتلك الآثار إذا كانت طبيعة مادتها تسمح بذلك مما يمكن من تحديد مكانها، وتلعب هنا خبرة ودور الخبير الجنائي دوراً كبيراً في النتائج المرجوة من خلال دراسته لنوعية الجريمة ومكان وقوعها والأسلوب الذي ارتكبت به. فتستخدم هذه الأشعة في جرائم القتل لكشف آثار الدماء التي تم مسحها من أرض الجريمة لتحديد مكان واقعة القتل الأصلي في حالة نقل الجثة وتنظيف مكان وجودها الأصلي من بركة الدماء وكذلك تستخدم في كشف أثر الدماء من على الملابس التي تم غسلها بعد ارتكاب الفعل وتستخدم أيضاً في جرائم الاغتصاب للكشف عن المتلوثات المنوية وتحديد مكانها على الملابس القاتمة.

٢- بيان الاختلاف أو التماثل بين مادتين:

يعثر أحياناً في مسرح الحادث أو يتخلف عن الجريمة مواد تتشابه في الشكل الخارجي ويكون من الضروري لغايات الوصول للحقيقة تحديد ما إذا كانت تلك الآثار من جوهر مادة واحدة أم لا فمثلاً قد يعثر في مسرح الحادث على قطع من الزجاج متناثرة (حوادث السيارات، السرقات) وبمساعدة هذه الأشعة والتي تستطيع أن تظهر التباين في اللون والتركيب إذا كانت المواد المكونة لقطع الزجاج المعثور عليها مختلفة مما يدل على اختلافها.

٣- إظهار البصمات الكامنة على الأسطح المتعددة الألوان:

عندما تسقط الأشعة فوق البنفسجية على سطحين مختلفين في مادتهما ولو كانا متجاورين فإن درجة توهج كليهما تختلف حسب نوعية مادته فقد يكون أحدهما متوهجاً والآخر معتماً وتستخدم هذه الميزة في إظهار البصمات الموجودة على الأسطح متعددة الألوان بوساطة استخدام مسحوق إظهار للبصمة له خاصية التوهج عند إسقاط الأشعة فوق البنفسجية عليه فيمكن عند ذلك تصوير التوهج الذي يكون حاملاً لشكل البصمة من دون باقي ألوان السطح المتعددة ونستطيع بعد ذلك مضاهاتها.

٤- كشف بعض أنواع الجرائم عن طريق إظهار مواد التتبع:

تقتضي بعض إجراءات البحث والتحقيق في أنواع من جرائم السرقة والتي يكون

للجانـــي صلة بالمكان وتـــردد مشروع عليه استخدام بعض المواد التي تتميز بخصائص التألق الفسفـــوري أو الفلوري عند تعرضها للأشعـــة فوق البنفسجية وتكون هذه المواد غير ظاهرة للعين وغير ضارة بالوقت نفسه وتوضع في الأماكن التي يرجح قيام الجاني عادة بالسرقـــة منها (مثـــل دولاب ملابس يوضـــع به نقود أو مجوهـــرات) من دون أن يكون مسموحاً له بفتـــح تلك الأماكن، ففي حالة اتصاله وسرقة النقود من تلك الأماكن المنثور عليها تلك المواد تعلق بيده من دون أن يراهـــا أو يشعر بها وبوجودها على يديه وعند تعريض يديه للأشعة فوق البنفسجية يظهـــر عليها وجـــود تلك المـــواد مما يدل ويؤكـــد اتصاله بتلك الأماكن وارتكابه لفعل السرقة.

٥- كشـف التزويـر والطمـس المتعمد للوثائـق وإظهـار الكتابـة الممحـاة فـي المستندات:

يلجـــأ المـــزورون إلى استخـــدام مواد كيميائية لإزالة بعض الكتابات أو العلامات من الوثائق والمستندات بحيث لا تترك أثراً ظاهراً للعين المجردة وعند الشك في تلك الوثائق وبتعريضها للأشعة فوق البنفسجية تكشـــف من خلال خاصية التألق وجود مثل تلك العمليات.

الأشعة السينية

مـــن الأشعـــة غيـــر المنظـــورة ويمكن الحصول عليها عن طريق التوقف المفاجئ للإلكترونـــات المتحركـــة بسرعـــة، وتمتاز هذه الأشعـــة بقدرتها العاليـــة في اختراق الأجسام والمواد والنفاذ منها مما جعل لها استخدامات متعـــددة في المجالات الطبية والصناعيـــة والجنائية والأمنيـــة ومن أهم أنماط استخدامها أمنياً وجنائياً ما يلي:

١- تصويـر الجثـث المجهولة للتعرف عليهـا واكتشـاف الإصابـات العظمية فيها وظروف الوفاة:

ففي حالـــة العثور على جثـــة مجهولة وقبـــل القيـــام بتشريحها يجـــري الطبيب الشرعي تصويرها بالأشعة السينية للوقوف علـــى إصابـــات العظام فيهـــا وللبحث عن المقذوفات النارية المستقرة داخل الجسم فضلاً عن العلامات التي تساعد في التعرف عليها من خلال العظام والأسنان.

٢ - كشـف المـواد المخـدرة المخفـاة داخل الأجسام البشرية والحيوانية:

يقوم بعض المهربين بإخفاء المواد المخدرة وخاصة الهيروويين والكوكاييين داخل لفائـــف محكمة الغلـــق ووضعها بأماكـــن حساسة من الجســـم البشري أو الحيوانـــات لتهريبهـــا أثنـــاء المرور

بالمنافذ الجمركية والحدودية عند نقلها ويمكن باستخدام الأشعة السينية الكشف عن وجود تلك المواد بتعريض أجسام المشتبه بهم لها مما يمكن من ضبط الجناة منهم.

٣- كشف عمليات إخفاء الأسلحة النارية والمعدنية:

يعمد بعض الجناة إلى إخفاء الأسلحة النارية داخل حقائب أو أمتعة أو غيرها من الأشياء عند انتقالهم لارتكاب جرائمهم بتلك الأسلحة وخاصة في حوادث خطف الطائرات ويمكن غالباً باستخدام الأشعة السينية كشف أماكن وجود تلك الأسلحة وإحباط مثل تلك الجرائم.

٤- الكشف عن الطرود والرسائل المشتبه في حملها مواداً ناسفة أو متفجرة:

تكمن قدرة هذه الأشعة على الاختراق والنفاذ من تحديد محتويات الطرود والرسائل الكاملة للمواد المتفجرة إذ بوساطة التصوير بهذه الأشعة يظهر وجود المتفجرات وأسلاك التوصيل وبطاريات التشغيل وبذلك نستطيع كشفها وإبطال مفعولها، إلا أن بعض هذه الطرود تعد كشرك خداعي بحيث تفجر عند تعرضها للأشعة السينية لذلك يجب التعامل معها من خلال القواعد التالية:

أ- تعريضها من على بعد عن الخبراء للأشعة وإجراء التصوير فإذا حدث انفجار يكون الخبراء في مأمن من ذلك.

ب- استخدام دائرة تلفزيونية مغلقة بحيث تعرض الرسالة أو الطرد للأشعة داخل مكان مؤمن وتنقل الشاشة التلفزيونية الصورة إلى الخبراء بما يمكن التعامل بسلام.

هذه أهم أنواع الأشعة غير المنظورة التي تستخدم في المجالات الأمنية والجنائية إضافة إلى وجود أنواع أخرى من هذه الأشعة تستخدم في مجالات أخرى ومن أهمها أشعة الليزر التي لها استخدامات متعددة في المجالات العسكرية والطبية.

سورية ومصر تحت حكم آخر خمسة سلاطين في تركيا

تجارب خمسين عاماً للقنصل العام السيد باركر

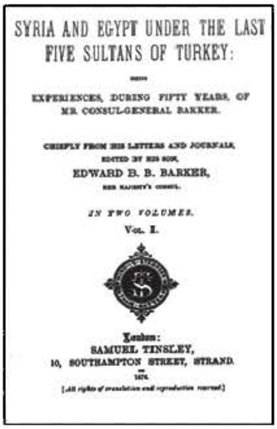
مأخوذة من الرسائل والصحف بشكل رئيسي
نشرها ولده قنصل جلالته إدوارد ب. باركر

❁
عبد الله حجار

يقع الكتاب الـــذي صدر في لندن عـــام (١٨٧٦م) ضمـــن مجلدين الأول يضمّ (١٨) فصـــلاً في (٣٦٦) صفحة والثانـــي (١٧) فصـــلاً ضمـــن (٣٤٠) صفحة. حوى المجلدان خبرات السيد جـــون باركر قنصل انكلتـــرا في حلب ثـــم في مصر، وقد قـــام بنشرها ولده إدوارد الـــذي كان بدوره قنصلاً لملك انكلترا، معتمداً فـــي ذلك على رسائل والده الخاصة وما نشرته الصحف.



قنصل انكلترا بحلب
جون بادكر



SYRIA AND EGYPT UNDER THE LAST FIVE SULTANS OF TURKEY:

BEING

EXPERIENCES, DURING FIFTY YEARS, OF MR. CONSUL-GENERAL BARKER.

CHIEFLY FROM HIS LETTERS AND JOURNALS,
EDITED BY HIS SON,
EDWARD B. B. BARKER,
HER MAJESTY'S CONSUL.

IN TWO VOLUMES.

VOL. I.

London:
SAMUEL TINSLEY,
10, SOUTHAMPTON STREET, STRAND.
1876.
[All rights of translation and reproduction reserved.]

غلاف الكتاب (١٨٦٧م)

يستحق الكتاب بالكامل أن يترجم إلى العربيـــة، ولكنني سأستخلص منه

❁ باحث ومؤرخ سوري.

السيرة الذاتية للقنصل جون باركر مع الأحداث الهامة التي تختص بتاريخ حلب والمنطقة وأحداثها، وسوف أذكر بالتفصيل وصفه الهام في الفصل السابع عشر من المجلّد الأول زلزال حلب المدمّر عام (١٨٢٢م).

القنصل جون باركر (١٧٧١ - ١٨٤٩م)

ولد جون بن وليم باركر في ٩ آذار (١٧٧١م) في إزمير (سميرنا) التي توقف فيها والده وهو في طريقه إلى الهند بسبب سوء صحته وكان واحداً من اثني عشر ولداً لأبيه. أُرسِل إلى لندن للدراسة وأبدى ذكاء ومواهب خاصة وهو في الخامسة عشرة من العمر والتحق بأعمال المصارف وتدرّج ليصبح مسؤولا وأمين صرف ما أهّله لاحقاً للتعامل مع شركة الهند الشرقية وشركة الشرق Levant. لكن قدَره لم يكن في عالم المال والتجارة لأنّه كان يبحث عن مجال أوسع.

قصد القسطنطينية والتحق بخدمة السفير البريطاني «جون سبنسر سميث» الذي لمح ذكاءه ومواهبه فعيّنه سكرتيره الخاص. وأرسله لحل مشكلة كنائب قنصل إلى حلب في أيار (١٧٩٩م) حيث أصبح قنصلاً عامّاً فيها في ١٨ تشرين الثاني ١٨٠٣ واستمرّ حتى العام ١٨٢٥. ثم عيّن قنصلاً في مصر (الإسكندرية) أيام محمد علي باشا وبقي قنصلا ٧ سنوات خلفه الليوتنانت كولونيل باتريك كامبل. وعاد باركر إلى السويدية في ٣١ أيار (١٨٣٣م) ليعتني بحديقته التي يعتبرها «فردوسه الصغير» ويقيم في سورية بين السويدية وبتياس وزيارة حلب. وفي حلب تزوّج في ١٥ حزيران (١٨٠٠م) مريان الابنة الوحيدة للتاجر والقنصل دافيد هيز وحفيدة توماس فرنون، ويذكر أنَّ جميع القناصل في حلب كانوا من اليهود القادمين من إسبانيا ما عدا القنصل الفرنسي والإنكليزي. وعندما طالب وكيل شركة الهند الشرقية في القسطنطينية العام (١٨٠٢م) بنقل البضائع إلى الهند وبغداد عن طريق دجلة من دون المرور بحلب، عارض باركر ذلك وبيّن نتيجة خبرته أنَّ الطريق المارة بحلب هي آمنة وأرخص وأسرع فتبنّت الشركة طريق حلب - البصرة. وبنهاية الحرب مع فرنسا قدّم الباب العالي إلى باركر تقديراً لخدماته وتعاونه ميدالية سليمية مع الطغرة السلطانية لم يطبع منها سوى ٢٠ قطعة فقط.

وعندما سمع في شباط (١٨٠٧م) بانقطاع العلاقات التركية البريطانية أرسل زوجته الحامل مع ولديه إلى لبنان برفقة ترجمانه نعوم حسون (والد رزق الله

حسون رائد الصحافة العربية وصاحب أول صحيفة صدرت باسم «مرآة الأحوال» العام ١٨٥٥ في إستنبول) وهرب، عندما وصل فرمان توقيفه إلى حلب، عن طريق اللاذقية إلى بيروت فجونية فدير القمر حيث مقرّ الأمير بشير الشهابي. ولم يعد إلى حلب إلّا بعد انتهاء الحرب وصدور فرمان عفو، فوصل بيروت ثم بواسطة تختروان وصل إلى حلب في ٢ حزيران (١٨٠٩م) حيث استقبل رسمياً.

ويعلمنا باركر الابن ما سمعه من البطريرك اللبناني عن حكاية إرسال نعوم حسون كبير تراجمة جون باركر ولده رزق الله إلى دير بزمار للأرمن في لبنان ليصبح كاهناً، وهربه من الدير بعد أن عمل «مقلباً» في رهبانه وتساءل كيف يمكن لأديب وشاعر أن يصبح كاهناً. كما يعلمنا باركر ما تمّ في نهاية العام (١٨١٢م) عند انتهاء ولاية راغب باشا واستلام خلفه جلال الدين باشا (المعروف بشعبان أوغلو) كيف دعا ٢٠ شخصية من زعماء الإنكشارية إلى وليمة في حديقة الشيخ أبو بكر وقتلهم جميعا وقطع رؤوسهم ورماها بالبركة ثم احتلّ القلعة وبذلك قضى على الإنكشارية وتفرّق أنصارها وكان ذلك في ٢٥ تشرين الثاني (١٨١٣م). كما أراد باركر أن يرافق السيدة هستر ستانهوب في رحلتها من دمشق إلى تدمر؛ غادر حلب في ١٧ تشرين الأول (١٨١٢م) وعند وصوله إلى دمشق مرض مدة أسبوعين وعندما شفي عاد بتختروان إلى حلب دون أن يتمكن من مرافقتها إلى تدمر حيث أطلق عليها لقب «أميرة الصحراء». ويذكر باركر حضوره حفلات أعراس العاملين في قنصليته والاحتفال بالعرس بالتفصيل.. كما يصف البيت الحلبي التقليدي وكيف أنَّ الفنان الوافد من بلاد فارس كان يقضي أحياناً ثمانية أشهر لإنجاز رسم سقف قاعة الاستقبال لوحده. كما يصف أحد المطربين واسمه «حنا آجقباش»، الذي كان يضع إبهام يده اليمنى في إذنه ويُميل رأسه ويبدأ بالصياح ويصرخ المستمعون وراءه بآهات الاستحسان (أي يكون قد ابتدأ بموّال أمان أمان..). وعاصر باركر وعاش وكتب عن الطاعون الذي اجتاح حلب وسورية عام (١٨١٣م) ويذكر انه في أيار (١٨١٣م) قصد أريحا قرب جبل الأربعين مع عائلته وتابع إلى اللاذقية للقاء السيدة ستانهوب واستشارة طبيبها. لكنه للأسف فَقدَ طفلتيه في يوم واحد بسبب الطاعون. وكره اللاذقية وعاد إلى حلب في كانون الأول وقد عوّد نفسه على «شكر الله والإذعان لإرادته». وقد عانت السيدة ستانهوب كثيراً من المرض لكنها تعافت. ويذكر أنَّ الجاليات الأوروبية أغلقت أبواب

الخانات وكانت تتواصل في ما بينها عن طريق الأسطحة. وقد عمّ الطاعون جميع سورية وأزمير وحتى القسطنطينية في نيسان (١٨١٤م). قليلون كانوا يعيشون ٣٦ ساعة بعد بدء إصابتهم، وكثيرون كانوا يموتون خلال ٢٤ ساعة. وتوقف الطاعون أخيراً في ١٥ آب (١٨١٤م) وراح ضحيّته ٨٠٠٠ نسمة.

ويضيف باركر: «وأنا متأكد أنّ ضعف هذا العدد هرب من ظلم الوالي جلال الدين باشا». كما يذكر بطلة الأكراد الشهيرة عايشة خاتون التي تزعمت جمع الأكراد في الجبال طيلة عشرين عاماً وتوفيت عام (١٨١٣م)، وأبقت سلطات الزعيم زوجها بيدها بعد وفاته وكانت تلبس كالرجال وتضع الخنجر والمسدّس. وضغط خادمها يوماً على يدها إشارة إعجاب وهي تركب الحصان فأردته قتيلاً برصاصة مسدسها.

كما تحدّث عن السيدة هستر ستانهوب التي كان على تواصل معها عن طريق الرسائل ويذكر عنها في لقاءاته معها أنّها ثرثارة لا تترك مجالاً لغيرها للكلام. وعند عودته من انكلترا إلى صيدا حيث دعته إلى العشاء لديها في أيلول (١٨٢٠م) تنبّأت بقولها إنّه في وقت قصير لن يبقى في حلب حجر على حجر. وبالفعل بعد سنتين كان زلزال حلب المدمّر في ١٣ آب (١٨٢٢م) الذي حدّثنا عنه باركر بالتفصيل وقد عاشه بجسده وروحه، كما سنرى لاحقاً، وكان خلالها قنصل فرنسا في حلب إدمون دو لسّبس ابن عم فرديناند الذي نفّذ مشروع فتح قناة السويس العام (١٨٦٩م). ويذكر باركر أنّ الدور المبنية على شكل قوسي (مقبّب) لم تنهار، كما أنّ مئذنة الجامع الكبير المبنية قبل ٩٠٠ عام قاومت جميع الهزّات الأرضية. كما أنه في صيف (١٨٢٣م) ظهر وباء الكوليرا لأول مرّة في حلب وكان يسمّى «الهواء الأصفر».

ويبدو أنّ باركر كان خبيراً في اختيار الخيول العربية الأصيلة وتبيّن إحدى رسائل حزيران (١٨٢٥م) تكليفه من قبل قنصل هولندا المسنّ والمريض بشراء فرس عربية أصيلة لملك فورتمبرغ وقيامه بجولة استغرقت أسبوعين بحثاً عن الفرس المناسبة التي يجب أن تتمتّع بالسرعة وقوّة التحمّل والعمر بين ثلاث وست سنوات، عند أعراب البادية انطلاقاً من حلب إلى دير الزور فالبادية قرب تدمر وصولاً إلى شرق حمص وبيّن بفاتورة تفاصيل التكاليف التي بلغت أكثر من ١٠٠٠٠ قرش أو ما يعادل أكثر من ٣٥٠ جنيه إسترليني. ولمعرفة أهمية المبلغ نذكر أن الراتب التقاعدي الذي مُنحه القنصل باركر بعد إنهاء خدمته القنصلية كان ٦٥٠ جنيها في العام.

ويذكر باركر أن الفرس «النجدي» كان أفضل الخيول العربية. وقد أُرسل الفرس ومهر وفحل غير مخصي معاً عن طريق استنبول إلى أوروبا.

وكانت مسز ستانهوب غالباً ما تذكر «لاسكاريس» في رسائلها إلى باركر. كان جاسوساً لنابليون وكان يتنقل ويتجوّل كمتسوّل وكان معه غالباً كمرافق فتح الله صائغ الحلبي الذي ذكره لامارتين في كتاب «رحلات إلى سورية»، ولم يكن لامارتين أو صايغ يشك بأنه كان جاسوساً. وقد ترك لاسكاريس زوجته وأرسلها لتعود عن طريق القسطنطينية إلى موطنها في جورجيا، وتوفي في القاهرة العام (١٨١٧م) وقد تكفّل قنصل انكلترا فيها بنفقات دفنه.

وتحدّث جون باركر عن الأمير بشير الشهابي وعن مجيء إبراهيم باشا إلى سورية (١٨٣١ - ١٨٤٠م) واستيلائه على عكا في ٢٧ أيار (١٨٣٢م) وتوقفه في السويدية حيث أرسل رسالة بالعربية إلى باركر يعلمه فيها أنه تذوّق فواكه حديقته ونام في داره، وأعلمه أنّ السويدية هي أجمل مكان بعد دمشق التي تعتبر الفردوس الأرضي من دون منازع، وقد أقام مركزه الرئيسي في أنطاكية خلال وجوده في سورية.

ويذكر بناء إبراهيم باشا ثكنة عسكرية في حلب تتسع لـ٤٠٠٠ فارس في الشيخ أبو بكر مع مستشفى قريب منها لجنوده. كما يذكر معركة نيزيب التي جرت في ٢٥ حزيران (١٨٣٩م) وانتصر فيها إبراهيم باشا الذي اشترى الفرق العثمانية وضباطها وخسر جيش السلطان ١٠٠٠٠ أسير و١٥٠٠٠ بندقية و١٠٤ مدافع. لكن الحلفاء هاجموا بأسطولهم بيروت في ١٦ أيلول (١٨٣٩م) (١٣ بارجة حربية و٤ سفن بخارية) ثم صيدا وطرابلس واللاذقية وعكا، وخسر المصريون ٢٠٠٠ رجل والإنكليز ومن معهم ١٨ قتيلاً و٤٢ جريحاً وهرب جيش إبراهيم باشا وسلّم ٢٠٠٠٠ نسمة أنفسهم.

وفي نهاية كانون الأول (١٨٤٠م) عادت سورية إلى السلطنة العثمانية وسحب محمد علي جيوشه من كنديا وساحل آسيا الصغرى وأُرسل فرمان يؤكّد ملكية محمد علي وعائلته من بعده على مصر.

ويشير باركر إلى مجيء بعثة الكولونيل تشيزني لاكتشاف ومسح منطقة الفرات لبيان صلاحيته للملاحة العام (١٨٣٥م)، وقيام زوجته مريان باركر بتاريخ ٢٣ أيار (١٨٣٥م) بتدشين إحدى السفينتين في نهر العاصي وتسميتها «دجلة»، وكان باركر قد تعرّف على الكولونيل تشيزني خلال وجوده في مصر. وتمّ عن طريق الجِمال والعربات نقل كامل معدات البعثة وقِطع السفينتين «دجلة» و«الفرات» من حرّاق وخزان البخار

وسواه إلى مرفأ براجيك شمال جرابلس، وأزيل المخيّم في السويدية في ٥ أيلول (١٨٣٥م). ويبدي باركر عميق إيمانه عندما يروي حادث غرق السفينة «دجلة» في نهر الفرات قرب قرية «الصالحية» (موقع مدينة دورا أوروبوس) على أثر إعصار عاصف جرى في ٣١ أيار عام ١٨٣٦م). وأن أول ما فعله تشيزني عند خروجه من الماء ومشاهدة السفينة «الفرات» التي قاومت العاصفة والاعصار أن شكر الباري قائلاً: «الحمد لله، ما زال لديّ السفينة الثانية».

كان تشيزني مشهوراً بتقواه، ويعتمد في جميع أعماله على القدرة الإلهية التي يمكن أن توصله إلى نهاية سعيدة وإلى تمجيد الله. ويحدّثنا باركر عن انتشار البروتستانتية في سورية ولبنان والمصاعب التي كان يعانيها في توزيع الكتب والمطبوعات على الطائفة...

كان جون باركر صياداً ماهراً بالبندقية، اصطاد مرّة ٦٦ حجلاً «وضعها ذيل ورأس بالتناوب ودعا جاره رئيس دير الرهبان الفرنسيين لمشاهدتها، فرفع رئيس الدير ذراعيه من الدهشة وقال مازحاً: «هذه مذبحة يجب أن نصلي ترتيلة على أرواحها، لكن الكنيسة لا تسمح بذلك لأنها ماتت دون اعتراف وفي معركة. ويذكر أنّه اصطاد مرة في أنطاكيا وخلال جولة استغرقت ٦ ساعات ٧٢ طائراً من نوع الحجل. كان باركر ذا شخصية قويّة وصاحب نكتة لايخلو فصل من فصول كتابه من ذكر طرفة أو نكتة حصلت في المجتمع المحيط به. وخلال سنوات عديدة كان يقضي شهرَي تموز وآب الحارّين في قرية «السفيرة» التي يأتي الحجل في لحظات الحرّ إلى مياهها الحلوة والليالي فيها رائعة، لكن الحرارة شديدة بحيث يجب إمساك طرف البندقية بمنشفة من شدة الحرارة، ويجب ترطيب المنشفة كل ربع ساعة. أحبّ سورية وفضّل أن يعيش فيها على العيش في لندن عند تقاعده. وكان له بيتان أحدهما في بتياس والآخر في السويدية حيث يوجد معمل صنع الحرير الخاص بزوجته وحيث أقام حديقته الغنية بالأشجار المثمرة وأنواع الزهور وكان يعتبرها «فردوسه الصغير». وعندما كان الشتاء يمنع باركر من العمل في حديقته في السويدية كان يأتي إلى حلب ليرى أصدقاءه الصيادين وسواهم. ويروي أن نصري حوّا من سكان حيّ «الجديدة» دعاه إلى وليمة أيام الصيام، قدّم له فيها طاولة طعام ضمّت ٣٠ صحناً صيامياً من أنواع السمك من بينها الفراتي والأسود والحلوى وسواها (في الصيام لاتقدّم اللحوم) فعلّق باركر على ذلك قائلاً: «إذا كانت هذه إماتاتك في الصوم، أتمنى أن أصوم بهذا الشكل كلّ أيام عمري».

توفّي جون باركر في «بتياس» إثر سكتة قلبية في ٥ تشرين الأول (١٨٤٩م) وعمره ٧٨ سنة و٧ أشهر. وكان قد صعد الجبل الأقرع لوحده قبل ثلاثة أيام من وفاته وتناول طعام غداءٍ جيداً قبل أن يصاب بالسكتة القلبية. دُفن قرب الكنيسة الأرمنية وبعد سنتين أُقيم له قبر بألواح من المرمر تحمل كتابة جُلبت من جنوة في إيطاليا.

ويتحدث الكتاب في فصوله الأخيرة التي تابعها ولده القنصل إدوارد عن قومة البلد في حلب من ١٦ تشرين الأوّل إلى ٩ تشرين الثاني (١٨٥٠م) واستغرقت ٢٤ يوماً. وكذلك عن مجيء الكولونيل تشيزني وقد أصبح جنرالاً إلى السويدية العام (١٨٥٦م)، وهو المهووس بالمواصلات وإيجاد أقصر طريق بين لندن والهند، وذلك لدراسة موضوع إقامة خط حديدي يصل بين البحر المتوسط وإيران مروراً بحلب وتدمر والعراق، وكانت الصعوبة هي في اجتياز المنطقة بين الإسكندرونة وحلب مع فرق الارتفاع بينهما.

ولعلّه ليس من الخطأ أن نذكر أنه خلال خمسين عاماً من الحياة المفيدة التي قضاها باركر في سورية ومصر رفع، بصفاته المتميّزة، سمعة الاستقامة والإنصاف في التعامل لدى الرجل الإنكليزي، والتي رآها منتشرة عند وصوله وساهم في زيادة ثقة الناس بالشعب الإنكليزي بأريحية ضيافته وكرمه، بحيث أنه عندما نشَبتَ الحرب مع روسيا العام (١٨٥٤م) كان مئات من السوريين والأكراد على استعداد للمشاركة فيها بحماس تحت العلم البريطاني.

ويختم الفصل الأخير من الكتاب بأن القول بعدم عيش المسلم والمسيحي معاً بانسجام هو خطأ كبير. وفي رأي القنصل باركر الأب والابن أن المواطنين بمعتقدات مختلفة يعيشون بسلام تام في تركيا. لكنّ قرون من الجهل والبربرية جعلت السلطات الحاكمة في تركيا تنظر بِدونية نحو أتباعها المسيحيين. لقد حان الوقت كي لا يسمح للعنصر الديني بأن يدخل مجال السياسة. ولأوروبا المتحضّرة الحق في أن تطلب من تركيا حداً معيّناً من النظام في حكم دول قريبة جداً من قلبها، وأن توقف القسوة الوحشية والبغض البربري الشديد. ولها الحق كذلك بأن تدعم، وبشكل جماعي إذا لزم الأمر، الإصلاحات التي هي وحدها فقط المبادئ العامة للعدالة والإنسانية المنسجمة مع الأفكار العامة للعصر الذي نعيش فيه، ويمكن لحكومة قويّة أن تحقق ذلك بسهولة. وعندها لن نسمع عن «المسألة الشرقية» أو عن «الرجل المريض» حيث تتطوّر عناصر صحّية وتظهر حياة جديدة في هيكل الدولة. لكن يجب أن يُعزَل كل تمييز في المعتقد الديني إلى الأبد.

القنصل جون باركر يصف زلزال (١٨٢٢م):

يقول جون باركـــر في رسالة وجّهها في الثاني مـــن آذار (١٨٢٣م) إلى أخته السيدة ريتشاردس في ويلز: «لم أتضايق من الأشواك في طريقي والتي كستها الزهور، شكراً لله، منذ عودتـــي إلى حلب. لقد استمتعنا بحق، ماريـــان وأنـــا، بكل السعادة التـــي يمكن أن يسبغهـــا الله على المخلوقـــات. ويشعّ ضوءٌ جديدٌ من الهناء يوم استلامنا أخباراً جيّدة من قبلـــكِ. ولم يُعرف شيء عن الاضطراب الذي كان قادماً.

فـــي الثالـــث عشـــر مـــن آب (١٨٢٢م) فـــي الساعة التاسعة مســـاءً دُمّرت بالكامل وخلال زلزال استمـــرّ (١٠ - ١٢) ثانية كلٌ من حلـــب وأنطاكية وإدلب وأريحا ودركوش وأرمناز وكلّ قرية وكوخ في البشليك وبعض مدن بشليك دمشق والرافدين وحتى بغداد وأصبحت أكوام أحجار وركاماً، فَقَدَ خلالها، بحسب أقلّ تقديـــر، ٢٠٠٠٠ إنسان حياتهم (عشر ســـكان حلب) وعددٌ مماثـــل شُوّه أو جرح. لقـــد شُعر بالصدمة في البحر بعنفٍ شديد على بعد فرسخين(حوالى ١٠ كم) من قبرص وقد اعتُقِدَ أنَّ سفينة قد اصطدمت بالصخور وغرقـــت. وشوهدت ومضات نار بركانية في فترات مختلفة خلال الليل تشبه ضـــوء القمر، لكنها لم تتـــرك في أي مكان بحسب علمي، صدعـــاً أو شقّاً أو هوّة على الرغم من أنّه في الأراضي المنخفضة كانت تشاهد فـــي كل مكان شقوقٌ صغيرة، تتدفق المياه منهـــا ولا تلبث أن تغور وتختفي. ولم يلحـــظ شيء في الطقس أو في حالة الجو. ولم تكن الأبنية في أعالي الجبال أكثر أمناً من الأبنية المجاورة لضفاف الأنهار أو على شاطئ البحر.

وعلى الرغم مـــن الهزات الأرضية التي كانت تحدث بين وقت وآخر في هذا البلد، لكن من المؤكّد أنّه منذ عدّة قرون لم يُحدِث أيٌّ منها أيَّ ضررٍ مادّي باستثناء هزّة أرضيّة حدثت منذ ٢٧ ســـنة عندما هدمت جزئياً مدينة اللاذقية. كما إنّه في العام (١٧٥٥م) شُعـــر بهزّة أرضية في حلـــب وأنطاكية وقد تنبّه السكان بحيـــث تركوا منازلهم مدّة ٤٠ يوماً ولم يحصل ســـوى أضرار مادية قليلة ولم يمت أحدٌ.

ويتابع باركر في رسالته وصف الزلزال فيقـــول: «عندمـــا تسمـــح عـــودة النهـــار يتعرّف الناس علـــى بعضهم يهرع الأحياء إلـــى احتضان بعضهم بعضـــاً بشعور فرح باستمرار وجودهم. لكن يعقب هذا الفرح علـــى الفور حزن شديد، حيث فقد العديد مـــن السكان الأصدقـــاء والأهل والأطفال والأزواج والزوجـــات. وتهتز الأرض تحت أقـــدام الذين نجوا منـــذ ١٣ آب وحتى ٩

تشريـن الأوّل طيلة ٥٦ يومـاً وليلة كئيبة جعلت الإنذار بالخطر والقلق قائماً. وفي كل مـرّة تهتزّ الأرض كان الشعور بالخوف من أن تكون تلك ليلتهم الأخيرة. وقد جرح الكثير وعانوا سكرات الموت، وكان للميت تعزية صغيرة عدا مشهد الموت المأساوي هو قيـام الأحياء بدفـن الموتى. يضاف إلى تلك المحن سمـاع السوريين التعساء بانتشار وباء الكوليرا فـي بلاد الرافدين المجاورة لسورية».

«لقد اعتبرتُ إنقـاذي من فكي الموت معجزةً، حيث نمنا (السيد باركر وزوجته) في الغرفـة العليا المطلّة على نهر العاصي في أنطاكية، وكان السقف مدعّماً بجيزان وألواح خشب ومغطّى بالقرميد. وكنتُ وزوجتي في السرير وعلينـا بعض الثياب. وبدأ الزلزال بهـزّة معتدلة كالتـي تسبقهـا والتي مرّت من دون ضـرر، وأقنعنا نفسينا أنها بسيطة لكنّهـا ازدادت خـلال ثوانـي وسمع صوت انهيار عام. في البدء انهار السور العالي ذو الفتحات في الأبراج للمدينة القديمة والذي يستند عليه جزءٌ مـن بيتنا. وحال سقوطه أقنعنا أنفسنا خلال جزء من الثانية بأمل أنّ الهزّة قد انتهت. لكنّها عادت بقوّة إضافية، وخـلال ثانيتين أو ثلاث انهـارت الجدران الأربعة كما لو كانت مصنوعة من العجينة، ومن حسن حظّنا سقطت نحو الخارج ورأينا نفسينـا بلطف في الأسفل على أقدامنا في الغرفة السفلى قـرب الباب وتحت نجفته. وضعـتُ ذراعي اليسرى حـول عنق زوجتي ونحن نتوقع في تلك اللحظة الموت بسقوط حجر أو جائز علينـا. وشعرتُ بالتعزية في تلك اللحظة الكئيبة أنّـه قدّر لنا أن نموت معـاً، أحدنا بين ذراعي الآخـر، وأن ندفن معاً في القبر نفسه. «حسناً يجب أن نموت إنّهـا إرادة الله». حاولنـا مـن دون جدوى فتـح الباب المغلـق بأحجار كبيـرة، وكان الجيران ينتحبـون جميعاً والصراخ المعقّد لجيراننا عـالٍ جداً بحيـث أن أصواتنا لم تكـن تسمع ولا أحد ينتبه إلينا. وأخيراً جاء حنا وأنطونـي لنجدتنا، وقد حمتهما نجفة الباب من تساقط الأحجـار فوقهما، وفُتح الباب بحيـث سُمح لنا بالخـروج. ولحسن الحظ كان أحد المصابيح معلّقاً في شجرة المشمشـ الكبيرة في باحة الدار وكان نوره سبباً فـي إنقاذ حياة العديـد من جيراننا التعساء الذين لم يكـن بالإمكان إخراجهم من الخراب حتى الصباح لو لم يساعد ضوء المصباح في إنقاذهم.

تـرى ما هي القوّة (القدرة) التي ألزمت آلاف الأحجار أن تحتـرم أجسادنا وتحطم إلى مئة قطعة جميـع الأغراض المتحرّكة فـي غرفتنـا المؤلفة من هيكلَـي سريرّين وكرسيَين وطاولة؟

جـاء رجـل مسكين من البيـت صباحاً وانتشـل من الـركام جثث والدتـه وزوجته وأولاده الأربعة. وجاء رجل آخر، كان فرحاً لانسحابه -بشعوره الذاتـي- إلى البساتين عند الهزّة الأولى، عاد باكراً في الصباح من أجل شيء تافه ولقـي حتفه عندما ظنّ أن الخطر قد زال.

هل سيشفق السيّد الأعظم (السلطان العثماني) أخيـراً على رعاياه المظلومين الذين ارتأى الله أن تصيبهم نكبة مروعة كهذه؟ هل يقبل أن لا يعفيهم في السنوات القليلـة القادمة من دفـع ضرائبهم؟ إنه حـدث جلل كفداحـة الكارثـة، فهي لن تُعطى أي اعتبار، وهـي مصادفة أرسلها الله، إن لم تكـن سبباً، لتحرّر الشعب من اضطهـاد الباب العالـي لسنتين أو ثلاث على الأقل.

إنّ الظلام الدامس أثناء الليل واستمرار الهـزّات الأكثر عنفاً خـلال فترات زمنية قصيـرة، وانهيـار الجـدران المتساقطة والصـراخ والأنيـن وأصـوات المنازعين والبائسيـن في تلك الليلـة أشياء لا يمكن وصفها. وعندما يبزغ الفجر وتسمح عودة النور للناسـ بترك البقعة التـي أنقذتهم فيها العناية الإلهية يبدو مشهد مؤثّر جداً. تـرى كثيراً من الذين لـم يعتادوا الصلاة ساجديـن علـى ركبهم يعبـدون خالقهم، وتـرى آخريـن يركضون ليعانـق بعضهم بعضـاً وقد عمّ الملامـح والوجوه جوٌّ من الحبور والمحبّة والأخوّة.

فـي نكبـة عامة يكـون فيهـا التركي (المسلـم) والمسيحـي واليهـودي وعابد الأوثـان ضحايا من دون تمييـز خاضعين للعنايـة الإلهيـة النزيهة، ينسـى كل واحدٍ ولفتـرةٍ أحقـاده الدينية، ويكـون الشعور السائـد في تلك اللحظـة المفرحة هو أن كلّ واحـد ينظر بلامبـالاة إلى أكبر فقدان أصابه. لكن ما أن تزداد حدّة أشعّة الشمس حتّى يبدأ الناسـ بالتدريج بتذكّر حاجاتهم الطبيعية مـن المأوى والغـذاء، ويصبحوا أحياء إلى أقصى مدى في مواجهة المشهد الحزين أمامهم، حيث يواجهون قدراً كبيراً من البؤس الإنساني نادراً ما يحصل بسبب اضطراب الطبيعة العنيف».

هكذا وصـف قنصل انكلترا جون باركر زلزل العام (١٨٢٢م) الـذي عاناه شخصياً وعاشـ دقائقه وثوانيه. والجدير بالذكر أنَّ باركر طلـب من لندن إرسـال إعانات لمن عانوا مـن الزلزال المدمّـر، وأُرسل Nليه أكثر من ١٠٠٠ جنيـه إسترليني بدأ بتوزيع جـزءاً منها على المتضرّريـن من الزلزال. إلاّ أنَّ الحكومـة العثمانيـة رفضـت تقبّل رعاياهـا مساعداتٍ من الخارج وأمرت بردّ المساعدات المقدّمة.

مع:

الأديب الدكتور هزوان الوز

إعداد: محمد خالد الخضر ❁



الأديب الدكتور هزوان الوز كاتب وروائي وقاص ويبحث في الأدب والسياسة إضافة إلى ترجماته الكثيرة عن الروسية ومن هذا وذاك يرقى فيما يذهب إليه إلى سمو أدبي رفيع من خلال منظومة وطنية وثقافية وأخلاقية تجتمع في كتاباته ليخلص إلى عالم إنساني أرقى، وحول ما يكتب كان الحوار التالي:

- تعدد الاختصاصات والمعارف لدى الكاتب هل تثقل كاهله أم تعطيه أفقاً أوسع ومقدرة على الخوض بقضايا جديدة والغوص بتفاصيلها؟

❁ أديب وصحفي سوري.

• الأمـــران معاً، تثقــل كاهله إذا لم يكن كاتباً بحقّ، وتمنحه أفقاً إذا كان كاتباً بحقّ. ففـــي الحال الأولـــى يتجلّى التعـــدد بعثرة للطاقـــة، وفي الحـــال الثانيـــة يشرع هذه الطاقة على أمداء مفتوحة.

إنّ تعـــدد الاختصاصـــات يعطـــي أفقاً ثقافيـــاً أوســـع وإمكانيـــة للتكامـــل أفضل فكراً وانفعـــالاً وهذا ما يمكنه من الإحاطة الأشمل والنفاذ الأعمق. مع الإشارة إلى أنّ تلك الاختصاصـــات وإن بدت متباعدة عن بعضها فهذا التباعـــد ظاهري لأنّ صلاتها في الحقيقة تشاركية، بل تكاملية على نحو أدق، تشبه الإنسان نفسه.

لقد كتبـــت في غير حقـــل معرفيّ: في الإبداع السردي، قصّـــة ورواية، وفي الفكر التربوي، والإعلاميّ، والترجمة عن الروسية، وأعتقـــد أنني استطعت إنجاز ما كنت أطمح إليه في هـــذه الحقول جميعـــاً، كما أعتقد أنّني لم أبـــدّد طاقتي في مجال الكتابة كما قد يقدّر أحد آخـــر، فلقد كان لي خياراتي التعبيرية الخاصة بي، والمنطلقة من إلحاح اللحظة التاريخية لفعل الكتابة، ولذلك كان كلّ عمل ممّا أنجزت مرتبطاً بشرطين اثنين: مـــا يؤرقني على المستـــوى الشخصيّ، وما يبدو مؤرقـــاً على المستوى الجمعيّ، ولذلك أيضـــاً كان كلّ عمل ضرورة فردية وجماعية في مرحلتـــه، ولعلّك تكتشف ذلك من خلال إحالـــة كلّ منجَز إلى السنة التي صدر فيها، أو المرحلة التي كان مؤرقاً بها.

- انتهجت طريق الجرأة والمباشـرة في الطرح منذ عملك الأدبي الأول /عيون في الخريف/ حيث دخلت إلى عوالم البسطاء والكادحيـن ومعاناتهـم فضـلاً عـن نقـد الممارسـات الخاطئـة فـي الواقـع العربي والسياسـي. هل يتعلق ذلـك بنظرة فكرية إزاء الأحـداث السـابقة طـوال العقديـن الماضيين أم برغبة في تصوير الواقع؟

• قـــد لا يكـــون مفهوم «مـــرور الكرام» - كما هـــو متواتـــر ومستقر بيـــن الناس- مستحبـــاً لـــدى الكاتب الذي يريـــد التأثير والإبـــداع، فالكتابة موقف من الواقع، وهذا الموقف يتطلب رفع الصـــوت أحياناً ودس الأنف في أعماق المجتمع وزواياه لتحسس الرطوبة والعفونة والعطن، ولذلك فالأدباء أصحاب المواقف من ذوي الإبداع يشهرون أقلامهم كمـــا السيف أو يسيـــرون بصدور عارية وهم يتوقعون أي شيء.

الجرأة في مقاربـــة الموضوعات الأكثر التصاقاً بحيوات الناس ومؤرقاتهم ضرورة في الإبداع، وغيابها يعني تعليق هذا الإبداع في الفراغ، وشخصيـــاً لا أعتقد أنني فيما كتبـــت، بل فيما صدر لـــي، تجاوزت حدود الواقع إلى حدود المباشرة على الرغم مما بيـــن الحقلين من مشتـــركات، لأنني طالما

آمنت بـأن الكتابـة مسؤوليـة، واستجابة لمثيرات الواقـع، ومواجهة دائمة لمعوقات تطوره وتقدمه، ولطالمـا كان هذا الإيمان البوصلة التي توجه الموضوعات التي أختار لتكون محكيـات للنصوص القصصية التي سأكتب، ولعل ذلك هو ما قصدت إليه بتعبير عوالـم البسطاء والكادحيـن الذين يمثلون بالنسبة إليّ رصيداً غالياً فيما يعني الكتابة ورسالتهـا، أما أن يكون هذا مرتبطاً بنظرة فكرية، فلا بد أنه كذلك، بل إذا شئت الدقة لا بـد أنه يصدر عن رؤيـة للحياة والواقع، وهـذه الرؤية ليست وليـدة أي أيديولوجية ومن أي درجة كانت، بل وليدة الواقع نفسه الذي غالباً مـا مثل بالنسبـة إليّ المرجع والغاية بآن.

- فـي أي نـوع مـن أنـواع الأدب الواقعي تدرج فيه قصصك التي تكتبها؟

• مـع أنني لا أعتقـد بالتخوم الصارمة بيـن أنواع الأدب لكن يمكن أن أقول إنَّ تلك القصص تندرج تحـت الواقعية وكفى ذلك مهما يكن من أمر الواقعيات التي قالت بها نظريات نقدية مختلفة.

فـي إجابتـي السابقة أشـرت إلى ما اصطلحـت عليه بالمرجـع والغاية، أي الواقع، وهذا الأخير لـديّ أصل في كل ما كتبت وأكتب، وهو هدف بآن في كل ما كتبت وأكتـب، ولذلك لم تكن تعنينـي أي فعالية لتصنيـف كتابتي تحت أي مرجع واقعيّ، أو دلالـة واقعية، أو نظريـة نقدية تنطلق من الواقع، بل الكتابة نفسها بعيداً عن التصنيف والتبويـب والحقول مسبقـة الصنع. يكفي المبدع أن يكـون مخلصاً للواقـع، ويكفيه أن يكـون هذا الإخلاص صـادراً عن وعي حقيقي بالواقع، بل عن معرفة حصيفة به، وإن لم يكن كذلـك فستكون الكتابة عندئذ ظلاً للواقع لا الواقع نفسه، أو شبهاً بالواقع بدلاً من أن تكون صورته.

-ألا تجد أن أدبك يوغل في شرح الواقع الحزيـن إلـى حـد التراجيديـا ولاسيما مجموعة /حكايا طائر السمرمر/؟

• الواقع أكثـر إحزاناً مـن أدبنا لذلك أخاف أن أكون مقصراً في هذا المجال.

نحن نعيش الحـزن ونحلـم بالسعادة، طريقنـا إلى السعـادة مفروشـ بأحزاننا، وهـذه ليسـت نبـرة حزينة وليسـت فكرة مطلقة ولكنهـا واقعية إلى درجة تكاد معها تصبح جوهر الحيـاة. الولادة لا تكون بغير ألم والانفراج لا معنى له إلا بعد الكبت، أمَّا الفـرح الذي يأتي من فرح ويعقبه فرح آخر فسيورث الملل لا محالة، وأنا سعيد بطبعي وسعيد في حياتي.

الحزن خزّان الإبـداع كما يُقال، ولولاه لما كان هذا الإبداع، ولكن أيّ حزن؟ الحزن الـذي يستطيع المبـدع صياغته على نحو

يبتعد معه عن حرائق الواقع ليخلق حرائق النصّ الذي يكتبه، وهذه الأخيرة هي ما تجعل الحزن نبيلاً وشفيفاً وفاعلاً في إرادة التغيير لدى القارئ للخلاص من تشوهات الواقع وآثامه.

- ما رأيك بالقصة القصيرة جداً، وهل تعتبرها جنساً أدبياً يندرج تحت اسم القصة، وهل لها مستقبل كالقصة القصيرة والرواية؟

• يصعب القطع في هذا المجال لأنّ هذا النوع لم يضع قدماً راسخة أو يحدد بعداً خاصاً به، فبدا كملعب من غير لاعبين، وباستثناءات تكاد لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، وأنت تعرف كما يعرف السادة القراء أنّ زهرة أو بضع زهور لا تصنع ربيعاً.

لقد شهد العقد الأخير من القرن الفائت محاولات كثيرة لجعل القصة القصيرة جداً ظاهرة في المشهد القصصي، السوريّ على الأقل، غير أن تلك المحاولات سرعان ما ارتطمت بحائط الوهم بأن كل نص حكائي قصير هو قصة قصيرة جداً بالضرورة، وسرعان أيضاً ما تصدعت تلك المحاولات لغير سبب، ومن ذلك توجه كثير من الأصوات الجديدة إلى هذا النوع من الكتابة اعتقاداً منها بأنه جواز مرور إلى المشهد القصصي الذي بدا آنذاك صاخباً بالظاهرة، ومنه إقدام فقراء الموهبة على ركوب الموجة، أي الظاهرة، ولعل ذلك ما كان سبباً في عدم صمود الظاهرة طويلاً، ولعله ما جعل الظاهرة صوتية بامتياز كما وصفها أحد النقّاد المتابعين للحراك القصصي السوريّ.

- أنت كتبت مقالات في السياسة. هل هناك رابط بين هذا النمط الثقافي والأدبي، وبين القصة والرواية؟

• الأدب والثقافة نتاج إنساني يخضع لقواعد وشروط لكنه يبقى نتاجاً إنسانياً يعبر عن مواقف الحياة والإنسان، والرابط بين ما أكتب بالسياسة أو الثقافة أو الأدب كالرابط بين خطوط اللوحة الفنية وألوانها ومكوناتها.

شخصياً لا أرى أن ثمة حدوداً حاسمة بين مجالات الإنتاج الفكريّ، بل إنّ ثمة تراسلاً بهذه الدرجة أو تلك بينها جميعاً، وأعتقد أنّ الموضوع هو الذي يختار شكله من جهة، ويحدّد تخومه الأجناسية من جهة ثانية. وفي الحالين ليس ثمة فروق بين الكتابة الفكرية والكتابة الإبداعية إلا بالشكل وحده، فكلتاهما مؤرقتان بالإنسان، وبالتنوير والتغيير، أعني أنّهما تستهدفان الإنسان كلٌّ على طريقته، وبوسائله

الخاصة، وسأعود معك إلى إجابة عن سؤال سابق لأؤكد أن الموضوع هو الذي يختار فضاءه التعبيريّ.

- لماذا لم تقف عند جنس أدبي واحد ولقد عددت اتجاهاتك الثقافية؟ أليس صعباً في ظل أعمالك الإدارية الجسيمة والشاقة؟

• ألم أقل في إجابة سابقة إنني سعيد في حياتي؟ ومصدر هذه السعادة أنني أعرف كيف أدير شأني إنساناً ومسؤولاً، أعني على المستوى الذي يخصني بوصفي أباً لأسرة، وعلى المستوى الذي يخصّ عملي بوصفي معنياً بواحدة من أهم المؤسسات التي تخص المجتمع عامة. وبين المستويين أنا هزوان الوز نفسه، أعني الأب والكاتب والمترجم والمسؤول، وأعني أكثر أنني أمنح كلّ صفة ما يليق بها من الجدية والمسؤولية، الأمر الذي مكّنني من أن أكون الكاتب والمترجم عندما يجب أن أكون، أي عندما يلحّ عليّ هذا الموضوع الإنسانيّ أو ذاك، ومن أن أكون المسؤول عندما يجب أن أكون كذلك. وأستطيع أن أقول إنني في الحالين أحمّل نفسي ما يجب من أمانة الأداء، ومن الإيمان بواجبين: واجب الكلمة، وواجب الإدارة، وإنني لا أجد فرقاً بين الحالين إلا في الدرجة فحسب.

- قمت بترجمة العديد من الكتابات الأدبية. هل أثّر ذلك على شخصيتك الثقافية والأدبية؟

• إذا سلّمنا بأن قراءة النتاج الإنساني الثقافي هي عملية تفاعلية بين القارئ والنص الذي أثّرت فيه مكونات عدّة منها الزمان والمكان فإن الترجمة هي تفاعل مع المقروء وإعادة إنتاج له مع التشدد في الأمانة للغة النص وفكره والتحليق عالياً في فضائه، وبذلك تكون الترجمة منحتني فضاءات أخرى رحبة للتحليق فيها.

لقد كان لمعرفتي بلغة أخرى غير لغتي الأم، بل لتمكّني من تلك اللغة، دور كبير في معرفة أخرى، هي الإبداع المكتوب بتلك اللغة، وفي قراءته في مصادره، ومن المؤكّد أنّ ذلك كان له أثره في ثقافتي أولاً وفي بنائي للنص الذي أكتبه ثانياً، ومن البدهيّ بأن أن يكون واضحاً بهذه الدرجة أو تلك في مجمل ما كتبت، من دون أن يعني هذا أثراً مباشراً وجهيراً، بقدر ما يعني تعبيراً عن زاد ثقافي بمغامرات الآخر.

إنني شديد الإيمان أنّ أي كتابة لا ترفدها ثقافة الآخر، كتابة محدودة في أفق يخصها، وأرى، في هذا المجال، أنّ منجز الآخر، فكرياً وإبداعياً، ضرورة لأي كاتب، وبمنأى عنه، وفي غيابه، تتجلّى الكتابة بوصفها مثاقفة مع نفسها، وغير

خـــاف أنّ المثاقفة بمعناهـــا الحقيقي هي مـــا تتجزه الكتابة من علاقات مع مغامرات الآخر، ومـــا يجب أن تتركه من أثر في تلك المغامرات في الوقت نفسه.

- هـل ترى واقـع الترجمة واقعاً سليماً على الساحة الثقافية؟ وكيف تقيّمها؟

• يبدو واقع الترجمـــة ليس على النحو الذي نطمح إليه، مع تقديري للخطوات التي تمـت في هذا المجـــال، فالترجمة تتطلب خطـــة واقعية واضحـــة المعالـــم ومكتملة العناصـــر وتتعاطى مع موضـــوع الترجمة علـــى أنه طريق باتجاهيـــن، نترجم للآخر ويترجـــم لنا، وهـــذا الطريق إلـــى ساحات ثقافيـــة متعـــددة من ساحـــات الثقافة في العالم، نوسع بـــه مصادر المعرفة والثقافة والحضـــارة ونقرب به بني البشر من بعض لتأخذ يد العولمة بعـــداً إيجابياً بعيداً عن الهيمنة الثقافية.

أمّـــا تقييم هذا الواقـــع وتقويمه فشأن الجماعة البشرية، بـــل المؤسسات، لا شأن فرد وحده، وإذا ما كنت مصراً على معرفة رؤيتي الخاصـــة له، فسأكتفـــي بالقول إنّه أشبه بشخص سليم ظاهراً ومريض حقيقة، بل، إذا شئت الدقـــة أكثر، أشبه بأنثى تتقن تجميـــل نفسهـــا لتخفي ما هـــي عليه في الحقيقة، فيخيّـــل للناظر إليها أنها حسناء، بينما هي في الواقع ليست كذلك.

- ما رأيك بالساحة الثقافية بشكل عام وبما يدور عليها؟

• أتت سنوات الحرب إلينا كما تأتي النار على المعادن وانكشـــف الجوهر، فأظهرت سنـــوات الحرب في بلادنا قامـــات ثقافية وأدبيـــة تستحـــق الاحتـــرام والتقدير، وفي الوقت نفســـه وبعيداً عن منطـــق التخوين والاقتتال هنـــاك أسماء كثيـــرة وكبيرة في ساحتنا الثقافية أقل ما يمكن أن يقال فيها إنهـــا أضاعت بوصلتها، منها من سقط على الطريق ومنهـــا من يترنح. وفي كل الأحوال لقد خلقـــت الظروف حالـــة أو حراكاً عند المثقفين يتلمسون بـــه الطريق الذي يجب أن يسلكوه بعيداً عن المهاوي والمطبات في ثقافتهـــم التي يجب أن تشكل لهم وللأجيال القادمـــة وللوطن حصناً يحميهم ويفتح لهم الطريق إلى العالم المعاصر.

- استُقبلتْ مجموعتك القصصية الصادرة قبـل نحـو سنة، أعنـي «صباح الياسمين.. صباح الغاردينيا»، عن اتحاد الكتّـاب العرب، بحفاوة واضحة، ولاسيما أنها صدرت بعد توقـف عـن الكتابـة الإبداعيـة يبـدو طويلاً. ما الـذي جعلك تعود إلى كتابة القصة القصيرة من جهة، وإلى النشر في هذا المجال من جهة ثانية، ولاسيما أن المتابـع لمسارك الثقافي صار يعتقد بإخلاصك للكتابة الفكرية والترجمة وحدهما؟

• نعم كان ثمة مسافة زمنية طويلة بين صدور مجموعتي الثانية وصدور مجموعة «صباح الياسمين»، ولكن خلال ذلك لم أتوقف عن كتابة القصة، كما لم أتوقف عن نشرها، ولعلك تلاحظ أن مجمل النصوص التي تضمنتها المجموعة هي نصوص منشورة في غير دورية ثقافية.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى كنت أقدّر أن المجموعة ستحظى بما حظيت به من اهتمام القراء والنقاد، ولغير سبب، ومن تلك الأسباب أنّني اخترت تضمينها النصوص التي تمثّل خطوة جديدة في أدواتي القصصية، وفي وعيي بفن القصة، ولاسيما ما يعني بناء النصّ القصصي وتحريره من كونه حكاية فحسب ليصير فناً في الوقت نفسه. ومنها أنني اخترت تلك النصوص بعد مراجعة كافية لمنجزي في هذا المجال، أي للمجموعتين اللتين صدرتا من قبل، ومنها ثالثاً أنّ وعيي بفعل الكتابة، بوظيفته ووسائله، تقدّمَ على المستوى المعرفيّ خلال تلك السنوات التي فصلت بين زمنيّ صدورها وصدور سابقتها.

- وماذا عن رواية «كتاب دمشق، حاء الحبّ راء الحرب»؟

• على الرغم من غمرة الأعباء التي نهضت بها في السنوات الثلاث الفائتة خاصة، أعني إدارتي لمؤسسة التربية في ظروف استثنائية تعرفها ويعرفها القراء جميعاً، فإنني لم أكن أدخر جهداً في متابعة المنجز الروائي السوريّ الذي عني بالحديث عن النزيف الذي يعيشه الوطن منذ نحو خمس سنوات، ولشدّ ما كان يدهشني أنّ معظم ذلك الحديث كان خطاباً أكثر منه أدباً، وأنّ معظم أصحابه سقط في شرك الكتابة المسبقة على الواقع بدلاً من أن تكون الكتابة منطلقة من هذا الواقع نفسه، ولعل ذلك هو ما دفعني، بل ما ألحّ عليّ، في كتابة روايتي التي تشير إليها، ولعله أيضاً ما حررني من سطوة الكتابة التي تمضي إلى نفسها مسلّحة بالرؤية السابقة على الكتابة نفسها، ولعلّه ثالثاً ما يجعلني أعتقد بأنّ الرواية شاهدُ عدل على نزيف الوطن وليست شاهداً تم تلقينه ما يجب أن يقول في حضرة الواقع.

- نحو ثلاثة عقود، وأكثر، وأنت أحد الكتاب السوريين الذين كان لهم حضور في المشهد الثقافيّ السوريّ الذي غالباً ما يوصف بأنه مشهد ناحل على المستوى النقديّ، هل يمكن أن تحدثني وتحدث السادة القراء عن الاستجابات النقدية لتجربتك الإبداعية خاصة؟

• أنا أنظر بعين التقدير إلى المستوى النقدي في المشهد الثقافي السوري ولو وصف بالنحولة نظراً لما كان له من أثر إيجابي في كتابات المبدعين السوريين

على مدى زمني طويل، وآمل أن يرتقي هذا المستوى إلى حد الطموح. ومن جانب آخر أسعدني أن تحظى تجربتي الإبداعية بمتابعة من قامات نقدية شكلت علامات بارزة في مجال النقد الأدبي ليس على صعيد الساحة الثقافية السورية فحسب بل إلى ما هو أبعد منها مثل الدكتور عبد الله أبو هيف والدكتور نضال الصالح والدكتور عاطف بطرس، إذ كانت إسهاماتهم النقدية كشفاً أنيقاً مرتكزاً إلى أسس علمية عن توهج الروح في كتاباتي، وبذا صار النص ينساب في دواخل المتلقي انسياب الدم في العروق ليعطي أروع تجليات الإبداع في علاقته مع الإنسان.

وأقدّر أن يكون لروايتي الصادرة مؤخراً استجابات نقدية أكثر ممّا حظيت تجربتي به من متابعة، وأن يكون ثمة مرجعان لتلك الاستجابات: واقعيّ، يرتبط بمحكيّ الرواية، أي بما شهدته سورية فيما مضى من السنوات، وفنيّ، يرتبط بالعمارة السردية المنبثقة، كما أرى، من المرجع الأول، والتي رأيت أنها الأكثر اتساقاً مع تحولات الأحداث ومصائر الشخصيات فيها.

صدر للأديب الدكتور هزوان الوز

- **أولاً: الأعمال الأدبية**

١- «عيون في الخريف»، قصص، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق (١٩٩٤م).

٢- «حكايا طائر السمرمر»، قصص، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق (١٩٩٧م).

٣- «سرير من الوهم»، رواية، دمشق (٢٠٠٠م).

٤- «صباح الياسمين.. صباح الغاردينيا»، قصص، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق (٢٠١٤م).

٥- «كتاب دمشق، حاء الحب راء الحرب»، رواية، دار الفارابي، بيروت (٢٠١٥م).

- **ثانياً: الدراسات**

١- «نحو مجتمع معرفي»، دار الشرق، دمشق (٢٠١١م).

٢- «الوطن في لحظة الحقيقة»، دار الشرق، دمشق (٢٠١٢م).

٣- «الإعلام /أدوار وإمبراطوريات/». وزارة الثقافة، دمشق (٢٠١٢م).

- **ثالثاً: الترجمة (أعمال للكاتبة الروسية غالينا شيرباكوفا)**

١- «اثنان وواحدة » قصص.

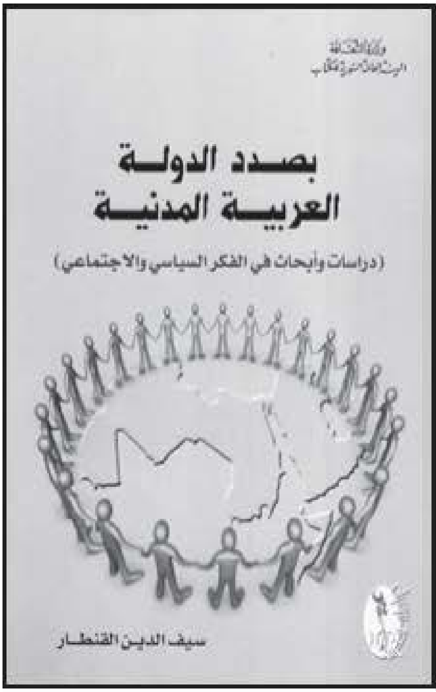
- طبعة أولى، دمشق (٢٠٠١م).
- طبعة ثانية، وزارة الثقافة، دمشق (٢٠١٣م).

٢- «حب ميتيا»، رواية، وزارة الثقافة، دمشق (٢٠١٤م).

بصدد الدولة العربية المدنية

عرض وتقديم: سمر الزركي *

شغلت حريّةُ المرأة اهتمام المفكرين وروّاد النهضة، ودعاة المشروع القومي النهضوي وقد نادى هؤلاء الروّاد برؤية جديدة، تسهم في رفع الحيف عن المرأة، وتجلى ذلك مع ظهور تيارين، أحدهما تشبّع بمبادئ الثورة الفرنسية، وشعارات الحرية، والعدالة، والسماح للمرأة بالعمل.



فقد دعا رفاعة الطهطاوي إلى التعلم المختلط، ورأى فيه الشكل الطبيعي والإنساني للعلاقة بين الجنسين، وأكّد أن عمل المرأة هو الذي يصونها ويقربها من الفضيلة، فقال:

* كاتبة سورية.

«فإذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال، فهي مذمة عظيمة في حق النساء»».

التيار الثاني، آثر وللهدف ذاته العودة إلى التراث العربي الإسلامي، فدعا إلى إعادة حق الاجتهاد والتأويل، ليفهم الناس ما انطوت عليه الأديان من تسامح ومساواة، فقد أكّد الشيخ محمد عبده على ذلك بقوله: «إنَّ المرأة والرجل متماثلان في الحقوق والأعمال والذات والشعور والعقل، أمَّا الرجال الذين يحاولون عبر ظلم النساء أن يكونوا سادة في بيوتهم فإنَّما يولدون عبيداً لغيرهم».

ومن الإنصاف القول إنّ قاسم أمين كرّس جلَّ حياته للدفاع عن قضية المرأة، ووضع في كتابيه «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» خلاصة رسالته. وجوهرها أنَّ قضية المرأة قضية سياسيّة، واقتصادية، واجتماعية، وثقافية، تتصل بتطور المجتمع، ومجمل الظروف الواقعية التي يعيشها، فهي رهن برقيّ المجتمع، وتتقدم بتقدّمه، كما أنَّ الأمم المتقدمة تقاس بحرية المرأة، ومكانتها في المجتمع.

وأكّد أنَّ المساواة التامّة بين الرجل والمرأة أهم ركن من أركان بناء الدولة الحديثة التي تصدّى الباحث سيف الدين القنطار للحديث عنها في كتابه «بصدد الدولة العربية المدنية» الصادر عن وزارة الثقافة- الهيئة العامة السورية للكتاب- دمشق ٢٠١٥م، بمئة وستين صفحة من القطع الكبير.

تتناول موضوعات الكتاب السجال الفكري- السياسي- الاجتماعي الذي تجلّت إرهاصاته بداية القرن الماضي مع تنامي شعور نخبة المثقفين العرب بحتميّة القراءة النقدية للواقع العربي، وبعث مشروع النهضة العربية، من خلال الدعوة إلى بناء الدولة الحديثة، بمناهضة الاستبداد، والإصلاح الديني، والعلمانية، وتحرر المرأة، وإقامة المجتمع المدني، والأخذ بناصية التقدم، والتفاعل الخلّاق مع معطيات الحضارة المعاصرة، والتأكيد على أهمية المثقف ودوره في بناء الدولة. فجاءت عناوين البحوث في الكتاب متسلسلة على النحو التالي:

١- الدولة في الفكر السياسي ماضياً وحاضراً.

٢- المثقف والسلطة.

٣- الدولة والمجتمع المدني.

٤- الدولة والعلمانية.

٥- الدولة وحرية المرأة.

٦- موقع السياسة وأثرها في التجربة الثقافية العربية.

٧- الدولة ومسألة الحرية.

٨- العولمة والدولة العربية الحديثة.

٩- الثورات والانتفاضات العربية، وبناء الدولة الحديثة (والثورة المصرية أنموذجاً).

ومن دون ريب فقد بدا هذا المشروع النهضوي مفعماً بالطموح، وبدأت تجلياته بعد أن حمل لواءه عصبة من المتنورين والروّاد، الذين وضعوا نصب أعينهم إيقاظ العرب من سباتهم الطويل، وأقدموا بحماس عزّ نظيره على نشر الوعي، ولم تنل صلابة الواقع وعناده، ولا كثرة الخصوم وشراستهم من عزيمة هؤلاء الروّاد، وسطع نجم مفكرين وكتّاب وأدباء كجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وقاسم أمين، وطه حسين، وإبراهيم اليازجي وغيرهم... وكان القلم سلاح هؤلاء الروّاد فأقاموا الدنيا ولم يقعدوها، بجرأتهم وهم يَدّعُون إلى نشر العلم بهدف محاربة الاستبداد والجهل، وإعلاء شأن الحرية، ورفع معظمهم راية العقلانية في التصدي لضلالات الخرافة والرجم بالغيب، وداعب خيالهم حلم السيادة، وبناء دولة عربية منيعة الجانب، ولكن هذا الحلم ظل معلقاً على صليب التخلف الهائل وأطماع الغرب. على حد تعبير الباحث سيف الدين القنطار الذي رأى -من خلال تقديمه للكتاب- أنَّ الانبعاث السياسي كان جوهر المشروع النهضوي وعموده الفقري، ولذلك سعى هؤلاء المفكرون والمنورون والأدباء إلى تقديم رؤية سياسية ذات بُعد ثقافي- إستراتيجي، بعد أن لاحظوا افتقار العرب إلى العلوم السياسية منذ القديم، إذا استثنينا مدينة الفارابي الفاضلة، وماجاء في مقدمة ابن خلدون، وأعمال إخوان الصفا. وقد استقطب المشروع النهضوي - كما ذكر القنطار- عقول الناس منذ البداية، وجذبهم إلى ميدان السياسة، وارتبط بتحولات اجتماعية واقتصادية، أسهمت في إظهار فئات اجتماعية، وقوى طبقية حديثة، عبّرت عن جوانب هامة من مطامحها، وجسدت كثيراً من أفكارها، وخلقت مناخاً تحررياً، كان من ثماره تعاظم مقاومة العرب لسياسة الانتداب والوصاية والاحتلال الأوروبي للأراضي العربية وتجزئتها، وقد انصبّ اهتمام المتنورين على مسألة الاستقلال، وخلاص العرب من الاحتلال الأجنبي، والتصدي للحركة الصهيونية، وعلى مجابهة الكيان الصهيوني.

وطوّر روّاد النهضة أفكارهم خلال الحرب العالمية الأولى، وفترة ما بين الحربين، وفي غمرة المعركة السياسية والاجتماعية التي جرت بعد الحرب العالمية الثانية. وبعد أن تمكن العرب من أن يظفروا بالحرية.. والاستقلال بلداً إثر

بلد، تردد في كتاباتهم دمج التنوير بالفكر التاريخي، وكان هذا يتطلب فيما يتطلب الدفاع عن حق الفرد في الحرية، والتحرر من الجهل والفقر، واعتبار ذلك ركناً أساسياً في بناء دولة العرب الديمقراطية بعد أن ظل احتجاب الديمقراطية «كعب أخيل» يشل قدرة الشعب ويحول دون تحقيق أهدافه.

ويجد القنطار أن هذا المشروع النهضوي -وبعد قرن من الزمن- قد سار في طريق شائكة ومتعرجة، ثم تراجع حتى خبا ضوءه، وخفت صوته، ودُفعت القيم التي بشَّر بها إلى الخلف، وطويت أفضل صفحاته. حتى أصبحت كالذكريات الدارسة.

وبدا -جلياً- أن نمط الدولة العربية القطرية كان سبباً حقيقياً من أسباب إعاقة المشروع النهضوي، وإقامة الدولة العربية الواحدة.

ولاسيما أنّه ظهرت في العالم العربي أنماط مختلفة من الدول، كانت السمة المشتركة بينها مصادرة الرأي، والإطباق على الحريات العامّة، وفرض سلطان الدولة المركزية السياسي بالقوّة، فحذّر المفكرون من مغبّة ذلك وعاقبته الوخيمة.

ورحم الله الدكتور طه حسين القائل: «لايقبل العقل الحر أن يفرض عليه رأي من الآراء، أو مذهب من المذاهب، ولا يمكن أن يخضع هذا العقل الحر لنمط بعينه من التفكير والتعبير والعمل والنشاط، والعقل الحر لا يقبل دكتاتورية مهما كان لونها، ومهما كان غرضها، ومهما كان أسلوبها في الحكم».

وذكر الباحث سيف الدين في التقديم أيضاً أن حلم بناء الدولة العربية الواحدة واجه صعوبات عدّة، فقد نهج أعداء العرب من كل شاكلة ولون نهجاً ثابتاً يهدف إلى تكريس التجزئة، ولهذه الغاية كانت اتفاقية (سايكس بيكو)، وإقامة الكيان الإسرائيلي، ولهذا الهدف أيضاً كانت مختلف قيود التبعية الاقتصادية والسياسية والفكرية، التي أصبح أبناء الأمة كلها ضحيّة لها.

ولعلَّ أخطر ما واجه العرب، ليس قدرة هؤلاء الأعداء على مجابهة طموحهم الوحدوي وتكريس التفتت، وإنَّما نجاحهم في تعميق التناقض بين العرب لدرجة التناحر والصراع، واستعداء بعضهم على بعض، ليتخاطبوا بلغة السلاح، فيزيدوا من الإحساس الجمعي لدى أبناء الأمة العربية بأنهم مدفوعون إلى معارك وصراعات مأساوية لا ناقة لهم فيها ولا جمل.

ويتابع القنطار: وهكذا كان الواقع العربي الراهن يطرح معضلاته باستمرار على جميع المفكرين وقادة الرأي، بحيث كان الكلام حول مستقبل العرب، وآفاق

العمل لتغيير هذا الواقع على كل شفة ولسان، وقد توقع كثيرون أن حالة الحطام العربي الراهن لن تستمر.

ومما لا شك فيه أنَّ تحقيق هذا الهدف، ليس رهناً بفرد قادر على صناعة التاريخ، ولا وقفاً على قوة سياسية وحيدة، أو سلطة مهما امتلكت من مقومات القوّة، ولكنّه فعل سياسي يشارك فيه الشعب بشبابه ونسائه، ونخبه الفكرية وقادة الرأي فيه؛ لينجز هؤلاء جميعاً ما بدأ به المنورون ولم يكتمل، كي لا يبقى العرب من محيطهم إلى خليجهم معلقين على صليب التجزئة والتخلف والتبعية.

وإنَّ الواقع المأزوم الذي نعيشه وتعيشه البلاد العربية -اليوم- يجعلنا نبدأ ببحث «الثورات والانتفاضات العربية وبناء الدولة الحديثة...».

إذ بيّن الباحث في هذا البحث أنَّ العامل الأساسي لقيام الثورات على مدى التاريخ، والمحفز لها هو القهر السياسي، والاستغلال الاقتصادي، والظلم الإنساني. وقد اعتمد القنطار في هذه الدراسة على أحداث تاريخية مشهورة، ذاكراً أنّه سار خلف سبارتاكوس (١٠٩-٧١ق.م) آلاف العبيد توقاً للحرية، وكان السبب المباشر للثورة الأمريكية في عهد جورج واشنطن عام (١٧٧٩م) الاستغلال الاقتصادي لشركة هندية- إنجليزية احتكرت بيع الأمريكيين، وقامت الثورة الفرنسية عام (١٧٨٩م) بسبب المجاعة التي أودت بحياة سدس سكان باريس، وقضت هذه الثورة على نظام الحكم المطلق للملك لويس السادس عشر، ودكّت الجماهير بغريزتها أبراج الباستيل.

كما قدّمت ثورة (١٩٠٥م) في روسيا العبر والدروس على أنه لا الاستغاثات يمكن أن تخفف من الأوضاع البائسة التي ينوء الشعب تحت وطأتها، ولا الالتماسات ورفع صور القيصر تحول دون إصدار أوامر بإطلاق الرصاص على الموكب الأعزل..

وقامت الثورة المصرية عام (١٩٥٢م) نتيجة الفساد الهائل، والفقر المدقع اللذين سادا في عهد الملك فاروق.

ورأى الكاتب القنطار أن الحراك الشبابي المصري، في العصر الحالي، قد قدم نماذج مختلفة من أساليب النضال بهدف التغيير أهمها وأبرزها أسلوب التغيير السلمي، وتمثّل هذا الأسلوب بالتظاهرات والاعتصام والمسيرات الليلية تتدفق فيها أمواج الشباب ذوي الاتجاهات العلمانية والديمقراطية والثورية والليبرالية والدينية تكتظ بهم الشوارع والساحات العامّة يرفعون شعارات ويعبرون عن أهداف محددة عميقة الدلالات كالحرية، وحق الناس في التعبير

مــن دون خوف، ووضــع المصالــح العليا للشعب فــوق المصالح الشخصية، وإقصاء الفاسدين ومصادرة الأموال المنهوبة، وبناء دولة القانون والمؤسسات والوحدة الوطنية في ضوء التعدديــة السياسية، ولقد عبّرت هــذه الشعارات عن جوهر هــذا الحراك، وعن تطلــع شبابهــا إلــى المستقبل الذي يفتح اليوم بيد الأجيــال الشابة التي تبشر بمفاهيــم معاصــرة وثقافة جديــدة لديها التصميم والإرادة.

ويعود الباحث القنطار في هذا الكتاب إلــى تجليات الدولة فــي الفكر السياسي ماضيــاً وحاضراً وذلك لشعــور المرء أنَّ تاريخ الفكر الإنساني يعيد بحث المسائل الجوهرية ذاتها، أي تلك المسائل المتعلقة بحيــاة الإنســان على وجــه الخصوص، وبتنظيم علاقته بمن حوله، إذ تطبع الوحدة والتشابه منهج التفكيــر البشري المنبثق من طوفــان الأسئلة الفكريــة والسياسية التــي أوحت بالجدل الساخن بين سقراط ومجايليه من الفلاسفــة والحكماء الذين انشغلوا بحياة الناس ومصائرهم، وطبيعة تلك الدولة التي ستنظم حيواتهم، وكيفية تحقّق تلك الأهداف والغايات المنوطة بها عبر تســاؤلات أبرزها: هل يجب أن يكون رجــال الحكم من النخبــة أم من الشعب؟ ماذا تعني الديمقراطية؟ ومتى بدأ الحديث عنها والتفكير بها؟ وكيف يمكن أن تصبح مبدأً في العلاقات بين الدول؟

ويلفت الباحث القنطار إلى الحضارات القديمة (السومريــة، الآشورية، الفينيقية، الفرعونيــة، وإلــى الحضارتيــن الصينية واليابانيــة، وسواهم مــن الشعوب القديمة الذين دمجوا بيــن مفاهيم الحكم والسلطة وبناء الدولة بالأساطير.. فثمة قوى خارجية هائلة، وآلهــة متعددة تتدخــل في مصائر البشر، وتصنع أقدارهم وتُملي عليهم إرادتها مثل (زيوس) و(جوبتير) وغيرهما..

ويستعرضــ الباحث في هــذا الفصل أنموذجــات أثــرت الفكــر السياسي عبر العصور والحضــارات المتعاقبة بدءاً من صولــون، وكونفوشيوســ، وحــكام مدينة أفلاطــون الفاضلة، وروائعــه الثلاث التي شكلــت الدعامــة الأولــى في نشــأة علم السياســة عبر كتابــه «الجمهورية» وكتاب «القوانيــن»، وكتــاب «السياســة» الــذي تحدث فيه عن نموذج الدولة الزمنية التي قسمها أفلاطون إلى ست دول، ثلاثة منها تتقيــد بالقوانين وتتمثل فــي: حكم الفرد المستنيــر، وحكم الأقليــة الأرستقراطية، وحكم الديمقراطية المعتدلة، وثلاث دول لاتتقيد بالقوانين يتجلى فيها: حكم الفرد

الاستبدادي، وحكم الأقلية الأوليجاريكية، وحكم الديمقراطية المتطرفة.

ويشير الباحث إلى الدولة الدستورية عند أرسطو الذي نقد جمهورية أفلاطون لعدم إيمانه بالحكم المطلق. معتبراً أنَّ الدستور هو مثله الأعلى إذ يجعل العلاقة بين الحاكم والمواطنين علاقة بين أحرار.

ويتفق مع أفلاطون على أن الضامن الوحيد للحكم الصالح هو القانون المرتكز على قواعد عامة وليس على أوامر، ما يجعل المواطنين راضين عن الحكم لا مرغمين عليه. ومن ثم يأتي الباحث على ذكر الفارابي الذي أسهم بنقل فلسفة أفلاطون وأرسطو إلى العربية حيث تناول من خلال كتبه مفاهيم السعادة، والعدل الطبيعي والوضعي، والمدينة الفاضلة التي تعني «الدولة» التي هي ثمرة الاجتماع الإنساني التي شبهها بالبدن التام الصحيح الذي تتعاون أعضاؤه كلها على حفظ الحياة.

ويقف الباحث عند كتاب «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» لابن خلدون وحديثه عن نشوء الدول وتطورها قوة وضعفاً وما تحتاجه من المناصب ووسائل الدفاع في البر والبحر، وكلامه المفصل في الضرائب والجباية، وحديثه عن مراحل الدولة الأربع التي تنشأ في البداية على أنقاض دولة سابقة لها، ويشترك رجال الدولة في هذه المرحلة في الدفاع عنها، ويبنون مجدها بالقوة والعزم.

وفي المرحلة الثانية: انفراد صاحب السلطان بالحكم بعد تخلصه ممن اشتركوا معه في تأسيس الدولة، وصنعه لبطانته الخاصة من المشايعين والموالين والمناصرين. وسيادة الاستقرار والترف في المرحلة الثالثة القائم على الخوف، وتمتع المناصرين بالترف والمال.. مما يمهد للمرحلة الرابعة إذ يتحول الاستقرار إلى ركود، وينتهي بتحلل الدولة، وينذر بزوالها.

ويستعرض البحث الدولة في الفكر الأوروبي المعاصر، وتأثره بالفلاسفة الإغريق وقد أتى على ذكر كتاب «يوتوبيا» لتوماس مور (١٤٧٨-١٥٣٥م) الذي تحدث فيه عن مجتمع منظم ذاتياً، يقوم على أسس ذات طبيعة اشتراكية من حيث العمل، والملكية، والخدمات العامة، وينطوي على مبادئ رفيعة للدولة باعتبارها المكان المنشود لهناء البشر، يحكمها أمير يستمر حكمه طالما حكم بالعدل..

ويلفت الباحث إلى ميكافيلّي (١٤٦٩-١٥٢٧م) وكتابه «الأمير» الذي فصل بين الأخلاق والسياسة فصلاً تاماً.. معتبراً

أنَّ غايــة السياسة هي المحافظة على قوة الدولــة.. مشيــراً إلى أن السمعــة السيئة لم تلحق بميكافيلي فــي حياته، وإنّما بعد موته، إذ اقترنــت بمقولته الشهيرة «الغاية تبرر الوسيلة».

ويشيــر البحــث إلى مونتسكيــو (١٦٨٩-١٧٥٥م) ونظريتــه في مبــدأ فصل السلطات التي أخذ بها العالم، وجعلها قاعدةً تقوم عليها النصوص الدستوريــة لحكومات العالم ودوله منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى اليوم.

ولم يفت الباحث الإشارة إلى جان جاك روسو (١٧١٣-١٧٧٨م) والحكم الديمقراطي الــذي رأى «أن المساواة هــي قاعدة دعم النظام السياسي ذلك لأنَّ المساواة بمعناها الاجتماعي والاقتصــادي كفيلة بأن تحمي الحرية والعدالة بآن واحد».

ويأتــي تصــوّر هيغــل لصعــود الدولة وانحدارها من فكره الحداثوي الذي حاول الارتقاء مــن الفلسفة إلى العلــم، وترسيخ ملكــوت العقــل.. إذ نظــرت الهيغلية إلى الدولة بوصفهــا كائناً طبيعياً، وليس مجرد نتــاج عقد اجتماعي، هــي الكلي في ذاته، ومــن أجل ذاتــه إنها كما يقــول: «شخص حقيقــي، يكمن في إرادتها المنطق الكامل، وهــي مصدر حرية الأفراد التي يدعيها كل منهم، وتكتمل الإنسانية فيها وبها..».

إلا أنَّ ماركســ علــى الرغــم مــن تبنيه لفلسفة هيغل الجدلية إلا أنَّه تميّز عنه برؤيته الواقعية التي انزاحت عن رؤية هيغل المثالية بتحليــل ماركس للدولــة البرجوازية ويتجلى التباين بينهما بأن ماركس قلب المعادلة رأساً على عقب بجعله المــادة أوّلاً، والفكر نتاجاً لها.. فيما كان هيغل يقــول بأولوية الفكر.. حيث بنى جدله على أساس ذلك.

فكرســ ماركس جهــده الفكري لتحليل طبيعة الدولة البرجوازيــة، وتتبع مسيرتها التاريخية في كتابه «رأس المال» معتبراً أنَّ إدراك الناس ليس هو الذي يحدد معيشتهم بــل العكس هــو الصحيــح إذ إنَّ معيشتهم الاجتماعية هي التي تحدد إدراكهم معتبراً أن الناس هــم الذين يصنعــون تاريخهم.. داعياً إلى مجتمع خالٍ من استغلال الإنسان للإنســان، وأمــة لأمة.. وإلــى إشادة عالم دونما طبقات.

وعن المثقف والسلطة يفرد الباحث بحثاً يعرّف فيه بالمثقف والنظرات الإشكالية التي تطال دوره وموقعه فــي المجتمع وعلاقته بالسلطــة قرباً وبعــداً، لافتاً إلــى رسالته النابعة من طبيعته الإنسانية التي تميزه عن سواه علــى رأي إدوارد سعيد: «إنني لكوني مثقفاً أقدم مشاغلي إلــى جمهور.. وأكتب مــا أكتب بعد تفكير وتأمل لأعبر عمّا أؤمن

به، ولأقنع الآخرين به، ويختلط لديّ بصورة معقدة العام بالخاص..».

وعن العلاقة الجدلية بين الثقافة والسياسة يشير الباحث إلى الساحة السياسية المتسمة بالتعقيد الشديد والتضاريس الوعرة معتبراً أنَّ التدخل الفعّال في تلك الساحة لابد من استناده إلى إيمان المثقف بمفهوم العدل والإنصاف مستحضراً مقولة جان جينيه (١٩١٠-١٩٨٦م) التي تحدد إقدام المثقف أو إحجامه بالانخراط في الساحة السياسية بقوله: «إنك حين تنشر مقالات في مجتمع ما.. تدخل للتو واللحظة دنيا السياسة، ومن ثم فإذا أردت ألّا تكون سياسيّاً فلا تكتب مقالات ولا تتحدّث علناً». وتبقى المعادلة التي تحكم علاقة المثقف بالسياسي في مدى نجاح المثقف في خدمة ذوي السلطان، والحصول على مكافأة منهم، وإصدار الأحكام النقدية الجريئة التي تكشف مثالبهم وعيوبهم في الوقت نفسه.

وفي بحث حول الدولة العلمانية ولماذا العلمانية الآن (...) يرى الباحث أنّ الدولة العلمانية هي دولة الضرورات الثلاث.. ضرورة المساواة بين المواطنين جميعاً بضمان حرية المعتقد، والقناعة الروحية للأفراد بصفتها شأناً شخصياً..، وضرورة صيانة الصالح العام بصيانة حقوق الناس من دون تمييز عرقي بين أبيض وأسود، أو تمييز طبقي بين غني وفقير وعدم التطاول على هذه الحقوق، وحمايتها من قبل الدولة باعتبار ذلك وظيفة الدولة الأهم، والمسوّغ لوجودها.. إضافة إلى ضرورة علمنة التعليم، بوضع مناهج تعزز القيم الأخلاقية والإنسانية العامة لدى النشء، وتدريس الإرث الإنساني كله من دون تمييز بين دين وآخر..

ونختم ببحث ناقش فيه الباحث العولمة والدولة العربية الحديثة ذاكراً أنَّ العولمة ترجمة لكلمة Mondialism (العالمية)، أو كلمة Globalization (الكوكبية) التي تعتبر أنّ العالم حضارة واحدة وحسب تعريف روبرتسون: «إنها تعني عامة تشكيل العالم وبلورته بوصفه موقفاً واحداً، وظهوراً لحالة إنسانية واحدة، وتعني من وجهة نظر سياسية أنَّ للأحداث، والقرارات والنشاطات في مكان ما من العالم، نتائج وآثاراً مهمة بالنسبة لأفراد وجماعات مجتمعات أخرى، وتعني ثقافياً ذلك التكوين الذي يشهد تبادلاً وتفاعلاً ثقافيين بصورة مستمرة».

وتأتي العولمة المعاصرة لتشكل مرحلة من مراحل تطور العولمة التاريخي عبر تفوق بعض الدول وفي مقدمتها الولايات المتحدة

الأمريكية- تكنولوجياً واقتصادياً وعسكرياً- ومعرفياً- عبر السيطرة الاقتصادية والعسكرية، واختراقاتها في مجال الاتصالات بوساطة الإنترنت حيث حافظت من خلال ذلك على أفضليتها على المستوى الدولي.. إضافة إلى ما تشكله الهيمنة الثقافية من قوة جذب لشباب العالم مستمد من قوة الدعاية والإعلام في تعويم النموذج الأمريكي عالمياً.. مما دفع بريجنسكي وفوكوياما وهينتنغتون للتعبير عن غبطتهم بالانهيار الدراماتيكي للثنائية القطبية.. إذ يعتبر فوكوياما أنَّ النظام الرأسمالي الليبرالي هو المرحلة النهائية في التطور العقائدي للجنس البشري.. وبالتالي فالوصول إلى هذا النظام هو نهاية التاريخ؟!..».

لكن ماذا عن العرب والعولمة إذ وجد العرب أنفسهم أمام تحدي هذا الانعطاف التاريخي، ودفع ساستهم لمواقف متباينة من ذلك فثمة من يرى أنه لابد من التكيف مع منطق العصر ووقائعه، والنظرة للعولمة بوصفها ظاهرة موضوعية لا تخضع لاعتبارات ذاتية داعين للتواصل مع المجتمع الدولي والتفاعل الخلاق مع سياساته.. وثمة من يرفض ذلك قطعياً، ويرى فيه نزعة استسلامية تنقاد لمنطق القوة الجائر.

أمّا الموقف الثالث لا يحث على الانقياد والاستسلام، ولا إلى العداء والرفض، داعياً للاستناد إلى القدرات الذاتيّة، وإلى مقومات القوة الإبداعية للحفاظ على الهوية بوصفها نواة لقوة إقليمية تمتلك مقومات تجعل منها لاعباً أساسياً في الحلبة الدولية.

أخيراً: إنَّ الزمن لا يعود إلى الوراء، كما أنَّ الشعوب لا تنام على الضيم مهما طال أمده.

وإنَّ بناء النظم العربية السليمة التي تدعو إليها القوى الشبابية -اليوم- تقوم على التساوي بين مواطنيها في الحقوق والواجبات، وعلى قاعدة التنمية البشرية والاقتصادية المستدامة، وامتلاك ناصية العلوم العصرية والتكنولوجيا المتطورة، وتشجيع الإنتاج العلمي والصناعي، وعلى الاستفادة من ثورة الاتصالات وذلك لبناء مجتمع المعرفة، وخلق ثقافة عربية عصرية قادرة على التفاعل مع ثقافة العالم من موقع الندّيّة، والتصميم على صياغة حاضر وضّاء، ومستقبل مشرق يتجسّد ببناء الدولة العربية المدنية التي طالما تطلعنا إلى بنائها.

نافذة على

إصدارات جديدة

إعداد: حسني هلال ⊛

قصص غسان ونّوس



رغبة.. زيارة.. طواف.. طالع..

رجل مثله.. بلا معنى.

وردة آخر وقت.

تلك كانت عناوين بعض قصص، في مجموعة «بقايا ندم» للأديب المهندس غسان كامل ونوس.

على الرغم من «دوار الصدى» الذي قاساه طويلاً، و«الاحتراق» الذي عاناه في «ظلال النشوة الهاربة».. رغم «أحمر.. أبيض» ما مرّ به ومسؤولية ما صدر عنه،

⊛ أديب وصحفي سوري.

في عمله الوظيفي، ما زال في جعبة غسان «العائد» من «هامش الحياة.. هامش الموت»، مازال هناك في ركنٍ ما من مروءته، على ما لم يفعل «بقايا ندم»:

- المجموعة: بقايا ندم.

- المؤلف: غسان كامل ونوس.

- التصميم: محمد سلامة حمود.

- اللوحة: سنان غسان ونوس.

- الناشر: دار الهندسة والأدب.

تتوافر المجموعة -ذات المئة وتسع عشرة صفحة -هـذه، على شجرة هموم شائكة الغصون إبرية الأوراق وملتفّة الأفرع، تتشاكل فيها الشخصية والعامة، وتتعالق الثقافية بالسياسية. ولئن ألمح المؤلف المهندس الأديب المهتّم، غسان ونوس إلى مفاتيح بعض الحلول، فقد أبقى أبواب الاجتهاد مشرعة.

❁ ❁ ❁

دراسة أدبية



الأدب والأدبية كمفهومين، في النقد الحديث وفي النقد القديم.. كمفهومين (عربي وغربي).. ومن ثم تقاطع هذين المفهومين مع الفلسفة والتاريخ، مع علم النفس، مع الجنس الأدبي، مع النص ومع المتلقي. مجموع ما سبق هو موضوع كتاب «الأدب والأدبية».

- الأدب والأدبية «دراسة نظرية وتطبيقية».

- د. حسن إبراهيم الأحمد.

- الهيئة العامة السورية للكتاب.

صدرت هذه الدراسة حديثاً (٢٠١٥م) في دمشق:

يتمثل مسعى هذه الدراسة في مقاربة مصطلحي الأدب والأدبية من زاوية نقدية حديثة وعربية قديمة، برؤية تكاملية تنطلق من مقولات نظرية الأدب. وتعزز ذلك بالتطبيق على نصّ تراثيّ غنيّ وفريد في مضامينه وسياقاته وبنياته الفنية، نازعة في ذلك منزعاً تحليلياً نصياً، يستوعب مفردات أبي حيّان التوحيدي التشكيلية في نصّه الإنشائي.

❁ ❁ ❁

دراسة في الفكر العربي المعاصر

ضمن إصدارات الهيئة العامة السورية للكتاب هذا العام (٢٠١٥م) كتاب يعرض للهوية العربية على مساحة (١٧٦) صفحة من القطع الكبير، يسعى المؤلف من خلال دراسته هذه للإحاطة بـ«الهوية العربية» كمفهوم أولاً وكانتماء ثانياً، ثم يتوقف عند رؤية الهوية في مرايا عدّة: مرآة الدين.. مرآة الأيديولوجيا.. مرآة الأمة ومرآة القطرية، منتهياً إلى مستقبل الهوية في الوطن العربي..

يزيد من أهمية هذه الدراسة للكاتب «عهد كمال شلغين» صدورها في زمن الأزمة التي تمرّ بها البلاد العربية ووطننا السوري خاصة، حيث غدت الهوية هويات و...!



- الهوية العربية «صراع فكري وأزمة واقع».

- عهد كمال شلغين.

- الهيئة العامة السورية للكتاب دمشق (٢٠١٥م).

يقول الكاتب في مقدمة كتابه:

صار الإنسان في العالم العربي حائراً بائراً لا يدري إلى أية هوية ينتمي، فالكثرة الكاثرة من الهويات طغت عليه، فلم يعد بوسعه من حيث إثباته لذاته، إلاّ أن ينغلق على نفسه ويعود إلى انتمائه الخاص..

الماهدون



صدر مؤخراً عن الهيئة العامة السورية للكتاب، كتاب جديد يحمل الرقم /١٢٨/ من سلسلة «آفاق ثقافية» التي تصدرها الهيئة في كتابها الشهري:

- **الكتاب: الماهدون «نُقّاد الرواية السورية».**
- **الكاتب: سمر روحي الفيصل.**
- **الناشر: الهيئة العامة السورية للكتاب- دمشق.**

يختص الكتاب -حسب مؤلفه- بدراسة ما أنتجه نقاد الرواية السورية الرواد وتحليله ونقده، وهو إنتاج كتبه ثمانية نقاد، أوّلهم شاكر مصطفى في خمسينيات القرن العشرين، والباقون عدنان بن ذريل، حسام الخطيب، محي الدين صبحي، فائق المحمد، محمود منقذ الهاشمي، محمد أبو خضور، عبد الله أبو هيف، في سبعينيات القرن العشرين وبدايات ثمانينياته. هؤلاء النقاد الثمانية ومعهم ناقدان آخران، كانوا البادئين بتنبيه القرّاء والأدباء، إلى النصوص الروائية السورية وأصحابها، داخل سورية وخارجها.

يتألف الكتاب من /٢٧٢/ صفحة من القطع الوسط، تتوزعها فصول ثمانية، إضافة لمقدمة وخاتمة.

❁ ❁ ❁